

آذر نفيسي

أشياء كنتُ ساكتةً عنها

(ذكريات)

ترجمة: علي عبد الأمير صالح

منشورات الجمل

آذر نفيسي

أشياء كنتُ ساكتةً عنها

(ذكريات)

ترجمة: علي عبد الأمير صالح

منشورات الجمل

ولد **علي عبد الأمير صالح** في مدينة الكوت – واسط سنة ١٩٥٥. يمارس كتابة القصة القصيرة والرواية والترجمة منذ منتصف سبعينات القرن الماضي. نال جائزة وزارة الثقافة العراقية في الترجمة سنة ٢٠٠٠، وفي الإبداع الروائي سنة ٢٠٠٩، وجائزة دار الشؤون الثقافية العامة في النقد الأدبي سنة ٢٠٠٩. من ترجماته المنشورة: **حفلة القنبلة** (بغداد ١٩٨٩)؛ **حدائق النصوص: مقاربات نقدية في الآداب العالمية** (دمشق ٢٠٠٩)؛ **المليونير المتشرد** (بيروت ٢٠١٠)؛ **الجبل السحري** (بيروت ٢٠١٠)؛ **نساء في الأدب، حوارات مع ٢٠ كاتبة عالمية** (بيروت ٢٠١١). من أعماله المنشورة: **الهولندي الطائر** (قصص، دمشق ٢٠٠٠)؛ **يمامة الرسام** (قصص، بيروت ٢٠١٠)؛ **خميلة الأجنة** (رواية، بيروت ٢٠٠٨)؛ **أرابيسك** (رواية، عمّان ٢٠٠٩).

آذر نفيسي أستاذة جامعية زائرة (تحمل لقب بروفيسور)، ومديرة (مشروع الحوار) في (معهد السياسة الخارجية) التابع لجامعة جون هوبكنز. كانت قد عملت بتدريس مادة (الأدب الغربي) في جامعة طهران، والجامعة الإسلامية الحرة، وجامعة العلامة الطباطبائي. في سنة ١٩٨١ فُصلت من جامعة طهران بعد رفضها ارتداء الحجاب. وفي سنة ١٩٩٤ حصلت على منحة دراسية من جامعة أوكسفورد، ثم في سنة ١٩٩٧ غادرت هي وأفراد أسرتها إيران متجهة إلى الولايات المتحدة الأمريكية. تكتب في الصحف الأمريكية: نيويورك تايمز، واشنطن بوست، وول ستريت جورنال، ونيو ريببلك، كما ظهرت مرات لا حصر لها في المقابلات والبرامج الإذاعية والتلفازية. تُقيم حالياً في واشنطن دي سي، مع زوجها وابنتها وابنها. من إصداراتها:

- **أن تقرأ لوليتا في طهران** (سيرة في كتاب). (ترجمته إلى العربية ريم قيس كبة، ونشرته منشورات الجمل سنة ٢٠٠٩).
- **ضد الأرض** (*ANTI - TERRA*): دراسة نقدية عن روايات فلاديمير نابوكوف.
- **بيبي والصوت الأخضر** (*BIBI E LA VOCE VERDE*).

آذر نفيسي: **أشياء كنتُ ساكتةً عنها (ذكريات)**، الطبعة الأولى

ترجمة: علي عبد الأمير صالح

تلفون وفاكس: ٣٥٣٣٠٤ ١ ٩٦١ ٠٠

ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ ـ بيروت ـ لبنان

Azar Nafisi: *Things I've Been Silent About: Memories*

Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany

WebSite: www.al-kamel.de

E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

الإهداء

إلى ذكرى والديَّ: أحمد نفيسي، ونزهت نفيسي

وإلى أفراد أسرتي: زوجي بيجان نادري، وابنتي نيغار نادري، وابني دارا نادري

آذر

كنتُ صادقةً مع الحقائق بالقدر الذي تسمح به الذاكرة.
غيّرتُ بعض الأحداث، والأسماء، والتفاصيل المتطابقة،
وأفرغتُ بعض المَشاهد في قالب درامي.

آذر

المحتويات

الجزء الأول
قصص الأسرة الخيالية

الجزء الثاني
الدروس والتعلّم

الجزء الثالث
سجن أبي

الجزء الرابع
تمردات وثورة

قائمة بالصور

(جميع الصور نُشرت بموافقة من الكاتبة ما لم يُثبت العكس)

٨٣ جد آذر لأبيها: عبد المهدي نفيسي.

٨٥ جدة آذر لأبيها وهي تتحدث مع العم حسن، في ثمانينات القرن العشرين.

٩٠ مدرسة أم الملك، أصفهان، سنة ١٩٥٨. (من صور: روجر فيوليت / غيتي)

١٠٥ زوجة جد آذر لأمها.

١١٤ الدكتورة بارساي. (من صور: منصورة بيرينيا، *شركة ميهريران للنشر المحدودة*)

١١٨ العم سعيد.

١٢٥ صفحة من أحد كتب الأطفال التي ألفها والد آذر. رسوم: محمد علي دواربنا.

١٤٠ السيد كمبستي «سكبر».

١٤٢ منزل سكوتفورث، في لانكستر.

١٤٦ أسرة آذر في حفل زفاف العمة همدام.

١٤٨ آذر وأمها تتبادلان تحية الوداع.

١٥٦ رئيس الوزراء الأسبق مصدق أثناء محاكمته. (من صور: بيتمان / كوربيس)

١٦٧ آذر، وأبوها، وخالتها نفيسة.

١٨٤ والد آذر خلال تولّيه منصب محافظ طهران مع الشاه وأحد رجال الدين.

١٩٨ أبي يلتقي رئيس الجمهورية الفرنسي شارل ديغول. (من صور: *غاروفالو / باريس ماتش / سكوب*)

٢٠١ والد آذر في السجن.

٢٠٣ أم آذر، إحدى صديقات الأسرة، أبو آذر، وآذر.

٢١٣ والد آذر في السجن، مع رسومه.

٢٢٠ أم آذر عندما كانت عضوة في البرلمان.

٢٤٩ الشاعرة الإيرانية فروغ فرخزاد (موافقة بنشر الصورة من: *forughfarrokhzad.org*)

٢٦٠ محمد وآذر، في حفل زفافها الأول.

٢٧٤ قصاصة من جريدة تعلن إطلاق سراح والد آذر من السجن.

٢٩٤ الاحتفال بمرور ٢٥٠٠ سنة في برسيبوليس. (هورست فآس / صور *AP*)

٢٩٩ آذر وزوجها الثاني بيجان.

٣٠٣ آذر في حفل زفافها الثاني: التاسع من أيلول (سبتمبر)، ١٩٧٧.

٣٠٦ التظاهرات المناوئة للشاه، بالقرب من البيت الأبيض، ١٩٧٧ (من صور: *بيتمان* / كوربيس)

٣٠٨ الشاه والرئيس الأمريكي جيمي كارتر في البيت الأبيض. (من صور: *AP*)

٣١٣ آية الله خميني في المنفى. (من صور: *AP*)

٣١٦ امرأة إيرانية مع صورة جدارية لخميني، ١٩٧٩. (من صور: كريستين سبنغلر / *سيجما* / كوربيس)

٣٢٢ نساء إيرانيات يتظاهرن ضد قانون فرض الحجاب، ١٩٨٠. (من صور: *بيتمان* / كوربيس).

تقديم

معظم الرجال يخدعون زوجاتهم كي يكون لهم عشيقات. أما والدي فكان يخدع أمي كي ينعم بحياة أسرية سعيدة. شعرتُ بالأسف عليه، وبمعنىً من المعاني آليتُ على نفسي أن أملأ الفضاءات الخالية في حياته. جمعتُ قصائده الشعرية، أصغيتُ إلى بلاياه، وساعدته كي يختار الهدايا المناسبة، في بادئ الأمر لأمي ومن ثم للنساء اللواتي وقع في غرامهن. وفيما بعد ادعى أن غالبية علاقاته مع تينك النسوة لم تكن جنسية، وأن ما كان يتوق إليه هو الإحساس بالدفء والاستحسان الذي يهبنه إياه. الاستحسان!! علمني والداي كيف يمكن أن تكون تلك الرغبة مميتة.

كنا كأسرة مولعين بسرد القصص. ترك أبي وراءه سيرة ذاتية منشورة، وسيرة ذاتية أخرى غير منشورة أكثر إمتاعاً، وما يزيد على ألف وخمسمئة صفحة من اليوميات. أما أمي فلم تكتب لكنها كانت تروي لنا قصصاً من ماضي حياتها، تنهيها في كثيرٍ من الأحيان بالقول: لكنني لم أفه بكلمة، وبقيتُ صامتةً. كانت تعتقد بصورةٍ أصيلة أنها لم تتكلم البتة عن حياتها الشخصية، على الرغم من أنها بطريقتها الخاصة كانت تتحدث عادةً، على ما يبدو، عن شيء صغير آخر. ما كانت لتوافق على كتابتي سيرةً ذاتية، وبخاصة سيرة ذاتية

للعائلة. وما كان ليدور في ذهني أنني في يوم من الأيام سأجد نفسي أكتب عن والديَّ. إنه جزء جوهري من الثقافة الإيرانية ألا نكشف قضايانا الشخصية: نحن لا ننشر غسيلنا القذر أمام عامة الناس، كما دأبت أمي على القول، وفضلاً عن ذلك، الحيوات الخصوصية عادية ولا تستحق الكتابة عنها. إن قصص الحياة المفيدة هي ما يهم، كسيرة الحياة التي نشرها أبي أخيراً، وهي نسخة من الورق المقوّى عن نفسه. والحق، لم أعد أؤمن بأنه يمكننا أن نبقى صامتين. في الحقيقة، إننا لم نلتزم الصمت فعلاً. بطريقةٍ أو بأخرى، كنا نبيّن ما جرى لنا من خلال صنف الناس الذين أصبحناهم.



أبي وأمي: نزهت نفيسي وأحمد نفيسي.

بدأ والدي بتدوين يومياته حينما كنتُ في الرابعة من عمري. كانت اليوميات موجهة إليّ. أعطاني إياها بعد مضي عدّة عقود، عندما كنتُ قد تزوجت، وأصبح لي أطفال. تتناول الصفحات القلائل الأولى كيف يمكن أن يكون فيها المرء صالحاً، وكيف يكون محترماً في نظر الآخرين. ومن ثم يبدأ بالتشكي من والدتي. كان يشكو من أنها لم تعد تتذكر أنها أحبته ذات مرة واستمتعت برفقته. يكتب أنني، على الرغم من كوني مجرد طفلة، كنت عزاءه وسنده الوحيد. إنه ينصحني أن عليَّ، إذا ما تزوجتُ في يومٍ من الأيام، أن أسعى لأن أكون صديقةً ورفيقةً حقيقية لزوجي.

يصف حادثةً واحدةً حينما تخاصم هو وأمي ذات يوم أما أنا فقد حاولتُ، كـ«ملاك سلام» أن أصرف انتباههما وأسليهما. كان تقمّصي العاطفي خطيراً شأنه شأن أي فعالية سرية: هي ذي أمّ مذنبة لا تستطيع أن تغفر. حاولتُ أنا وأخي أن ندخل السرور إلى قلبيهما معاً، إنما مهما بذلنا من مجهود شاق - وقد بذلنا فعلاً مجهوداً شاقاً جداً - لم يكونا سعيدين أبداً. كانت أمي تدير رأسها جانباً وتنظر بعيداً وتومئ برأسها لمحاوِر غير مرئي، تنم إيماءتها تلك عن الدراية، ولسان حالها يقول: ألم أقل لكَ ذلك؟ ألم أقلْ؟، كما لو أنها كانت تعرف أن أبي سيكون غير مخلص لها حتى قبل أن يأخذ ذلك بعين الاعتبار بزمن طويل. تصرفتْ مع هذه المعرفة باعتبارها حقيقةً منجزة وبدت كما لو أنها خبرتْ سعادةً معاكسة حينما أصبح كل شيء حقيقياً.

حينما كانت والدتي مريضةً جداً، بعد سنوات قليلة من مغادرتنا أنا وأسرتي طهران متجهين إلى الولايات المتحدة الأمريكية، أخبروني أنها رفضت على مدى عدّة أيام الذهاب إلى المستشفى ما لم يُغيّر قفل الشقة التي تسكنها. تمتمت أمي: *ذلك الرجل* ومومسه سوف يقتحمان الشقة عنوةً كما فعلا من قبل، ويسرقان ما بقي من ممتلكاتها.

«*ذلك الرجل* ومومسه» كانا أبي وزوجته الثانية التي لامتها على كل المحن التي عانت منها، من بينها الاختفاء الغامض لمقتنياتها من قطع النقد الذهبية وخزانتين للثياب مليئتين بأطباق مائدة مصنوعة من الفضة. بطبيعة الحال، لم يصدقها أحد. ولأننا اعتدنا، إذا صح التعبير، على قصص أمنا الخيالية، تساهلنا معها من دون أن نبدي اهتماماً كبيراً بالموضوع.

كانت تستدعي شخصيات وهمية فقدتها واحدةً بعد الأخرى، - أمها، أباها، زوجها الأول - وتجعلنا مسؤولين عن فقدانها لهم. في

نهاية المطاف، ما من أحدٍ منا كان قادراً على أن يخطو خارج عالمها المختَرع. كانت تطلب منا أن نكون مخلصين ليس لها فحسب، بل لقصتها.

أما قصص أبي الخيالية فكانت صريحةً أكثر، أو هكذا ظننتُ على مدى ردحٍ طويل من الزمن. كان يتواصل معنا عبر قصصٍ عن حياته، وعائلته، وعن إيران - وهو موضوع كان يقلقه تقريباً - معتمداً على النصوص الكلاسيكية للأدب الفارسي. هكذا اكتشفتُ الأدب لأول وهلة وتعرفتُ على تاريخ بلادي. كما روى لنا نسخته من قصص أمي الخيالية، بحيث كنا نتأرجح باستمرار بين عالمين وهميين.

طوال سني حياتينا أنا وأخي كانت تتملكنا القصص الخيالية التي يرويها لنا أبوانا - قصص خيالية عن نفسيهما وعن الآخرين على السواء. كل واحدٍ منهما يريدنا أن نحكم على الآخر في صالحه أو صالحها. في بعض الأحيان كنتُ أشعر أنني مخدوعة، كما لو أنهما لم يسمحا لنا بأن تكون لنا قصصنا الخاصة. الآن فقط فهمتُ كم كانت قصتهما هي قصتي أيضاً.

أولئك الذين يكونون قريبين منا، حينما يفارقون الحياة، يشطرون عالمنا. فهنالك عالم الأحياء الذي نستسلم له، بشكلٍ أو بآخر، ومن ثم هنالك دنيا الأموات التي كصديقٍ (أو عدوٍ) متخيَّل أو خليلة سرية، تغرينا باستمرار، مذكّرةً إيانا بخسارتنا. أي ذاكرةٍ هذه إن لم تكن شبحاً يختبئ في زوايا العقل، يشوش علينا طريق حياتنا الطبيعي، يؤرق نومنا كي يذكّرنا بوجعٍ شديد أو بسعادةٍ ما، بشيءٍ تم كتم صوته أو تجاهله؟ لم نفتقد فقط حضورهم، أو كيف كانوا يحسون نحونا، إنما، جوهرياً، كيف سمحوا لنا بأن نشعر نحو أنفسنا أو أنفسهم.

كيف جعلتنا أمنا نشعر نحوها؟ إن الطريقة الوحيدة التي أستطيع أن أواجه به فقدانها هي أن أطرح هذا السؤال. ساءلتُ نفسي أحياناً ما إذا لم تكنْ مفقودةً دوماً بالنسبة لي، لكنها عندما كانت حيةً تُرزق كنتُ مشغولةً جداً بمقاومتها بحيث إنني لم أدرك ذلك. كانت ثمة ميزة مؤثرة في الطريقة التي تتحدث بها عن نفسها وعن ماضيها كما لو أنها هي الأخرى كانت اختراعاً، يحتل جسد امرأةٍ أخرى ظهرت لنا بطريقةٍ مُعذِّبة في هيئة ومضات، أشبه بيراعة. إنني الآن أتساءل بعد لحظات اليراعة تلك: ماذا كشفتْ لنا تلك اللحظات عن أمي وعنا؟

في سنواتي الأخيرة في إيران، ركزتُ انتباهي على ذكريات أمي. حتى أني أخذتُ منها عدّة صور فوتوغرافية. بدت تلك هي الطريقة الوحيدة للحصول على مَدخلٍ ما إلى ماضيها. أصبحتُ سارقة ذكرى، وأنا أجمع صورها الفوتوغرافية جنباً إلى جنب مع صور إيران القديمة التي ترعرعتْ فيها، وتزوجتْ، وأنجبتْ أطفالها. انحرف فضولي نحو دنيا الهاجس. لكن هذه الأشياء كلها لم تنفعني حقيقةً. فجميع الصور الفوتوغرافية، والروايات، وحتى الحقائق في نواحٍ معينة، لم تكنْ كافية. إنها تكشف تفاصيل معيّنة، غير أنها تبقى شذرات عديمة الحياة. ما كنتُ أفتش عنه هو الفجوات - الأشياء التي انطمس ذكرها أو تلك التي ضاعت في النسيان. بهذه الطريقة أرى الماضي: بوصفه تنقيباً. إنكَ تنخل عبر كُسر الحجارة غير المصقولة، تلتقط قطعةً صغيرة جداً هنا، وأخرى هناك، تُلصق عليها رقعةً من الورق تدل عليها وتُسجل أين عثرتَ عليها، مُشيراً إلى زمن وتاريخ اكتشافها. لم أكن أفتش عن الأسس وحدها بل عن شيءٍ محسوس بصورةٍ تزيد أو تقل في الوقت نفسه.

لا أقصد أن يكون هذا الكتاب تعليقاً سياسياً أو اجتماعياً، أو قصة حياة نافعة. أود أن أحكي قصة أسرة تتكشف إزاء خلفية عهد مضطرب من تاريخ إيران السياسي والثقافي. ثمة قصص كثيرة عن هذه الأزمنة، بين ولادة جدتي في بداية القرن العشرين وولادة ابنتي في نهايته؛ هذه الأزمنة التي وسمتها ثورتان أعطتا إيران شكلاً معيّناً، وأحدثتا انقسامات وتناقضات كثيرة بحيث أصبح الاضطراب المؤقت هو الشيء الوحيد الدائم.

وُلدتْ جدتي حينما كانت إيران محكومةً من لدن حكومة مَلَكية غير مستقرة واستبدادية وخاضعة للقوانين الدينية الصارمة التي تجيز الرجم بالحجارة، وتعدد الزوجات، والاقتران من الفتيات الصغيرات اللواتي في سن التاسعة. ولم يكن مسموحاً للنسوة بأن يغادرن منازلهن إلا لماماً، وعندما كن يفعلن ذلك جرت العادة أن يرافقهن شخص ما وأن يغطينَ أجسادهن من قمة الرأس حتى أخمص القدمين. لم تكنْ هنالك مدارس للنساء، على الرغم من أن بعض العوائل التي تنتمي إلى طبقة النبلاء كانت توفر معلمين خصوصيين أهليين لبناتها. ومع ذلك، كان لهذه القصة جانب آخر، فثمة ومضات شاحبة لمستقبلٍ ما يكشف نفسه من خلال الأزمة الثقافية والسياسية التي سوف تنهي تلك القوانين العتيقة كلها. شهدت جدتي (الثورة الدستورية) خلال الفترة ١٩٠٥-١٩١١، وهي الأولى من نوعها في الشرق الأوسط، وقد ساعدت تلك الثورة في التبشير باقتراب حدوث شيء في إيران الحديثة، وكهربت طبقات مختلفة من المجتمع، من بينهم رجال الدين التقدميون، الأقليات، المثقفون، بعض أعضاء طبقة النبلاء، والنساء، بعضهن شرعن يقدمن الدعم للثوريين، ونظمن مجموعات سرية وطالبن بالحصول على فرص التعليم. في سنة ١٩١٢ تعجب مورغان

شوستر، وهو مستشار مالي أمريكي لإيران، من القفزات التي حققتها النسوة الإيرانيات خلال مدةٍ قصيرةٍ جداً من الزمن، وحصلن على حريات جديدة لم تستطع النسوة الغربيات نيلها إلا في سنوات طويلة، وحتى قرون. قال: «أصبحت النسوة الإيرانيات منذ سنة ١٩٠٧ أكثر نساء العالم تقدميةً، إن لم نقلْ راديكاليةً، ولا يهم إذا ما قلبتُ هذه المقولة رأساً على عقب الفكرة التي ترسختْ في الأذهان على مدى قرون عدة. إنها حقيقة».


ابنتي نيغار (الثانية من اليسار)، مع زميلاتها في الصف في طهران. بعد الثورة الإسلامية أُرغمت البنات الصغيرات على لبس الحجاب.

كيف يمكنني أن أصف الطبيعة الهشة والمتناقضة لطفولة وشباب أمي في منتصف العشرينات والثلاثينات، ففي ذلك الزمن كانت الإمكانات الوامضة قد بلغتْ حداً بحيث إنه صار بوسعها أن تظهر أمام الناس من دون حجاب، وأن تذهب إلى مدرسة فرنسية، وتلتقي بزوجها الأول وتقع في غرامه فيما هما يرقصان في حفلة زواج - هذه الأشياء كلها كانت مستحيلة قبل عقدين من الزمن لا أكثر. ومع ذلك هنالك جانب آخر يتعلق بأزمنتها تلك، ألا وهو رفض التخلي عن الماضي المقهور. وحينما أصدر رضا شاه بهلوي في سنة ١٩٣٦، في محاولةٍ منه لتسريع عملية التحديث، أمراً رسمياً يقضي بجعل كشف النقاب عن وجوه النسوة إجبارياً، ومنع الرجال من لبس الثياب التقليدية، بحيث إن جدتي لأبي، شأنها شأن نسوة إيرانيات كثيرات جداً، رفضت مغادرة منزلها. وفي النهاية أُلغي مرسوم رضا شاه في

سنة ١٩٤١، على الرغم من أن ذكرى هذا المرسوم الملكي ما تزال تثير تساؤلات وانقسامات جديدة.

في طور نشوئي، في الخمسينات والستينات، كان من حقنا أن نتعلم ونقتني الكتب ونقيم الحفلات ونشاهد الأفلام السينمائية. شهدنا النساء وهن يصبحن فاعلات في مجالات الحياة كلها، ويحكمن في البرلمان - بينهن، وعلى مدى حقبة موجزة من الزمن، أمي - ويصبحن وزيرات. إنما بعدها، بحلول سنة ١٩٨٤، سوف تشهد ابنتي، التي وُلدت بعد الثورة الإسلامية بخمس سنوات، عودة القوانين ذاتها التي سادت خلال عمريْ جدتي ووالدتي. تُجبر ابنتي على ارتداء الحجاب في المرحلة الأولى من دراستها الابتدائية وتُعاقب إذا ما كشفت خصلةً من شعرها جهاراً. وفي النهاية يجد جيلها (ماركته) الخاصة في الجرأة والمقاومة.

لا ينصبُّ ولعي في هذا الكتاب على تلاوة عامة للأزمنة التاريخية بل ينصبّ بالأحرى على نقاط التقاطعات الهشة - الأمكنة التي ترجّع فيها لحظات في الحياة الخاصة الفردية والشخصية الصدى وتعكس قصةً أكبر، وشمولية أكثر.

نقاط التقاطعات تلك بين ما هو خاص وعام هي ما تطلعتُ إليه حينما بدأتُ بتدوين كتابي الأول، في إيران، الذي يتناول فلاديمير نابوكوف. أردتُ أن أناقش روايات نابوكوف في ضوء الأزمنة المختلفة التي قرأتُها فيها. كان ذلك مستحيلاً، ليس فقط لأنني لم أستطع صراحةَ الكتابة عن الحقائق السياسية والاجتماعية للحياة في الجمهورية الإسلامية في إيران، بل أيضاً لأن التجارب الفردية والشخصية كانت تتعامل معها الدولة بوصفها أشياء محرّمة.

في هذا الوقت تقريباً بدأتُ بوضع لائحة في يومياتي حملت عنوان «أشياء كنتُ ساكتةً عنها». تحت هذا العنوان كتبتُ: «الوقوع في الحب في طهران. الذهاب إلى الحفلات في طهران. مشاهدة أفلام الأخوة ماركس. أن تقرأ *لوليتا* في طهران». كتبتُ عن القوانين القمعية والإعدامات، وعن المكاره العامة والسياسية. وفي الختام انجرفتُ للكتابة عن إفشاء الأسرار الخاصة، مورطةً نفسي وأولئك المقربين مني بطرائق لم أتخيلها قط.

هنالك أشكال كثيرة من السكوت: السكوت الذي تفرضه بالقوة السلطات الاستبدادية على مواطنيها، وتسرق ذكرياتهم، وتعيد كتابة حكاياتهم، وتفرض عليهم هويةً أجازتها الدولة. أو سكوت الشهود الذين يفضلون تجاهل الحقيقة أو عدم التحدث عنها، وسكوت الضحايا الذين يصبحون غالباً شركاء في الجرائم التي ارتُكبت ضدهم. ومن ثم هنالك أنواع من السكوت نطلق العنان لها تتعلق بذواتنا، وأساطيرنا الشخصية، والقصص التي نفرضها بالقوة على حيواتنا الحقيقية. قبل أن أتمكن من تقدير الطريقة التي يفرض بها النظام السياسي عديم الرحمة صورته الخاصة على مواطنيه، سارقاً هوياتهم وتعريفاتهم لأنفسهم، بزمن طويل، كنتُ قد خبرتُ مثل هذه الأعباء الثقيلة في حياتي الخاصة - حياتي في كنف أسرتي. وقبل أن أفهم ماذا يعني بالنسبة للضحية أن تصبح شريكة في جرائم الدولة بزمن طويل، كنتُ قد اكتشفتُ، بمصطلحات شخصية أكبر بكثير، عار الاشتراك في الجريمة. هذا الكتاب، بمعنىً من المعاني، إجابة عن أسئلة رقيبي ومحققي الداخلي.

أغلب الظن أن أكثر أنواع السرديات شيوعاً هو ذلك السرد المتعلق بالآباء الراحلين والحاجة الملحّة إلى ملء الفجوة التي خلقها

موتهم. وهذه العملية لا تؤدي إلى النهاية - على الأقل بالنسبة لي - بل إلى الفهم. إنه فهم من النوع الذي لن يجلب معه بالضرورة السلم بل ربما يجلب إحساساً بأن ذلك السرد ربما يكون الطريقة الوحيدة التي نستطيع من خلالها أن نسدي الشكر والعرفان لآبائنا، وبشكلٍ من الأشكال نرجعهم إلى الحياة، وها نحن، الآن، أصبحنا أحراراً، أخيراً، كي نضع شكلاً لحدود قصتنا هذه.

الجزء الأول

قصص الأسرة الخيالية

«القدرة الضعيفة للأجنحة تحط من
قيمة الفستان الذي ألبسه».

– إميلي ديكنسن،
«من الغلاف الكاسي للخادرة[1]»

(١) الخادرة chrysalis: الحشرة التي في الطور الذي يعقب اليرقة – م.

الفصل الأول

سيفي

سألتُ نفسي مراراً كم هو مقدار الخيال الذي اختلقته أمي في وصفها للقائها بزوجها الأول. ولولا الصور الفوتوغرافية لكنتُ شككت في أنه كان موجوداً في العالم في يومٍ من الأيام. تحدثت إحدى الصديقات، ذات مرة، عن «مقاومة أمي الرائعة لما هو غير مرغوب فيه»، وبما أنه، في نظرها، كانت ثمة أشياء كثيرة جداً في الحياة غير مرغوب فيها، فقد اخترعت أمي القصص حول نفسها بحيث صارت تصدقها بقناعةٍ كبيرة جداً إلى درجة أننا بدأنا نرتاب في مسلّماتنا.

في رأيها بدأ الغزل بينهما خلال الرقص. يبدو لي، على الأرجح، أن والديه كانا سيطلبان يدها من والدها، وهو زواج المصلحة بين أسرتين شهيرتين، وفق العُرف السائد في طهران خلال الأربعينات من القرن العشرين. إنما على مر السنين لم تغيّر أمي هذه القصة، الأمر الذي فعلته مراراً فيما يتعلق بالأحداث الكثيرة جداً التي روتها عن حياتها. التقت به في حفلة عرس عمها. كانت مهتمةً جداً بأن تذكر أنها لبست صباحاً فستاناً زهرياً من الكريب الصيني الحريري الرقيق وفي المساء فستاناً آخر من ساتان الدوقة، ورقصا معاً طوال المساء («بعد مغادرة أبي»، تقول أمي، وتضيف قائلةً: «لأنه ما من

أحد يجرؤ على مراقصتي بحضور أبي»). وفي اليوم التالي طلب يدها للزواج.





حفل زفاف أمي الأول، من سيفي.

سيفي! لا أستطيع أن أتذكر أنني سمعتُ يوماً ما باسم أسرته يُنطق به في منزلنا. كان يلزمنا أن نسمّيه - مع صدى من البرود المناسب - زوج أمي الأول، أو ربما نسمّيه باسمه الكامل: سيف المُلك بيات، لكنه بالنسبة لي كان دوماً سيفي، جزءاً بهيجاً وودياً من روتيننا. تسلل إلى حيواتنا بالسهولة نفسها التي وقف فيها وراءها في صورهما الفوتوغرافية الخاصة بالزفاف، وقد ظهر بصورةٍ غير متوقعة وخلسةً وهو يدور بها بعيداً عنا. بحوزتي صورتان من ذلك اليوم - أكثر من الصور التي امتلكناها من زواج والديَّ. يبدو سيفي مسترخياً وعذب المعاشرة، بشعره الخفيف وعينيه بندقيتي اللون، بينما تقف أمي، في وسط المجموعة، جامدةً بلا حراك كتمثال معزول في الوسط. كان سيفي يبدو سعيداً بلامبالاة، وبثقة. لكنني ربما أكون مخطئة وما أشاهده على محياه ليس الأمل بل اليأس المطلق. لأنه هو أيضاً كانت له أسراره الخاصة.

ثمة شيء يتعلق بقصتها كان يقلقني دوماً، حتى خلال طفولتي. لم يبدُ ذلك الشيء بعيداً جداً عن الحقيقة بالقدر الذي كان فيه خاطئاً. فمعظم الناس يملكون طريقةً ما في إشعاع قدراتهم، ليس فقط قدراتهم التي يمتلكونها الآن بل ما يمكن أن يمتلكوها مستقبلاً. لن أقول إن أمي لم تكنْ تملك القدرة على الرقص. بل الأسوأ من ذلك. ما كان يتعين عليها أن ترقص، على الرغم من أنها، بكل الحسابات، راقصة جيدة. فالرقص يجب أن يشتمل على المتعة المضمرة، وكانت تتباهى كثيراً في كونها ترفض المتعة أو ما شابهها من ضروب الأهواء الذاتية.

وخلال طفولتي وشبابي، وحتى الآن في هذه المدينة البعيدة جداً عن طهران التي أتذكرها، فإن طيف تلك المرأة الأخرى الشبحية التي رقصت وابتسمت وأحبت يعكّر ذكريات تلك المرأة التي عرفتُها بوصفها أمي. ينتابني إحساس بأنني إذا استطعتُ أن أفهم بشكلٍ من الأشكال متى توقفت عن الرقص - متى توقفت عن الرغبة في الرقص - فسأجد المفتاح الذي يحل لغز أمي وفي النهاية أستطيع أن أتصالح معها. ذلك أنني قاومتُ أمي - إذا صدّقتُ قصصها - تقريباً من البداية.



أمي مع سيفي في نزهة.

لديَّ ثلاث صور فوتوغرافية لأمي وسيفي. اثنتان منهما تخصان زفافهما، لكنني مولعة بالثالثة، وهي صورة أصغر كثيراً أُخذت لهما خلال إحدى نزهاتهما، جالسين على صخرة. كلاهما يتطلعان صوب الكاميرا باسمين. هي تمسك به بالطريقة الاعتيادية التي يفعلها الشخصان

اللذان تربطهما صلة حميمة وليس ثمة ضرورة لأن يضم أحدهما الآخر بقوة. يبدو جسداهما منجذبين بصورة طبيعية أحدهما إلى الآخر. يمكنني، وأنا أتطلع إلى الصورة الفوتوغرافية، أن أرى احتمال أن يُطلق سراح هذه المرأة الشابة، التي لم تصبح حتى الآن فاترة العاطفة.

أجد في الصورة الفوتوغرافية الحسية التي افتقدناها دوماً لدى أمي في حياتها الواقعية. كان بوسعي أن أطرح عليها الأسئلة الآتية: متى تخرجتِ في المدرسة الثانوية؟ كم سنة مرّت بعدها حين تزوجتِ من سيفي؟ ما هو عمله؟ متى التقيتِ بأبي؟ إنها أسئلة بسيطة لم تجبْ عنها حقيقةً. كانت غارقةً جداً في عالمها الداخلي الخاص بحيث لم تأبه بهذه التفاصيل. مهما كانت القضية التي أسألها عنها تخبرني بالقصص القديمة ذاتها، التي حفظتُها تقريباً عن ظهر قلب. لاحقاً، حينما غادرتُ إيران، طلبتُ من إحدى طالباتي أن تحاورها وأعطيتُها أسئلةً محددة كي تطرحها عليها، لكنني لم أحصل إلا على القصص نفسها. ليس ثمة تواريخ، وليس ثمة حقائق محددة، وما من شيء خرج عن نطاق سيناريو أمي المحدد.

قبل سنوات خلت، وفي لقاء عائلي، صادفتُ سيدةً نمساوية محببة إلى القلب، وهي زوجة أحد أقاربي البعيدين، كانت حاضرةً خلال حفلة زواج أمي من سيفي. ثمة سبب واحد جعلها تتذكر حفلة العرس بصورةٍ جلية تماماً ألا وهو الرعب والفوضى الناجمان عن الاختفاء الغامض لشهادة ولادة العروس. (في إيران، يتم تسجيل الزيجات والأطفال في شهادات الولادة). أخبرتني هذه السيدة، بومضة ابتسامة، أنهم فيما بعد اكتشفوا أن العروس أكبر من العريس بسنوات قليلة. شهادة ولادة أمي الأحدث ليس فيها ذكر لزواجها الأول.

استناداً إلى هذه الوثيقة، التي حلت محل تلك التي زعمت بأنها فُقدتْ، كانت أمي قد وُلدتْ سنة ١٩٢٠. غير أنها كانت تصر على القول إنها وُلدتْ حقيقةً سنة ١٩٢٤ وأن والدها أضاف أربع سنوات إلى عمرها لأنه أراد أن يرسلها إلى المدرسة في وقتٍ مبكر. أخبرنا والدي أن أمي نقّصتْ أربع سنوات من عمرها الحقيقي حينما تلقت شهادة الولادة الجديدة، التي كانت بحاجة إليها كي تحصل على رخصة قيادة السيارة. فحينما لا تناسبها الحقائق، تبذل أمي كل ما بوسعها كي تعدلّها بكل معنى الكلمة.

بعض الحقائق موثقة. كان والد زوجها سيفي: سهم سلطان بيات، مالك أرض ثري شهد إحدى السلالات المَلَكية الحاكمة، القاجار - (١٧٩٤ - ١٩٢٥)، تحل محلها سلالة مَلَكية أخرى، وهي سلالة البهلويين (١٩٢٥ - ١٩٧٩). استطاع أن يبقى على قيد الحياة، وحتى نجح، خلال حقبة انتقال السلطة. كانت أمي تتباهى غالباً أنها تمتّ بصلة قرابة إلى سيفي من جهة أمها، وأن كلاهما سليل ملوك القاجار. إبان الخمسينات والستينات حينما كنتُ أترعرع، كوني ذات صلة بالقاجار الذين، بحسب كتب التاريخ الرسمية، كانوا يمثلون النظام الاستبدادي القديم، ولم يكونوا مفخرة. دأب أبي على تذكيرنا بصورةٍ مؤذية بأن كل الإيرانيين يمتّون بصلة بشكل أو بآخر إلى القاجار. في الحقيقة، كان يقول إن أولئك الذين لا يستطيعون أن يجدوا أي صلات بالقاجار كانوا فعلاً أصحاب الامتيازات. حكم القاجار البلد على مدى ١٣١ سنة، ولهم زوجات وأحفاد كثيرون. وعلى غرار الملوك الذين سبقوهم، بدا أنهم اختاروا زوجاتهم من كل المراتب والطبقات الاجتماعية، وامتلكوا كل النساء اللواتي استحوذن

على إعجابهم: الأميرات، بنات البستانيين، فتيات قرويات فقيرات؛ كل هؤلاء النسوة كن جزءاً من ممتلكاتهم. قيل إن فاث علي شاه (١٧٧١- ١٨٣٤)، وهو أحد ملوك القاجار، كان له ١٦٠ زوجة. ولأن والدي يتصف بالحكمة، كان من عادته أن يضيف قائلاً إن ذلك بطبيعة الحال جزء يسير من القصة، وبما أن التاريخ يكتبه المنتصرون، بخاصةٍ في بلادنا، كان يلزمنا ألا نعد كل ما يقال عن القاجار صحيحاً تماماً - على أية حال، خلال عهدهم بدأت إيران تتبنى الطرائق العصرية. لقد خسروا، لذا من الطبيعي أن يُقال عنهم أي شيء. وحتى عندما كنتُ طفلةً صغيرةً شعرتُ بأن أمي تعرض هذه الصلة بالقاجار كي تقلل من قيمة حياتها الحالية مع أبي أكثر مما تتباهى بذلك الماضي العريق. كان تكبّرها اعتباطياً، وكانت تحيزاتها مقتصرة على قواعد وقوانين مملكتها الشخصية.

يظهر سهم سلطان، والد زوج أمي، في كتب التاريخ المختلفة والمذكرات السياسية - سطر هنا، وفقرة هناك - مرةً بوصفه وكيلاً ونائباً لرئيس البرلمان، ومرتين بوصفه وزيراً للمالية في مطلع الأربعينات من القرن الماضي، ورئيس الوزراء على مدى شهور قليلة، من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٤ إلى نيسان (أبريل) ١٩٤٥ - أي خلال الفترة التي تدّعي والدتي أنها كانت متزوجة من سيفي. على الرغم من الحقيقة التي مفادها أن إيران أعلنت الحياد إبان الحرب العالمية الثانية، اقترف رضا شاه بهلوي خطأً بالتعاطف مع الألمان. احتل الحلفاء: البريطانيون والسوفيات خاصةً، الذين كانوا يلتفتون إلى المنافع الجغرافية - السياسية، إيران سنة ١٩٤١، وأرغموا رضا بهلوي على التخلي عن عرشه، ونفوه إلى جوهانسبرغ، واستبدلوه بابنه الشاب والأكثر طواعيةً محمد رضا. فجّرت الحرب العالمية الثانية ذلك

الجيشان في إيران بحيث إنه خلال المدة بين سنتي ١٩٤٣ و ١٩٤٤ انتُخب أربعة رؤساء وزراء وسبعة وزراء للمالية.

لم تكنْ أمي تعرف إلا القليل ويبدو أنها كانت غير مهتمة بما يتعلق بمسألة أي نوع من رئيس الوزراء كان والد زوجها. ما كان يهمها هو أنه لعب دور عرّاب خيالي بالنسبة لحاضرها المنحط. هكذا تسللت هذه الشخصيات العامة الكثيرة جداً إلى حياتي، ليس من خلال كتب التاريخ بل من خلال قصص والديّ.

كم كانت حياة أمي فاتنةً مع سيفي أمر مفتوح للنقاش. أقاما في منزل سهم سلطان، في الحقبة الزمنية الفاصلة بين وفاة زوجته الأولى وزواجه من امرأة أصغر كثيراً، وكانت حياتها وقتئذ، بحسب قول أمي، بغيضة جداً. بغياب سيدة المنزل، قامت أمي بكل مظاهر الحفاوة والتكريم. «كانت عيون الناس جميعاً مصوّبةً إليّ خلال تلك الليلة الأولى»، تخبرنا أمي، واصفةً بتفصيل دقيق الفستان الذي لبسته وتأثير لغتها الفرنسية الخالية من الأخطاء على الحاضرين. خلال فترة الطفولة كنتُ أتخيلها وهي تهبط درجات السلّم بفستانها الشيفون الأحمر، عيناها السوداوان تشعان، وشعرها مصفف بعناية تامة.

«هذه أول ليلة يأتي فيها الدكتور ملسباوغ... يجب أن تكوني هناك!» عُيّن الدكتور ملسباوغ، رئيس البعثة الأمريكية في الأربعينات، من قبل إدارتيْ روزفلت وترومان كي يساعد إيران على تشريع قوانين مالية حديثة. لم تجدْ أمنا أي مبرر كي تخبرنا مَن كان ذلك الرجل، وعلى مدى زمنٍ طويل، ولسببٍ من الأسباب كنتُ مقتنعةً بأنه كان بلجيكي الجنسية. ولاحقاً، حينما راجعتُ الروايات التي سردتها أمي عن مآدب الأطعمة هذه، ذُهلتُ من حقيقة أن سيفي لم يكن حاضراً

خلالها. كان والده حاضراً دوماً هناك، والدكتور ملسباوغ أو شخصية أخرى مهمة على المستوى الاجتماعي إلا أنها من الناحية الشخصية قليلة القيمة. لكن أين كان سيفي؟ تلك هي تراجيديا حياتها: الرجل الذي بجانبها لم يكنْ الشخص الذي أرادته.

كان والدي، في محاولةٍ منه لرشوتي أنا وأخي بالصمت إزاء حيل أمي، وربما للتعويض عن إذعانه هو، يروي لنا المرة تلو المرة كيف كانت حبيسة في منزل والد زوجها الأول، حيث خوجي، مدبرة المنزل المستبدة، كانت هي المرأة المسؤولة في حقيقة الأمر. وحتى مفتاح مخزن حفظ الأطعمة كان بيديّ خوجي التي لا تُقهر، والتي كان يجب على أمي أن تمدحها وتتملقها كي تحصل على أطول كمية من القماش كي تخيط لنفسها فستاناً جميلاً. كان أبونا يذكّرنا بأنهم كانوا يتعاملون معها باعتبارها ضيفةً غير مرغوب فيها أكثر مما هي ربة بيت والد زوجها.

كانت أمي تُظهر نفسها كونها عروساً شابةً سعيدة، البطلة الفخورة التي تودد إليها (أمير الأحلام)، أما أبي فقد صوّرها كضحية من ضحايا الأعمال الوحشية الثانوية التي اقترفها الناس الآخرون. كان كلاهما يريد أن نصادق على روايته. كانت أمي تقذف الماضي علينا باعتباره تهمة موجهة إلى الحاضر، أما أبي فكان يحتاج إلى تبرير أعمالها القمعية المفروضة علينا جميعاً، من خلال استثارة شفقتنا. كان من الصعب أن يتنافس الرجل الذي من



أمي.

المحتمل أن يكون مناسباً لها، مهما كانت الصورة التي رسمتها في خيالها عنه، مع سيفي، وهو الرجل الميت، والوسيم، بالإضافة إلى كونه ابناً لرئيس الوزراء. ذكاء والدي وحماسته، إمكاناته وتطلعاته المستقبلية بوصفه مديراً واعداً في وزارة المالية، وحتى الحقيقة القائلة إنه هو وأمي كانا ينحدران من فرعين مختلفين ينتميان للأسرة ذاتها، بدت كل هذه الأمور ثانويةً جداً وبائسةً إزاء ما كانت أمي تعتقد أن بوسع سيفي أن يوفره لها. وفيما بعد بدتْ أمي وكأنها تحسد أبي على نجاحاته في الحياة العامة، كما لو أنهما كانا ندَّين قويين وليسا شريكيْ حياة.

لم تكنْ المسألة تكمن في ما قالته بل في ما أهملته. ملأ أبي الفجوات: سيفي، الابن الأول المفضل، كان يعاني من مرضٍ لا شفاء منه - التهاب الكلية، هكذا كانوا يسمونه - ويأس الأطباء من معالجته. ونصح أحدهم أن يفعل ما يشاء في السنوات المتبقية من حياته. أطلقوا له العنان، وجعلوه يفعل ما يحلو له. وفّروا له كل المتع والملذات التي يريدها، لأن لم يتبقَ له سوى وقت قصير جداً كي يستمتع فيه بالحياة. عندما طلبت أسرته يد أمي، تجاهلوا بصورةٍ مقصودة أن يخبروها بأنه مريض. اكتشفت أمي ذلك في ليلة العرس. وبحسب ما قاله والدي لم يكتمل زواجهما فعلاً. وبدلاً من ذلك وطوال سنتين كاملتين، رعت أمي زوجاً عليلاً، وجعلت تراقبه وهو يموت يومياً. وكان هذا هو رومانس حياتها، الرجل الذي كانت تلوّح به مهددةً إيانا كي تذكّرنا بكوننا أشخاصاً غير مناسبين لها!

غالباً، حينما تستغرق في الحديث عن سيفي بتلك النظرات الشاردة في عينيها، كنتُ أرغب أن أهزها وأقول لها: لا، لم يكنْ الأمر كذلك! لكنني بطبيعة الحال لم أفعلْ. هل كان سيفي يهتم بما

سيحدث لها عندما تكتشف حالته، أو ماذا سيحل بها بعد وفاته؟ كانت خورة جداً وعنيدة جداً بحيث لم تولِ الحقيقة اهتماماً كبيراً. لذلك حوّلت المكان الواقعي والتاريخ إلى فنتازيا خلقتها بنفسها. بقدر ما تسعفني الذاكرة، حاولنا، أنا وأخي ووالدي، أن نفهم على وجه الدقة ماذا كانت تريد منا. حاولنا أن نسافر معها إلى ذلك المكان الآخر الذي بدا وكأنه يومئ لنا، المكان الذي كانت عيناها منحرفتين إليه باستمرار بينما كانت تحدق إلى ما وراء جدران بيتها الحقيقي. لم تكنْ تخيفني نوبات غضبها بل ذلك الموضع المنجمد في داخلها الذي ليس بوسعنا اختراقه. حينما كانت لا تزال على قيد الحياة كنتُ مشغولةً جداً بحيث كنتُ أتملص منها وأستاء منها لذلك لم يكنْ باستطاعتي أن أفهم مقدار الخيبة والوحدة اللتين لا بد أنها شعرت بهما، وكيف كانت على غرار نسوة كثيرات جداً اعتادت أفضل صديقاتها المدعوة مينا أن تقول عنهن بابتسامة ساخرة: «هي ذي امرأة ذكية أخرى قد أصبحت تالفة».

الفصل الثاني

جينات فاسدة

في أحيان كثيرة كانت أمي تقول إنني عاندتها منذ لحظة ولادتي. يبدو أنني في لحظة الولادة تحديداً سعلتُ وأخرجتُ الدم من حنجرتي واستسلمتُ للموت. كانت تود أن تروي قصة كيف أنني خلال طفولتي رفضتُ أن أرضع، وفيما بعد رفضتُ أن آكل، ولم أستسلم إلا تحت تهديد إبر الأطباء، أو السيف المروِّع لصديق كولونيل. ولسببٍ من الأسباب، لم تكنْ تسمح لي بتناول الخيار، أو الجوز. ذات مرة أعطتني كمية كبيرة من زيت كبد القِد بحيث سبب لي ذلك طفحاً جلدياً مصحوباً بحكة شديدة. وحينما كنا، أنا وأخي، مصابين بالحمى القرمزية بقينا حبيسيْ غرفة مظلمة طوال أربعين يوماً، لأنها كانت تعتقد أن الضوء يسبب العمى للأطفال المصابين بالحمى القرمزية. لاحقاً، حينما أصبحتُ بالغةً، كنتُ أسرد غالباً قصة كيف كانت تغذيني بكمية كبيرة جداً من عصير العنب ذات صباح بحيث إنني تقيأت. ولم أمسّ العنب مدة ثلاثين عاماً تقريباً، إلى أن أوقعتُ ذات ليلة في منزل إحدى صديقاتي حبتي عنب في نزوةٍ من النزوات في كأس الخمر خاصتي واكتشفتُ لذة أن أطحنهما بأسناني.

كنا نتخاصم في أحيان كثيرة بشأن لُعب الأطفال خاصتي التي كانت تُحبس عادةً في إحدى الخزانات. كانت أمي تختار دوماً لُعبي

وبين الحين والآخر كانت تسمح لي باللعب بها مدةً وجيزةً، قبل أن تعيدها ثانيةً إلى الخزانة. كانت هنالك دمية صغيرة تزحف على أطرافها الأربعة وأرنب كنتُ مولعةً ولعاً خاصاً به كانت قد جلبته من باريس صديقتها منير جوون. كان الأرنب يقرع على الطبول وكان أبيض اللون وزغِباً، إنما بسبب الطبول لم يكن بالمستطاع احتضانه بصورةٍ مناسبة. كم كنتُ أحب إلى درجة العبادة الفراء الأبيض الناعم الذي يكسو جسم ذلك الأرنب الذي يصعب الحصول عليه! بعد مغادرتي المنزل بوقتٍ طويل واصلت أمي إضافة المزيد والمزيد إلى مجموعة اللُّعب، التي كانت تدّعي أنها ستصبح ملكاً لي ذات يوم. وحينما رحلتْ إلى العالم الآخر، لم يستطع أحد أن يعثر على اللُّعب. كانت قد اختفت، شأنها شأن سجاجيدها العتيقة النادرة، وخزانتي ثياب مليئتين بأطباق المائدة المصنوعة من الفضة، وقطع النقد الذهبية، وأواني الخزف الصيني من زواجها الأول، ومعظم مجوهراتها.



أحببتُ دمية الخزف الصيني هذه حباً جماً، لكنني حطمتُها حالما سمحوا لي باللعب بها.

أول مرة سُمح لي باللعب بواحدة من أفضل الدمى خاصتي: وهي دمية من الخزف الصيني ذات عينين زرقاوين وشعر أشقر طويل وفستان فيروزي اللون، رحتُ أقذفها عالياً في الهواء وأمسكُ بها المرة تلو المرة إلى أن وقعت على الأرض، وتهشم وجهها إلى شظايا. وبمرور الأعوام سوف أفقد أو أحطم أشياء عزيزةً جداً عليَّ، بخاصة تلك التي وهبتني إياها أمي. الخواتم والأقراط،

والمصابيح العتيقة، والتماثيل الصغيرة - يمكنني أن أراها كلها بجلاء. ماذا يعني فقدان هذه الأشياء؟ ألم أكنْ أنا هكذا دوماً، ألم أكنْ من طراز الأشخاص اللامبالين الذين يضيعون الناس والأشياء؟

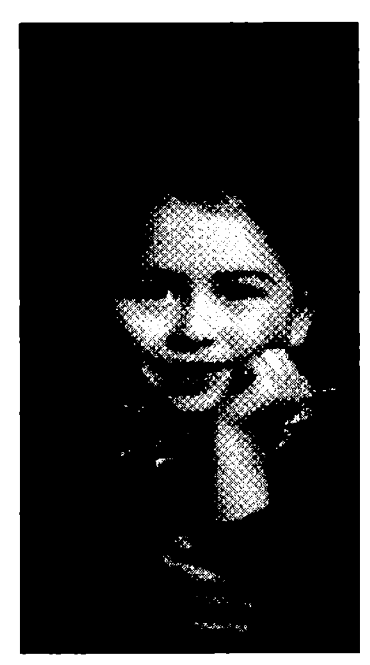
يمكنني تتبُّع سير أول معركة حقيقية من معارك الإرادات خاصتنا حتى ذلك الزمن حينما كنتُ في نحو الرابعة من عمري. كانت هذه المعركة تحديداً بسبب موضع سريري. كنتُ أريده قرب النافذة - كنتُ أحب تلك النافذة، بحافتها الواسعة حيث كان بمستطاعي أن أرتب الدمى خاصتي ومجموعة اللُّعب الخزفية العائدة لي. كانت أمي تريده (أي السرير) قرب الجدار وبجانب الخزانة. وفي كل مرة كانت تذعن فيها تعود خلال يوم أو يومين إلى خطتها الأصلية. وذات مساء حينما رجعتُ إلى البيت من اللعب مع ابنة الجيران الأرمن - وهي طفلة خجولة في سن الرابعة لم أكنْ أفترق عنها - أعادت أمي سريري ثانيةً إلى مكانه قرب الجدار. صرختُ مراراً خلال تلك الليلة ورفضتُ تناول عشائي. في أي ليلة أخرى كانت سترغمني على الأكل، لكنها تلك الليلة استثنتني من ذلك وبقيتُ أبكي إلى أن غلبني النعاس فنمت.

في صبيحة اليوم التالي أستيقظ من النوم في الجهة البعيدة البغيضة من الغرفة، يملأني الاستياء المصحوب بالدمع. يأتي أبي إلى جانب سريري باسماً.

كنتُ أنا ووالدي قد بدأنا نكتسب تدريجياً وتيرةً ما: يروي لي والدي كل ليلة قصةً من قصص وقت النوم. لكنه خلال صبيحة هذا اليوم تحديداً شرع يعاملني معاملة خاصة. يقول - وهو يضع على طاولةٍ بجنب السرير صحناً صغيراً من الخزف الصيني ملأه بالشوكولاته - إذا كنتُ فتاةً صالحةً وابتسم بوجهه أكبر ابتسامة أستطيع أن أحشّدها سوف يخبرني بسرٍّ ما. أي سر هذا الذي سيكشفه لي؟ ليس بوسعه أن

يفشي الأسرار لفتيات حزينات كثيرات التجهم. لكنني عنيدة وأرفض الإذعان؛ ووجب عليه أن يخبرني بالسر من دون أن يحصل على شيء مقابل ذلك. يقول: حسنٌ، إذاً، لكنني أراهن أنكِ ستبتسمين حينما تسمعين خطتي.

يقول بتآمر: دعينا نفعل شيئاً جديداً. لنخترع قصصنا الخاصة بنا. أي قصص؟ أسأله. قصصنا الخاصة بنا؛ بوسعنا أن نفعل أي شيء يحلو لنا. لا أدري كيف أفعل ذلك، أقول له. بلى، يمكنكِ أن تفعلي، فكري في أكثر شيء تريدينه، وبعدها اخترعي قصةً عنه. ما هو الشيء الذي تريدينه أكثر الآن تحديداً؟ أقول: لا شيء. يقول: لعلكِ الآن تحديداً ترغبين أن يعود سريركِ إلى مكانه لصق النافذة، لكن أتعرفين ماذا يريد سرير نومكِ؟ أهز كتفيَّ عن جهل. يقول: لِمَ لا نخترع قصةً حول فتاةٍ صغيرة وسرير نومها... هل سمعتِ من قبل عن سريرٍ يتكلم؟



أنا، عندما كنتُ في سن الخامسة.

وهكذا ابتكرنا طقساً جديداً: من ذلك اليوم فصاعداً، كوّنا أنا ووالدي لغةً سرية. اختلقنا قصصاً كي نفشي مشاعرنا واحتياجاتنا، وبنينا عالمنا الخاص بنا. في بعض الأحيان كانت القصص التي اخترعناها دنيويةً جداً. كلما فعلتُ شيئاً ما لم يكنْ يوافق عليه، يفصح عن عدم موافقته بشكل قصصي، فيقول، على سبيل المثال: «كان هنالك رجل أحب ابنته حباً جماً، لكنه شعر بأذىً شديد حينما وعدته بألا تتخاصم مع

المربية. . .» وفي ذلك الوقت كوّنا وسائل اتصال سرية أخرى: كلما أفعل شيئاً خاطئاً بحضوره، يضع أبي سبابته على أنفه كعلامة تحذير. وإذا أردتُ أن أتذكر واجباً مهماً، أنقر على أنفي بإصبعي سبع مرات متعاقبة، وفي كل مرة أعيد ما يجب عليَّ أن أفعله، وهي وسيلة ما أزال أستخدمها حتى يومنا هذا. في هذا العالم السري لم يكنْ لأمي دور فيه. بتلك الطريقة انتقمنا من أعمالها الاستبدادية. وسأتعلّم بمرور الوقت أنه بوسعي دوماً أن أجد ملاذاً في عالمي المتخيَّل، ذلك العالم الذي لا أستطيع فيه أن أنقل موضع سريري ليكون لصق النافذة، بل أطير معه خارج النافذة إلى مكانٍ لا يقدر أن يدخله أي إنسان ولا حتى أمي، ولا تكون فيه سلطة لأي فرد عليَّ.

في مطلع التسعينات، نشر والدي ثلاثة كتب للأطفال استندت إلى نصوص كلاسيكية. أحد هذه الكتب كان نسخةً من «*الشاهنامه*» المعروف بالإنكليزية بوصفه «*كتاب الملوك*» الذي كتبه الشاعر الملحمي الفردوسي. في مقدمة كتابه، يشرح والدي أنه في البداية روى هذه القصص لنا، نحن طفليه، حينما كنا في نحو الثالثة أو الرابعة من العمر، وأنه واصل إرشاده من خلال تعريفنا على التحف الفارسية الكلاسيكية العظيمة الأخرى: كتاب «مثنوي» لجلال الدين الرومي، و«*كولستان وبستان*» لسعدي، و«*كليلة ودمنة*». ويكتب أننا لاحقاً واصلنا قراءتها بمفردنا. ما يؤكد عليه في هذه المقدمة أنه على الإيرانيين في زمنه أن يعزفوا المزيد عن أسلافهم وقيمهم من خلال القراءة الفاحصة لـ«*الشاهنامه*». يقول إنه سعيد أنه من خلال هذه الوسيلة «رأينا إيران، وسمعناها وأحسسنا بها في منزلنا اليوم، وهي تدفئ أفئدتنا. . .»

كلما يتحدث أبي عن الفردوسي يتخذ صوته نبرة تبجيل. علّمنا أن الشعراء يحتاجون إلى نوعٍ خاص من الاحترام، يختلف عن الاحترام الذي نكنّه لمعلمينا وكبار السن من جلدتنا. ذات مرة، حينما كنتُ في عمر مبكر جداً، ربما في نحو الرابعة، طلبتُ من والدي أن يخبرني بمزيد من القصص عن السيد الفردوسي هذا. ليس (السيد)، صحح كلامي. إنه الشاعر الفردوسي. وعلى مدى زمنٍ طويل بعد ذلك طلبتُ منه أن يُسمعني القصص عن الشاعر الفردوسي. تشكلت فكرتي الأولى عن إيران من خلال حكايات أبي المأخوذة من «*الشاهنامه*».

إن لم تخنّي الذاكرة، كان والداي وأصدقاؤهما يتكلمون عن إيران بوصفها طفلاً محبوباً ولكنه مبذر، وكانوا يتشاجرون باستمرار بشأن رفاهيته. وبمرور الأعوام اكتسبت إيران، بالنسبة لي، هويةً ذات تناقض ظاهري: كانت مكاناً واقعياً، محدداً بالموضع الذي ولدتُ وعشتُ فيه، واللغة التي تحدثتُ بها، والطعام الذي تناولته، وفي الوقت نفسه كانت فكرة أسطورية غامضة، تشجع على كل صنوف الفضائل والقيم، وهي رمز المقاومة ورمز الخداع.

بالنسبة لأمي ليس ثمة بلد آخر. كانت تتحدث غالباً عن أمكنة أخرى سافرت إليها. عبّرت عن إعجابها بتلك المدن والبلدان، إلا أن إيران هي بلادها. في حين كان والدي يواصل باستمرار جداله وكفاحه حول معنى أن يكون المرء إيرانياً، أما أمي فلم تكنْ تواتيها مثل هذه المسائل. فبعض الأشياء كانت بالنسبة لها غير قابلة للتغيير. بدا كما لو أنها كانت إيرانية من طريق الجينات - كعينيها الداكنتين الجميلتين، الداكنتين جداً بحيث كانتا تبدوان سوداوين، أو اللون الزيتوني الفاتح لبشرتها. كانت تنتقد الإيرانيين بالطريقة نفسها التي تستهجن فيها سلوك

عضوات معيّنات من جماعتها، لكنها لم تنسبْ ما أدركته بوصفه عيوبهن إلى إيران.

كانت أمي تحترم الفردوسي، شأنها شان أي إيراني أو إيرانية، غير أنها سخرت من استغراقنا في الأدب، معتبرةً إياه مضيعةً للوقت. وفيما بعد وجدتُ تفسيراً حيوياً أكثر لبغضها لصنّاع الأدب القصصي: خطر ببالي يوماً أنها لم تشأ أن يكون ثمة منافسون لها. إذ إنها خلقت عالمها الخاص وأسطورتها الخاصة وليس ثمة حاجة إلى الآخرين الذين يكسبون رزقهم من هذه الأشياء.

حينما أفكر في والدي، فإن أول شيء يخطر في ذهني هو صوته. في أمكنةٍ شتى، وهو يمشي في الشوارع، ويجلس في الحديقة، ويقود السيارة، وفي وقت النوم، لا يزال بوسعي أن أختبر الهدوء الذي يهيمن عليَّ كلما يروي لي قصةً من القصص. كنتُ أصغي بانتباه إلى هذه القصص وأمنحها صفات ذاتية بطريقةٍ ما لم أفعلها قبلاً مع تجارب حياتي الواقعية. وفيما بعد حطم أبي فؤادي حزناً، ولأنني أحببتُه ووثقت به مثلما لم أحبّ أحداً سواه ولم أثقْ بشخصٍ آخر غيره، أنا أيضاً سببتُ له الأذى وحطمتُ فؤاده. في اعتقادي إن ما يعفيه جزئياً من اللوم الآن يرجع إلى قصصه. فقط تلك اللحظات التي تقاسمناها معاً بقيت نظيفةً ولم تلطخها غنائمنا وخداعاتنا المشتركة.

بينما كنتُ أخشى هيجانات أمي الباردة وطلباتها المتواصلة، في الوقت نفسه كنتُ أخاف بصورة عميقة ومستمرة من فقدان أبي. أتذكر أنني في ليالٍ كثيرة جداً كنتُ أجلس قرب النافذة أنتظر عودته إلى البيت، وأرهف السمع لوقع خطواته في الرواق قبل أن أخلد أخيراً إلى النوم. في ذلك الزمن أصبحتُ حليفته والمدافعة الأكثر إخلاصاً عن

قضيته. أحسستُ أنه، مثلي، كان ضحية استبداد أمي وهكذا كنتُ أستثنيه من اللوم. كانت والدتي تستهجن تعاطفنا المشترك وبين الحين والآخر تنفجر في نوبات غضب. «*أنتما*، أنتما مخلوقان من نفس جينات أبيكما الفاسدة»، كانت تقول لي ولأخي في لحظات غضبها. «أنتم جميعاً تنتظرون موتي كي تحصلوا على ميراثي». كنتُ أتساءل أحياناً: أليس من المحتمل أن تكون أمي محقة، على الرغم من كل شيء: ألم أكنْ أنا مخلوقة من الجينات الفاسدة ذاتها؟

إذا كانت أمي تأمر وتطالب فإن أبي كان يغري ويغوي على غرار توم سوير وهو يغري شركاءه في اللعب كي يصبغوا له سوره. كانت لعلاقتي به دوماً أُلفة السر المشترك، سواء كنا نمشي في الشوارع وأنا أصغي إلى قصصه، أو أخطط للطريقة المثالية التي يمكنني فيها أن أُدخل البهجة إلى قلب أمي أو أهدئها. كنا أنا ووالدي مكبّلين بعالمنا السري، وكانت تلك المودة الناجمة عن لحظاتنا المشتركة خلال سرد القصص، تحررني، في الوقت نفسه، من الواقع المحيط بي، وتنقلني إلى مملكة جديدة مكوّنة من أشياء ملفقة مُعذِّبة صاغها صوتُه.

في صباحات الجُمع، يوقظني أبي مبكراً من النوم ويأخذني في مسيرة راجلة طويلة. وكي يكبح شكاواي من طول تلك المسافات التي قطعناها سيراً على الأقدام، كان يبتاع لي كأساً خاصة نملأها من نافورة مفضلة في طريقنا. كان يسمي ذلك زمننا الخاص، حينما يروي القصص، ويتوقف أحياناً لشَراء الآيس كريم. وبمرور الوقت أصبحت شخصيات «*الشاهنامه*» التي كتبها الفردوسي مألوفةً لي شأنها شأن شخصيات عائلتي. لا أستطيع أن أتصور حياتي من دونها، وصار الكتاب نفسه مكاناً أحببتُ زيارته، وأنا عارفة أن بوسعي أن أقرع ذلك الباب في كل ساعات النهار أو الليل وأطوف متجولةً هنا وهناك من

دون قيود أو ممنوعات. فيما بعد أصبحت تلك عادةً لا تزال تلازمني حتى يومنا هذا، أن أفتح الكتاب لا على التعيين وأقرأ قصةً هنا أو هناك. لم أدرس «*الشاهنامه*» بصورةٍ جيدة، ولم أفكر في كتابة شيء جديد بامرأة مثقفة عنه، ربما لأنني أردتُ أن أحتفظ بشعور الإعجاب الذي استحوذ عليَّ حينما سمعتُ أبي أول مرة يروي لي قصص الكتاب.

قبل أكثر من ألف سنة خلت ألّف الفردوسي حكاية أسطورية عن إيران، نسج خيوطها جزئياً من نتف التاريخ. امتدت ملحمته زمنياً من خلق العالم إلى الفتح العربي في القرن السابع الميلادي، وهي هزيمة مُهينة جداً أشرت نهاية الإمبراطورية الفارسية الموغلة في القدم وتبدل ديننا من الزرادشتية إلى الإسلام. كان هدف الفردوسي أن يضرم من جديد اعتزاز مواطني بلاده بماضيهم العريق، وأن يجعلهم يستعيدون إحساسهم بكرامتهم وبتراثهم الثر. كان أبي يذكّرنا أنا وأخي بلا انقطاع أن تاريخ بلدنا مليء بالحروب والفتوحات - إذ حارب الفرس الأغريق، والرومان، والعرب، والمغول - ولاحقاً، بعد الثورة الإسلامية سنة ١٩٧٩، قال إننا واجهنا أسوأ الفاتحين قاطبةً لأنهم كانوا أعداءً من الداخل، حيث كانوا على الرغم من ذلك يتعاملون مع المواطنين الإيرانيين كما لو أنهم تابعون انتصروا عليهم.

كان العرب فاتحين مفسدين. كانت الأسطورة تقول إنهم كانوا مصرّين على أن يمحقوا جل الثقافة الفارسية، وبخاصة الكلمة المكتوبة. قُتل الملك الساساني الأخير يزدجرد الثالث - الذي تغذى على القانون المنحط للملوك الساسانيين وكهنتهم الأقوياء - سنة ٦٥١ ق. م. على يد صاحب مطحنة كان قد لجأ إلى منزله - لجأ عدد غفير من الفرس إلى معانقة أولئك الذين اعتبروهم برابرة متوحشين. أتذكر،

وأنا طفلة، أنني سمعت قصصاً عن الطريقة التي أمر فيها الخليفة العربي عمر بن الخطاب جنوده بحرق كل الكتب التي وجدوها في إيران ما دام الكتاب الوحيد الذي يحتاج الناس إليه هو القرآن. علمنا أبي أن مقداراً وافراً من الوعي القومي الإيراني استند إلى الوجدان المناهض للعرب. قال: نحن الإيرانيين مهتمون جداً بصورتنا الحسنة ونريد أن نظهر أننا بريئون في عيون العالم. لذلك فإن عدداً كبيراً منا ينحون باللائمة على العرب. وثمة أسئلة قليلة فيما يتعلق بدورنا في هزيمتنا أمام العرب. ومع ذلك، مَن هم الذين فتحوا بوابات المملكة لأولئك البرابرة، مَن هم الذين سهّلوا لهم فتح بلادهم؟

سعى الفردوسي في قصيدته الملحمية إلى حفظ واستجواب ماضٍ يتعذر استرداده، محتفياً بحضارة عظيمة، ومتفجعاً على زوالها. لقد أعاد بلاد فارس القديمة[1] إلى الحياة، وأعاد صياغة أسطورتها في الجزء الأول من «*الشاهنامه*»، فضلاً عن تاريخها الحقيقي حتى الفتح العربي في الجزء الثاني، جمع الشظايا اليتيمة لثقافتنا وتاريخنا ومنحها موطناً جديداً في أشعاره. لم يكنْ منجز الفردوسي المستحيل يقتصر على وصف السيرة الذاتية لأمةٍ بكاملها، بل التنبؤ بمستقبلها. بعد انتصار الثورة الإسلامية، كنتُ أعود مراراً إلى شعرائنا - وبخاصة هذا الشاعر - كي أقتفي أثر الخيط اللامرئي الذي أدى إلى خلق الدولة الإسلامية.

---

(١) اسم (إيران) يعني: بلاد الآريين؛ يرجع هذا الاسم إلى عدّة قرون. وعرف الإغريق أن ما يُسمى (بلاد فارس) هو المنطقة التي كانت في الأزمنة الموغلة في القِدم مقر الإمبراطورية الفارسية العظيمة. وأشار البريطانيون أيضاً إلى هذه المنطقة باعتبارها (بلاد فارس). في سنة ١٩٣١ غيّر رضا شاه، مؤسس السلالة المَلَكية البهلوية، الاسم رسمياً إلى (إيران) - الكاتبة.

إبان طفولتي كانت قصتي المفضلة من بين قصص «*الشاهنامه*» كلها هي تلك المتعلقة بـ(رودبه) الجميلة وقصتها الغرامية مع المحارب (زال) ذي الشعر الأبيض. كان أبي يفضل قصة (فريدون) وأبنائه الثلاثة، وهي قصة ذات تأثير شخصي عليه مثلما كانت قصة (رودبه) بالنسبة لي. بدا كما لو أنه يستطيع من خلال قصته الأثيرة تلك أن ينقل شيئاً ما عن نفسه لم يكنْ بمستطاعه بخلاف ذلك أن يفصح عنه كما ينبغي.

مهما بلغ عدد المرات التي كان يروي فيها أبي قصةً مفضلة، كان قادراً دوماً على أن يفتتن بها بحيث إنني شعرتُ كما لو أنه في الوقت نفسه كان يروي القصة ويسمعها لأول وهلة. يمكنني أن أتخيله مرةً أخرى، وهو يمسك بيدي بينما نحن نمشي في الشارع المشجر العريض المسمى (شميران)، الذي يمتد شمالاً صوب الجبال المكللة بالثلوج التي حفظتُ عن ظهر قلب صورها الظلية وبوسعي أن أستدعيها إلى ذاكرتي حيثما كنتُ في عالمنا الواسع، مثلما أستطيع أن أستحضر القصص التي رواها أبي لي.

كان فريدون ملك العالم، هكذا يبدأ والدي القصة، وقد أنقذ الجنس البشري من الملك - العفريت المولود في بلاد العرب (زهك)، والذي بمساعدة إبليس قتل والده وهزم بلاد فارس. من كتفيّ زهك، في البقعة التي طبع فيها إبليس قبلته، نبتت حيتان ضاريتان كان ينبغي أن تُطعما يومياً دماغي شابين فارسيين. شن فريدون ثورةً ضد زهك، وحينما هزمه أبقاه مقيداً بالسلاسل أسفل (داماواند)، وهو أعلى جبال بلاد فارس.

كان لفريدون ثلاثة أبناء هم: سالم، وتور، وإيراج. وحينما أصبح كبير السن وآن الأوان كي يقسّم مملكته قرر أن يختبر شجاعتهم

فهاجم كل واحد منهم ليلاً. الابنان الأكبر سناً لاذا بالفرار، لكن الأصغر المدعو إيراج، وهو يستحضر اسم والده، استعد للقتال. وسرعان ما اختفى فريدون ليلاً، لأنه فهم ما كان يريد أن يفعله.

قرر فريدون أن يقسّم مملكته إلى ثلاثة أجزاء ويوزعها بين أبنائه الثلاثة. يسألني أبي وهو يلتفت إليّ: «هل تتذكرين ماذا وهب فريدون لكل واحدٍ من أبنائه؟» «أجل»، أجيب بلهفة، وأنا أحاول أن أقلد كلماته: «أعطى لابنه الأكبر سالم الغرب. وأعطى للابن الأوسط تور الصين وبلاد الأتراك. وأعطى للأصغر إيراج بلاد فارس».

يقول والدي مؤيداً: «نعم، أعطى إيراج أثمن ممتلكاته: بلاد فارس، منطقة المحاربين».

حسد الابنان الأكبر سناً أخاهما إيراج لأنه حصل على أفضل بلد، وظلا يضمران له غضباً حسوداً ليلاً ونهاراً. بعثا رسولاً إلى أبيهما، مطالبين إياه بأن «ينزع التاج من على رأس إيراج» وأن «يعطيه ركناً مظلماً من الأرض كي يسكن فيه». أجاب فريدون بغضب، ناصحاً إياهما:

الفؤاد الخالي
من العاطفة المتأججة والجشع الطموح
ينظر إلى كنوز الملوك والغبار وكأنها شيء واحد.

وأجاب إيراج حينما شكا أبوه من حسد أخويه:

حيواتنا تهرب منا كالريح، فلماذا
يحزن العقلاء حينما يعلمون أنهم يجب أن يموتوا؟

كان والدي يحب هذا البيت من الشعر واعتاد أن يكرره لنفسه أكثر مما يكرره من أجلي.

قرر إيراج أن يقوم بزيارة أخويه كي يحاول إقناعهما. لكن الغيرة والجشع أعميا سالم وتور لذلك لم يهتما بعرض السلام الذي طرحه أخوهما الأصغر. «تتذكرين ماذا قال إيراج لهما»، يقول والدي، ملتفتاً ناحيتي، وضاغطاً على كفي برفق. أقول: «يقول لهما ألا يقتلاه». يرد عليَّ: «ليس بالضبط. يقول لهما إيراج: لا تجعلا من نفسيكما قاتلين. يتوسل إيراج إلى أخويه حينما تصبح نيتهما واضحةً: أنتما تملكان روحاً، يقول لهما - فكيف تستطيعان أن تصادرا روحاً أخرى؟ لكن أخويه لم يسمعاه. سحب تور خنجره وشطر جسد إيراج إلى اثنين. حنّط سالم وتور رأس إيراج بالكافور والمسك وأرسلاه إلى أبيهما مع رسالة مرحة، محتفيين بالحقيقة القائلة إن حدود مملكة إيراج لم يعدْ لها وجود».

في منظور أبي، إن البطل الحقيقي لهذه القصة ليس فريدون، إنما إيراج. «عليكِ أن تتذكري أن إيراج هو واحد من أفضل الرجال في (*الشاهنامه*)»، يقول، مقتحماً قصته من جديد. «كان إيراج مستعداً للتخلي عن إيران ليس خوفاً من القتال، بل لأنه أحس أن المصالح الدنيوية لا تستحق بأن تسبب الضغينة والشقاق بين الأخوة. لم يكنْ إيراج يمتلك الشجاعة الجسدية فحسب بل الشجاعة الأخلاقية، التي من العسير جداً الحصول عليها».

فيما بعد، حينما أعدتُ قراءة الفردوسي وحدي، فهمتُ لماذا كانت أول قصة من «*الشاهنامه*» يرويها لنا والدي هي تلك المتعلقة بإيراج. فقد كان واحداً من الشخصيات النادرة التي لا تبحث عن

الانتقام. ولم يكنْ شجاعاً فقط بل، وذلك الأهم، كان صالحاً.

كان والدي يضعف أمام الطيبة بالطريقة نفسها التي كانت فيها أمي تركز على التأديب. حينما كان أخي صغير السن، كتب أبي قصةً له أسماها: «الرجل الذي أراد أن يكون صالحاً». كانت قصة مستقاة من حياة والدي الشخصية، وكيف كان يستحوذ عليه دوماً هاجس الظلم، وقد حاول أن يكون رجلاً صالحاً. وطوال سني حياته كان أبي يذكّرنا دوماً بواجبنا كي نكون صالحين، وهو مصطلح تصور والدي أنه يفسر نفسه بنفسه، مع أنه، بطبيعة الحال، من المستحيل أن نعرّفه.

«أخوا ميراج لم يكونا يفهمان أن العالم يمكن أن يكون وحشياً بالقدر نفسه بالنسبة للظالمين. ولدت زوجة إيراج المدعوة (ماه أفريد) ابنةً جميلةً أنجبت بدورها حفيد إيراج (مانوجهر). قطع مانوجهر، في معركةٍ كبيرة، رأس تور أولاً ومن ثم رأس سالم، ووضعه على رأس رمح وأرسله إلى فريدون مع رسالة نصر»، يقول والدي، ناظراً إليّ نظرةً جانبية كي يرى الانطباع البادي على وجهي.

وحينما سمع فريدون أنه تم الثأر لموت إيراج، تنازل عن عرشه إلى مانوجهر وأمضى بقية سنوات حياته نادباً أولاده الميتين.

وهكذا، كسير القلب، باكياً على الماضي،
عاش معذَّباً إلى أن جاء الموت أخيراً.

أيها العالم، من أقصاك إلى أقصاك،
أنتَ كاذب وغير وفي،
ما من إنسان حكيم يقدر أن يعيش سعيداً فيك -

إنما مباركٌ من تجلب له أفعالُه الخيّرة الشهرةَ؛
ملكاً أم عبداً، يبقى اسمه خالداً أبدَ الدهر.

لا بد أنني شعرتُ بالسعادة في هذه اللحظة لأن الرجال الأخيار فازوا أخيراً، غير أن أبي في كل مرة يروي فيها هذه القصة كان يضيف قائلاً إنه بينما كان يُستعاد اسم إيراج وإرثه، من تلك اللحظة فصاعداً لم تنعم بلاد إيران بالسلم. وختم كلامه قائلاً: «هكذا أنجب العالم إيران، واستمرت النزاعات والمعارك حتى يومنا هذا. في «*الشاهنامه*»، كان السواد الأعظم من الإيرانيين أناساً صالحين، وتابعين لـ إيراج، شجعان وعادلين. بودي أن أقول الشيء نفسه عن إيران اليوم، ذلك أنه على أرض الواقع بلادنا غالباً ما تكون بلاد سالم وتور أكثر مما هي بلاد إيراج». نمشي صامتين برهةً من الوقت، إلى أن ينبري والدي قائلاً: «ما رأيكِ بأن نتناول الآيس كريم؟»

كانت إيران الفردوسي هي الجنة الرائعة التي توصلتُ إلى الإيمان بها حينما كنتُ طفلةً صغيرةً. كانت منتجعاً أخضر لا نهاية له، مأهولاً بالأبطال والملكات. ووقعتُ مدةً من الزمن تحت وهم أن بلادي باهرة وعظيمة على غرار الصروح التي صنعها شعراؤها الكلاسيكيون من الكلمات.

ليس داماواند وحده بقمّته المكللة بالثلج، بل كل تلك الجبال التي كنا نمشي صوبها أنا ووالدي كل جمعة تقريباً خلال سنوات طفولتي ارتبطت في بالي، وإلى الأبد، بالشخصيات البارزة التي استحضرها أبي. لم يختفِ أبداً ذلك العالم الآخر، إنه يقع وراء

الجبال مباشرةً حيث يقيم فريدون وأبناؤه الثلاثة، (العفريت الأبيض)، الطائر الأسطوري (سيمرغ)[1]، ورودبه الجميلة جنباً إلى جنب، يعيدون تمثيل الحكايات ذاتها المرة تلو المرة.

(١) السيمرغ (بالفارسية): العنقاء. وهو أحد الطيور التي يكثر ذكرها في الأساطير الدينية والتاريخية الفارسية، وكذلك (الشاهنامه). ويسكن السيمرغ في الشجرة التي تقي كل البذور، ويقع هذا المسكن في المحيط الواسع على مقربة من شجرة الخلد. كلمة (سيمرغ) الفارسية تعني: ثلاثون طائراً. وقد ذكر فريد الدين العطار اسم (السيمرغ) في كتابه (منطق الطير) – م.

الفصل الثالث

تعلّم الكذب

قبل سنوات كثيرة خلت، أخبرني طبيب نفساني أن مشاكلي من الممكن اقتفاء أثرها وصولاً إلى ولادة أخي محمد. قال لي إن هذه الحادثة حوّلت اهتمام أمي عني، وجعلتني أجرّب «الموت». كان ذلك الطبيب من أتباع مدرسة (ميلاني كلين)[1] في التحليل النفسي، وقد انزعجتُ نوعاً، شأني شأن كثيرين سواي، من الطريقة التي تختزل فيها ميلاني كل شيء إلى عنصر رئيس واحد هو- في حالتها: الموت. كيف يمكننا أن نشفي أنفسنا من الموت؟ وعلى الفور شرعتُ أتجادل مع الطبيب النفساني، متبنياً أفكار ميلاني كلين بدلاً من التركيز على مشاكلي الخاصة.

الأمر سيان، لا بد أن ولادة أخي كانت صادمة. لم أكنْ قد بلغتُ الخامسة بعد، لكنني أتذكر الليلة التي أخذوا فيها أمي إلى المستشفى. تركوني مع مدبرة المنزل، التي تحبها أمي وتبجلها وكنا نسميها جميعاً (نانه). أخذتني إلى درجات السلم الأمامية، وبقينا جالستين هناك حتى انبلاج الفجر، منتظرتين عودة أبي إلى البيت بالأنباء. حزمتْ نانه

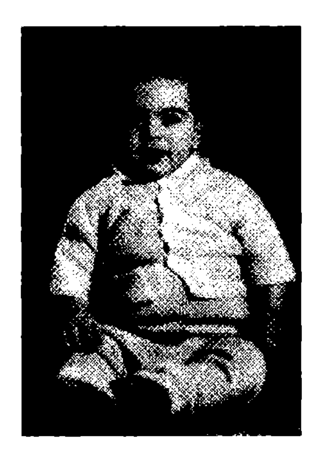
(١) ميلاني كلين Melanie Klein (١٨٨٢-١٩٦٠): محللة نفسانية بريطانية، ولدت في النمسا. وتخصصت بعلم نفس الأطفال. من بين كتبها (التحليل النفسي للأطفال، ١٩٣٢)، و (الغيرة والعرفان بالجميل، ١٩٥٧) - م.

حقائبها، مستعدةً للمغادرة إذا كان الطفل الجديد بنتاً. كانت تكره البنات وجعلتني، على مدى سنة كاملة، أشعر بتلك الكراهية. كانت تتجول في المنزل قائلةً: «البنت كالشمعة في ضوء النهار والولد كالمصباح في الليل». وكانت ترفض مناداتي باسمي وتشير إليّ بكلمة «البنت». وكانت أمي مخلصةً لها بحيث لم تكنْ تعير شكاواي أي اهتمام، وكانت تنحاز دوماً إلى جانب نانه.

كنتُ أعتقد أن أمي تحب محمداً بطريقةٍ لم تحبني على غرارها. مع أنها أنكرت ذلك لاحقاً، دأبت أمي على القول إنه حين جاء إلى العالم أحست أن هذا هو الابن الذي سيحميها. كنتُ مندهشة دوماً من أن أمي، التي عانت كثيراً جداً على أيدي الرجال، يمكنها أن تمحضهم هذا القدر من الثقة.

منذ ذلك الحين فلاحقاً قلما كنا نختلي معاً أو يكون بيننا اتصال حميم. كانت تمتعض مما كانت تسميه عنادي وكنتُ أشعر بالأذى من جراء عبء الأشياء التي تفرضها عليَّ. عاملتني ببرود قاتل، وحاولتُ ألا أتأثر بمكابداتها.

تقتُ إلى استحسانها الذي لم تهبني إياه أبداً. كانت تمدح منجزاتي، درجاتي المدرسية، وما إلى ذلك، لكنني شعرتُ أنني بصورةٍ لا يمكن وصفها قد خذلتُها. كنتُ أريدها أن تغمرني بالحب. عاندتها، لكنني خرجتُ عن طوري لجذب انتباهها. ذات مرة، ولم أكد حينها أبلغ السابعة، رميتُ نفسي من فوق مجموعة من درجات السلّم النازلة من البيت إلى الفناء الخلفي. وفي مرةٍ


أخي محمد، وهو طفل.

أخرى، بعدها بوقت قصير، سمعتها تتكلم مع إحدى صديقاتها حول شخصٍ ما انتحر بأن شرط رسغيه، لذا حاولتُ أنا أيضاً أن أشرط رسغيَّ بموسى حلاقة والدي، في حجرة نومي، أمام المرآة، حينما اقتحمت نانه الكارهة للبنات غرفتي، وبدلاً من أن تمنعني، غادرت الغرفة كي تستدعي أمي. لم يترك فعلي المعبر عن اليأس أثراً قوياً في نفس أمي، لكنها عاقبتني بعدم السماح لي بمغادرة الغرفة طوال ما بقي من ساعات اليوم.

أنا في نحو الخامسة، وعمر محمد شهور قلائل، وكنا قد انتقلنا تواً إلى منزل جديد. كانت النوافذ مظللة والغرفة الكائنة في الطابق الأرضي معتدلة البرودة، شبه معتمة، وهادئة جداً. تجلسني أمي على البلاط وتجلس قبالتي. تقول لي: الآن، أخبريني أين ذهبتما أنتِ ووالدكِ يوم الخميس الماضي. أجيبها قائلةً: ذهبنا إلى دار السينما. من كان معكما؟ لا أحد. تسألني السؤال نفسه مراراً. تقول لي كم هي تمقت الكاذبين. تقول: شيء واحد، شيء واحد فقط، حاولتُ دوماً أن أعلمكِ إياه ألا وهو ألا تكذبي أبداً، أبداً. أقول إنني لا أكذب. أشعر بالبرد والخوف، أريدها أن تضمني وتقبّلني، لكنها تقطب حاجبيها. تقول إن الناس شاهدوني صحبة والدي وامرأة. تقول لي: أخبريني من هي تلك المرأة؟


أنا ومحمد عندما كان في نحو الثانية.

لم تكنْ هناك امرأة. مضينا سراً كي نرى أحد أصدقاء أبي الحميمين تزوج حديثاً من امرأةٍ كانت أمي

تكرهها. لم تكن أمي ترغب في التواصل معهم، وكان هذا هو قرارها الأخير. غير أن والدي كان يحب هذا الصديق، واستمر برؤيته خلسةً.

بعد هذه الحادثة وعلى مدى أيام قليلة امتنعت أمي عن التحدث معي. أتذكر أنهما كانا يتخاصمان لأول مرة بطريقة جديدة. كانا يصيحان ولم يهتما بأن أسترق أنا أو الخدم السمع. أصغيتُ عند الأبواب. أصغيتُ إلى حواراتها الهامسة مع صديقاتها، واتصالاتها الهاتفية التآمرية. «المرأة» التي اشتبهت بأننا رأيناها كانت في الحقيقة متزوجة من صديق أبي. كانت هذه المرأة: سيما خانوم (السيدة سيما) جذابة جداً، مثيرة جنسياً بصورةٍ واضحة لم تكنْ عليها أمي. يبدو أنها كانت شبه مخطوبة لأبي في وقتٍ ما ومن ثم، فجأةً، بينما كان أبي خارج البلد في رحلة عمل، خطبها وتزوجها فيما بعد صديقه الحميم - كانت تلك أول حسرة حقيقية في حياة أبي. كانت أمي تشتبه بسكرتيرة والدي كونها تتوسط بين الاثنين (أي بين والدي وتلك المرأة الجذابة)، واستمرت بتوجيه الأسئلة لي عن تلك السكرتيرة أيضاً، وكانت تريد أن تعرف ما إذا خرجتُ مع والدي وسيما خانوم.

أسمع الحقد في صوت أمي من دون أن أفهم ماذا يعني. أنا في الخامسة. لا أعرف، وحتى الآن، ما إذا كنتُ قد فهمتُ ما يترتب عليه هذا الخداع الذي اتهمتْ والدي به. ما كان يهمني وقتئذ هو شجاراتهما الصريحة، نظرات أمي العدائية، أبي يمسّد شعري بصورة شاردة الذهن، وصوته المجهد ليلاً حينما يحكي لي قصص وقت النوم. وبعدها وعلى حين غرة تلتقط أمي أخي وتغادر البيت، تاركةً إياي مع أبي ونانه الكارهة للبنات. أشعر أنني متروكة ومهملة. أبي ذاهل وأحياناً حين يكلمني أشعر كأنه يكلّم نفسه. في بعض الأيام يأخذني إلى مكتبه، حيث أنظر إلى السكرتيرة الشريرة بعينين جديدتين.

وقتذاك، في اعتقادي، أخبرتُ الأم بكذبتي الأولى. كانت كذبة بسيطة، لكنها اتخذت بعض الأصالة من ناحيتي. كانت هي في منزل إحدى صديقاتها وكنتُ أنا هناك في زيارة. لم يعد هنالك أي غضب. بمعنىً من المعاني كان ذلك أسوأ. أمطرتني بوابل من الأسئلة المتلاحقة، مصممةً على جمع دليلٍ ما. لم تكنْ أسئلتها مباشرةً، بل مبطنة. وبين الحين والآخر كانت هي وصديقتها تتبادلان النظرات، وشعرتُ أنني وحيدة ونائية بصورة مثيرة للشفقة. كانت محاولتها في سحب الكلمات مني، نظراتها التآمرية، مخيفةً أكثر من اتهاماتها المباشرة في تلك الحجرة الباردة، والمعتمة. كنتُ أتوق أيما توق أن تكون أمي ثانيةً، أن تبتسم لي، أن تمسك بيدي، حينما قررتُ أن أكذب وأعيدها إلى المنزل. اخترعتُ قصةً حول مجابهة أبي للسيدة جهانغيري - سكرتيرته - في المكتب، وقوله لها إنه لا يريدها أن تذكر اسم صديقتها ثانيةً. ألم تدرك أنه ما كان ليطيق سيما خانوم لولا علاقة الصداقة التي تربطه بزوجها؟

إنه لشيء مدهش كيف نتنبأ بمستقبلنا جميعاً، بخاصة فيما يتعلق بالآخرين - كم مرة نحدد سلوكهم تجاهنا. حينما اتهمتني والدتي بالكذب وبالاشتراك في الجريمة مع والدي، كنت بريئةً. إنما لم يمر وقت طويل حتى أصبح ما قالته حقيقة. بمعنىً ما، لم تترك أمامنا خياراً آخر. فأي مقدار من الصدق لم يكنْ كافياً قط. في الواقع كانت تريد شيئاً لم نكنْ قادرين على منحها إياه. رجعتْ إلى البيت حالاً، إنما لم تعد المياه إلى مجاريها أبداً. أذهب مع أبي إلى منزل صديقه، وفيما بعد كنتُ أرافقه في مواعيده الغرامية غير الشرعية. أصبحتُ شريكته الموثوق بها جداً في الجريمة، ذلك أن علاقتنا

توطدت بفعل الشقاء المشترك الذي كنا نحس أننا نعاني منه على يديّ أمي.

في تلك المرة الأولى أخذتني جانباً، وفي ذلك اليوم مكثت معي. لم أمتعض منها - أعتقد أنني كنتُ أصغر سناً من أن أفعل ذلك. لم تضع يداً عليَّ، لكنني، مع ذلك، شعرتُ أن جسمي مليء بالكدمات. أتذكر أنني كنتُ أرغب في البكاء إلى أبعد حد. لم أكنْ أعرف كيف أدافع عن نفسي وكان لديَّ إحساس مبهم بأنني مذنبة بشكلٍ من الأشكال. وكذلك لو أنني اعترفتُ بما أرادت مني أن أقوله، لو أنني ذكرتُ أبي بالسوء، كأن أقول، مثلاً، إنه أجبرني على زيارة سيما خانوم، سأكون حسنة في نظرها. لكنني لم أفعلْ ذلك. وفيما بعد توقفتُ عن الإصغاء إليها - أصبح هذا عادة. ببساطة كنتُ أتظاهر بالإصغاء وأومئ برأسي لكنني في الواقع لم أكنْ أسمع كلمة واحدة. يدخل صوتها في أذني وأعيده من حيث أتى وأبدأ حواراً مع صديقةٍ متخيّلة، وأعيد سرد القصص التي سمعتُها أو قرأتُها أو أخترع قصصاً جديدة. فقد وجدتُ في مخيلتي مكاناً واحداً حيث أكون فيه ملكة مملكتي الشاسعة والمتغيرة.

أنا في نحو الخامسة. الوقت: المساء الباكر. أبي عائد تواً إلى البيت من مكتبه. هو وأمي يتناقشان في غرفة المعيشة خلف باب مسدود وأنا أترصد في الرواق لكنني أعرف أن نقاشهما يدور حولي. كان لنا أنا وأمي نقاشنا الخاص في وقت سابق من ذلك اليوم. بدا أن الشيطان الذي يدّعي البالغون دوماً أنه يغوي الأطفال قد استوطن في داخلي، يحثني على التمرد والعناد عندما كنت أنا جالسة هناك في الأرجوحة ورفضت الدخول لتناول وجبة الغداء حينما طلبت مني أمي

فعل ذلك. كنتُ أعرف أنني على خطأ وكنتُ أعرف أنني سأدفع ثمناً باهظاً عن فعلتي تلك، لكنني لم أستطع أن أتمالك نفسي.

ما يزال بوسعي أن أستمتع بطعم لحظات التمرد القليلة تلك فيما كنتُ أتكئ على الأرجوحة وأستمتع بالنسيم المعتدل الذي يلامس وجهي، وأنا أتأرجح إلى الأمام والخلف، إلى الأمام والخلف. وحينما دخلتُ أخيراً، وغسلتُ يديَّ، وجلستُ إلى طاولة الطعام، كانت أمي غاضبة. لم تكنْ لتسمح لرفيقي في اللعب، ابن جارنا، أن يتناول الطعام معي، على الرغم من أنها سمحت لنا بذلك من قبل. أرسلته إلى منزلهم. جلستُ، وأنا أحس بالذل والمهانة، إلى مائدة الطعام، وامتنعتُ عن الأكل. كلما كانت تلح عليّ أكثر كي آكل الطعام أغدو عاجزةً أكثر عن الإذعان. لعبتُ بالملعقة والشوكة. صنعتُ أشكالاً من قطع الخبز. وحينما اتخذتُ طريقي إلى الباب أمرتني بالرجوع وأخبرتني بأن أذهب إلى غرفتي. قالت لي: «انتظري ريثما يعود والدكِ إلى البيت. سوف نحل هذه المسألة مرةً وإلى الأبد، ما دمتِ سموّكِ لا تصغين إليّ. من أكون أنا كي أقول لكِ افعلي هذا ولا تفعلي ذاك؟»

لازمتُ غرفتي طوال اليوم. حاولتُ أن أخترع القصص كي أُبهج نفسي: في يومٍ من الأيام كانت هنالك فتاة صغيرة تعيسة... وبعدها ماذا؟ في يومٍ من الأيام... وفي الحال تخليتُ عن الأمر. وبدلاً من ذلك، صرختُ وصرختُ ونظرتُ في كتبي المصوّرة.

حينما يظهر والدي من غرفة المعيشة، وجهه طافح بالوعيد الصاخب. إنما يمكنني أن أحس، كما أفعل دوماً في مناسبات كهذه، أن قلبه معي، وأنه يلبس هذا القناع كي يسترضيها. يسألني: لماذا تتمردين على أمكِ؟ لا أقول شيئاً. يقول: عليكِ أن تعتذري منها.

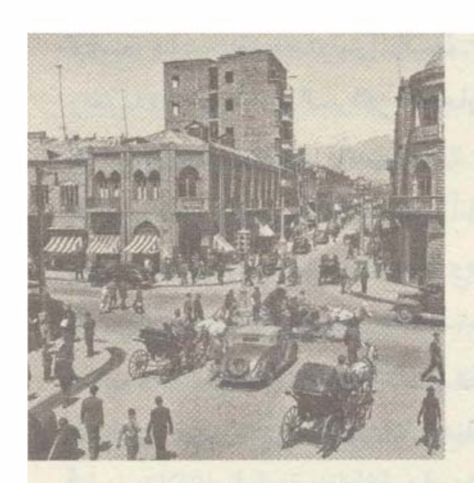
أبقى صامتة. افعلي ما أقوله لكِ وإلا ستُحبسين في السرداب. أمي لا تظهر للعيان ولكن الباب مفتوح جزئياً وأعرف أنها تصغي. لا أقول شيئاً. لذلك يرشدني أبي إلى درجات السلم. يقول بصوتٍ عالٍ وبشيءٍ من اللوم: لا أريد تمرداً في بيتي. ومع ذلك أملكِ عملت لكِ.... يسأل: لماذا؟ في طريق نزولنا درجات السلم يصبح صوته أرق، ومتوسلاً تقريباً. إن تعتذري، عندئذ ستكون المسألة مختلفة، يقول بهدوء. هيا، آذي، كوني عاقلة.

يعرف أبي مبلغ خوفي من السرداب. إنه شديد الرطوبة بصورةٍ مزعجة، وفيه ضوء شحيح جداً. نحن نستخدمه للخزن، وخلال فصل الشتاء يكون هناك حبل يُنشر عليه الغسيل. في الجهة الأبعد ثمة سرداب الفحم، حيث أتخيل أن ثمة شبحاً هناك، مؤذياً ومتوعداً، يستلقي هناك في انتظاري. يجعلني أبي أقف هناك وظهري إلى سرداب الفحم. أشعر باستمرار بأن الشبح يراقبني بينما لا طاقة لي على رؤيته. يقول لي: سوف تمكثين هنا إلى أن آتي إليكِ. أقف جامدةً في مكاني وجزء من كياني يسجل هجره المبهَم لي، كما ستبرهن على ذلك أمثلة خداعه المستقبلية.

إن أفضل ذكرياتي عن أمي هي تلك المتعلقة بتجولنا في شوارع طهران. ثمة شارع محدد يمثل دوماً طهران التي أحبها وأتوق إلى الرجوع إليها، حتى الآن وأنا جالسة إلى هذا المكتب في مدينةٍ كانتْ سخيةً جداً معي، وللسبب نفسه، خالية جداً من الذكريات. حين أتذكره تذهلني الحقيقة التي لا صلة لها بالموضوع والتي مفادها أن اسم ذلك الشارع هو نفس اسم أسرة زوجي: نادري.

يبدو أنني أمضيتُ معظم سنوات طفولتي في (شارع نادري) وفي

شبكة من الشوارع الجانبية التي تفرعت منه. هنالك مخزن الكعك المحلّى والمكان المخصص للجوز والتوابل، سوق السمك، مخزن العطور المدعو (جيلا) حيث اعتادت أمي أن تبتاع عطر نينا ريتشي: *L'Air du Temps*، حيث كان صاحب المخزن يحتفظ دوماً بعيّنات قليلة مجانية لي (كنا نسميها *échantillons*: مثل هذه الأشياء كانت فرنسيةً دوماً). والمقهى الذي يحمل اسماً أجنبياً (في قفزةٍ مباغتة من التذكر يحضرني الآن: أيبتا Aibeta)، حيث تشتري أمي أنواع الشوكولاته خاصتها. من بين كل الروائح والأشذاء الخاصة بذلك الشارع الساحر، ما بقي مطبوعاً في ذاكرتي هي تلك المتعلقة بالشوكولاته، التي كنا نلفظها كالكلمة الفرنسية: شوكولا *chocolat*. كان هنالك معمل شوكولاته صغير متاخم للعيادة الطبية التي آخذ فيها جرع لقاحاتي، فبعد كل زيارة للعيادة الطبية كانت أمي تكافئني بالشوكولاته التي تشتريها من المعمل. وهناك اكتشفتُ أول مرة الشوكولاته البيضاء، التي أحببتها ليس لأن طعمها أفضل بل لأنها كانت غير متوقعة على الإطلاق.



تقاطع شارع لالهيزر المشجر وشارع اسطنبول في الأربعينات من القرن العشرين.

تغيّر اسم شارع نادري إلى شارع اسطنبول، الذي تفرّع يساراً إلى لاليهزر - وهو شارع عريض حسن المنظر تحفه أشجار التوليب. كان هذا الشريط من الأرض، خلال حكم ملوك القاجار في أواخر القرن

التاسع عشر، حديقة توليب واسعة. شقت الحكومة جادةً عبر الحديقة وحوّلتها إلى أكثر المراكز التجارية ازدحاماً في طهران، تتخلله المسارح ودور العرض السينمائية. يا له من اسم لشارع تجاري! كان لاليهزر مليئاً دوماً برائحة الجلد. أنا وأمي ندخل إلى المخازن ونخرج منها: مخازن الثياب الداخلية، ومخازن الأقمشة، ومخازن مموّني البضائع الجلدية. كانت هذه المخازن شديدة الازدحام. وفي كل واحدٍ منها كانت تتبادل النكات وتتكلم من دون كلفة مع أصحاب المخازن فيما كنتُ أطوف هنا وهناك وأحدق في الحجرات الخلفية، أتلهف لإلقاء لمحة خاطفة على تلك الورش المعتمة حيث كانت أشرطة القماش والجلد تتحول إلى حمالات للصدر، وثياب للبيت، وأحذية، وحقائب.

مرةً واحدة شهرياً نقوم برحلة إلى مخزنٍ للعب الأطفال يُدعى (إيران)، في شارع نادري، كانت والدتي تعتقد أنه أفضل مخزن للعب الأطفال في طهران. كانت تختار لُعبةً أو دميةً جديدةً لي، تقفل عليها فيما بعد في خزانةٍ حينما نعود إلى البيت مع لُعب الأطفال الأخرى. أتذكر بصورة نابضة بالحياة يافطة النيون التي تعلو باب مخزن لُعب الأطفال: سانتا كلوز ضخم، ومبتهج، يسوق أيل الرنة خاصته. لم يكنْ هذا ليدهشنا، ولا حتى أسماء المطاعم ودور العرض السينمائية الكثيرة جداً: ريفييرا، نياغارا، ريكس، ميتروبول، ريديو ستي، مولان روج، وجاتانوغا. في نظري كان سانتا كلوز مألوفاً جداً مثله مثل إيران؛ كنا نسميه بابا نويل. تقبلنا هذا كله بوصفه جزءاً من إيران الحديثة - «موديرن» كلمة أجنبية أخرى تبنيناها. اعتاد والدي، بشيءٍ من السخرية، أن يطلق هذه الكلمة على المرونة المدهشة للغة الفارسية، التي كان يشبهها بالمرونة عاثرة الحظ لشعبها. إنما كم كنا

مرنين في حقيقة الأمر، وما هو الثمن الذي سندفعه لقاء هذه المرونة كلها؟

في شارع نادري وفي المنطقة المحيطة به، كان السواد الأعظم من أصحاب المخازن إما أرمن، يهود، أو من أصل أذربيجاني. رُحّل عدد غفير من الأرمن قسراً إلى إيران في القرن السادس عشر، خلال عهد الملك الصفوي القوي شاه عباس. وهاجر بعض الأرمن واليهود من روسيا بعد الثورة البلشفية؛ وبعضهم الآخر أقبلوا من بولندا ودول الاتحاد السوفياتي الأخرى بعد الحرب العالمية الثانية. مثلما كان شيئاً طبيعياً أن يشتري المرء الحلويات والمرطبات من أصحاب المخازن الأرمن، أو أن يشتري الأقمشة والعطور من مخازن اليهود، كان من الطبيعي أيضاً بالنسبة لبعض العوائل أن تجتنب الأقليات لأنهم «غير نظيفين». كان الأطفال يدقون أبوابهم منشدين: «الأرمني، الكلب الأرمني، كناس الجحيم». اليهود لم يكونوا قذرين فحسب، بل إنهم شربوا دم الأطفال الأبرياء. كان الزرادشتيون عبدة النار وملحدين، بينما لم يكن البهائيون، وهم طائفة إسلامية انفصالية، مهرطقين فقط بل عملاء وجواسيس للبريطانيين وبالإمكان بل من الواجب قتلهم. قلما كانت هذه القضايا تحرك مشاعر أمي؛ على الرغم من العدد الكبير من أهوائها الأخرى، كانت تطيع قوانين عالمها الخاص، حيث كانت تحكم على الناس بشكل رئيس بحسب درجة اعترافهم بمآثرها وفنتازياتها. كان معظم الناس يتقبلون منزلتهم في النظام المقسم إلى طبقات اجتماعية، مع أنه من حينٍ إلى آخر كانت التوترات تبزغ إلى السطح، إلى أن تتكشف تماماً الطبيعة الدموية لهذا النزاع الخفي بعد مرور عدّة عقود لاحقاً، بعد الثورة الإسلامية سنة ١٩٧٩، حين هاجم الإسلاميون، وسجنوا، وقتلوا عدداً كثيراً من الأرمن، اليهود،

والبهائيين، وأرغمت المطاعم على أن تحمل يافطات على نوافذها تعلن «أقلية دينية» إن لم يكن أصحابها مسلمين. لكننا لا نستطيع أن نلوم الجمهورية الإسلامية على كل شيء، لأنها بطرائق معينة أبرزت للعيان وضخّمت تعصباً أعمى كان موجوداً من قبل.

في ليالي الخميس - بداية عطلتنا الأسبوعية - كنتُ أتجول في الشوارع نفسها مع أبي. كنا، في العادة، نقوم بزيارة مطعم الوجبات السريعة الضخم المتاخم لمتاجر الجلود، حيث نلتقط السندويتشات وغالباً لحم فخذ الخنزير أو البصطرمة لوجبة فطورنا الخاصة بيوم الجمعة. بعدها، نتمشى متنزهين هنا وهناك بحثاً عن فيلم سينمائي أو مسرحية. كانت معالم وأصوات تلك الشوارع تتغير ليلاً. على طول شوارع: نادري، واسطنبول، ولاليهزر كلها كان ثمة عدد من المطاعم، والمسارح، وصالات السينما، وكباريهات من الطراز الفارسي، كل واحدٍ منها له زبائنه الخصوصيون الذين يختلفون في الطبقة الاجتماعية والخلفية الثقافية. كان المكان الذي نرتاده باستمرار هو (مقهى نادري) الذي يديره رجل أرمني. كانت له حديقة جميلة، وفي الصيف كانت هناك دوماً موسيقى ورقص في الحديقة. كان ذلك أحد الأمكنة التي كان أبوانا يأخذاننا إليها باستمرار، حتى ونحن أطفال صغار. لا أتذكر أن والديَّ رقصا في يوم من الأيام، على الرغم من أن أمنا تذكّرنا أحياناً بأنها كانت دوماً راقصة مثالية. لكنني أنضم أحياناً، ومعي أطفال آخرين، إلى الراقصين البالغين في باحة الرقص، متمايلين على إيقاع موسيقى التشاتشا أو موسيقى الرقصات الأكثر بطئاً من مثل التانغو.

على مبعدة بلوكات قليلة كان ثمة مقهى تقليدي نسيتُ اسمه؛ معظم زبائنه من الرجال، والموسيقى فارسية، وغالباً أذربيجانية أو

عربية، أكثر إيروتيكيةً من التشاتشا أو التانغو اللتين كانتا تُعزفان في مقهى نادري. هذا المقهى وما شابهه كانت مزدحمة دوماً، تقدّم البيرة أو الفودكا مع الكباب. كان الرجال الذين يترددون عليها متحمسين لمطربات مفضلات معينات، أصبح بعضهن أسطوريات باستحقاقهن الشخصي، وصورهن الآن تومئ إلينا من (اليو تيوب)، لتذكرنا بماضٍ مهزوم إنما غير زائل. مع ذلك، على بعد شوارع قليلة إلى الجنوب كانت هناك طهران أخرى - ورعة، تقية، وممتعضة مما كانت تفهمه على أنه تجاوزات ثقافة وثنية.

يضمحل التنافر المغري لهذا الشارع شيئاً فشيئاً في النبرة الرتيبة الهادئة لصوت أبي، بينما هو يحكي لي واحدةً من حكاياته، التي كانت تأخذني إلى ذلك العالم الآخر حيث أبطال الفردوسي وعفاريته، وبطلاته ذوات الشعر الأسود الفاحم، كانوا جميعاً يقيمون جنباً إلى جنب مع بينوشيو سيّئ السلوك، و توم سوير، وحيوانات لافونتين، وفتاة هانز كريستيان أندرسن المسكينة التي بحوزتها عيدان الثقاب، التي ما يزال شبحها يعيش بعد سنوات كثيرة جداً لأنه لم يكنْ بوسعي أن أقبل أن تتم مكافأة كل وجعها ومعاناتها على الأرض بالموت، والموت وحده.

ذات مرة حينما كنتُ في الرابعة من عمري، ضيّعتُ أمي في طريق عودتنا من درس الباليه خاصتي. توقفنا فترات قصيرة عند مخازن مختلفة وبشكلٍ من الأشكال، أثناء توقفنا مدةً وجيزةً عند أحد المخازن، مشيتُ وحين التفتُ من حولي لم أعثر على أمي. تابعتُ المشي، وأنا أبكي بهدوء. كنتُ أعرف الشارع جيداً، كل مخزن من المخازن كان بمنزلة كسرة خبز تقودني إلى بر الأمان: مخزن لُعب الأطفال، مخزن الشوكولاته، بائع السمك، مخازن الأحذية، دور

العرض السينمائية، مخازن المجوهرات، إلى أن وصلتُ إلى مكاني المفضل من بين هذه المخازن كلها: مخزن المعجنات المسمى (نوشين). كنتُ مغرمة بكل شيء في نوشين، بخاصة آيس كريمه المكسو بالشوكولاته، الذي كان يُدعى (فايتا كريم)، وكل مرة كنا ندخل فيها هذا المخزن، يرحب بنا صاحبه الأرمني المبتهج، الذي كان يحب أن يضايقني بقوله إنه يراقبني بعناية بوصفي عروساً مستقبلية لابنه. هذه المرة، قبل أن تتاح له الفرصة للترحيب بي، أفشيتُ له من دون تفكير أنني أضعتُ أمي وبدأتُ أبكي. حاول أن يهدئني وأعطاني (فيتا كريم) مجاناً، غير أني كنتُ بنتاً مؤدبة ولم أكنْ لأقبل بأي شيء من دون موافقة والديّ، وعلى أية حال كنتُ خائفة جداً بحيث لم أرغب حتى في تناول الآيس كريم.

ألغى تعبير القلق في عينيّ أمي الفرح في صوتها حينما نادتني بكنيتي: «آذي!»، وهي تتنهد. لن أنسى ما حييت نظرة الرعب تلك، وعلى مر العقود التالية، ستعود تلك النظرة في سياق حوادث أصغر كثيراً: حينما نتأخر أنا أو أخي خارج البيت، وحينما لا يتصل أبي هاتفياً في الوقت المحدد، أو عندما لا نكون في البيت حينما تعود أمي من حفلةٍ ما. وفيما بعد، خضع أحفادها لحدس المأساة ذاته، الذي أضفيتُ عليه بصورة لاواعية صفةً ذاتية وجعلته خاصاً بي.

بعد الثورة، حينما رجعتُ إلى طهران، كانت أولى رحلاتي المقدسة هي إلى تلك الشوارع. أحسستُ كأنني أدخل في صفحات «*الشاهنامه*» للفردوسي - ففي واحد من تلك المَشاهد المتكررة يجد بطل الرواية، الذي كان يتوقع مأدبةً سخيةً، نفسه وقد وقع، بدلاً من ذلك، في فخ عرّاف. لم يخيلْ لي أبداً في أكثر أحلامي وحشيةً أنه في يوم من الأيام سيصبح نادري ولاليهزر مسرحين لتظاهرات دموية

وسأجد نفسي أهرول مبتعدةً عن الميليشيا وأعضاء لجان الأمن الأهلية، مروراً بمخزن لُعب الأطفال، ومخزن الشوكولاته، ومخازن الجوز والتوابل، وركام دار السينما حيث شاهدتُ فيلمي الأول، من دون أن يكون لدي وقت كي أتوقف قليلاً وأسترجع ذكرياتي.

الفصل الرابع

ساعة القهوة

على مدار الأعوام، بقدر ما تسعفني الذاكرة، دعت أمي خليطاً من الناس إلى منزلنا في طهران، غالباً كي يتناولوا الطعام على مائدتها إنما في أكثر الأحيان كي يشربوا القهوة ويأكلوا المعجنات فقط. كان بحوزتها مجموعات عدة من الأكواب، تختارها بحسب المناسبة: أكواب كل واحد منها بلون واحد وذات حافات أثخن للصديقات الحميمات ولأفراد العائلة، وأكواب أخرى أرق - كريمية اللون وذات تصاميم زهرية، أو أكواب من الخزف الصيني الأبيض وذات حافات ذهبية - للمناسبات الرسمية أكثر. الصحفيون والصحفيات، وسيدات وسادة المجتمع الراقي، سائقو سيارات الأجرة، مصففات الشعر خاصتها - يُدعون جميعاً في أوقات مختلفة من اليوم بينما تشرف أمي بجلال على آلتها الصغيرة الخاصة بصنع القهوة. وكانت النقاشات تختلف بحسب الصحبة، وتجري في طقسٍ كان يسحرني بينما أنا جالسة في إحدى زوايا الغرفة، أراقب أمي وهي تقدّم القهوة لكل واحدٍ أو واحدةٍ من الحاضرين، ومن بينهم أنا. ولاحقاً كانت تقدم القهوة لطفليَّ حينما كانا في سن لا تتجاوز الرابعة، رافضةً احتجاجاتي الشديدة بهزةٍ لامبالية من كتفيها. تقول: «أرجوكِ، أرجوكِ. لا تعلميني كيف أُطعم الأطفال». ومن ثم تلتفت إلى ذريتي المسرورين

وتعطيهم القهوة التي لا يحبونها، والشوكولاته التي يحبونها، وتقول: «لا تصغوا إلى أمكم. هيا، هيا. اشربوا قهوتكم وتناولوا الشوكولاته خاصتكم».

في عهد الطفولة، كنتُ أختبئ في الخلفية، ألعب أحياناً مع الدمى الورقية العائدة لي، وبعدها ألهي نفسي بكتاب أو مجلة. في الأيام التي تكون فيها أمي راضية عني، بين الحين والحين، كانت ترمي ابتسامةً إلى ناحيتي، أو تهبني قطعةً من المعجنات، وتخبرني كم هو شيء غير طبيعي بالنسبة لبنت صغيرة أن تقضي وقتها في القراءة. وحتى عندما تتأفف مني لم أكنْ لأتخلص من جلساتها تلك. في الواقع، أعتقد أنها كانت تجد لذةً معينة في أن أحضر جلساتها تلك. كان غضبها من النوع الذي يحتاج إلى جمهور مستمر، وكان يتفاقم عندما تُظهره للآخرين.


أنا وأمي في حفل زفاف أحد اقاربنا.

في الأقل مرتين أسبوعياً كانت تدعو صديقاتها في نحو العاشرة كي يتبادلن القيل والقال، القصص، وقراءة الطالع. ولأنها شخص نهاري، كانت تحشو أكبر قدر ممكن من الأنشطة الاجتماعية في صباحاتها. في هذه الاجتماعات كان ثمة أثر قليل من المرأة المستبدة التي عرفتُها. كانت جلسات القهوة التي تقيمها أمي ذات طابع كرنفالي، كما لو أن جميع النسوة قد احتشدن كي يفشين أسرارهن المهمة جداً. «هل

هي حقيقةً لا تستطيع النوم معه؟» «هل تستحق حقيقةً أن تتزوج زيجةً جيدةً جداً كهذه؟» «كيف يستطيع الرجال أن يكونوا في الوقت نفسه قساة جداً وأغبياء جداً؟» كل هذه الأشياء بالطابع ذاته: تقلّب الزوج، طلاق بغيض، أنباء متعلقة بالموت، تتقاسمها النساء الحاضرات بطريقةٍ تجعل الألم والفضيحة يبدوان بعيدين، أو على الأقل يُمكن التغلب عليهما. في بعض الأحيان كانت النسوة يلقين عليَّ نظرات التحذير ويخفضن أصواتهن. إحداهن، وهي تشير إليّ، تكرر قولاً مأثوراً فارسياً - ينبغي ألا ننسى أن للجدران فئران والفئران الصغيرة لها آذان - مومئةً إلى أنهن يجب أن يتوخين الحذر فيما يتعلق بما يقلنه أمامي.

بعض من أقوى الذكريات التي أحتفظ بها عن أمي هي تلك المتعلقة بالحياكة. هي و(منير جوون)، صديقتها وجارتها السابقة، تتبادلان القيل والقال ونماذج تفصيل الثياب بنَفَس واحد وبحماسة متكافئة. تحيك أمي في الفصول كلها، حتى في الصيف، على الرغم من أن نتائج هذه الجهود كانت دوماً مشكوكاً فيها. نادراً ما كانت تتبع نماذج التفصيل (الباترونات)، مفضلةً اختيار ألوانها الخاصة واختراع تصاميمها الخاصة، الأمر الذي كان يفاقم مسألة عدم التكهن بالنتائج.

كانت مصففة شعر أمي، وهي شابة مطلَّقة تُدعى (قولي)، جزءاً من هذه البطانة. كانت إحدى وظائفها قراءة الطالع، وهي مهارة كانت تمارسها أمي على سبيل الهواية. بعد احتساء القهوة، تقلب النسوة أكوابهن - صوب جهة القلب - ويتركنها في الصحون الصغيرة إلى أن تبدأ الأرضيات بالجفاف. كانت (قولي) تلتقط كل كوب من الأكواب بالتتابع وبتركيز عميق، وتحوّل الخطوط والدوامات التي كوّنتها أرضيات القهوة إلى حكايات مذهلة تنتمي إلى محن وفتوحات: الماضي، والحاضر، والمستقبل. كان لها وجه مربع الشكل، وعينان

كبيرتان، وشفتان رفيعتان؛ وبينما كانت تقلب كوب القهوة في يدها كانت تزم شفتيها بطريقة تجعلهما تختفيان في اللحم المحيط بفمها. كنتُ أحب أن أشاهد فعل الاختفاء هذا، منتظرةً شفتيها وهما تعودان من جديد.

تمر نظراتي بسرعة على مونير جوون، وهي ملفّقة قصص نحيفة البدن وذات أنف حاد، وعينين زرقاوين، وشعر أحمر باهت مجعد، تتكلم بجمل قصيرة مختصرة. أشاهد (فخري جوون)، البدينة، والمترهلة، وهي نفسها قارئة طالع معتبرة، تقلب مرات عدة كوب القهوة بين كفيها المكتنزتين بأصابعهما الطويلة بصورة مدهشة، والورعة (شيرين خانوم)، التي كان حضورها يثير العداوة في أغلب الأحيان، ما دامت قليلات منهن قادرات على تحمّل آرائها الدالة على أنها أقوم أخلاقاً من الأخريات. أريد أن أتوقف قليلاً عند خالتي (مينا)، التي كانت تختار كرسياً في أقل الأمكنة بروزاً وقلما تُدلي بتعليقٍ ما. عادةً، حين تغادر الأخريات، تبقى مينا خانوم وتتناول وجبة الغداء معنا. أنا وأخي نسمي أصدقاء أبي الحميمين وأقاربه وكذلك صديقات أمي الحميمات وأقاربها العم والعمة والخال والخالة، لكن الخالة مينا كانت ذات خصوصية فريدة. تقول أمي: «إنها الأخت *الحقيقية* التي لم أحظَ بها يوماً». وكما شاء القدر فعلاً، كانت لها أخت حقيقية - أو على الأقل أخت من أبيها، (نفيسة) - وكانت تجمع بينهما علاقة حب وكراهية غير مستقرة.

كانت الخالة مينا وأمي زميلتين في صف واحد بمدرسة جان دارك، وهي إحدى مدارس البنات القليلة في طهران، وكانت تديرها راهبات فرنسيات. كانتا من أفضل الطالبات في الصف، وتتنافسان بقوة. وبمرور الوقت، تحوّل هذا التنافس إلى احترام تُحسدان عليه؛

شرعتا تدرسان معاً وأصبحتا صديقتين متلازمتين. وعلى مدى سنوات طوال، إلى أن تشاجرتا، كنا نرى الخالة مينا كل يوم تقريباً. يكون الغداء إما في منزلها أو منزلنا، وفي معظم نهايات الأسابيع والعطل كنا نخطط لأنشطة مشتركة.



أمي (الصف الأول، في الوسط) في صورة مدرسية. تجلس عُزرا خانوم وراءها وهي تلبس بلوزة بيضاء. ذهبت أمي إلى المدرسة من دون أن تلبس الزي المناسب لالتقاط الصورة الفوتوغرافية، وتعيّن عليها أن تستعير (جاكتة) من الفتاة التي في طرف الصف الأول الذي جلستْ فيه.

كانت الخالة مينا بدينة نوعاً ما؛ ساقاها رائعتان ونحيفتان وغير منسجمتين مع بقية أجزاء جسمها المائل قليلاً للبدانة. في معظم الأحيان كانت تبقي شعرها طويلاً، ملموماً بصورةٍ متقنة في مؤخرة عنقها في كعكة أو لفة فرنسية. إنما لا شيء من هذا يجعل الجو الذي كانت تخلقه من حولها حقيقياً. كانت تبدو كأنها تتراجع باستمرار بعد أن تلقّت ضربات غير متوقعة. فقدت والديها حينما كانت طفلة،

فأخذها هي وأختها وأخويها عم أكبر سناً، وهو سياسي هائل كان سفيراً مؤثراً في روسيا وله ابنتان. وبين الحين والآخر تقول أمي، بتعاطف، إن الخالة مينا ابتُليت بسوء الطالع. التحقت ابنتا عمها بالجامعة وأصبحتا أستاذتين جامعيتين بارزتين، لكنها لم تكنْ قادرةً على مواصلة تعليمها بعد الدراسة الثانوية. في ذلك الزمن، لم يكنْ بحوزتها مال. تزوجت من رجلٍ يشبه عمها: طموح، وعنيد، ولا يمكن التحدث إليه. ما كان يفتقده هو قدرة عمها على الاحتمال وتلك الخاصية التي لا توصف التي تُعرف باسم: العزيمة. توفيت أختها وأخوها اللذان يكبرانها سناً وهما في ريعان الشباب، في مطلع العشرينات من عمريهما، وتوفي أخوها الثاني بعد مرور عشرين سنة إثر إصابته بنوبة قلبية. برحيل أخيها الأصغر إلى العالم الآخر، ورثت مينا كل شيء. إنما في ذلك الوقت كان قد فات الأوان.

كانت طموحات زوج الخالة مينا نصف متحققة لا غير، وربما بسبب ذلك اختار أن يستخدم سلطته في البيت. كانت أمي معجبةً به أيما إعجاب، وعلى الرغم من سلوكه المتعالي مع أبي، كانت تتمسك بكل رأي من آرائه، وهو موقف لم يغبْ عن ذاكرة الخالة مينا التي تستخف بتعاطف أمي مع الرجال المستبدين. تقول: «نزهت عمياء بإزاء ضعفهمَ». أما أنا شخصياً فقد كنتُ أكرهه لأنه مولعٌ بي ولعاً كبيراً جداً. كلما يجدني وحدي، وأنا أنام القيلولة أو أتحدث في الهاتف مع صديقةٍ لي في الرواق، كان يحاول أن يحضنني ويقول لي أي بنت مدهشة أنا وكم كان يحبني. لم يكن بوسعي أن أشكو هذه الاهتمامات إلى والديَّ؛ كنتُ أحاول حصراً أن أتفاداه. وغالباً ما أحسستُ بقناعةَ غريبة في معرفة كم كانت أمي مخطئة في الإعجاب به.

بعد انقضاء سنوات عدة، هذا الشخص ذو السلطة القوية سوف يذهب يوماً ما إلى المرآب، ويقرّب المسدس من رأسه، وينتحر. في الملاحظة التي تركها لزوجته وأطفاله المجفلين شرح أنه لم يعد يتحمل عبء مصاعبهم المالية. ففي سنواته الأخيرة وصل إلى مرحلة اعتمد فيها على أبي ووضع ثقته فيه. بعد موته تولى أبي مسؤولية ترتيبات المأتم وحاول أن يستخدم تأثيره كمحافظ في الإبقاء على حادث الانتحار بعيداً عن الصحف.

على الرغم من حالتها كيتيمة، كانت للخالة مينا طفولة أفضل من طفولة أمي التي توفيت أمها حينما كانت صغيرة السن تماماً، تاركةً إياها لرحمة الإرادة المتقلبة لزوجة أبيها وإهمال أبيها الذي كان يخلط بين الانضباط والعاطفة. وفيما كان يعيش إخوانها وأخواتها من أبيها براحةٍ تامة ورفاهية، كانت أمي قد تُركت لتسكن غرفةً في العِلية وتلجأ إلى استعمال الصابون والماء لغرض تنظيف أسنانها. وما جعل الحياة لا تُطاق بالنسبة لها هو أنها عوملت كأنها أحد الأقارب المساكين في منزلها هي. الطريقة الوحيدة التي استطاعت بها أن تتغلب على امتعاضها العميق وشعورها بالمرارة تجاه أفراد أسرتها هو أن تنمّي إحساساً متطرفاً بالزهو. ذات مرة قالت لي الخالة مينا إنها وأمي كانتا تتقاسمان الكتب (إذ نسي جدي أن يعطي أمي المال اللازم لشرائها)، وقد اكتسبتا عادة الدرس معاً. قالت: «هكذا أصبحنا صديقتين حميمتين. كانت أمكِ نزهت دوماً الأولى على الصف، وكانت مصرة جداً على التنافس. لم يكن بمستطاعها التنافس مع الطالبات الأخريات في مجال الثياب وما إلى ذلك. فالمنطقة الوحيدة التي بوسعها التنافس فيها - وهي المنطقة التي تفوقت فيها - كانت دروسها، وبخاصة الرياضيات». وفي الوقت الذي أُرسل فيه إخوانها وأخواتها للدراسة في

الخارج، كانت أمي مجبرةً على عدم الالتحاق بالجامعة بعد إكمالها الدراسة الثانوية.

تقول أمي: «أردتُ أن أصبح طبيبةً. كنتُ أذكى الطالبات في الصف، وأكثر الطالبات ممن يُتوقع لهن مستقبل مرموق». كانت أمي تكرر على مسامعنا أنا وأخي كيف أنها ضحّت بنجاحها الملحوظ في عملها كي تلازم البيت. بدتْ كأنها تفتخر بنفسها استناداً إلى حقيقة أنني لم أكنْ من «نمط ربات البيوت»، وحينما تزوجتُ تباهت أمام زوجي بأنني لا أستطيع حتى أن أشاطره سريري. أعلنتْ في أول لقاء: «نشأت ابنتي كي تغدو امرأةً مثقفةً، وليس كادحةً». لكنها لم تكفّ عن توبيخي بسبب عملي ولأني لا أقضي وقتاً كافياً في المنزل مع أولادي.

بعد وفاة أمي أصابتني الدهشة حينما عرفتُ من السيدة النمساوية نفسها التي كانت حاضرةً خلال زواجها أن أمي عملت ردحاً من الزمن بصفة موظفة - كاتبة في مصرف. أخبرتني السيدة النمساوية كم كان تأثير أمي عليها كبيراً، وقد بدتْ مختلفةً كل الاختلاف عن نساء طبقتها الاجتماعية. كانت نزهت لامعة الذكاء، فصيحة، تتحدث الفرنسية بطلاقة، وما هو مثير جداً للإعجاب أنها عملت في مصرف. في تلكم الأيام إذا كانت ثمة نساء من خلفيتها الاجتماعية يعملن فمعظمهن يعملن في سلك التعليم، أو غالباً طبيبات. في الظاهر، بعد وفاة سيفي، ولأنها لم تشأ أن تعتمد كلياً على أبيها وزوجته البغيضة، اختارت أن تعمل. لكنها هي التي كانت تتكلم باعتداد شديد عن طموحاتها في أن تصبح طبيبة، ورغبتها في الاستقلال، لم تذكر حتى مرة واحدة هذا الأمر. بدلاً من ذلك، كانت تتحدث مراراً عن صديق العائلة: السيد خوش كيش، الذي أصبح لاحقاً محافظ البنك المركزي

الإيراني، واصفةً إياه بأنه واحد ممن عرضوا عليها الزواج وأبدوا إعجابهم الشديد بها.

في اعتقادي إن قلق أمي المستمر يرجع جزئياً إلى إحساسها العميق بالتشرد. ليس فقط لأنها لم تشعر أبداً أنها في بيتها، بل أيضاً لأنها لم تكنْ تنتمي إلى صنف النساء اللواتي كن راضيات بالمكوث في البيت، ولا صنف النساء اللواتي يحققن نجاحاً ملحوظاً في عملٍ ما. كانت على غرار نسوة كثيرات من زمنها امرأةً ما بين بين، وقد شعرتْ أن حالتها وقفت عائقاً أمام قدراتها وطموحاتها. وحين كانت تروي لنا القصص عن درجاتها المدرسية والمستقبل المشرق الذي كانت تتوقعه معلماتها ومدرساتها لها، كانت تهز رأسها في الختام قائلةً: «ليتني كنتُ رجلاً!» أسمي هذا «متلازمة أليس جيمس»، وأنا أفكر في أخت هنري جيمس الذكية والسقيمة - كانت قدراتها وطموحاتها متقدمة كثيراً على حالتها الواقعية.

كانت الخالة مينا لامعة الذكاء كذلك، ولم تكن لديها الوسائل لمواصلة دراستها، وبدلاً من ذلك تزوجت؛ «هي ذي امرأة ذكية أخرى أصبحت تالفة». لم تكنْ الخالة مينا ترفع صوتها أبداً، ولم تضحك يوماً بصوتٍ عالٍ، وكذلك لم تكشفْ عواطفها. وعلى خلاف أمي، لم تكنْ تلتمس أسباباً للخصومات أو تنهمك في تمرد علني. كانت تنسحب حتى من أولئك المقربين جداً إليها، كما لو أنها تخفي شيئاً ثميناً عن عالمٍ حرمها من أشياء كثيراة جداً. كانت تختار سبل الخروج بشكلٍ مدروس: كانت تلعب القمار كثيراً إلى درجة غير سوية، وتدخن السجائر. أما أمي فكانت تتباهى بأنها تتمتع بالاثنين لكنها اختارت أن تحجم عن ممارستهما لأنهما عملان خاطئان (على الرغم من أنها مارست على سبيل الهواية لعبة الورق [رومي الجن] بين الحين

والآخر)، وانهمكت في حملة صليبية مستمرة كي تجعل صديقتها تتخلى عن هذه الرذائل. تبتسم الخالة مينا نصف ابتسامتها الساخرة وتقول: «نزهت، أنا لستُ مازوشيةً مثلكِ». كانت تنزعج قليلاً حينما تقف أمي إلى جانب مهبود، زوج الخالة مينا، فيما يتعلق بهذه المسائل. كانت تتحاشى المواجهات الصريحة وتمضي في حال سبيلها، حتى لو عنى ذلك إخفاء أفعالها عن شخصين كانا الأقرب إليها: زوجها وأفضل صديقاتها.

توطدت آصرة بين والدي والخالة مينا، استندت إلى الاهتمامات المشتركة والامتعاضات المشتركة. ومع ذلك لم يستطع أبي أن يغويها بسحره. تقول له: «أحمد خان، لستُ من صنف النساء اللواتي ترغب في استمالتهن!» كانت تحبه حباً جماً وفيما بعد هي أيضاً لجأت إليه للحصول على دعم منه، لكنها لم تأبه كثيراً بعذاباته.

خلال نشأتي، كانت أمي تكرر قولها كيف أنه في «تلكم الأيام» كانت الحكمة الشعبية تذهب إلى أنه فقط الفتيات اللواتي لم يبلغن سن الزواج بعد هن اللواتي يكملن تعليمهن. كانت النسوة المتعلمات يُعدن قبيحات وعموماً يتعرضن للمضايقة. كانت بعض الأُسر تدّعي أن القراءة والكتابة «تفّتح عيني البنت وأذنيها»، وتحولها إلى «امرأة فاجرة». كان جدي تقدمياً كفايةً بحيث لم يأبه بهذا الهراء. أُرسلتْ أخت أمي الصغرى من أبيها: نفيسة، إلى أمريكا لغرض الدراسة، إلا أن أمي لم تُمنح أبداً فرصةً كهذه. تقول: «لم يكنْ لدي أحد يدافع عني. فما من أم كي تهتم بما يحدث لي». لم تقدر أمي والخالة مينا أن تتخطيا قدراتهما الكامنة غير المتحققة، وهو ما أسمته إميلي ديكنسن: «القدرة الضعيفة للأجنحة». ربما هذا هو السبب الذي جعلهما تتلازمان على مدى سنوات طويلة جداً، على الرغم من

اختلافاتهما الهائلة في المزاج وعلى الرغم من الحقيقة التي مفادها أنهما، في بعض النواحي، كانتا تستهجنان جداً، أو بصورةٍ أدق، لا تطيق إحداهما الأخرى.

كانت أمي ترغب أن ترفع صوتها وتكون فظةً مع الآخرين. وتتباهى بنفسها كونها «صريحة ومنفتحةً تماماً». أحياناً، بإحباط مطلق، كانت تعتبر الخالة مينا متكتمةً. تقول: «يبدو أن إخفاء الأشياء جزء من طبيعة مينا. إنها تعرف كم أنا أثمّن الصدق، ومع ذلك إنها تكذب أو ببساطة لا تخبرني بالحقيقة». وتقول الخالة مينا: «أمكِ تغفل عما حولها بسبب الأخيلة الجامحة أو أحلام اليقظة خاصتها، وليس لديها فكرة كيف يمكنها أن تعيش حياتها. هذه المرأة مثالية قلباً وقالباً. إنها ساذجة شأنها شأن طفلة في الثانية من عمرها».

لم يكنْ للخالة مينا قدرة على سماع أمي وهي تحكي عن ذكرياتها الأثيرة إلى قلبها فيما يتعلّق بزوجها الأول الأكثر كمالاً. تقول أمي: «توقعي كيف كان سيفي يعاملني من أول لحظة ألقى فيها عليَّ نظرةً دون سواي. والآن. . .» وتلاشى صوتها. «والآن ماذا؟» ترد الخالة مينا ببسمة شبه ساخرة، وشبه متساهلة. «الآن لديكِ زوج صالح واثنان من الأطفال الأصحاء، والمدهشين. نزهت، هل تبقين هكذا إلى الأبد تعيشين ورأسك مليء بالأخيلة الجامحة وأحلام اليقظة؟»

كل جمعة كان يجتمع في غرفة معيشتنا حشد مختلف. كانت هنالك قضايا أكثر أهمية. كان الضيوف عادةً ما يبدأون بالالتئام في وقت الضحى، وكان أبواي كلاهما يترأسان هذه الجلسات. كانت الأعداد تختلف، إنما بعض الناس كانوا من الرواد الدائمين. كانت الخالة مينا تحضر أحياناً إنما نادراً ما تتكلم. أعتقد أنها تحضر إلى حدٍّ

ما بدافع الفضول، وإلى حدٍّ ما بدافع الوفاء. من حين إلى آخر تلقي كلمةً أو كلمتين، عادةً كي تعارض وتنكر صحة مقولة ما أو ادعاءٍ ما.

أتذكر السيد خليقي، وهو زميل أبي في الخدمة المدنية، وهو أعلى منه في المرتبة الوظيفية وأقدم منه في المهنة. شاهد صعود أبي في حين هو نفسه بقي في منزلته ذاتها، بوصفه موظفاً حكومياً صغيراً، حتى إحالته على التقاعد. أعتقد أنهما التقيا حينما كان والدي مديراً في وزارة المالية وحافظا على صداقتهما عندما ارتقى أبي كي يصبح وكيل مدير التخطيط وتنظيم الموازنة. احتفى بنجاحات والدي الحكومية بسخاء روحي نادر. كان من عادة السيد خليقي أن يكتب شذرات هزلية من الشعر لمناسبات شتى، وكان يصر على قراءتها بصوت عالٍ في كل مرةٍ يزورنا فيها. كان يأتي عادةً قبل الآخرين ونادراً ما تفوته جلسة من الجلسات. بدا لي أنه لن يهرم - كان فقط ينكمش ويذوي رويداً رويداً إلى أن اختفى يوماً ما عن الأنظار وقيل لي إنه صار في عداد الأموات.

وثمة شخص آخر دائم الحضور إلى جلسات الجمعة هو كولونيل الجيش الذي تقاعد مبكراً لأنه أراد أن يتمتع بالحياة. كان وسيماً على غرار نجم سينمائي قديم الطراز، بشارب كلارك غيبل، كان يصبغه باللون الأسود مع شعره. على خلاف السيد خليقي، كان الكولونيل يلتزم الصمت عادةً، وثمة بسمة دائمة تكمن تحت شاربه. كان يصغي غالباً إلى النقاشات الحامية من دون ولع كبير جلي في المشاركة.

شيرين خانوم، زوجة الكولونيل، هي الأخرى شرعت تأتي كذلك، أولاً كي تتأكد من أن الكولونيل ليس منصرفاً مع «امرأة فاسقة»، كما عبّرتْ، وفيما بعد لأنها انهمكت في النقاشات. وعلى خلاف زوجها، كان لديها ولع قوي بالنقاشات الدائرة كلها. كانت

امرأة ضخمة البدن - قوية العظام، كما يقولون - أضخم كثيراً من زوجها. لها صوت واطئ، وفي كل مرةٍ تتكلم فيها كان صوتها يبدو كأنه يدوي، ربما لأنه لم يكن بوسع جسدها الضخم، الذي كانت ترهقه هذه الوفرة من الطاقة وقوة الشخصية، أن يستوعب دوافعها ومتطلباتها. لم يكن الكولونيل ثرياً ووجب على شيرين خانوم أن تعمل. كانت لديها مدرسة لتعليم مهنة الخياطة، حيث كانت تتنمّر على النسوة الشابات الفقيرات اللواتي أتين إليها كي يتعلمن حرفةً ويكسبن عيشهن. تقوم بعضهن بدور إضافي ويعملن خادمات لها، على الرغم من أنهن، بحدود علمي، لم يكنّ يأخذن أجوراً عن هذا الفضل. لم تكنْ شيرين خانوم والخالة مينا متحابّتين، فكلتاهما صريحتان، كل منهما بطريقتها الخاصة، ولم تكونا تزعجان نفسيهما بإخفاء مشاعرهما.

كان هنالك دوماً عدد قليل من الشبان الطموحين ممن يحضرون أيام الجمع، وأقارب بعيدون يأملون أن يقيموا صلات اجتماعية راقية، ورواد دائمون ممن فقدوا مراكزهم الاجتماعية وامتيازاتهم. كل هذا المزيج من الذين وصلوا وأولئك الذين لم يصلوا بعد يجعل شيرين خانوم غير مرتاحة. كانت لا تثق بأحد وتدّعي أن أمي عطوفة جداً، ولا تشك على الإطلاق في النوايا الشريرة للناس الآخرين. كانت تسميهم «المتسكعين»، ولديها آراء قاطعة بخيث حتى أمي لا تتحداها. تقول: «نزهت خانوم»، وتضيف عن معرفة: «لها قلب طيب جداً. المشكلة هي ماذا تريد».

الفصل الخامس

الأواصر الأسرية

عمل أبي طوال عدّة سنوات على سيرته الذاتية. كانت المسوّدة الأولى مرصعةً بوقائع تتعلق بطفولته. وصف فيها كيف قُتلت أخته ذات السنوات الأربع عندما كانت تقاوم رجلاً أراد أن ينتزع قرطيها الذهبيين من أذنيها. وكي يخمد صرخاتها طعنها بالسكين. هذا الحادث جعل والدي، ومنذ سن مبكرة، يتمرد على الظلم السائد في الحياة. كانت قصةً فاجعةً، رُويتْ بطريقةٍ مؤثرة، ولكن حين آن أوان طبع سيرته الذاتية نصحوه بأن يحذف الأجزاء الشخصية - على أية حال، الشيء المهم في حياتك ليس حادثة قتل أختك بل ما هي الأعمال العظيمة التي أنجزتها في سلك خدمتك الوظيفية. حينما قرأتُ كتابه لاحقاً، الذي طُبع ونُشر في التسعينات، لاحظتُ كم بدا خالياً وضيّق الحدود من دون تلك القصص الشخصية. الكتاب المليء بالتطورات السياسية المهمة خالٍ من الصوت الذي يسود سيرته الذاتية غير المطبوعة. يقدّم الكتاب قدراً كبيراً من المعلومات عن نشاطه السياسي لكنه يقدم لنا النزر القليل من تبصراته الأعمق.

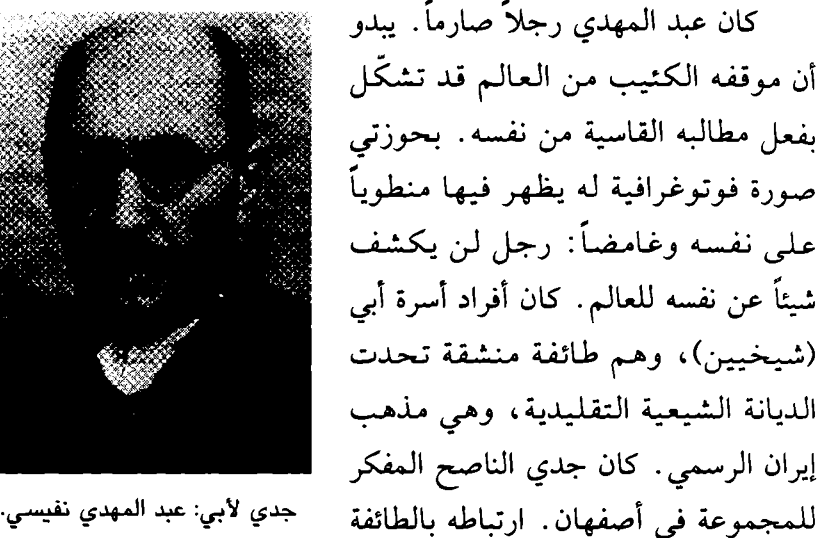
أنا نادمة جداً لأنني لم أولِ مزيداً من الاهتمام بسيرة أبي الذاتية حينما كان حياً. أعطاني مسوّدة مبكرة بعد الثورة. آنذاك تجاهلتها إلى حدٍّ بعيد، إذ كنتُ أشعر بقليلٍ من التعالي بإزاء جهوده الأدبية. بعد

وفاته فقط، حينما بعث لي أخي يومياته ونسخاً من المخطوطة الأصلية، أدركتُ كم هي الأشياء التي افتقدتُها. في مخطوطته غير المنشورة أجاز لنفسه وبصورة مدهشة المرور بحرية فيما يتعلق بأهواء نشأته، ومن بينها مداعباته الجنسية في سن الثامنة لابنة الجيران. ولاحقاً، يسرد أبي بصورةٍ خجولة تغزلاته الكثيرة بالنساء اللواتي، على الرغم من قيودهن الاجتماعية والدينية، كن صريحات في دوافعهن ورغباتهن.

يبدأ الكتاب بسلسلة النسب التي تقتفي تاريخ الأسرة في القرون الستة الماضية انتهاءً بـ ابن النفيس، وهو طبيب، ورجل علم، وحكيم. على مدى أربعة عشر جيلاً كان الرجال في الأسرة أطباء تمرنوا في ميداني الفلسفة والأدب، وبعضهم كتبوا بحوثاً مهمة. يقدم والدي تقريراً مفصلاً عن منجزات أسلافنا المتنوعة في ميداني العلم والأدب. (حينما بدأتُ أول مرة بالتدريس في جامعة طهران أوحى لي أن صورة ابن النفيس المعلقة على الحائط في قسم القانون والعلوم السياسية ينبغي أن تذكرني بمهمتي العسيرة كمدّرسة وكاتبة). لم أعرف على وجه الدقة ماذا أفعل بهؤلاء الأسلاف البارزين. كنتُ أنا وأخي ننتمي إلى جيلٍ لا يبالي بالماضي ويعدُّ سلسلة النَّسَب عبئاً ثقيلاً وسبباً للإرباك أكثر مما هي موضع امتياز. بعد الثورة فقط أصبح ماضي أسرتي بغتةً مهماً بالنسبة لي. إذا كان الحاضر هشاً ومتقلّباً، عندئذ يمكن أن يغدو الماضي ملاذاً بديلاً.

كان والد والدي، عبد المهدي، طبيباً لم يُظهر أي طموحات سياسية أو دنيوية. بعد وفاة أول مريض له فرضتْ عليه المعتقدات التقليدية العائلية أن يتخلى عن ممارسة الطب، حاول أن يعطي الدروس ردحاً من الزمن، ومن ثم وقع على اختيار مشؤوم: التجارة.

قيل إنه كان طبيباً ناجحاً، ورجل أعمال سيئاً، وقلما كان قادراً على كسب المال الكافي لإعالة أسرته الكبيرة. تزوج فتاةً يافعةً، جدتي، تنتمي إلى خلفية دينية صارمة وكانت يومها في التاسعة وولدت طفلها البكر حينما كانت في الثالثة عشرة.



جدي لأبي: عبد المهدي نفيسي.

كان عبد المهدي رجلاً صارماً. يبدو أن موقفه الكئيب من العالم قد تشكّل بفعل مطالبه القاسية من نفسه. بحوزتي صورة فوتوغرافية له يظهر فيها منطوياً على نفسه وغامضاً: رجل لن يكشف شيئاً عن نفسه للعالم. كان أفراد أسرة أبي (شيخيين)، وهم طائفة منشقة تحدت الديانة الشيعية التقليدية، وهي مذهب إيران الرسمي. كان جدي الناصح المفكر للمجموعة في أصفهان. ارتباطه بالطائفة همّش الأسرة، ونتيجةً لذلك كيّفت نفسها في مجتمعٍ محبوك بإحكام وعقلاني بصورة مكتفية بذاتها على ما يبدو، معززين الوهم أنه من خلال هذا السلوك سيكونون بعيدين عن تدهور العالم الخارجي وخداعه.

كانت أصفهان جدي مكاناً قاسياً، مليئاً بالخوف والعواطف المكبوتة، لكن أبي في مخطوطته غير المنشورة يكشف النقاب عن أصفهان أخرى، تتحلى بأبهة فارغة ذات تجاوزات جنسية مدهشة. ينام موظف حكومي رفيع بين زوجتيه الجميلتين، موظف آخر يغوي الصبيان اليافعين، من بينهم أبي، يأخذهم ليسبحوا في حديقته. يتوقف والدي هنا قليلاً كي يستطرد في تأثير الحرمان الجنسي في إيران،

خاصةً بين الشبان، الذي، كما يراه، يؤدي في خاتمة المطاف إلى شذوذ نفسي يُسمى: الولع بالصبيان دون سن البلوغ.

يصف أبي بحب الأعياد الدينية النابضة بالحيوية، بخاصة تلك المتعلقة بشهر محرّم، حيث يندب المسلمون الشيعة شهادة الإمام الحسين في كربلاء الواقعة في العراق. خلال تلك الشعائر الدينية، يزدحم الناس في الشوارع كي يشاهدوا المواكب، أولئك المئات، وربما الآلاف من الرجال الذين يمشون عبر الشوارع، يجلدون ظهورهم بسلاسل رفيعة متفجعين على الإمام الشهيد وأتباعه. يلبس بعضهم قمصاناً سوداً ذات شقوق من جهة الظهر حيث تقع عليها السلاسل. وبعضهم الآخر يلبسون أكفاناً بيضاً. إنه واحد من الأوقات النادرة التي يكون بوسع الرجال والنساء أن يختلطوا ويمتزجوا جهاراً من دون خوف من العقاب. ربما يبدو التفجع على إنسان مات منذ ما يزيد على ثلاثة عشر قرناً اجتماعاً غير مرغوب فيه للتعبير عن الرغبات المجهَضة، لكن الجميع كانوا يحتشدون في الشوارع كي يشاهدوا الطقوس وإعادة التمثيل المسرحي لشهادة الحسين. كان ابن عم والدي المدعو يوسف يؤكد أن ذلك هو أفضل وقت للتغزل بالبنات، وكان يبهج والدي بحكايات فتوحاته الغرامية التي لا تتعدى أحياناً اللمسات المختلَسة للأيدي. يخبرنا أبي أنه حتى السنوات المبكرة من القرن العشرين لم يكن رجال الدين أوصياء على العقيدة والأخلاق فقط، بل أوصياء أيضاً على حواسنا وحيواتنا الخاصة. يتساءل والدي: كيف كان باستطاعتنا أن نتنبأ بما سيحدث حينما تصل المَشاهد، والأصوات، والروائح، والنكهات الأخرى، حينما يصل الخمر والمطاعم، والرقص والموسيقى الأجنبية والعلاقات المكشوفة بين الجنسين، إلى درجة التنافس مع الشعائر القديمة والتقاليد وحتى التغلب عليها؟



جدتي لأبي وهي تتحدث مع العم حسن، في الثمانينات من القرن العشرين.

في مخطوطته، يصف أبي أولئك الذين يسكنون عالمه - أمه الشابة الحيية والودودة، التي نادراً ما تنظر إلى عيون أطفالها مباشرةً؛ عمه المتعصب، الذي يحاول باستمرار أن ينقذ ابن أخيه الضال من نيران جهنم؛ أولئك الورعين المولعين بالصبيان الصغار الذين كانوا يعظون بالاحتشام علانيةً ويتحرشون بأبناء وبنات إخوانهم وأخواتهم سراً. ما يدهشني راهناً ليس هذا القدر الكبير من التناقضات التي حوتها مدينة من مثل أصفهان - أي مدينة لا تحوي مثل هذه التناقضات؟ - ولا حتى رياء المتعصبين للدين، بل الحقيقة التي مفادها أن والدي فكّر ملياً في نشر تلك القصص. كان ذلك يتطلب جرأةً معيّنة - أو براءة معيّنة، سمها ما شئت - بالنسبة لرجل بارز ينتمي إلى جيله كي يرغب في كشف نفسه فيما يتعلق بهذه المسألة.

لو أن أمي أولت اهتماماً أكثر بقصص والدي، لكانت ربما وجدت فيه بعضاً مما كانت تتوق إليه. بدت لي حياته رومانسيةً أكثر مما عرفتُه عن حياة سيفي. كان والدي هو الثائر في تلك العائلة الكبيرة. أخوه الأكبر: أبو تراب، لامع الذكاء ومدلل كثيراً من لدن والديه، انهمك في ممارسة مهنة الطب، تزوج بصورة ملائمة، وأحب زوجته بتول، وهي امرأة صالحة وتقية تنتمي إلى أسرته من ناحية أمه. كان والدي الابن الثاني، بين (أبو تراب) و (كريم)، الذي كان مطيعاً وخنوعاً إبان طفولته، وترعرع كي يصبح الأكثر ورعاً وعناداً من بين

الأولاد التسعة. كان أبي الابن الضال، وكان يُعاقب بصورةٍ مستمرة بسبب خطاياه الصغيرة. في سيرته الذاتية غير المنشورة، يصف أبي ثورته على عمه المغالي في التدين، وعلى معلّمه المتزمّت، وحتى على والده، وفيما بعد على الحكومة. وبشكلٍ من الأشكال يتوصل إلى الربط بين الوعي الجيد والثورة. أخبرنا أنه حين قرر مغادرة أصفهان، في سن الثامنة عشرة، كان سئماً من المجتمع المغلق هناك ومن تعاليم والده ضيقة الأفق. وكتب لعمه الورع إلى درجة التعصب أنه لا يستطيع الإيمان بربٍّ سمح فقط لبضع مئات من المسلمين الشيخيين بدخول الجنة. ولم يشأ أن يتزوج امرأةً بحسب الطريقة التقليدية حيث يختار الأهل العروس ويرتبون الأمور كلها. أغلب الظن تكونت وجهات نظره المتعلقة بالزواج حينما حاول التوفيق بين تنشئته الدينية المتعصبة وطموحاته الأكثر رومانسية. كان والداه قد عثرا أصلاً على زوجة «مناسبة» له. رفض أن يأخذها بنظر الاعتبار وتزوجت لاحقاً أخاه الأصغر.

بصورةٍ ساخرة، وبفضل والد أمي: لقمان، تبدلت حياة والدي تبدلاً جذرياً. كان جداي لأبي وأمي ابنَي عم من الدرجة الثانية ولهما اسم الأسرة نفسه. زار لقمان نفيسي أصفهان بوصفه رئيس وكالة حكومية خاصة في مهمة رسمية. آنذاك، كان والدي يعمل في مخزن والده وأسرته تمر بمرحلة ذات مصاعب مالية. تأثر جدي بذكاء والدي ونشاطه الحيوي وشجعه على تقديم طلب التعيين في وظيفة في فرع محلي لوكالته. على خلاف جدي لأبي، كان لقمان رجلاً حلو العشرة، مع أنه مزاجي، ثري، وطموح، وله زوجة شابة وجميلة. كان يلعب القمار ويشرب الخمر لكنه يعد نفسه مسلماً تقياً يفي بواجباته الدينية ويؤدي صلاته. لا بد أن طريقة حياته تلك قدّمتْ بديلاً

مُرَحباً به مقارنةً بالحياة الرزينة والزاهدة في أصفهان. أخذ أبي نصيحة جدي لقمان، مقارنةً باستياء والده البالغ. ولم يكد يمضي وقت طويل حتى أقنعه زملاؤه أن مستقبله لا يكمن في أصفهان، بل في طهران. قدم والدي طلب نقل، آملاً في الوقت نفسه أن يعمل ويتابع دراسته في طهران. في الثامنة عشرة غادر مسقط رأسه، على الضد من رغبات والديه، مفلساً، رافضاً الطريقة الآمنة المستقرة من الحياة ومن دون أن يعرف ماذا سيجد ليحل محلها.

في طهران أقام في بادئ الأمر مع خالة أمه. كان يعمل طوال اليوم كي يعيل نفسه مادياً وتعلّم الفرنسية والإنكليزية كلتيهما. كان يدرس ليلاً، وبذل أقصى ما يستطيع من قدراته الجسدية. وكي يبقى يقظاً، كان يجلس أحياناً في مسبح شحيح المياه في منزل خالته، حاملاً كتابه عالياً، قارئاً على الضوء المعتم في الفناء. وفي النهاية دعاه لقمان إلى منزله. لكنه لم يغازل أمي هناك. فبعد وفاة سيفي، غادرت أمي منزل والد سيفي لكنها، كونها شعرتْ أنها غير مُرَّحب بها من قبل زوجة أبيها، انتقلت للسكن مع بعض الأقارب، وهما زوجان بلا أطفال كانا قد تبنياها. في منزلهما التقى والدي بوالدتي لأول مرة. كان مأخوذاً بجمالها وحزنها، وربما باحتمال أن زواجاً بينهما يمكن أن يثمر شاباً طموحاً على غراره.

كلتا الأسرتين لم تكونا مسرورتين بقرار أمي وأبي أن يتزوجا. كان أبواه يأملان أن يزوجا ابنهما من فتاة تقليدية أكثر، أما لقمان، متقلب المزاج، فقد عارض الزواج أيضاً - ربما بسبب زوجته، أو لعله لم يعتبر ابن عمه المفلس الزوج المناسب لابنته. وفي النهاية رفض حضور مراسم الزواج التي أُقيمت في منزل (العمة توري)، قريبتها التي عرّفتْ أحدهما إلى الآخر.

بعث أخ والدي أبو تراب برقيةً من أصفهان قائلاً إن والده استخار القرآن فيما يتعلق بالزفاف ورجع الجواب ضد هذه الزيجة. وأضاف عمي قائلاً، على الرغم من ذلك، إن أسرتهم ستكون راضية بأي قرار مهما كان يتوصل إليه والدي ويقدمان له مباركاتهم. وصلت البرقية في يوم الزفاف. كي يكون الزواج شرعياً، على والد العروس أن يعطي موافقته الخطية، وبما أنهما لم يستطيعا الحصول على توقيع لقمان، ادعى أبي أن البرقية - التي كانت موقعة أيضاً من فردٍ ينتمي لأسرة نفيسي - كانت من لقمان. وهكذا بدأت حياتهما معاً بكذبة.

الفصل السادس

الرجل المقدس

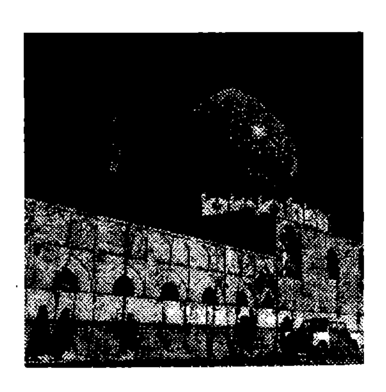
كان (حجي آغا قاسم) مقدساً إلى درجة أن اسمه كان دليلاً على حماسته. كان جميع الناس في أصفهان يعرفونه بوصفه (حجي آغا)، وهو لقب تبجيل يُخلع على أولئك الذين حجوا إلى مكة. كان من الأقارب البعيدين، وصديقاً حميماً لعم أبي في مدينة شيراز. زاهد ونحيف، أشبه بعالِم، وكانت له طريقة في التحدث بحيث يتحول المعنى إلى كلام غير مهم على الإطلاق. كان يعرض الأشياء وكأنها حقائق مطلقة، ويعرب عن شيء من الازدراء نحو محاوِره. لم يكنْ مثقفاً كأعمامي الآخرين الذين كانوا يحللون الإسلام ويسعون إلى إقامة علاقة سببية بين إيمانهم وبين الفلسفة والحياة. لم يكن ذ حجي آغا وقت للمعرفة العميقة واحتفظ بطاقته للقرارات الموجزة المتكررة: ينبغي ألا تكون هنالك موسيقى في البيت. البهائيون هم بذرة الشيطان. كانت (الثورة الدستورية) مؤامرةً بريطانية.

كان نحيف الساقين، ذا لحية قصيرة خشنة (وهي عنصر رئيس لدى المسلمين الورعين)، يرتدي بذلات بنية بلون الطين مع قميص أبيض مزرر عالياً حتى العنق. كان غير راضٍ عن أبي ولم ينظر مباشرةً إلى أمي، وهي علامة أخرى من علامات الورع. ذات مرة، حينما ذهبنا إلى البازار معه ورأى أبناء عمي بعض الملاعق الفضية كانوا

يبغون شراءها، فذكّرهم بصرامة أن تناول الطعام بالملاعق الفضية ممنوع في الإسلام. وعلى الرغم من ورعه المتطرف بدا - ولعله كان - عذباً بصورة خادعة.

يمكنني أن أتخيله الآن كما كان حينما التقينا به أول مرة في إحدى زياراتنا لأصفهان. يتكلم لأمي عن الدين، وعن فاطمة، ابنة النبي محمد، وطاعتها لوالدها وزوجها، وميتتها الفاجعة وهي في سن الثامنة عشرة، وعن احتشامها. يقول برقّة إنما بصورةٍ قاطعة: سوف توافقينني الرأي أن الاحتشام لا يمنع المرأة من أن تكون نافعة، أو مهمة. إن واجب المرأة مقدس في الإسلام. أمي متفتحة بصورةٍ مدهشة. يعجبها ذلك المزيج من اليقظة والمرونة - فضلاً عن حافزٍ مكبوت في إغاظة والدي الذي لا يملك سوى أن يبدي ازدراءه نحو هراءٍ كهذا. تؤيد أمي حجي آغا: ما من أحدٍ يقدّر عبء المسؤوليات التي تقع على كاهل المرأة في أيامنا هذه - بخاصة أولادها. يقول بقلق سار: ليس أولادكِ. تهز رأسها. وقتذاك كنتُ في السادسة وعمر أخي سنة واحدة، ومع ذلك كانت تتوقع في ذلك الحين مستقبلاً كئيباً.

يضايق أبي حجي آغا من خلال أسئلته الساخرة: إذا كان الدين يُعنى بمحبة الجنس البشري، فلماذا إذاً يُعد اليهود، والنصارى، والزرادشتيين، والبهائيين، والبوذيين - وحتى الملحدين، فيما يتعلق بتلك المسألة - لماذا يُعدون قذرين؟ هل هو أمر حقيقي فعلاً أننا نحن الشيخيين هم الوحيدون الذين يُسمح لهم بدخول الجنة؟ إنه صبياني تقريباً في الطريقة التي كان



مدرسة أم الملك، في أصفهان.

ينخس فيها الرجل التقي بمهماز. لكنه لم يستطع أن يثير مشاعره. يقاطعه أعمامي الأصغر سناً، بينما تحاول أمي أن تُسكت أبي من خلال نظرات عينيها. وقبل مغادرتنا أصفهان، الأمر الذي أثار دهشة أبي، دعته أمي للمكوث في منزلنا الشهر المقبل، حين يأتي إلى طهران لإنجاز عملٍ ما.

حينما كنتُ طفلةً صغيرةً، كانت أصفهان تبدو في شكل مضخّم في مخيلتي. حتى الآن لا أزال أتذكر شوارعها المحفوفة بالأشجار، الواسعة والمغبرة، والجسور الضخمة بالغة الدقة فوق (زينده روود) - نهر الولادة، كما يُسمى. كانت أصفهان ذات مرة عاصمة السلالة الصفوية الحاكمة ومسقط رأس حاكمها القوي جداً شاه عباس، الذي شيد نُصباً تذكارية، ومساجد، وجسوراً هائلةً، وفتح الجادات الفسيحة المورقة التي ما تزال تشتهر بها المدينة حتى الآن. ودليلاً على السلطة والمجد الصفويين سُميت المدينة: أصفهان، أي (نصف العالم). وكي يميز الصفويون أنفسهم عن العدو العثماني، قرروا في القرن السادس عشر أن يحوّلوا دين إيران الرسمي من السني إلى الشيعي.

كانت أصفهان مختلفة عن طهران مثلما تختلف جهة أبي من الأسرة عن جهة أمي. في أصفهان وُجدت طبقات من التاريخ الموغل في القِدم جنباً إلى جنب بنوعٍ من التناغم اللامتناسق: بقايا معبد زرادشتي، القبة الزرقاء الكاملة لجامعٍ ما، نصب تذكاري للملوك الصفويين المتألقين. على خلاف تبريز، أو شيراز، أو همذان، كان بوسع طهران أن تتباهى بتاريخ صغير. كانت قريةً صغيرةً معروفة ببساتين الفاكهة والمواطنين الأشداء حتى عهد مؤسس سلالة القاجار: آغا محمد خان، الذي اختارها عاصمةً له في القرن الثامن عشر. لدى

طهران ذكرى صغيرة عن الفتوحات والهزائم الموغلة في القِدم ولم تتطور إلى مدينة حديثة في زمننا إلا في عهد رضا شاه بهلوي وابنه محمد رضا. كانت طهران متحررة من المهابة الثقيلة لأصفهان، وخلقت الوهم أنها ما دامت لا تملك ماضياً لتتنافس معه، فمن اليسير عليها أن تتحول وفقاً لخيال أي فرد. ولعبتْ دور المتشرد الطائش بإزاء جمال أصفهان الخالي من كل تزويق.

كان ستة من إخوة أبي السبعة يقيمون في أصفهان (أخته الوحيدة كانت تسكن في شيراز). كانت تربطنا علاقة قوية جداً بـ(أبو تراب)، الذي كان لديه تسعة أطفال، خمسة أبناء وأربع بنات، وكنا نتنقل بين منزله ومنزل جدتي الصغير، بكرومه وأشجار الرمان خاصته. ليس لدي ذكرى عن جدي الذي توفي سنة ١٩٤٨. أتذكر نافورةً بقرميدات زرق في السرداب البارد بمنزل عمي، حيث كنا مجبرين، في فصل الصيف، على أن ننام قيلولتنا هناك.

كانت أسرة أبي منغمسة في زهدٍ محكم، كان مُرعباً بطريقته الخاصة بقدر رعب إصرار أسرة أمي على نمط الحياة، والهيبة الاجتماعية. لم تكنْ أمي مقبولةً تماماً من لدن أسرة والدي، التي كانت لها طريقة خاصة في الاعتدال والضيافة وفي الوقت نفسه كانت تُبقي على تحفّظها. لم يكونوا يعاملونها معاملةً سيئةً - في الواقع، كانوا يجاملونها كثيراً جداً - إنما لا مفر من استنكارهم الصامت. هي، بالمقابل، كانت تعاملهم بتلطف منبعث من إحساسها بالواجب، فقد دخلت مملكتهم بشيءٍ من الحذر الشديد، وبقليلٍ من التحدي.

أنتما تتقاسمان الجينات الفاسدة نفسها، كانت أمي تود أن تذكّر محمد وتذكرني حينما تكون مستاءةً منا، أو من أبي. وفي أصفهان كان من السهل علينا أن نعرف ما هي هذه الجينات التي كنا نتقاسمها.

قلل العدد غير الطبيعي من الأعمام وأبنائهم - ليس شيئاً غير اعتيادي أن يحضر عشرون شخصاً إلى وجبة غداء أو عشاء - من سلطتها. وبمرور الزمن تضاءلت شيئاً فشيئاً زيارات أمي لأصفهان، في حين أصبحت زياراتنا، على الرغم من اعتراضاتها، مألوفةً ومتكررة.

كنتُ في سن السادسة حينما جاء حجي آغا قاسم أول مرة لزيارتنا في طهران. يلاحقني بنظراته في أرجاء المنزل. يقول لأمي بحذر وأدب: يلزمك أن تعذريني على غطرستي، لكنني أعدّكِ أختاً لي. تبتسم أمي بلطف، وهي تناوله فنجان القهوة التركية. يقول: هذه الطفلة، وهو يلتفت إليّ، في عمر خطير، وكثيرون ليسوا على غرارنا، أناس يخافون الله. أرى أن لديكم خدماً من الرجال، وأغلب الظن هذه الطفلة، يقول، يجب أن ترتدي ثياباً محتشمة أكثر، كي تستر نفسها.

تندهش أمي بصورةٍ واضحة للعيان. لولاه ما كانت أمي لتتحمل مثل هذا السلوك، لكنها تقول لـ حجي آغا ألا يقلق، وأن يكون على ثقة بأن أول شيء علمتني إياه هو كيف أعتني بنفسي («كوني حذرةً من الرجال الغرباء. لا تدعيهم يلمسونكِ. على الإطلاق»). كلا والديَّ في أفضل سلوكيهما. يحافظ أبي، بوصفه مضيّفاً، على موقف مؤدب تخللته بين الحين والحين نظرة ساخرة عرضية إلى حجي آغا فيما هو يطلق آراءه بهدوء. أمي طيّعة بصورةٍ مدهشة. تقول لأبي مساء ذلك اليوم خلال تناول طعام العشاء: «أحب الشخص الذي يكون صادقاً مع نفسه. أتمنى أن يكون الجميع ثابتين في معتقداتهم». كانت تحسب عدم المرونة قوةً، وتخلط بين الحماسة والمبدأ. وحتى أبو تراب، المتديّن بصورةٍ عميقة إنما ذو نزعة عقلية، لا يتفق معها اتفاقاً كاملاً.

يقف خلفي بينما أنا أحاول أن أنجز واجبي البيتي وينحني كي ينظر إلى دفتر ملحوظاتي. يسألني: ماذا تكتبين؟ وحين يصل إلى الأسفل ويلتقط الكتاب يعيد ترتيب تنورتي، ويداه تمسان فخذي بصورة عَرَضية.

تلك الليلة يذهب أبواي إلى حفلة. ويختلي حجي آغا في غرفته باكراً. أخي ذو السنة الواحدة من العمر ينام في حجرة نانه وأنا، كعادتي حينما يكون أبواي خارج البيت، أنام في سريرهما. درجتُ على هذه الوتيرة بعد ولادة أخي. كان ينام دوماً في حجرة نانه حينما يكونان خارج المنزل وكنتُ أشعر أنني متروكةً ووحيدةً. بشكلٍ من الأشكال، أن أنام في غرفتهما وأن أُنقل إلى غرفتي حينما يرجعان، كان يهبني إحساساً بالأمان. أحب سريرهما الكبير الرحب، وأتمتع بدفع ساقيَّ العاريتين فوق المواضع معتدلة البرودة في الملاءة.

أستيقظ على صوت أنفاس غير منتظمة بجانبي. شخص ما يمسكني برفق من الخلف، ويلمسني أسفل الخصر. المنامة الناعمة تلامس ساقيَّ العاريتين. كنتُ خائفة من الأنفاس أكثر من خوفي من اللمسة؛ كانت تلك الأنفاس تتصاعد، على ما يبدو، ويرافقها لهاث بينما هو يضمني بقوة. أحاول أن أبقى ساكنةً جداً، تقريباً أحبس نَفَسي، وأُبقي عينيَّ مغمضتين. حين أبقيهما مغمضتين ولا أتحرك ربما سينصرف مبتعداً. أنا غير متأكدة كم سيطول إمساكه بي لكنني لا أتحرك حينما ينهض فجأةً. يمكنني أن أسمعه وهو يمشي برهةً برفقٍ شديد كما لو أنه يسير في دوائر على السجادة السميكة، ومن ثم يغادر الغرفة. لا أفتح عينيَّ وقتذاك، خشية أن أستحضره من جديد.

منذ تلك الليلة تحديداً لا أستطيع أن أنام وحدي في الظلام. يعتقد أبواي أنني أحاول أن ألفت الانتباه إلى نفسي وأن أتيقن من أن

الأضواء مطفأة في حجرتي ليلاً. أنام نوماً متقطعاً وقلقاً. بقي في منزلنا ليلةً أخرى. ليس بوسعي أن أخبر والديَّ لكنني أحاول أن أتجنبه. حينما يسألني ما إذا لديَّ المزيد من الواجب البيتي، أتظاهر بعدم سماعه. وحين آن أوان مغادرته تناديني أمي كي آتي وأودعه لكنني أذهب إلى الحمّام وأغلق الباب. تؤنبني على فظاظتي تلك. تقول غاضبةً: ماذا علّمتكِ؟ حجي آغا قاسم رجل لطيف جداً. قال إنه يريد أن يودعكِ. قال إنكِ طفلة لامعة الذكاء.

جاء إلى منزلنا مرتين بعد ذلك. حاولتُ دوماً أن أفلت منه، حتى عندما يكون الآخرون حاضرين في الغرفة. ما يدهشني الآن هو كيف أنه لم يعترف البتة بأفعاله بنظرة أو إيماءة. كان له التعبير المنعزل والعطوف نفسه. وذات مرة قبض عليَّ على حين غرة. كنتُ في مأواي المعتاد في خلف الحديقة على مقربةٍ من جدول صغير. لقد أحببتُ الزهور البرية الصغيرة التي نمتْ على ضفتي الجدول. يومئذ كنتُ مشغولةً بتسليتي المفضلة: أن ألتقط الحصى وأراقبها وهي تغيّر ألوانها حينما أضعها في الماء. جاء بهدوء وقرفص ورائي، قائلاً بلِين: «ماذا تفعلين؟ أليس من المفروض أن تدرسي الآن؟» جفلتُ وتحركتُ استعداداً للنهوض، لكنه أمسك بي من خصري، ومدّ يديه كي يلمس الحصى. «آه، يا للجمال»، قال، وتحركت يداه ذهاباً وإياباً على ساقيَّ العاريتين. وعندما نهضتُ أخيراً نهض معي، وهو لا يني يتلمسني بإيماءات لا يزال يؤلمني جداً أن أصفها حتى بعد مرور هذه السنوات الطويلة جداً. في البداية فكرتُ أنني سأخترع شخصيةً خيالية حدث لها هذا الشيء وهي ليست أنا. لكن اللعبة التي اخترعناها والدي وأنا هينةً جداً مقارنةً بهذه القصة. سوف يبقى العار. وفيما بعد تعلمتُ أنه ليس مستبعداً أن تشعر الضحية بأنها مذنبة، والسبب الرئيس

أنها تغدو مشتركةً في الجريمة من خلال صمتها. فضلاً عن ذلك هنالك الذنب المضاف المتعلق بالشعور المبهم باللذة الجنسية من خلال فعلٍ مفروض عليكِ بالقوة وتحسين أنه يستحق الشجب.

«لا تدعي الرجال الغرباء يلمسونكِ». تعلمتُ قبل أن أكون مراهقة بزمن طويل أنه نادراً ما يكون هؤلاء الرجال غرباء، ممن يلحقون بكِ الأذى. إنهم دوماً أولئك الأشخاص المقربين إلينا: سائق السيارة الخاصة المهذب، المصور الفوتوغرافي الماهر، معلم الموسيقى العطوف، زوج صديقتك الصالحة الوقور والمبجل، الرجل الذي يتقي الله. إنهم أولئك الذين يثق بهم والداكِ، والذين لا يريدون أن يصدقوا أيَّ شيء يُقال ضدهم.

يصف أبي في سيرته الذاتية تفشّي نوع معيّن من الولع بالأطفال ممن هم في سن قبل المراهقة في المجتمع الإيراني، ذلك الشذوذ، كما يراه هو، نابع من الحقيقة القائلة إن «الاختلاط بين الرجال والنساء ممنوع، والذكر البالغ لا يستطيع الاقتراب من أي من النساء عدا أمه، أخته، أو خالاته وعماته». ويذهب في وجهة نظره إلى أن «معظم أنواع الجنون لها جذور في شتى ضروب الحرمان الجنسي». ويمضي مفسراً أن انحرافات كهذه لا تنحصر في إيران أو المجتمعات الإسلامية بل تحدث حيثما كان هناك كبت جنسي - وعلى سبيل المثال، في المجتمعات الكاثوليكية المتزمّتة.

لا أستطيع أن أكون غفورةً إلى حدٍّ بعيد. يمكنني عقلياً أن أفهم التعقيدات - أعرف أنه في وقتٍ ما كان الزواج من البنات اللواتي بعمر التاسعة قاعدةً وليس حراماً، وأن الرياء في نطاق هذه الحدود ليس رذيلةً بل طريقة من طرائق البقاء على قيد الحياة. إنما لا أحد من هذه

الأشياء هو عزاء. إنه لا يمحو العار. أنا ممتنة لأن المجتمعات، والناس، والقوانين، والتقاليد، يمكن تغييرها، وأنه باستطاعتنا أن نوقف حرق النساء باعتبارهن ساحرات، والاحتفاظ بالعبيد، ورجم الناس بالحجارة حتى الموت؛ وأننا الآن منتبهون لحماية الأطفال من المفترِسين. عاش جيل والديَّ في الفجر الكاذب[1] لهذه النقلة، لكن جيلي ترعرع في عالمٍ مختلف عن العالم الذي مثّله حجي آغا قاسم. غدا أسلوب حياته حَراماً بالطريقة نفسها التي غدا فيها ذلك السِّفاح، الذي كان في يومٍ من الأيام هو النموذج المقبول بين المجتمعات الموغلة في القِدم، جريمةً.

كان حجي آغا تجربتي الأولى والأكثر إيلاماً، أما التجارب الأخرى فكانت عَرَضيةً وزائلة، على الرغم من أن كل واحدةٍ منها أضافت شيئاً ما لإحساسي بالعار، والغضب، والعجز. لم يكن بوسعي التحدث عن أيٍّ منها إلى والديَّ اللذين كانا، على أية حال، بالغيْن، على غرار أولئك الذين تحرشوا بي. هل سيصدقانني أم يصدقان حجي آغا، وهو الرجل الذي كانت أمي تصغي إليه وتكنّ له الاحترام؟ وعندما كبرت تعلمتُ أن أبعد نفسي عن التجربة بأن أضعها ضمن سياقٍ أكبر. إن تحليلها باعتبارها انحرافاً اجتماعياً بدلاً من كونها تجربةً شخصية كان له بعض التأثير العلاجي: جعلني أشعر كأن لي شيئاً من السلطة على الواقع الذي لم يكن بوسعي التحكم به. كان شيئاً مهدئاً ومزعجاً معاً أن أعرف أنه ما حدث لكِ هو شيء شائع، ليس فقط في بلدكِ بل في العالم أجمع؛ وأنكِ تتقاسمين الأسرار نفسها مع فتاةٍ يافعة أو صبي يافع يعيش كل واحد منهما في أمكنةٍ

---

(١) الفجر الكاذب: ضوء قليل يكون قبيل الشروق - م.

تُسمى نيويورك أو بغداد. لكن ذلك لا يخفف من وجع التجربة وارتباكها. لم أتكلم عنها إلى أي شخص على مدى زمن طويل. لم أكتبْ أبداً عن حجي آغا في يومياتي، على الرغم من أنني استرجعتُ التجربة مراتٍ كثيرة جداً في ذهني بحيث إن تفاصيلها ما تزال حيةً حتى الآن.

بعدها بعدّة سنوات تحدثتُ أخيراً عن تجربتي إلى واحدٍ من أقاربي البعيدين. فقال لي إن حجي آغا كان سيّئ السمعة بسبب مداعبته الأطفال، وقال مدافعاً عنه إن ثمة كثيرين ممن هم على غراره. وأخبرني أن الأمر أسوأ مع الصبيان لأنه بوسعه أن يتعامل معهم بسهولةٍ أكثر. إنه يجعلكِ تجلسين في حضنه خلف مكتبٍ ما، وثمة كتاب أمامه، وفيما هو يتظاهر بقراءة الدرس بدقّة يداعبكِ ويجعلكِ متشبثةً بحضنه. وقتذاك كان قد مضى عقدان من الزمن على الحادثة التي جرت في غرفة نوم والديَّ.

كتب أبي في سيرته الذاتية قائلاً إن هذا السلوك متكرر الحدوث بشكلٍ خاص في إيران بين أولئك الذين كانوا يمارسون مهناً يلبون فيها احتياجات صغار السن، وبخاصة أصحاب مخازن الدراجات الهوائية الذين كانوا يؤجرون الدراجات الهوائية للصبيان الصغار. ويذكر رجلاً ما يُدعى حسين خان، كان لديه مخزن للدراجات الهوائية متاخم لمخزن والده في البازار. حتى منتصف السبعينات، يقول أبي، كان حسين خان لا يزال مولعاً بالصبيان اليافعين، ولا يزال يدير محله.

احتجتُ إلى وقت معيّن كي تقبل الحقيقة القائلة إن لأسرة أبي أسرارها وأكاذيبها. كانوا في الوقت ذاته مغامرين فكرياً ومتزمّتين إلى درجةٍ قصوى. حينما قلتُ لأخي إنه يبدو من الخطأ أن يكبت المرء

مشاعره إلى درجةٍ كهذه، قال لي: «ربما هكذا نشأنا». «ماذا تعني؟» «إننا نعرّف أنفسنا ليس من خلال ما نظهره، بل من خلال ما نخفيه». كان لديه قصد، إنما يومذاك بدا لي دوماً أن ما هو غير ملفوظ بوضوح لا وجود له على أرض الواقع. ومع ذلك من بعض النواحي غير الملفوظ بوضوح، ذلك الذي تم السكوت عنه وتم كبته، يصبح مهماً وجوهرياً إلى درجة مساوية لما قيل، إن لم يتفوق عليه.

إن الشيء الفظيع ليس حصراً أن أشياء كهذه قد جرتْ. إنني أعي أن الإساءات الجنسية، كالحب والغيرة، كونيان. إن ما يجعلها لا تُطاق - ولا تزال لا تُطاق - هو أنه لم يتمّ التحدث عنها والاعتراف بها جهاراً. إنه نشر الغسيل القذر، هذا ما يسمّونه. في الجلسات الخاصة، في جلسات القهوة، كانت صديقات أمي يتبادلن القصص المتعلقة بالبنات اللائي، قبل الزواج، يتم استرجاع عذريتهن بأن يُخيطن. كانت الفضائح يتم التلميح إليها، إنما على السطح هنالك مظهر خادع ناعم وصقيل، مموّه بكلمات مشرقة ومتفائلة. كانت القصص الخيالية الوقائية أكثر أهميةً من الحقيقة.

بعد مضي عقود من الزمن على ذلك وجدتُ من السهل أن أواجه بجرأة الميليشيا التي تجوب شوارع طهران مقارنةً بنومي وحيدةً في الليالي. لو كان حجي آغا قاسم حياً اليوم، هل سيكون قادراً على مواجهتي؟ أحياناً تكون مخاوفنا وعواطفنا الشخصية أقوى من الخطر الاجتماعي. ومن خلال الاحتفاظ بها سراً فإننا نسمح لها بأن تبقى مؤذيةً. عليكَ أن تبقى قادراً على أن تكشف شيئاً معيناً إذا ما أردتَ أن يفارقك، وكي تفعل ذلك عليكَ أن تعترف بأنه موجود حقيقةً. يمكنني أن أتحدث عن الظلم السياسي ومقاومته، ولكنني لا أستطيع التحدث عما جرى في ما بعد ظهيرة ذلك اليوم في حديقة منزلنا. على مدى

عقودٍ، بعد أن غدوتُ أنا نفسي كبيرة السن، كان الجنس فعل مطاوعة، شكلاً من أشكال إشباع الروح المتحررة من الجسد. وطوال عقود خامرني شعور بالغضب عجزتُ عن الإفصاح عنه تجاه والديَّ، وبخاصةٍ تجاه والدتي، كونهما لم يحمياني. لم يكنْ غضبي خلواً من إحساس بالسخرية: سعت والدتي إلى حمايتي بأن منعتني من رؤية الصبيان الذين في سني ومع ذلك كانت تثق بكل أولئك الرجال الذين أُعجبتْ بهم بسبب قوة شخصيتهم، وهؤلاء هم الذين آذوني فعلاً.

الفصل السابع

حادثة موت في الأسرة

بعد عدّة سنوات من وفاة والد أمي، أطال والداي - كل واحدٍ منهما من وجهة نظر مختلفة - التفكير في مسألة كم كانت الأشياء ستختلف لو أنه عاش زمناً أطول. أدتْ أمي واجبات مفهومة معينة لوالدها الذي أحبته وفي الوقت نفسه امتعضت منه: أن تلتقي به مرةً بالأسبوع، أن تتصل به هاتفياً بين يوم وآخر، وأن تكون مؤدبةً مع زوجته الثانية، وأن تُظهر مرارتها بوضوح من خلال عرضٍ زاخر بشتى أنواع الصمت الحافلة بالمعاني. وها هو ذا، على حين غرة، يرحل إلى العالم الآخر.

توفي بصورةٍ غير متوقعة، قرابة الفجر، بسبب نوبة قلبية. كان في الثانية والستين وكنتُ في نحو الثانية عشرة. كان أبي في ألمانيا في عمل رسمي. كنتُ متجهمةً طوال مدة تناول الفطور لأنه قبل ليلة كنا أنا وأمي قد تشاجرنا شجاراً كبيراً على بلوزة صوفية سميكة حاكتها لي. أجبرتني على لبسها كي ترى مقدار ملاءمتها لجسمي، على الرغم من حقيقة أن البلوزة لم تكنْ على قياسي كما ينبغي فضلاً عن أنني كرهتُ لونها. في منتصف الفطور تقريباً دُعيت أمي للرد على اتصال هاتفي. من ذا الذي يدق جرس الهاتف في هذه الساعة؟

لم تعد إلى مائدة الطعام لكن الخادمة رجعتْ ووجهها يحمل

مسحة التأثر. قالت: «كونا صالحين الآن، أيها الطفلان. السيدة مشغولة حالياً». رفعنا أبصارنا، متململَين بعصبية، ورمينا قطعاً صغيرةً من الخبز أحدنا على الآخر، وشربنا عصير البرتقال خاصتنا وصعدنا السلالم، مفتشيْن عن أمنا. صُعقتُ حين رأيت وجهها المبلل بالدمع. قالت من دون أن تحرر الهاتف من قبضة يدها: «اذهبا وانتظرا الخالة مينا». الأمر الذي فعلناه من دون أن نطرح الأسئلة على جاري عادتنا، مذهولَين بالدموع المنهمرة على وجهها.

كيف تخبر طفلاً أو طفلةً عند وفاة أحد الأقارب الحميمين؟ أنا ممتنة للخالة مينا لأنها كانت صادقةً وصريحةً. أخبرتنا برقّة أن جدنا توفي، وأن أمنا منحرفة المزاج إلى حدٍّ كبير. كنا بحاجة إلى أن نفكر فيها وأن نراعي مشاعرها، بخاصة أن أبانا ليس هنا كي يبدي مساعدته. هل يمكننا أن نراها؟ كنا نريد أن نعرف. «ليس الآن تحديداً، فعليكما الذهاب إلى المدرسة». «لكننا الآن تأخرنا عن المدرسة». فردتْ قائلةً: «لا حاجة بكما لأن تقلقا بشأن ذلك، فستكون هنالك رسالة موجهة إلى مديرة المدرسة».

التأثر بالظروف الاستثنائية، والإحساس بنوع من التراجيديا التي لم تُستوعب بعد، يختلطان في ذهني مع شعورٍ وقح يتعلق بالاعتداد بالنفس: الزهو عندما تعرض جروحك. أنا متأخرة عن المدرسة صباح هذا اليوم لأن جدي مات، بوسعي أن أخبر معلمتي وزميلاتي في الصف، منتزعةً تعاطفهن وفضولهن. وكتبتُ لاحقاً مقالةً حول ذلك («الحادثة التي غيّرتْ حياتي تماماً») وحتى يومنا هذا ما أزال خجلة نوعاً من المديح البالغ الذي تلقيته عن تلك المقالة. هل أحببتُه؟ هل أورثني موتُه الحزن؟ هل تعلمتُ من ذلك المصاب الجلل؟ في مقالتي كان الجواب عن هذه الأسئلة الثلاثة بالإيجاب. طلبت مني المعلمة أن

أقرأ المقالة للصف. واحتفظت أمي بدفتر الملاحظات الذي دونتُها فيه ردحاً طويلاً من الزمن. كانت غالباً ما تنقب عنه كي تقرأ مقالتي لضيفاتها، تترقرق الدموع في مآقيها بينما كانت تتلفظ كلماتي التي اخترتُها بعناية.

ذلك اليوم لم نقصد منزلنا. فبعد المدرسة أخذونا إلى منزل الخالة مينا، حيث ضيفتنا ابنتاها مالي وليلى اللتان بذلتا كل ما بوسعهما كي تسليانا. كنتُ دوماً أخاف منهما قليلاً. وكانت أمي تؤنبني في كثيرٍ من الأحيان لأنني لستُ مثلهما. كانتا مختلفتين عني تماماً: كانتا تعزفان على البيانو ومثقفتين لكنهما كذلك لائقتان جداً ومتمسكتان بقواعد السلوك المرعية. كانتا قارئتين جيدتين، لكنهما ليستا مولعتين بالكتب والمطالعة بصورةٍ مبالغٍ بها، مستقلتين ولكنهما في الوقت ذاته طاهيتان موهوبتان ومدبّرتا منزلٍ نظيفتان.

تناولنا كثيراً من الآيس كريم. حكينا نكاتٍ سخيفة. وضعنا مساحيق التجميل على وجه أخي الحلو والمذعن، ووضعنا قبعة قش مزينة بالأزهار وبشريط وردي على رأسه، وجعلناه يستعرض حول المنزل حاملاً حقيبة يدوية. وعندما رجعت الخالة مينا، قبل الغداء بقليل، ضبطنا أنفسنا والتزمنا الجد. قالت: «نزهت ما تزال هناك، تحاول أن تقدم المساعدة». وقال زوجها: «إنها تؤدي واجبها لا غير». وأضافت الخالة مينا: «نزهت لا تتهرب من واجباتها. إنها بالأحرى تبالغ في. . . » قاطعت نفسها والتفتت إلى ابنتها قائلةً: «ليلى، خذي هذا الطفل إلى الحمام واغسلي تلك القذارة من على وجهه». وبينما هي تنظر إلى وجه أخي انخفض صوتها. «ما كان يلزمكَ أن تقبل بهذا، للعلم. فلستَ لعبتهن».

بعد أيام قليلة حينما شاهدتُ صورة جدي في الصحيفة التي كانت

ملقاة على الطاولة في منزل الخالة مينا، انفجرتُ باكيةً. قالت ليلى: «تأخرتِ نوعاً ما عن البكاء، أليس كذلك؟» بطريقةٍ غير بارعة حاولتُ أن أشرح لها كيف أن موته لم يصدمني إلى أن شاهدتُه هناك، بجانب صورته في الصحيفة. كان ذلك حقيقياً بالقدر الذي كانت فيه مقالتي الوجدانية مشكوكاً فيها، لكن ريبتها أجهضت مسعاي في عرض الحزن الذي تملّكني وقتذاك.

بعد يومين من وفاته، ذهبنا جميعاً إلى منزل جدي. كان ذلك في الصباح الباكر وكان المنزل هادئاً نسبياً. كانت أخت زوجة جدي الصغرى، وهي سيدة عطوفة أحبتها أمي حباً جماً، هناك مع ابنتها وعجوز نبيل، وهو من أقارب زوجة جدي البعيدين. جلسنا برهةً في حجرة المعيشة معتدلة البرودة والمظلمة. واصلتُ تمليس تنورتي. وجلس أخي بأدب إلى جانبي، وحينما قدموا لنا المعجنات، أخذ كل واحد منا قطعةً صغيرةً منها وتركناهما على طبقينا، من دون أن نمسهما. كان محمد يضرب كرسيه بقدميه. كانت ضرباته خفيفة. تطلعتُ إلى الصور الموضوعة على رف الموقد. كان هناك جدي ببذلة سوداء وربطة عنق فراشية الشكل؛ عمي الوسيم علي يبتسم في مواجهة عدسة آلة التصوير؛ الخالة نفيسة بشعرها المنسدل إلى كتفيها، ترتدي فستاناً أسود اللون مع دبوس زينة (بروش) من الماس. هي ذي ثانيةً مع ابن خالتي بين ذراعيها، وثانيةً مع زوجها. وقعتْ عيناي على صورة فوتوغرافية قديمة لزوجة جدي أُخذت في سنوات ماضية، حينما كان شعرها لا يزال بنياً فاتحاً، عارضةً كتفيها العاريتين، رأسها مرتد إلى الوراء، لا تبتسم فقط بل إنها تقهقه. وليس هنالك صورة واحدة لأمي أو لنا، نحن أفراد أسرتها.

بعد محاولات عابرة قليلة خلال حوارٍ ما، نهضت زوجة جدي

التي كانت تحكي للعجوز النبيل عن «كيف حصل الأمر» وأرشدتنا إلى الطابق العلوي وتحديداً إلى الغرفة التي فارق فيها جدي الحياة. مشت أمامنا وتبعناها في موكب، كما لو أننا نقوم بجولةٍ في المنزل. يبدو أنه شعر بعدم الارتياح قرابة الفجر. إذ غادر غرفة النوم وجاء إلى الغرفة الصغيرة الملاصقة لغرفتهما - ألم تكنْ هذه غرفة نومه وكانا ينامان في غرفتين مختلفتين؟ في هذه الغرفة، المليئة بنور الشمس، ثمة سرير صغير ملاصق للجدار. قالت إنه استدعاها قائلاً إنه لا يشعر أنه على ما يرام. أصرّت زوجة جدي على إخبارنا كيف أنه جاء إلى غرفتها، وأيقظها من نومها، وكيف أنها استدعت الطبيب، وكيف أنه في هذه الغرفة، وعلى هذا السرير الضيق، وجهاز قياس ضغط الدم ما يزال مربوطاً به، فارق الحياة.



زوجة أب أمي. توفيت أمها عندما كانت أمي نزهت صغيرة جداً.

بعد عقود من الزمن عاد هذا المشهد مسرعاً إلى بالي. إنه اليوم الذي أعقب وفاة أبي واتصلت هاتفياً بطهران كي أنقل مواساتي لزوجته الثانية. تقبلت كلمات التعازي خاصتي لكنها لم تقلْ كم هي حزينة على وفاة أبي، وكم هي حزينة عليَّ وعلى أخي. وبدلاً من ذلك انهمكت في وصف طويل ومفصل يتعلق بالكيفية التي أمسك بها بيدها وأخبرها أنه لا يلزمها أن تقلق وكيف كان ممتناً لرعايتها ودعمها. وصفت شكله، وحزنها هي. كانت نبرة صوتها مشحونةً بشيءٍ آخر غير الحزنْ، لعله الطمع. لم تكن قد استولت على ممتلكاته الدنيوية فقط

بل عليه أيضاً. *كانت هناك*. تلك الغرفة، كلماته الأخيرة، عجزه، كانت كلها ملكها. أما نحن فكنا غرباء، تُركنا خارجاً في البرد.

رجع أبي بعد أيام قليلة، لكنه حتى وقتذاك كان مشغولاً هو وأمي بترتيبات الجنازة التي تركناها بشكل أو بآخر للخالة مينا. أسير من غرفة إلى غرفة أجمع شذراتٍ من الحوار. سمعتُ والدي يقول للخالة مينا: «كان رجلاً صالحاً، لكنه بسيط وحساس على غرار نزهت. كان قد تأثر بزوجته، لكنه في المدة الأخيرة ندم على معاملته لـ نزهت وكان يقوم بإصلاح تلك المعاملة».

قالت الخالة مينا: «أمكِ ترمي نفسها في هذه المسألة بحماسة كبيرة. كانت فخورةً دوماً بالاعتراف بذلك، لكنها لم تكنْ تملك منزلاً حقيقياً. كانوا يعاملونها وكأنها تمتّ إليهم بصلة ضعيفة، لكن تلكم الأيام أضحت راهناً من ذكريات الماضي، ولم تعد تحتاج إليها بعد الآن. ربما لو أنها عبّرتْ عن غيظها بصراحة لكان والدها قد أولاها مزيداً من الاهتمام. كُلي تفاحتكِ»، قالت بعد مضي دقيقة بابتسامة خجولة. «إن عدم وجود أمكِ هنا لا يعني أن باستطاعتكِ أن تتصرفي بصورة سيئة!»

لاحقاً، فهمتُ الحكمة الكامنة في وجهة نظر الخالة مينا. في كل نقطة تحوّل في حياتها كانت أمي تغتنم الفرص كي تحوّل أو تتفوق على علاقتها مع عائلة زوجة جدي، لا لأنهم رفضوا أن يغيروا مواقفهم منها فقط، بل بصورةٍ رئيسة لأنها لم تكنْ قادرةً على تغيير مواقفها هي. وحتى النهاية أدامت بصورة مدروسة قابليتهم على إيذائها. وأضحى الامتعاض والزهو بداخلها كياناً ماكراً وخبيثاً.

بعد عدّة أسابيع من وفاة جدي، كنا ذاهبين بالسيارة إلى منزله

حينما قالت أمي شيئاً ما عن فقدان أبيها وكيف كان حاميها الوحيد في العالم، وفقدت الخالة مينا صبرها. كان جدي يعيل سراً عدداً من الأسر الفقيرة، وهي حقيقة أخفاها عن أفراد أسرته. هذا الاكتشاف عزز احترام أمي له أكثر وأقنعها بإيثاره الفطري. فيما بعد تدّعي (وهي تنظر إلينا نظرات جانبية غاضبة جداً) أن «الناس» اغتنموا طبيعتها النزاعة إلى الثقة بالآخرين بالقدر نفسه الذي اغتنموا فيه كرم والدها. قالت الخالة مينا بتوكيد: «ماذا فعل لكِ أبوكِ بعد وفاة سيفي؟ كان رجلاً صالحاً غير أنه لم يكن أباً صالحاً بالنسبة لكِ. أبعدي موته عن ذهنكِ». فردت أمي بسرعة: «لا أستطيع أن أبعده عن ذهني. إنني مدينة له بكل شيء. فقد كان الشخص الذي حماني حينما كنتُ يافعةً. الآن ليس لي أحد في هذا العالم». أدارت الخالة عينيها.

«أتمنى أن تعيشي حياتكِ»، قالت لي الخالة مينا، بعد أن ترجلتْ أمي من السيارة وكنا نشق طريقنا صوب المنزل. «يبدو أن نزهت نسيت كل شيء. هذا الأب الصالح أرسلها إلى المدرسة مع سائق خاص لكنه نسي أن يشتري لها ثياباً محتشمة. أتذكر ذات مرة أننا كنا نأخذ صورة فوتوغرافية مدرسية وأمكِ هي الطالبة الوحيدة في الصف من دون سترة. كان يلزمها أن تستعير سترة إحدى الطالبات من أجل الصورة الفوتوغرافية. لقد أحسنت صنيعاً، لكنني أتذكر مبلغ الإذلال الذي شعرتْ به».

فيما بعد، قال لي أبي إن جدي في سنته الأخيرة شعر بذنب متزايد فيما يتعلق بمعاملته لوالدتي. أجبره إحساس متأخر بالمسؤولية على محاولة إصلاح معاملته. كان قد أبدى استعداده لتحويل رواتب سنوية لحساب والديَّ وحتى موّل تشييد منزل جديد، طالما أنهما لم

يمتلكا منزلاً. قال أبي: «نزهت ليس لديها حظ. لو كان عاش زمناً أطول لكانت الأمور تغيّرت ربما».

طوال بقاء والدها حياً، كان لامتعاض أمي هدف حي، وكانت حكايتها الأثيرة رومانس سيفي. إنه الأمير الذي أنقذها. لقد أحبت والدها إنما كانت هنالك حواجز من سوء الظن والأذى. كانت البنت العفيفة والمهملة التي لم تطلبْ شيئاً. طوال بقائه حياً كانت ثمة غرفة لها في منزل أبيها، لكن ما الذي سيحدث الآن بعد أن صار في عداد الأموات؟ تقول للخالة مينا: «ذلك المنزل لم يعد لي». قالت لها الخالة مينا: «نزهت، خذي حصتكِ واخرجي. فهم لن يعطوكِ أبداً ما تظنين أنه ملك لكِ». بعد وفاته، اكتسب والد أمي منزلةً مقدسةً بالنسبة لها ولم تعد تلومه على مظالمه السابقة، لذلك، بدلاً منه، راحت تلوم زوجها.

في الجمعة التي أعقبت وفاة جدي، اجتمع حشد من الناس في غرفة المعيشة بمنزلنا كي يعبّروا عن إجلالهم له. أشادوا بأعماله الخيرية واستشهدوا بمغامراته السياسية الفاشلة بوصفها أمثلة على كماله. كان مزاجه سريع الاهتياج علامة على طبيعته الصريحة، وعلى عدم قدرته على تحمّل أي شكل من أشكال الرياء. وألقت أمي خطبةً في موضوع: كيف كان أبوها صالحاً، وكيف أبدى اهتماماً أكثر بتنشئتها مقارنةً بتنشئة ذريتها. لن أنسى ما حييت الطريقة المؤثرة التي ذكرت فيها، كدليل على محبته، العقوبات التي خصصها لها وحدها، وكيف أنه، في السنة الأخيرة من حياته فقط، دعاها سراً كي يخبرها أنه سيدفع تكاليف المنزل الذي كانت تروم تشييده. قال لها: «لا تدخري أي تكاليف. أريدكِ أن تملكي المنزل الذي تستحقينه». قالت دامعة العينين: «الآن، لن أسكن أبداً في ذلك المنزل؛ لن أطيقه!»

أصبح المنزل استعارة لعلاقات أمي بأولئك القريبين جداً منها.

أمضت الأسرة كلها ساعات طويلة في إبداعه. جرت مناقشة كل زاوية من زواياه، وجرى التفاوض مراراً عن كل فضاء من فضاءاته بين والديَّ والمهندس المعماري الشاب. صار من عادتنا أن نزور الهيكل غير المكتمل، كما لو أننا نزور صديقاً قديماً. وحتى أنني لبستُ قميصاً خاصاً لأُري الصبّاغ اللون الدقيق الذي أريده لغرفتي. أتذكر الجلوس عند المسبح المطلي حديثاً، مسمّرةً لدى رؤيتي فأر أبيض في الزاوية كان قد تسمم بسبب دخان الطلاء. ما إن اكتمل بناء البيت حتى اختلقت أمي شتى الأعذار كي لا تنتقل إليه. حين قالت إنه ليس باستطاعتها السكن هناك لأنه يذكّرها بوالدها، اقترح أبي أن لها ذكريات أكثر في بيتنا الحالي. فردت على الحجة بمثلها قائلةً إن المنزل الجديد بعيد جداً عن مركز المدينة ولهذا فهو غير مناسب. وفي النهاية أجّرا البيت أولاً وفي الختام باعاه ولم ننتقل إليه مطلقاً.

فيما يتعلق بهذه المسألة، في صيف سنة ١٩٦٠، قلما كان والدي يأتي إلى البيت. كان شاباً طموحاً، يرتقي بثبات السلّم الوظيفي في الخدمة الحكومية، وقد عيّنه الشاه في منصب وكيل محافظ طهران. كنتُ أنا وأمي في هذه الآونة نتشاجر يومياً تقريباً. كانت ترفض السماح لي بالذهاب خارج البيت مع صديقاتي. يومياتي مليئة بمشاعر الإحباط، وإحساسي بأنني متروكة. في مطلع يومياتي المؤرخة في الحادي والعشرين من مارس (آذار)، قبيل السنة الفارسية الجديدة، حيث كان من المفترض أن نذهب إلى مكانٍ يُدعى (سيفيد رود) لقضاء العطلة هناك رفقة أسرة الخالة مينا، كتبتُ: «حينما كنتُ أغسل أسناني بالفرشاة سمعتُ أمي تقول لأخي: (لا يمكنني أن آخذها بعد الآن، فهي تشوّه سمعتي. لن أقصد [سيفيد رود] صحبتها. إنها لا تحبني، إنها تنتظر لحظة موتي)».

الجزء الثاني

الدروس والتعلّم

«لكن أليستْ كل الحقائق أحلاماً
ما دمنا نضعها خلف ظهورنا؟»

– إميلي ديكنسن

الفصل الثامن

مغادرة الوطن

إذا كنتُ في المنزل خاضعةً للإذعان، فإنني في المدرسة سرعان ما اشتهرتُ بكوني طفلةً صعبة المراس. كان زيي المدرسي دوماً بلون الحبر. درجاتي جيدة، غير أنني كنتُ أحب الأدب، والتاريخ، والجبر وأبديتُ اهتماماً قليلاً ببقية الدروس. كوّنتُ أنا وعدد قليل من صديقاتي جماعةً سريةً سميناها (الشياطين الحمر)، كانت رسالتها الانتقام من المعلمات. ونظمتُ إضراباً ضد معلمة اللغة الإنكليزية حينما كانت تنصرف إلى قضاياها الشخصية، وتصرّ خلال الدرس كله على الحديث عن زوجها.

أنا وصديقاتي ألّفنا أغاني عن الدكتورة بارساي، المديرة الصارمة، ذات الأنف الأفطس، حيث رحنا نطوف حول فناء المدرسة مرددين الأغاني خلال الفرص بين الدروس وفي وقت الغداء. كانت تقف كل صباح أمام مدخل المدرسة وتعايننا بدقة أثناء دخولنا. كانت توبخ الطالبات اللواتي يلبسن زياً مدرسياً قصيراً جداً، واللواتي يرتدين جوارب من النايلون بدلاً من الجوارب البيض، أو اللواتي يضعن مساحيق التجميل أو طلاء الأظافر، أو تعيدهن إلى البيت. كنا نهزأ من مظهرها، ونفكر في ما إذا كانت لها حياة جنسية مع زوجها جديرة بأن تتحدث عنها. كيف يقدر المرء أن يُغرم بها؟ وذات مرة، حينما طُردتْ

إحدى صديقاتي ومُنعتْ من مواصلة بقية دروسها، قاطعنا أنا وثلاث من (الشياطين الحمر) الدرس. لم تدم مقاطعتنا أكثر من يومين. كان أبي يُستدعى إلى المدرسة كل أسبوع تقريباً، إلا أن هذه الإساءة الأخيرة كانت خطيرة. وقيل لنا إنه من الممكن تعليق دراستنا.



الدكتورة بارساي.

على مدى زمن طويل كلما أسمع شيئاً عن الدكتورة بارساي، كانت مشاعر الحقد نفسها تُستثار بداخلي. وعلى غرار أمي كانت رمزاً لسلطةٍ كنتُ أشعر بدافع غريزي بالتمرد عليها. تذكرتُ التعبير الصارم البادي على وجهها، موقفها العنيد، نبرة صوتها الآمرة التي جعلتني أرغب في إيقاع الفوضى في الصف وتحريض الأخريات على التمرد. ولم أصبح مفتونةً بحياتها إلا بوفاتها بعد سنوات عدة، وتحديداً في سنة ١٩٧٩. آنذاك عرفتُ أن أمها كانت من بين أوائل النساء اللواتي حاربن من أجل حقوق النساء في إيران؛ وبسبب ذلك هوجمتْ ونُفيتْ مدةً من الزمن. كان من الجائز أن تكون الدكتورة بارساي من أوائل النساء اللواتي يدخلن البرلمان. كانت عضوةً في البرلمان على مدى سنوات عدة وفي السبعينات أصبحت وزيرة التربية. كانوا قد عهدوا إليها مهمة تغيير المناهج الدراسية، وتطهيرها من كل ما يحط من قدر الفتيات والنساء. بعد الثورة اعتقلوها، وفي محاكمة موجزة حكموا عليها بجريمة الفساد على الأرض، وشن الحرب على الله، ونشر البغاء، والعمل لصالح الإمبرياليين. وقالت الشائعة إنها بسبب كونها امرأة وينبغي ألا تُمس،

وضعوها في كيس. كانت طريقة موتها غير واضحة، قال بعضهم إنه عُثر على عيارات نارية أُطلقت على الكيس، بينما قال آخرون إنها رُجمتْ بالحجارة حتى الموت. واستناداً إلى سيرة ذاتية حديثة كانت قد شُنقت مع عاهرة، لكن شهادة الوفاة خاصتها تشير إلى أن «سبب الوفاة: جروح ناجمة عن إطلاقات مسدس». أكانت هذه هي النهاية التي يدخرونها لتلكم النساء الذكيات اللواتي لم يضعن هباءً؟

على غرار معظم نقاط التحول الكثيرة جداً في الحياة، بدأ قرار والديَّ بإرسالي إلى بريطانيا بهيئة حديث موجز. أخبرني أبي أن الدكتورة بارساي أوصتْ بأن أذهب إلى خارج البلاد، كي تحميني من «صديقات السوء» في المدرسة. وفيما بعد قال لي إنه يريد أن يحميني من كراهية والدتي، من غضبها وحقدها اللامتناهيين. في الواقع، لا بد أن هنالك جملة من الأسباب حدتْ بوالديَّ أن يتخذا قرار إرسالي إلى خارج البلاد. كانا يريدانني أن أحصل على «أفضل تعليم»، لكنهما أصرّا على أن دوافعهما كانت مختلفة عن دوافع أُسر الطبقة العليا التي شرعت ترسل أولادها وبناتها إلى مدارس داخلية حديثة الطراز في بريطانيا وأوروبا. وتأكدا من أنني فهمتُ أنهما حتى إذا *كانا* قد حبذا الفكرة، فإنهما فقط لا يملكان المال الكافي لمثل تلك الأشياء. سوف يضحيان إذا جاز التعبير. إن عدم امتلاك المال سوف يكون رمزاً ذا قيمة في أسرتنا. في الحقيقة لم أستطع أن أكتشف كم هو المال الذي يُعد مالاً كافياً.

نوقشتْ مسألة دراستي خارج البلاد أول مرة حينما كنتُ في المرحلة الثامنة، ويومياً كان هنالك نقاش جديد حول المكان الذي يجب أن يرسلوني إليه. وُضعتْ أمريكا في الاعتبار مدةً قصيرةً. كان

والدي يفضل الولايات المتحدة. كان قد تم إرساله إلى الجامعة الأمريكية في واشنطن، ولاية كولومبيا، لنيل شهادة الماجستير في المحاسبة والمالية خلال عمله في وزارة المالية في مطلع عقد الخمسينات. كان متأثراً بالطبيعة الجيدة وحسن ضيافة الناس الذين التقى بهم، وأكثر من أي شيء آخر كان متأثراً بحريتهم في أن يصبحوا ما يشاؤون. شعر أبي أن أمريكا مكان جيد لفتاةٍ مثلي.

أما أمي فكانت ضد فكرة ذهابي إلى هناك: قالت إن الناس هناك أجلاف، والمسافة بعيدة جداً. أُخذت سويسرا بعين الاعتبار إلا أنها رُفضت بسبب كونها غالية جداً. بين الحين والآخر تقول أمي: «إنه عار ألا تستطيع آذي التحدث بالفرنسية؛ أخي علي، بوسعه أن يهتم بها». كان خالي علي يقيم في باريس، حيث نال شهادته في الطب. كان لديَّ إحساس أنها لا تريدني أن أذهب إلى فرنسا أو حتى أن أتعلم الفرنسية لأنها شعرت أنها منطقتها. «أرجوكِ، لا تنطقي كلمة أخرى»، تقول حينما، أخيراً، درستُ الفرنسية في الكلية، «ليس بتلك اللكنة. فإما أن تتكلمي الفرنسية باللكنة الصحيحة أو لا تتكلمي بها على الإطلاق». ومن ثم تكرر ما قالته مرات كثيرة جداً من قبل: حين زارت باريس قبل سنتين، تركتْ انطباعاً قوياً لدى الجميع بسبب تمكنها من اللغة بحيث ظنوها مواطنة فرنسية تتكلم لغة بلدها. في النهاية، أصبحت اللغة الفرنسية حصناً لم يكنْ بوسعي التغلب عليه. كنت أتورد خجلاً وأتلكأ نوعاً عندما يحيط بي الفرنسيون: لم أشعر بأني مرتاحة كفايةً كي أجيب على أبسط سؤال.

كان الفرنسيون أقاربنا رفيعي المنزلة، بخاصة الرجال من طراز نابليون وديغول، إلا أنها كانت معجبةً جداً بالبريطانيين. كانوا مراوغين، مؤدبين إلا أنهم متكتمون أيضاً، لا يُظهرون ما يدور حقيقةً

في خلدهم. فكيف استطاعوا أن ينتصروا على العالم، وهم الذين ينتمون إلى جزيرة صغيرة؟ ما أزال أتذكر سجالاً بين أبويَّ بعد حضورهما حفلة استقبال على شرف لندون جونسون، الذي كان يومذاك نائب رئيس الولايات المتحدة الأمريكية. كان أبي وقتذاك محافظ طهران وكانا مدعوَين لحضور حفل الاستقبال الذي أقامته وزارة الخارجية. سألت أمي جونسون ما إذا بوسعه أن يزكي المدارس الممتازة في أمريكا التي يستطيع أن يكتسب فيها المرء تعليماً بريطانياً رصيناً. فسألها أبي ساخطاً: «ألا ترين أن هذا السؤال مهين نوعاً ما لنائب الرئيس الأمريكي؟» فردت أمي على الفور: «يلزمه أن يشعر بالامتياز. هو نفسه على الأرجح أُرسل إلى مدرسة بريطانية جيدة».

ولع أمي بالتأديب البريطاني ربما هو الذي أقنعها بأنني في بريطانيا ربما سيعيدون تشكيلي من جديد. وفي خاتمة المطاف كانت (عمة همدام)، وهي ابنة عم محببة إلى القلب، هي التي حلت المسألة. كان أولاد زوجها قد أقاموا في منزل رجل إنكليزي محترم يُدعى السيد كمبستي، يمتلك منزلاً واسعاً في مدينة لانكستر يُسمى منزل سكوتفورث. وباستطاعتي أن أمكث معه وأكون في حمايته وأن أذهب إلى مدرسة محلية. كانوا قد وافقوا على أن تصحبني أمي مدة ثلاثة أشهر، كي ترى أن الأمور على ما يرام، وتقرر ما إذا كان المكان مناسباً لي.

أخبرني أبي بفخر في عصر يوم ما، بينما كنا نذرع الشرفة الواسعة لمنزل الخالة نفيسة جيئةً وذهاباً، أنني محظوظة، فلم تكن له ولأمي مثل تلك الفرصة، ولم يكنْ هنالك أحد يهتم بمستقبلهما إلى أدق التفاصيل. كان يريدني أن أكون حسنة التعليم ومستقلة - كلا الوالدين كان متحمساً جداً لفكرة تعليمي واستقلالي. وذكّرني أبي من جديد

بتصميمه على مغادرة أصفهان مفلساً ومن دون أن يعرف أحداً. قال لي: «إن منزلتكِ في المجتمع والاحترام الذي ستكتسبينه ليس له صلة بما ورثتِه. أنتِ ذاهبة إلى هناك من أجل التعليم، إلا أننا نتوقع منكِ أن تعودي وتخدمي بلدكِ - مكانكِ هنا، في هذا البلد الذي وهبك كثيراً جداً». المنزلة في المجتمع، وخدمة البلد - كل شيء في أسرتنا محمّل بالمعنى.



العم سعيد.

أمضينا الشهر الذي سبق مغادرتي في فورةٍ من حفلات التوديع. زرنا مختلف الأقارب وكبار السن من أسرتنا معبّرين عن احترامنا لهم. في أمسية خاصة جديرة بأن تُذكر، أخذني أبواي لزيارة الأخ الأكبر لعمة همدام: سعيد نفيسي، الذي كنا نسميه (عمو سعيد) أو (العم سعيد). درس عمو سعيد في مدرسة ثانوية أوروبية. كان ضليعاً جداً في الأدب والتاريخ معاً، وكان من أشهر مثقفي إيران العصريين. ففضلاً عن أعماله العديدة في التاريخ الإيراني والأدب، ألّف أعمالاً عديدة في الفن القصصي، ولديه قاموس فرنسي - فارسي، وترجمات كثيرة، من بينها «*إلياذة وأوديسة*» هوميروس تحمل اسمه. يكمن ضعفه الرئيس في غزارة نتاجه الأدبي، فقد كان بوسعه أن يكون في الوقت نفسه نافد البصيرة وسطحياً، شديد التدقيق في التفاصيل ولامبالياً.

يأخذني أبواي عادةً إلى منزله الواقع في نهاية (زقاق نفيسي)، وهو شارع جانبي مهجور على ما يبدو، ذو جدول جاف يجري في

الوسط. كان المنزل بارداً بعض الشيء ورطباً خلال فصل الشتاء. كان المنزل معتماً دوماً، كما لو أنه مهما كان وقت اليوم، كان يبدو أن المساء قد حل إلى الأبد. وبدا الأثاث كأنه يخبو في محيطه، خالقاً الوهم بأن الأرائك والكراسي البالية هي أشياء شبحية، وهمية كالأسرار التي تخيلتُها تتسكع في ظلال ذلك المنزل الرائع.

كانت الحجرة الوحيدة المضيئة في المنزل هي المكتبة، حيث كانت هناك أكداس من الكتب تملأ الرفوف وتتكوم بصورةٍ غير مستقرة على الأرض. بدت لي الكتب نابضةً بالحيوية، كالسلاحف ذوات الظهور المربعة والسيقان غير المرئية. كلما نزور عمو سعيد يرسلني في لحظةٍ ما، بابتسامة نادرة مخفية تحت لحيته الكثة، إلى مكتبته محدداً الموقع الدقيق لكتابٍ معيّن كان عليَّ أن أجلبه له. أغلب الظن أني بسبب ذلك كنتُ أتخيل دوماً الأمكنة المسحورة ليس بوصفها صروحاً بهيةً بل باعتبارها خرائب شبه ظليلة، تعززت فخامتها من خلال الأسرار المختبئة في زواياها المظلمة.

كان عمو سعيد نفسه ملائماً لأن يلعب دور العراف، يسيطر على الألغاز التي كنتُ أتحرق شوقاً لاكتشافها. كان طويل القامة ونحيفاً، جسده ممدود بصورةٍ لافتة - وبدا هو مطاطياً تقريباً. لم يكنْ وجهه عطوفاً ولا فاتر العاطفة بل حسياً، بعينين بنيتين كبيرتين بدتا، من وراء نظارتيه بالإطارين الشبيهين بالقرن، منجذبتين بصورة سرمدية إلى نقطةٍ أو غايةٍ ما مجهولة وغير مرئية. ولأنه قلما ينظر إلى أي فرد مباشرةً فقد صُعقتُ دوماً عندما أدركتُ مبلغ يقظته.

كان عمو سعيد يكبر أبي بنحو عشرين سنةً. وخلال شبابه عاش أحداث (الثورة الدستورية)، التي قلصت جذرياً سلطة الملك الاستبدادية وسلطة رجال الدين التقليديين، ورأى سلالة القاجار وهي

تتعرض للإطاحة على يد ضابط قوزاقي تُوج لاحقاً بوصفه رضا شاه بهلوي. شرع رضا شاه يخلق دولة - أمة متماسكة، شيّد مؤسسات حديثة، وأسّس نظاماً قضائياً علمانياً، وكوّن سلطة مركزية بمساعدة شبكة من سكك الحديد، وحسّن وضع القوات العسكرية. كانت إيران تندفع إلى الأمام، إلا أن الاستبداد القديم لم يضمحلْ كلياً، إذ عاود الظهور من جديد بشكلٍ مختلف بهيئة دكتاتورية سياسية حديثة قوّضت باستمرار المؤسسات التي شيدتها هي نفسها، وبخاصة البرلمان والنظام القضائي.

في سنة ١٩٢١ أسّس عمو سعيد وثلّة من زملائه الكتّاب والمثقفين إيراني جافان (نادي إيران الشباب) - وهي جماعة كانت تهدف إلى إنشاء إيران ديمقراطية. كانت تدعو إلى إلغاء كل الامتيازات الشرعية والقضائية للمواطنين الأجانب؛ بناء سكك حديد في شتى أنحاء البلاد؛ منع الأفيون؛ التعليم العام الإجباري؛ تخفيف القيود المفروضة بحيث يستطيع عدد أكبر من الشبيبة الإيرانيين الدراسة خارج البلد؛ تشييد المتاحف، المكتبات، والمسارح؛ تحرير النساء؛ ما أسموه «تبني النواحي التقدمية من الحضارة الغربية»؛ وأخيراً: تأسيس دولة علمانية وفصل القوانين المدنية عن القواعد الدينية. إنه معيار يتعلق بالكيفية التي تغيرت بها الأشياء بحيث إن الجيل التالي من الإيرانيين - جيل أبي - كانوا أعضاءً في ذلك النادي نفسه، وأقصد (نادي إيران الشباب)، إلا أنه وقتذاك تحوّل من جمعية ثقافية وسياسية نابضة بالحيوية إلى نادٍ اجتماعي وخاص بالمقامرة، حديث الطراز.

كان عمو سعيد موضع جدال مستمر في كنف أسرتنا. فقد اكتسب قدراً كبيراً من سوء السمعة حين نشر روايةً تصف أشخاصاً حقيقيين وأحداثاً فعلية حملت عنوان «*نصف الطريق إلى الجنة*»، أظهر

فيها انحطاط النخبة الإيرانية وعجزها السياسي وولاءاتها الملتبسة للقوى الأجنبية، وبخاصة القوة البريطانية كلية الوجود. الإيرانيون البارزون الذين تم قبولهم في محافل الماسونيين وُصفوا باعتبارهم عملاء للحكومة البريطانية. وتَّر الكتاب علاقة عمو سعيد بأخيه: وزير المالية، حيث استهدف (بشيءٍ من الظلم) أصدقاء الأخير في روايته. كانت وجهات نظره فيما يتعلق بهذه القضية مبالغ بها أحياناً، وكانت أقرب ما تكون إلى جنون العظمة.

كان عمو سعيد رجلاً يصعب التعامل معه. وكانت أسرته فخورةً بشهرته الأدبية لكنها غاضبة باستمرار من هجوماته على أصدقائها وأندادها. وفيما بعد أُرغم على مدح الشاه وسحب انتقاداته بحيث يكون قادراً على الكتابة وكسب رزقه الشحيح. وعلى الرغم من هذا، وحقيقة أن عمو سعيد كان يقضي معظم سنوات حياته في قلق مستمر بسبب مصاعبه المالية (مما أدى إلى نزاعات عائلية وتوتر بين الزوجين)، كانوا يتحدثون عنه في أسرتنا بكثير جداً من الرهبة والتبجيل بحيث إن طريقته في الحياة قدمت نفسها بديلاً عن الثروة والسلطة اللتين كان أبواي يشتهيانهما ويجتنبانهما معاً. لا مشاكله المالية، أو الشخصية، أو السياسية، أقصت الصورة التي كوّنتُها عنه بوصفه عرافاً من نوعٍ ما.

ذلك المساء، حينما مضينا للتعبير عن احترامنا لـ عمو سعيد، التفت إليَّ، وأبقى عينيه تحدقان إلى الأسفل، وقال: «لعلكِ لا تعرفين هذا، إنما حين أرسلوني إلى أوروبا فقط حفنة من الناس كانوا قد مضوا إلى الخارج من قبل. العالم، عالمنا هنا، أصغر بكثير. التعليم هو الذي نتوق إليه توقاً كبيراً. أتمنى ألا تعتبري ما تملكينه الآن متوفراً دوماً». ومن دون أن ينتظر ردي أضاف قائلاً: «حسن، ستكونين حرة

بدءاً من الآن. هل فكرتِ ماذا تريدين أن تكوني؟»

كنتُ أروم القول إنني أرغب أن أكون مثلك، إنما بدا ذلك متملقاً جداً، لذا قلتُ إنني لا أعرف. قال: «يجب أن يكون لكِ قدوة من نوعٍ ما». همستُ أن ليس لي أي قدوة. وفي الحال حينما قلتُ ذلك، وحتى قبل أن أكمل كلامي، عرفتُ أنني وقعت في مشكلة. «حسن، لا بد أن يكون هنالك شخص ما تضمرين له الإعجاب، شخص ما ترغبين أن تكوني مثله». «رودبه»، قلتُ أخيراً من دون تفكير، وأنا أفكر في بطلتي الأثيرة من كتاب *«الشاهنامه»*.

قال: «حسن، حسن، ليس رستم بل رودبه، اختيار لا بأس به. من الغريب أنكِ فكرتِ فيها. اذهبي إلى المكتبة»، وأعطاني موقع كتاب معيّن. أعطاني الكتاب وقال لي: «هذه هدية سفركِ. في يومٍ من الأيام ستقرئين هذا الكتاب وربما تشكرينني عليه. إنني أعطيكِ إياه لأنك معجبة بـ رودبه». كان الكتاب الذي وهبني إياه هو *«ويس ورامين»* من تأليف فخر الدين غورغاني الذي عاش في زمن الفردوسي تقريباً.

ذلك المساء، حينما كنا سائرين صوب السيارة عبر الزقاق الضيق الملتوي بجدوله الجاف، كان باستطاعتي أن أحس باستياء أمي. كان يلزمني القول إنها قدوتي. لم تكنْ تفرّق بين القضايا الكبيرة والتافهة. في السيارة كانت صامتة وكذلك أنا، هي بسبب غضبها وأنا بسبب معرفتي أنني سبب ذلك الغضب. حاول أبي أن يكسر التوتر بسلوكه الاسترضائي المألوف.

قال وهو يتخذ نبرته الوعظية: «يلزمكِ أن تعرفي أنه حينما كان عمو سعيد صغيراً لم تكنْ هنالك مدارس مناسبة في البلد. كان أولاد

الطبقات الراقية يتلقون تعليمهم إما في البيت أو *المكاتب*، وهي حجرات صغيرة يُحشر فيها الطلاب من مختلف الأعمار من الصباح الباكر حتى المساء ويعلّمهم رجال دين من الدرجات المتواضعة. كان عمو سعيد من بين الأوائل الذين التحقوا بمدرسة عصرية. في الواقع، والده: الطبيب الشخصي للملك، هو من بين الأوائل الذين أوجدوا مدرسةً كهذه». ولم يكنْ ثمة جواب من أمي ولا مني، وتابع أبي كلامه بصورة عَرَضية أكثر، كما لو أننا كنا نصغي إليه. «ثمة حكمة كبيرة جداً في تبصّر أملكِ أنه يجب أن تعرفي تاريخ بلدكِ. فقد بلغتِ عمراً تحتاجين فيه إلى أن تأخذي هذه القضايا على محمل الجِد. إن معرفة «*الشاهنامه*» غير كافية؛ عليكِ أن تبدئي بإيلاء تاريخكِ الحقيقي مزيداً من الاهتمام». لقد كرهتُ الأمر حين اتخذ والدي تلك النبرة لمجرد أن يُدخل السرور إلى قلب أمي - وقلما نجح في ذلك. وصوبتْ إليه نظرة كارهة وأدارتْ رأسها إلى نافذة السيارة.

تلك الليلة، حينما حاولتُ أن أقبّلها متمنيةً لها ليلةً هانئةً، أشاحت أمي وجهها قائلةً: «اذهبي وقبّلي قدوتك المتخيلة: رودبه». مشيتُ إلى غرفتي، وأنا أقاوم الدموع وأحمل الكتاب الذي أعطاني إياه عمو سعيد في يدي. كان حكاية عاشقين سيئي الطالع، كقصة رودبه. ماذا أفعل ببضع مئات الصفحات من قصيدة كُتبت قبل مئات السنين؟ حاولتُ أن أقرأها في فراشي. إلا أنها كانت صعبة وفي الحال تحولتُ إلى كتابٍ آخر، مألوفٍ أكثر. استغرقتُ عقدين من الزمن وثورةً قبل أن أعرف كم هي هدية نادرة تلك التي منحني إياها عمو سعيد في ذلك اليوم.

الفصل التاسع

قصة رودبه

كنتُ أنصتُ بانتباه إلى كل قصص أبي، إنما أثناء سماع بعضها كنتُ أحبس أنفاسي وأبقى بلا حراك وفي حالة ترقّب. هكذا أحسستُ - وما أزال أحس - فيما يتعلق بقصة رودبه. لم أكنْ أعي حينها تضميناتها الأعمق، إنما شأنها شأن حوافز متكررة الحدوث تواصل رودبه معاودة الظهور في أزمنةٍ مختلفةٍ خلال سنوات حياتي. كنتُ نسيتها إلى أن بدأتُ بتدوين هذا الكتاب التي اخترتُ اسمها لصديقتي المتخيلة، التي قفزت ذكراها فجأةً بصورةٍ مؤنبة وليست لها صلة بالموضوع، مطالبةً إياي بأن أوليها اهتماماً كاملاً.

رودبه وزال هما والدا رستم، البطل الرئيس في «*الشاهنامه*» ولعله أهم بطل أسطوري في مجمل الأدب الفارسي. يعيش رستم مدة أربعمئة سنة، وكان يمتلك شجاعة أخيل ومكر يوليسيس، ويتفوّق كثيراً في الأهمية على الملوك الذين دافع عن إمبراطوريتهم وحماها. ومع ذلك لم يكنْ رستم هو الذي حاز ولعي، بل بالأحرى والداه: زال ذو الشعر الأبيض ورودبه.

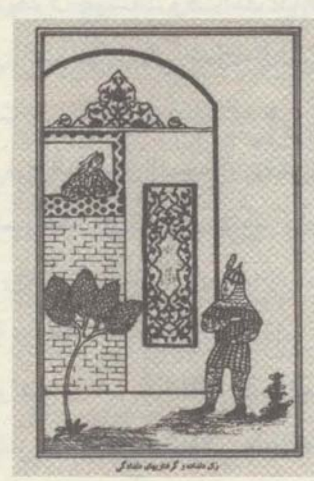
في البُردة[1]، ومن دون أن يرى ذلك أحد،

---

(١) البُردة purdah: ستارة تحجب النساء عن أعين الرجال أو الغرباء - م.

كانت له بنت محبوبة أكثر من الشمس،
لها أهداب كأجنحة الغربان تحمي زوجاً
من العيون كأزهار النرجس البرية، المخفية هناك؛
إن كنت تفتش عن القمر فها هو ذا وجهها؛
إن كنت تبحث عن المسك فشعرها هو مكان اختبائه.
إنها جنة، كُسيت بهاءً،
متألقةٌ، جميلة، ورشيقة بصورة رائعة.

كان حاجباها أشبه بـ«قوسين»، أنفها أشبه بـ«قصبة من فضة»، وفمها الصغير أشبه بـ«الفؤاد المنقبض للإنسان اليائس». أجبرتُ أبي على أن يعيد حكاية العاشقين رودبه وزال مراتٍ كثيرة جداً، الحكاية التي كنتُ أعرفها تقريباً عن ظهر قلب. لعل رودبه هي الأولى في سلسلة طويلة من الشخصيات الأدبية التي أجد نفسي أفكر فيها بصورةٍ غير سوية وبشكلٍ أو بآخر أتماهى معها.



صورة توضيحية لـ زال ورودبه (بطلا «الشاهنامه»)،
من كتاب مخصص الأطفال كتبه أبي ونشره.

حينما كان أبي يروي القصة، يستهلّها بشيءٍ أشبه بهذا: كان سام: ابن نريمان هو أقوى محارب في أرض إيران. أنجبت زوجته طفلاً وسيماً كما يمكن أن يكون أي وليد، بوجه «مشع كالشمس»، إلا أن له شعراً أبيض كالذي يملكه رجل عجوز. شعر سام بيأس قاتل بسبب شعر ابنه الأبيض بحيث أعطى التوجيهات بأن يُنبذ في الغابات. وسعت أمه إلى إنقاذه بأن تركته جوار قمة جبل عالية حيث كان يعيش طائر أسطوري هائل هو السيمرغ. أشفق السيمرغ على الطفل الذي كان اسمه زال، زوّده بالطعام ووفّر له السكن، ورباه مع ذريته إلى أن كبر زال كي يغدو شاباً رائعاً، قوياً، وجسوراً. لمحت قوافل المسافرين المارة عبر الجبال زال وفي الحال ذاعت شهرته.

وكما يخبرنا الفردوسي: «بما أنه لا الخير ولا الشر يبقى مخفياً»، ذات ليلة حلم سام، الذي شعر بشيءٍ من الندم، بأن طفله المهجور ما يزال حياً. وفي الليلة التالية حلم بأن رايةً رُفعتْ على قمة جبل ما وثمة شاب يقود جيشاً، وهنالك كاهن رفيع ورجل حكيم يركبان على جانبيه. ندم سام على فعلته الطائشة وبعد التشاور مع حكمائه شرع في البحث عن ابنه. واكتشفه في أرض السيمرغ السحرية ودعاه إلى قصره، طالباً منه الصفح. رفض زال أن يترك السيمرغ. لكن الطائر الضخم منحه عدداً من ريشاته وأخبره أنه كلما يقع في مشكلة عليه أن يرمي ريشةً في النار، ويستدعيه، وسوف يأتي السيمرغ لمساعدته بهيئة سحابة سوداء.

وحينما أمر الملك مانوجهر، حفيد إيراج: سام بالذهاب إلى الحرب، ترك سام زال كي يقود بلدانه. نصح سام زال قائلاً له: «تمتع بالحياة وكن كريماً. ابحث عن المعرفة وكن عادلاً». أخذ زال بنصيحة والده وجمع رجال العلم من كل أرجاء البلد ودرس معهم الأمور على

مدى زمن طويل. وبعدها قرر أن يقوم بجولةٍ في البلدان الشاسعة التي كان يحكمها. وفي أسفاره وصل زال أخيراً إلى كابول (في وقتنا الحاضر: أفغانستان)، التي كانت عاصمة مملكة الملك مِهران.

استمعت ابنة الملك مِهران: الأميرة المحبوبة رودبه، خلسةً للحوار الذي دار بين أبويها، وسمعت عن شكل زال الوسيم، وشجاعته، ومنجزاته البطولية، ووقعت في حبه. أسرّتْ لخادماتها: «إني عاشقة، وعشقي أشبه بموجة بحرية ترتفع بذروةٍ مزبدةٍ إلى عِنان السماء. لا يفارقني في نومي. الموضع الكائن في قلبي الذي يجب أن أشعر فيه بالخجل طفح بدلاً من ذلك بالحب والاشتياق، وطوال الليل والنهار أفكر في طلعته البهية. الآن أسدين العون لي، ماذا يجول في أذهانكن، أي نصيحة تقدمنها لي؟ عليكنَّ أن تفكرن في خطةٍ ما، في طريقةٍ ما كي يتحرر فؤادي من كرب الهيام».

عاتبتها الخادمات قائلات: «ألا تخجلين؟ ألم تفكري ماذا يعني هذا لأبيكِ؟» وتساءلن ما إذا كانت رودبه مستعدةً حقيقةً لمعانقة «شخصٍ ربّاه طائر في الجبال، شخص هو موضع سخرية بين الرجال بسبب غرابته؟»

ذكّرتها خادماتها أن باستطاعتها أن تنال أيَّ رجلٍ تريده وينبغي لها ألا تتوق توقاً شديداً لغريبٍ يبدو طاعناً في السن وبسبب ذلك شديد الغرابة.

كانت غرابة زال هي أحد مواطن جاذبيته بالنسبة لي ورفعت مكانة رودبه في تقديري بحيث إنها تختار رجلاً من هذا الطراز. وربما ينبغي لي القول إن طريقة أبي في سرد الحكاية هي الأخرى جعلتني شبيهةً بها. في الوقت الذي ظالعتُ فيه القصة بنفسي، كنتُ عنيدة ومتمردة. قال أبي: «من الصعب أن تعصي فتاة والديها. ألا تعرفين ماذا يعني

ذلك؟ إذا عصيتِ والديكِ، فلا بد أن يكون لديكِ سبب وجيه كي تفعلي ذلك».

غير أن رودبه كانت قد اتخذت قرارها ولن يثني عزمها الهوى أو التوسلات، فقالت لخادمتها: «إنه لشيء أحمق أن أصغي إلى كلام سخيف كهذا. لا أريد الإمبراطور الصيني، ولا ملك الغرب، ولا حتى ملك بلاد فارس. ابن سام: زال، هو الرجل الذي أريده. بقوّته وقامته الشبيهة بقوة وقامة الأسد، سيكون ندّي. سموه مُسناً أو شاباً، سيكون لي جسداً وروحاً».

كنتُ أعرف عن ظهر قلب المشهد الذي يأتي فيه زال أول مرة لزيارة رودبه في قصرها. تخيلتُ ذلك المشهد بصورةٍ ملموسةٍ جداً بحيث كنتُ محبطةً بعض الشيء حينما قُيض لي أول مرة أن أقرأ بنفسي كلمات الفردوسي الفعلية. من نافذة قصرها الشاهق، سمعتْ رودبه صوت زال في الخارج، فحلّت شعرها الذي «كان ينهمر كالشلال إلى الأسفل، يتلوّى كالأفاعي، حلقةً على حلقة». قالت له: «تعال، خذ هذه الخصلات السود التي أرخيتها من أجلك، واستخدمها كي تتسلق إليّ». تطلع زال بدهشةٍ إلى وجهها وشعرها لكنه رفض أن يفعل ما طلبته منه. وبدلاً من ذلك، أخذ حبلاً من غلامه، ولفه بهيئة حلقة، ورماه إلى الأعلى من دون أن يتفوه بكلمةٍ أخرى. علق الحبل بالشرفة ذات الفتحات، وبسرعة تسلق زال أذرعها[1] الستين. تعانقا، وقبّل أحدهما الآخر، وشربا الخمر.

---

(١) الأذرع cubits: جمع ذراع وهو وحدة قياس قديمة للطول تساوي عادةً نحواً من ١٨ إنشاً – م.

منذ تلك اللحظة فصاعداً اكتسبت رغبتهما
القوة، وهربت الحكمة أمام نار العشق؛
غمرهما الهيام، وبقي العاشقان
مجدولين معاً حتى طلوع النهار.
تعانقا بحرارة، قبل أن يغادر زال،
كان زال هو السداة[١]، وروديه هي اللُّحمة[٢]
من القماش نفسه...

اعترض على زواجهما كلا الطرفين. فعلى الرغم من أن مملكة والد روديه قد باتت تحت سيطرة إيران، كان هو سليل عدو إيران المكروه جداً: الشيطان - الملك زهك، وأي من الطرفين لم يكنْ يثق بالآخر تماماً. عاتب الملك مانوجهر ووالد زال: سام زال بسبب رغبته في الزواج من امرأةٍ تنتمي لذرية زهك. وتعيّن على العاشقين أن يتغلبا على العوائق الكبيرة، ويتغاضيا عن المحن ويتجاوزاها قبل أن يستطيعا الزواج أخيراً.

عقب الزواج مباشرةً أصبحت روديه حاملاً. كان حملها موجعاً جداً، وبات وجهها شاحباً كالزعفران. وشكت لأمها أنها تبدو غير قادرة على حمل العبء الثقيل بداخلها، وأنها تشعر بأنها تعاني سكرات الموت. وفي يومٍ من الأيام أُغمي عليها ولم يستطع أحد من الأطباء أن يعيدها إلى وعيها. تذكّر زال، وقد تملكه الحزن، الريشات التي أعطاه إياها السيمرغ كي يستدعيه في أزمنة الشدة. أشعل ريشةً؛

(١) السداة warp: ما مُدَّ من خيوط النسيج طولاً - م.
(٢) اللُّحمة weft: ما نُسج عرضاً من خيوط الثوب - م.

ظهر السيمرغ. وأخبره الأخير أن عليه أن يحتفل لأنه سيرزق قريباً بولدٍ سيكون فريداً في العالم بأسره بسبب شجاعته وطيبته.

كان يجب تغذية رستم من لدن عشر مُرضعات بأثداء مكتنزة بالحليب، وحين فُطم كان يأكل ما يكفي عشرة رجال بالغين. كان وسيماً وقوياً، مثله مثل جده البطولي، ويحمل صفات المحاربين ذاتها. وعلى مدى أربعمئة سنة، كان رستم بطل بلاد فارس وحاميها، ومن دونه لا يستطيع أي ملك أن يحكم بأمان. كانت شجاعته لا نظير لها في العالم الشاسع كله وهكذا كانت وسامته.

وفيما بعد، حين قرأتُ «*الشاهنامه*» فكرتُ كيف قدّم أبي رستم بوصفه بلا عيوب تقريباً، إلا أنه كان يمتلك نقطة ضعف قاتلة ألا وهي: أنه كان مستغرقاً جداً في قضايا الدولة بحيث لم يدع حيزاً لقضايا القلب الأكثر بقاءً. وفي إحدى المعارك قتل رستم ابنه سهراب بطريق الخطأ. أود أن أفكر أن هذه المسألة المتعلقة برفضه إتاحة حيز للقلب قد كلفته ثمناً باهظاً. لكن تلك قصة أخرى.

كان الرجال في «*الشاهنامه*» في المقام الأول قد تميزوا بإظهارهم شجاعتهم البدنية؛ كانوا محاربين، على الرغم من أن أولئك الأكثر عاطفية منهم، على غرار إيراج، كانوا معقدين ووديعين، وذوي شجاعة أخلاقية وكمال أخلاقي. إلا أن النساء، من مثل رودبه، كن يتحلّين بشجاعةٍ من نوعٍ آخر، شجاعةٍ شخصيةٍ أكثر لكنها لا تقل أهميةً. جلبت رودبه إلى القصة المشاعر والعواطف الشخصية التي كان الرجال الذين على غرار رستم يتجنبونها أو يتجاهلونها. كم هي رثة كل تلك الأمجاد التي نالها المحاربون العظماء حينما تكون خاليةً من الحب الذي كانت رودبه مستعدة للتضحية بحياتها من أجله!

رودبه واحدة من نساء كثيرات مهمات في «*الشاهنامه*» ممن ينتمين

إلى أصل أجنبي. ويتذكرها الآخرون بشكل رئيس بوصفها أم رستم. والد زوجها، وزوجها، ولاحقاً، ابنها هم الذين يقومون بأعمال فذة وباسلة، يذهبون إلى الحرب، ويفوزون بالمجد من أجل بلادهم. إن حق نساء الفردوسي في المطالبة بالخلود يكمن في دورهن كأمهات، كزوجات، أو كعشيقات. إنهن يبدين نوعاً مختلفاً من الشجاعة، يفرضن على الآخرين الاعتراف بحقوقهن والوقوف بوجه التحيز بكل صنوفه ويخترن الرجال الذين يغرمن بهم. في العالم الموازي من القصة أبدع الفردوسي شخصياتٍ تحدّت قواعد سلوك مجتمعه هو وحطمتْ محرّماته. هؤلاء النسوة، من دون أي إدعاءات شائعة، بفجورهن الصريح والذي لا يمكن التخلي عنه، بإصرارهن الثابت، كنَّ رومانسيات جداً وكنَّ يرقنني أكثر من أي بطل ذكر.

ثمة نسوة في «*الشاهنامه*»، على غرار (غرد أفرد) الجميلة، أبدين الشجاعة، ولبسن زي الرجال وقاتلن في ميادين الحرب. إنما النساء من طراز رودبه هن اللائي زرعن في رأسي الفكرة المتعلقة بنوعٍ آخر من النسوة، شجاعتهن خاصة وفردية. هؤلاء النسوة لم يطالبن بأشياء كبرى، ولم يسعين إلى إنقاذ الجنس البشري أو دحر قوى الشيطان، إلا أنهن كنَّ مشغولات بتمرد هادئ وجسور، ليس لأن ذلك سيجعلهن ينلن الأوسمة، بل لأنهن لا يقدرن أن يكنّ بخلاف ذلك. لو كنّ ضيقات الأفق وسريعات التأثر، فإنها سرعة تأثر جريئة، متجاوزات كره النساء لدى خالقهن وأزمنته.

كانت قدواتي في طور نشوئي هن تلكم النساء المتخيلات في قصص والدي - وليس البطلات الخاملات في حكايات الجان، أو الفتيات «الفاضلات» اللواتي يكافأن بسخاء بسبب طيبتهن وحسن أخلاقهن، إنما النساء الإيروسيات والمنغمسات في الشهوات الحسية

اللواتي أبدعهن خيال الفردوسي. ولاحقاً عندما قرأتُ «*ويس ورامين*»، الكتاب الذي أعطاني إياه عمو سعيد قبيل مغادرتي إلى بريطانيا، وجدتُ هناك حكايةً استثنائية أخرى أثرتْ فيَّ تأثيراً عميقاً. في هذه الكتب كلها يمكنني أن أكتشف الأثر الخفيف للشهوانية المكبوتة الآتية من خلال الصور المثالية للنساء. قصة «*ويس ورامين*» المكتوبة بعد «*شاهنامه*» الفردوسي بأربعين سنةً، تجري وقائعها في إيران الزرادشتية ما قبل الإسلام ويبدو أنها محاولة أخرى للاحتفاء بثقافة إيران في الماضي، واسترجاعها. تُروى القصة بشكل رئيس من وجهة نظر بطلتها الحسناء الجريئة (ويس). ثمة دنيوية بليغة، ونشاط جنسي معافى في ويس وضعا الطبيعة البشرية تحت تصرّف التجريد الشعري. فكرتُ: انظري إلى هؤلاء النسوة الاستثنائيات اللواتي تم إبداعهن في مجتمعات كهذه: كارهة للنساء وتسلّطية، ومع ذلك هنّ مراكز مدمِّرة تتشكل الحبكة حولهن. من المفترض أن يدور كل شيء حول البطل الذكر. لكن الحضور المؤثر لهؤلاء النسوة هو الذي يغيّر الأحداث ويحوّل اتجاه حياة الرجل عن مسارها التقليدي، ويصدمه كي يغيّر طريقة وجوده بعينها. في السرد الإيراني الكلاسيكي تهيمن النساء النشيطات على المشهد؛ إنهن يجعلن الأشياء تحدث. وفيما كنتُ أتابع قراءة الشعر الإيراني، لم أندهش من أنه ما يقرب من ألف سنة بعد أن خلّد غورغاني ويس في قصيدته، لدينا امرأة تُدعى فروغ فرخزاد التي تحتفي بعشيقها في قصائد تمتاز بالصدق وبالشهوانية التي لا تعرف الخجل. كانت أفضل أشعارنا على الدوام كاسرة للقواعد ومدمِّرة، وهي دوماً تعيد تعريف وتعيد تشكيل الواقع وإدراكنا له. أجد آثاراً من هؤلاء النسوة المتمردات في الشاعرات المعاصرات. ليس فقط فروغ فروخزاد بل علم تاج وسيمين بهبهاني، وفي أعمال الفن

القصصي الغربي، في شخصية (كاترين إيرنشو) عند إميلي برونتي، و(إليزابيث بينيت) عند جين أوستن، و(دوروثيا بروك) عند الكاتبة جورج إليوت، و(جين آير) عند شارلوت برونتي، و (مدام دي لا مول وماتيلدا) عند ستندال. وحتى (صوفيا ويسترن) ذات السلوك المعتدل في رواية «توم جونز» و(كلاريسا هارلو) الورعة بصورةٍ مزعجة عند ريتشاردسون. هؤلاء النسوة يميزن أنفسهن من خلال قولهن لا لسلطة آبائهن، ولمجتمعاتهن، ولقواعد السلوك، ويطالبن بالزواج من الرجل الذي يخترنه. ربما لأنهن على وجه الدقة محرومات من أشياء كثيرة جداً في حيواتهن الحقيقية بحيث أصبحن مدمِّرات جداً في دنيا الفن القصصي، ورفضن السلطة المفروضة عليهن، وكسرن قيود البنى القديمة، ولم يخضعن لشيءٍ أو أحد.

مضت الأسابيع التي سبقت مغادرتي إلى إنكلترا بسرعة. كانت هنالك أغنية شائعة في ذلك الزمن ينشدها مطرب مشهور عن فراق محبوبته. يسميها: «ربيعي الذي وصل تواً»، ويتفجع على فراقها ويأمل أن تبقى مخلصةً له. وفي كل مرة تسمع فيها أمي تلك الأغنية تلتفت وتنظر إليَّ بعينين متألقتين بالدمع. في هذا الحين كانت مشغولةً جداً وهي تستعد لرحلتنا بحيث لم تستطع التخاصم معي، على الرغم من أنه كانت ثمة لحظات تخاصمنا فيها بشأن الثياب التي نأخذها معنا، وكم بوسعي أن أبقى في الخارج مع صديقاتي. كانت هي ومونير جوون منهمكتان في حياكة الأوشحة والبلوزات السميكة التي يمكن أن تدوم سنوات كثيرة جداً. قالت إن إنكلترا باردة وسأكون بحاجة إليها كلها. أعلن أخي وقف إطلاق النار في خصوماتنا المألوفة، حتى أنه توقّف عن استراق السمع لحواراتي مع صديقاتي.

كان هنالك دوماً تنافس أخوي بين محمد وبيني، على الرغم من المحبة الكبيرة التي يكنّها أحدنا للآخر. من ناحيتي كانت المحبة مفعمةً بالغيرة بسبب الاهتمام الذي يلقاه من أمي. أما محبته فكانت أكثر رقةً: مع أنني أؤذيه غالباً وأمي تشجعه على الشكوى مني، إلا أنه لم ينمّ عني. لعله لم يكن يرغب كثيراً جداً في التنافس معي بل آثر المشاركة في أنشطتي - فعلى أية حال كنتُ أخته الكبيرة. كان يستمع إلى حواراتي مع صديقاتي ويقلدني من خلال كتابة مذكراته في دفتر يومياتي - وما تزال لدي الصفحات التي دوّنها بخط يده الطفولي: «أيتها اليوميات العزيزة: إنني صبي في التاسعة من عمري وها أنا ذا أكتب في دفتر ملاحظات أختي...» بيد أنه كان مبتكراً أيضاً، فقد حاول أن يؤسس مختبراً كيميائياً أو مكتبةً بمساعدة عمنا. ففي تلك الآونة اضمحل التنافس بيننا ليغدو مشاركةً أصيلةً في الاهتمامات المتبادلة.

ما أتذكره من يوم مغادرتي هو سلسلة من تحيات الوداع المفعمة بالضجيج، والتي اختلطت بالدموع المنسكبة بلا وجل، والاعتراضات الهستيرية، والصمت المباغت للطائرة التي تعلن الحقيقة المتعذر تغييرها وهي أن ما من كم من الإشفاق على الذات باستطاعته أن يغيّر دوران الوقائع إلى الاتجاه المعاكس. جلستُ بوداعة لصق النافذة وفجأةً أحسستُ كما لو أنني وأمي هما الشخصان الوحيدان في العالم. أرتني كيف أربط حزام مقعدي وقبضت على يدي بيدها بينما كنتُ أحاول مقاومة دموعي. بعد برهةٍ شرعت تتحدث معي برقّةٍ شديدة. قالت إنني موفورة الحظ، فلديَّ أبوان يهتمان بي، ويحبانني كفايةً إلى درجة أنهما يتقبلان هذا الانفصال، إلا أنها لم تكنْ تملك الفرح والراحة الناجمين عن امتلاك أم. قالت: «أريد لكِ ما لم أملكه يوماً».

وبعد برهةٍ أصبح صوتها حالماً واتخذ نبرةً رتيبةً بينما هي تروي لي القصة التي ستكررها مرات كثيرة في السنوات المقبلة.

«كنتُ طفلةً في الرابعة»، قالت، وهي تمسك بيدي كأنها تمنعني من الإفلات. «كنا نسكن في بيت وسط حديقة واسعة جداً في كيرمان - وقتها كنا نقيم هناك - ثمة عدد قليل منها بقي حتى الآن، تلك الحدائق الفارسية القديمة ذات الأشجار الباسقة والجداول الجارية والأزهار البرية المنمنمة التي تنمو على ضفافها. استيقظتُ في منتصف الليل على أصوات نساء ينشجن. هرعتُ إلى غرفة المعيشة ووجدتُ عمتي، ومربيتي، والخادمات، تجمعن كلهن في الغرفة. والدي هو الآخر كان هناك. لم يكترث لي أحد. سار والدي نحو الشرفة ولحقتُ به. أعتقد أن القمر كان بعيداً على الرغم من أنه ما يزال المكان هناك مظلماً جداً. كنتُ خائفة من الأشجار وظلالها وكنتُ أهرول تقريباً كي أجاريه بينما هو يمشي بمحاذاة الجدول الكبير الذي يجري على امتداد الحديقة. ومن ثم، على حين غرة، توقف عن المسير. توقفتُ معه. هناك، على الأرض القريبة من الجدول، كان جثمان أمي».

وهذه هي ذكرى أمي الوحيدة عن أمها. لاحقاً، عندما سردت القصة ثانيةً، قلّلتْ عمرها من أربع إلى ثلاث سنوات وأخيراً إلى سنتين. تخبرني زوجة جدي أن أمي كانت فتاة بالغة حينما توفيت جدتي، على الأقل بعمر سبع أو ثماني سنوات، إلا أن روايتها تناقضت مع رواية عمة أمي - وهي مناوئة لزوجة جدي - التي قالت إن أمي كانت جد صغيرة السن حين ماتت أمها. عمر أمها هو الآخر كان يتغير بالقدر نفسه: في الروايات المبكرة كان عمر جدتي ثمانية عشر عاماً حين ماتت، وفيما بعد استقر رأي أمي على ستة عشر. إلا

أن هذا حقيقةً لا يغير من الأمر شيئاً، ما كان يهمنا هو أنها توفيت وهي فتية جداً، حينما كانت أمي طفلةً صغيرةً.

إنني مصدومة الآن بالحقيقة التي مؤداها أن أمي في كل مرةٍ تروي فيها هذه القصة على مر الأعوام كانت تحكيها بالترتيب ذاته. كانت تنحرف دوماً إلى نبرةٍ حالمة وميكانيكية كان يتخذها صوتها كلما تنبش الذكريات التي لا نصيب لنا فيها. وبصورة غريبة بما يكفي، هذا الأمر يجعل روايتها مؤثرة أكثر. فبينما كانت المرأة التي رقصت مع سيفي مجهولةً بالنسبة لي، فإن هذه المرأة، المتجمدة خوفاً، وهي تنظر إلى جثة أمها، كانت بالنسبة لي مألوفةً جداً بكل معنى الكلمة.

كانت تتوقف في قصتها عند لحظة الاكتشاف. في تلكم الأيام، كان الأثرياء يغسلون الأموات في الجداول الجارية عبر حدائقهم قبل أن يأخذوهم إلى المشرحة. حاولتُ مراراً أن أتخيل المشهد، وأنا أتبع أمي وهي تسير على امتداد الجدول وتتوقف تماماً عند جثمان جدتي. حاولتُ أن أتصور ما جرى لاحقاً. هل فهمتْ وهي طفلة صغيرة ماذا كان يعني ذلك؟ هل لاحظها والدها أخيراً وأخذها معه بعيداً؟ هل ضمّها بين ذراعيه؟

الموتى يتجمدون في التوابيت الثابتة التي نصنعها لهم. إنهم يتغيرون مثلما نتغير نحن، بخاصة أولئك الذين يموتون في مقتبل العمر على غرار سيفي أو جدتي. وذلك ما يجعل الأمر غريباً جداً الآن، لا لأن جدتي فارقت الحياة، بل لأن ما من أحدٍ لديه أي ذكريات عنها، ما من أحدٍ يقول إن هذا كان طبق جدتكِ المفضل، أو أن هذا يذكرني بـ شامولوك خانوم. ولم يتكلم عنها جدي مرةً واحدة. وحتى إننا لا نعرف أين دُفنت. أشك في أن أمي زارت قبرها أو أنها عرفت أين يقع. إنه لشيء يؤلمني أيما ألم ويجعلني أشعر بالشفقة على أمي،

حتى حين أكون غاضبةً منها، لأن الشيء الوحيد الذي بوسعها أن تتذكره عن أمها هو حادثة موتها، ولم تتذكر، ولا مرة واحدة، أي شيء يتعلق بأمها وهي على قيد الحياة.

كانت تلك الرحلة بالطائرة إلى لندن جديرةً بأن تُذكر لأسبابٍ كثيرة، لكن الدقائق القليلة التي استغرقتها أمي في سرد تلك القصة، وضغط يدها وهي تمسك بيدي، والصمت الذي أعقب ذلك لازمتني كلها دوماً. كان لدي إحساس قليل حينها نحو جدتي المتوفاة التي لم أعرف عنها شيئاً. بمرور الزمن فقط توصلتُ إلى إلقاء نظرة فاحصة عليها. غير أن قصة موتها كان لها تأثير عجيب على مشاعري وموقفي تجاه أمي. جعلتني (أي القصة) أتعاطف معها، وبشكلٍ من الأشكال كانت تلك القصة تفسر غضبها. تمنيتُ أن أبعث جدتي إلى الحياة، كي أريحها وأريح والدتي من ذلك المشهد الوحيد، ومن تلك الليلة التي فارقت فيها الحياة. جعلني ذلك المشهد أرغب بمواساة أمي. إنني نادمة الآن لأنني لم أفعلْ ذلك. وبدلاً من ذلك، سألتُ بصورةٍ لامبالية: «وماذا بعدها؟» لم تجبْ. على خلاف والدي الذي كان يحكي لنا قصصاً طويلةً عن نفسه ويحللها دوماً، كانت أمي تنشئ قصصها بطريقةٍ ما بحيث لن تكون لها بداية أو نهاية. كانت تتألف عادةً من حدث واحد، مناسبة مهمة جداً تُقدَّم كأحجية، تُلمح إلى المعنى بكل صنوفه.

على غرار غياب سيفي، كان غياب جدتي قد جعلها حاضرةً أكثر في حيواتنا. وبينما كان الزمن يمضي أصبحنا نعي أكثر أن موتها (أي موت جدتي) قد حدد مصير أمي ومستقبلها. في «*سندريللا*» و«*بياض الثلج*»، تكون الأم المتوفاة عذراً، وغيابها أهم من حضورها. تتطلب

القصص الصراع والحزن، إنها تحتاج إلى الخوف من الفقدان والأمل بالاسترجاع. فلو أن جدتي كانت ما تزال حيةً تُرزق لما كانت ثمة حاجة إلى زوجة جد. إنها زوجة الجد الشريرة هي النابضة جداً بالحياة، الحية بصورة خادعة جداً - أحدث شرها سلسلةً كاملةً من الأفعال وردود الأفعال. كانت أمي كذلك تنشط أيضاً في النسخة المعدلة من حكاية الجان، (فارس أحلامها) هو وحده من يموت عليها. ولم تكنْ هناك حتى مكافآت على صبرها، وسلامها الأبدي، وسعادتها.

حتى سندريللا كان ينبغي لها أن تتصرف بطريقةٍ معينة كي تجذب أميرها، أما أمي فلم تكنْ تملك مواهب كهذه. بمرور الوقت تلاشت مرارتها المتعلقة بماضيها وتحولت إلى استياء عام من الحاضر. بشكلٍ من الأشكال كنا قد خذلناها. وكانت أشباحها تغدو أكثر واقعيةً بمرور الزمن ونغدو نحن، أفراد أسرتها، بعيدين ويتعذر التأثير فينا.

لستُ متيقنةً ماذا كان سيحدث لو أنني لم أمضِ تلك الشهور الثلاثة في لانكستر مع أمي. لم أقدّر قيمتها آنذاك، غير أن التجربة ستبقى معي، ولا تني تفتح إحساساً جديداً، بقعةً لينةً، إن شئت، سوف تحدد لاحقاً تقييمي الكامل لها. كنتُ أشبه بغدير صغير جداً، يعد بنهر واسع وسخي، ما إن تتكشف طاقته الكامنة، حتى يصبح عصياً على النسيان.

الفصل العاشر

في منزل سكوتفورث

وصلنا إلى محطة قطار لانكستر في يوم مشمس بصورةٍ خادعة، وسرعان ما اكتشفتُ المطر المستمر والسماوات الرمادية وهذان أورثاني حنيناً مَرضياً أبدياً إلى وطني خلال إقامتي في إنكلترا، وكان هذان مسؤولَين أيضاً عن المروج الخضر الباهرة وعشب الجريس السحري بزهوره الزرِق الشبيهة بالأجراس. رحب بنا في المحطة رجل طويل القامة ممتلئ الجسم على عكازتين، ترافقه مدبرة منزله: إيثيل.

قيل لي إن السيد كمبستي، الذي كان معروفاً باسم (سكبر)، كان قد أُصيب في حادثٍ ما خلال عمله كقبطان سفينة، على الأرجح إبان الحرب. إلا أن القصة الأكثر متعةً كانت تلك المتعلقة بحكاية الغرام العنيف خاصته مع المالكة الأصلية لـ(منزل سكورتفورث)، وهي امرأة موسرة وقعت في غرامه وبادلها هذا الغرام، وجعلته يهجر زوجته وأفراد أسرته. وحينما فارقت زوجته الحياة تركت له بيتها ومالها. كانت المرة الوحيدة التي رأيتُ فيها أسرة (سكبر) السابقة هي حينما توفي، بعد ثلاث سنوات، وترك كل شيء لإيثيل. ربما أثارت استقامته الأخلاقية المشكوك فيها بعض الريبة فيما يتعلق بملاءمته كحارس لي لولا حقيقة تزكيته من لدن أخت عمو سعيد: العمة همدام المعصومة من الخطأ.

جاءت أمي كي تساعدني على الاستقرار، إنما بدءاً من لحظة وصولنا أحدثت الخراب في ذلك المنزل كي توفر لي سبل الراحة التي كانت تتصور أنني بحاجة إليها. وقد صُدمتُ بالأوضاع السائدة في (منزل سكورتفورث) مثلما صُدم ساكنوه بسلوكها. كانت أمي تنتقد كل شيء: الحمام من دون دش، الأطباق لم تكنْ تُغسل كما ينبغي. لحقت بـ كريستين، الخادمة الجبانة، إلى المطبخ، أخذت الأطباق من يديّ كريستين المرتعشتين تقريباً وأجبرت المرأة المسكينة على غسل كل طبق من الأطباق المرة تلو المرة من دون أن تجعل أياً منها يلامس (السنك) مرةً واحدة. وعد (سكبر) أن يفعل شيئاً فيما يتعلق بحوض الاستحمام لكن من الواضح لم يكن لديه النية في تنصيب دش لمؤجرته الوقتية، ولهذا في النهاية، جلبت أمي دشاً يدوياً من البلاستك جعلتني أستخدمه، ومنعتني من أن آخذ حماماً.



السيد كمبستي «سكبر». ائتمنتني أمي لديه، ليتولى العناية بي، عندما كنت طالبة ثانوية في بريطانيا.

تجلب لنا إيثيل فطورنا ومن ثم تنظف كريستين المائدة. طعام من حبوب، بيضتان الجانب المشمس إلى الأعلى أهرسهما حالاً على قطعة الخبز المحمصة، إضافةً إلى الزبدة والمربى والشاي. في اليوم الأول من الدوام في المدرسة الثانوية، حينما جلسنا في مقعدينا بانتظار طعام الفطور، نظرتْ إليَّ أمي وانفجرت ضاحكةً. أنا أرتدي زيي النظامي: تنورة زرقاء داكنة، قميص أبيض، بلوزة زرقاء داكنة وسترة فضفاضة بعلامة مميزة للكلية على

الجيب، وبيرية زرقاء قاتمة كنتُ أكرهها. تأخذ البيرية التي لا تني تنحرف من على رأسي، وتضعها على الكرسي بجانب حقيبتي المدرسية. تقول لي: أنتِ حقيقةً لا تحتاجين إليها عند مائدة الفطور، لكنكِ ربما تعتادين على هذا. تُلبسني ربطة العنق الخاصة بالمدرسة، تلقي عليَّ نظرةً واحدة، ومن جديد تنفجر ضاحكةً. آذي المسكينة، تقول بعاطفة غير مألوفة. كانت نادراً ما تضحك أو تبتسم - كنا نعرف عنها بشكل رئيس الابتسامات الطافحة بالمرارة، التي تذكرنا بأفعالنا المشينة - بحيث باغتتني بضحكاتها تلك. ماذا؟ أقول بقليلٍ من النزق. الدموع تتفجر في عينيَّ وتربت على يدي. هوّني عليكِ، هوّني عليكِ، تقول، وهي لا تزال تضحك. فيما بعد تعلمتُ كيف أغتنم مسألة كوني «أجنبية»، فأنسى بيريتي تارةً، وأضع ربطة العنق خاصتي في مكانٍ غير صحيح تارةً أخرى، أو آتي مصادفةً إلى المدرسة من دون السترة الفضفاضة.

كانت أمي تؤمن إيماناً راسخاً بالتمارين الرياضية. وبقدر ما تسعفني الذاكرة، كانت تقفز على حبل متخيَّل في أوقات الصباح. في لانكستر المكان الوحيد الذي تستطيع أنِ تؤدي فيه هذا الطقس هو حيز صغير مرصوف في الحديقة أسفلِ نافذة غرفة نومي الكائنة في الطابق الثاني. صباح كل يوم قبل الفطور تنزل السلم وتبدأ بالقفز على حبلها المتخيَّل - ألف قفزة يومياً، تفتخر بذلك. كنتُ أقف غالباً عند النافذة أراقبها وهي ترنو إليَّ وتبتسم، سعيدةً بأن تؤدي تمرينها الرياضي أمام جمهور ما. هذه الصورة تتداخل مع صورةٍ أخرى، حينما كنتُ في نحو الثالثة أو الرابعة، أجلس عند النافذة الفرنسية لغرفة نوم والديَّ، أراقب أمي تقفز على الحبل في صبيحة يومٍ شتائي مشمس في سطح البيت. على مدى لحظة التقت نظراتنا وابتسمت. لا أزال أرى بسمتها

بينما كانت عيناي تتابعان الحبل المتخيَّل وهو يصعد وينزل، يصعد وينزل.


منزل سكورتفورث، في لانكستر.

عدتُ مساءً إلى غرفتي الضخمة حيث، على وجه التأكيد، قدمت لي أمي طبقاً من البرتقال المقشر، الشوكولاته، والفستق، وجهها يتوهج بعزيمة ذات معنى. وفي الليل تركتُ لها لائحةً من الكلمات الإنكليزية وفي اليوم التالي كانت تجد معانيها، تفتش عنها في القاموس، وتكون جاهزة لي عند مكتبي. ساعدتني على حفظ الكلمات عن ظهر قلب ساعةً أو ساعتين بعد الغداء. في السنوات الأخيرة، كانت تذكّرني بمرارة أنني لولاها لما تعلمتُ الإنكليزية. وربما كان كلامها صحيحاً. حينما بدأتُ تعلم الإنكليزية أول مرة، في المرحلة الأولى، لم تكنْ تعرف كلمةً واحدةً (كانت الفرنسية هي لغتها الثانية). ومع ذلك راحت تدرس يومياً الصفحات المحددة في كتاب الإنكليزية المنهجي خاصتي مع الخالة نفيسة، وتمتحنني كل ليلة. حينما كانت تريد شيئاً ما لنا، تسعى وراءه بطاقةٍ مذهلة وبتركيز.

لم تكنْ عاداتها الراسخة، واندفاعاتها الحيوية موجهة نحو أي هدف محدد - على الرغم من أنه ربما بدا ذلك ذا مغزى بالنسبة للعين غير المتمرسة. فقد بدا دوماً كما لو أن إحساساً قوياً يتعلق بالذي لا تريد أن تكون عليه، أو بما لا تريد أن تكون عليه، يحرّضها قسراً.

كانت تحب التدخين لكنها لم تدخن أبداً؛ كانت تحب لعب الورق لكنها تقريباً لم تلعبْ؛ كانت راقصةً موهوبة إلا أنها لم ترقص البتة. كانت تجعلنا نشعر أن الناس جميعاً لا يحسنون أعمالهم كما ينبغي.

دفعها هذا الحافز السلبي أحياناً لتتبنى مشاريع لا أحدَ منها له صلة بالآخر. وكانت تكرّس نفسها بصدقٍ وإخلاص لكل مهمةٍ، صغرت أم كبرت. فعلى مدى سنوات عدة حينما كنتُ يافعةً كان هدفها الرئيس أن تتكلم الإنكليزية بطلاقة. وحتى أنها قصدت لندن ومكثت هناك خمسة أشهر في بيتٍ للطلبة يقدم المنام والفطور، وقضت كل ساعات يقظتها تقريباً في صفوف تعلم اللغة والدراسة في البيت. بعد ذلك ببرهةٍ التحقت بصفوف تنسيق الزهور وملأت المنزل بإبداعاتها المشكوك فيها - إلى أن ضاقت ذرعاً، يوماً ما، من هذا النشاط ولم نسمع به ثانيةً. وبذلت المجهود نفسه في الحصول على إجازة قيادة السيارة، وكان والدي، لسببٍ نسيته الآن، يقف ضد ذلك. (لم تكنْ تهلوس حينما ادعتْ أنه استغل نفوذه كي يمنع موظف إصدار رخص قيادة السيارات من منحها رخصة).

من بين كل مشاريعها، ربما كان طموحها الرئيس هو أن تُنشئ أسرة مثالية. لا أحد أعار انتباهاً لصحتها إبان عهد طفولتها: ماذا أكلت، ما إذا مارست التمرين الرياضي، ماذا كانت تلبس. الآن هذه الأشياء كلها تريدها لنا جميعاً. كانت أمي منشغلةً دوماً بمسألة الكمال: أسرة مثالية، صديقات مثاليات، بلد مثالي. إن النزوع العقلي الشمولي يدمركَ ليس بما يفرضه عليك، بل بأفعاله الرحيمة غير المتوقعة. لو أنها كانت مصرةً على أعمالها القاسية لكان من السهل أن نقطع العلاقة. لكننا شعرنا أننا وقعنا في الفخ لأنها، على الرغم من أنها تحكمتْ بحيواتنا، كانت أيضاً سريعة التأثر بصورةٍ فظيعة، ومع

أنها كرهتني أحياناً، فقد ضحّتْ، كذلك، كثيراً جداً من أجلي. كانت تريدني أن أكون جميلةً، ناعمةً، معقدةً، ذكيةً، ابنةً مطيعةً، امرأةً ناجحةً في مهنتها ومثقفةً.

يوجعني الآن أن أعرف أنها حينما كانت تنظر إليَّ، ربما رأت الشابة التي كانت عليها - مهمَلةً وغير مرغوب فيها. ربما يفسر هذا السبب الذي يجعلها في لحظاتٍ نادرةٍ تتطلع إليَّ بعينين مترعتين بالدمع، وتقول، بهزةٍ من رأسها: آذي المسكينة، آذي المسكينة!

في اليوم الثالث من التحاقي بالمدرسة الثانوية، حينما رجعتُ إلى غرفتي وشاهدتُ الطبق المليء بالبرتقال والفستق، شرعتُ بالبكاء. فقد أحسستُ بالعجز. كانت المحاضرة الأولى هي (الأدب الإنكليزي) والكتاب الذي كنا نقرأه هو مسرحية شكسبير «جعجعة بلا طحن». لم يكنْ باستطاعتي متابعة محاضرة السيدة ويفر ذات الصوت الأجش. وليس شكسبير فقط. مدرسة علم الأحياء المحبوبة، ومدرسة الموسيقى سيئة المزاج، وقاطع التذاكر في الحافلة، كلهم كانوا مبهمين بالقدر نفسه. ألم أحصلْ على أعلى درجة في اللغة الإنكليزية هناك في بلدي؟ لماذا لا أستطيع فهم هؤلاء الناس؟ أجلستني أمي وتمتمت بكلماتٍ مهدئة. مسدت شعري، وساعدتني على خلع ثيابي وارتداء ثياب جديدة، وبينما هي تضع البرتقال المقشر في فمي قالت لي: «كما تعرفين، أنتِ حقيقةً لا يلزمكِ أن تفعلي ذلك إن لم ترغبي فيه. يمكنني أن أخبر والدكِ وسترجعين إلى طهران الأسبوع المقبل».

قلت: «أعتقد أنكِ أردتِني أن آتي إلى هنا، أن أجعل من نفسي شيئاً ما». كانت نظراتها رقيقة بينما هي تستمر، بصورةٍ آلية تقريباً، في دس البرتقال والفستق في فمي. قالت: «أردتُ لكِ ما لم أستطع

الحصول عليه. تعرفين أنني كنتُ الأولى على صفي. كانت مدرّستي عُزرا خانوم تحبني أكثر من طالباتها الأخريات. توقعتُ أن أواصل تعليمي، على غرار بعض النساء الأخريات في أسرتنا من مثل عمة (أمه) همدام أو ماه مونير...»

كانت تتحدث بشكلٍ رئيس كي تهدئني لكنها وقتذاك، على ما أعتقد، تحدثت أيضاً كي تعاود زيارتها لأشباح ماضيها هي. كانت عمة همدام واحدةً من بطلات أمي. فهي واحدة من أوائل الإيرانيات اللواتي أُرسلن إلى أوروبا من أجل إكمال الدراسة في العشرينات من القرن العشرين. وبعد عودتها لم تتزوج بل مضت لتعمل مباشرةً، في البدء كمدرّسة ومن ثم كمديرة في ثانوية مشهورة للبنات في طهران. إنني أتذكرها جيداً، لأنها بدت مختلفةً تماماً عن النسوة الأخريات اللائي جئن إلى بيتنا. كانت تضع قليلاً من مساحيق التجميل وكانت تلبس دوماً ثياباً بلون بنّي مريح للنظر. وغالباً حينما نزور منزلها، بينما كنتُ أغوص في كرسيها الناعم، البني الفاتح، ذي المسندين وأصغي إلى الدندنة المسكِنة لصوتها الهادئ الجازم يتوازن مع مقاطعات أمي المتسرعة، أسائل نفسي ما هو الشيء الذي يثيرني فيها. هل هي تلك القصص التي روتها عن النساء اللواتي في عمر جدتي ممن حملن البنادق تحت (الشادور) الأسود الذي يلبسنه كي يقدمن العون لرجال (الثورة الدستورية)؟ أخبرتني أنني مدينة كثيراً لأولئك النسوة اللواتي بنين أول مدرسة عامة للبنات في إيران. فقد ضُربن، نُبذنَ من المجتمع، وأُبعدنَ أحياناً من مسقط رؤوسهن بسبب جهودهن تلك. تقول بدندنتها الهادئة: «يتعيّن على النساء أن يناضلن من أجل تحقيق ما يبغين، دوماً. وليس في هذا البلد فقط. فحتى وقتٍ قريب كان على النسوة البريطانيات أن يعطين أزواجهن كل مالهن وممتلكاتهن».

وراحت تحكي لأمي قائلةً: «هذه الطفلة عليها أن تقدر الفرص التي امتلكتها، وينبغي لها ألا تعدّها شيئاً مفروغاً منه ومتاحاً لجميع المواطنين».



حفل زفاف العمة همدام. لم تتزوج العروس إلى أن بلغت سن الأربعين، تظهر في وسط الصورة بفستانها الأبيض، ووالد أمي لقمان نفيسي، إلى يمينها. أنا وأمي في الصف الأمامي.

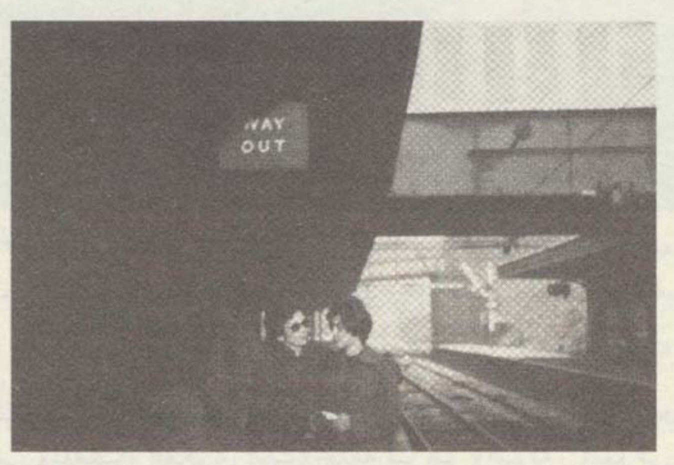
بعد مضي وقت طويل توصلتُ إلى إدراك ما كان رومانسياً بصورةٍ أصيلة فيها: في مجتمع كانت فيه «الأنوثة» واضحة جداً، كان رفضها للانصياع إلى الأفكار التقليدية للنسوية جريئاً واستثنائياً. إن نساءً من مثلها كن رائدات - رفيعات الثقافة، غير متزوجات عادةً - كرّسن أنفسهن لعملهن وكوّنّ أسلوباً لا أنثوياً بصورةٍ مدروسة.

ومع ذلك، كانت عمة (أمه) همدام تستحق الشفقة. فقد شعر البعض أنها كانت تنتمي إلى صنف النساء اللواتي تلفنَ، لأنهن تنكرن لأنوثتهن. وعلى الرغم من أن منجزاتها لم تُلاحظ كما ينبغي، لم تكنْ

تُعد جذابةً جسدياً. وكما في أي ثقافة متزمتة، في حالة النساء: الجنس والاحترام لا يمتزجان جيداً. وحينما جرى حديث عن إرسالي للدراسة في الخارج، بعض صديقات أمي ذكرنها ألا تشجعني كي أكون على غرار عمة همدام، التي تزوجت أخيراً، في عقدها الرابع، من صيدلي له أربعة أولاد. كان هذا هو مصير المرأة مفرطة الثقافة، هكذا قيل لنا: أن تعتني بأولاد امرأةٍ أخرى. كانت في وضعٍ لا تُحسد عليه. كان زوجها يحبها ويحترمها وكانت مخلصةً لأبناء زوجها، الذين بدورهم كانوا مخلصين لها. ولم أدرك إلا بعد زمن طويل جداً كم كان سيكون حالها أفضل لولا تلك الألسن التي كانت تثرثر بطلاقة، ولولا أولئك الأشخاص المملون والمتذمرون باستمرار.

اسمحوا لي أن أعود إلى ذلك اليوم في لانكستر، حينما كنت أنا وأمي جالستين في الحجرة الضخمة بورق جدرانها الزهري المبهج، وسجادتها حائلة اللون، وسريرها الفخم، ولحافها الملون. أخبرتني أنه كانت أكثر رغبات حياتها اتقاداً هي أن تصبح طبيبة - على غرار أخيها، كأعمامها، وعلى غرار الكثيرين جداً ممن ينتمون إلى أسرتنا. إلا أن أباها لم يدعها تكمل تعليمها بعد المدرسة الثانوية. كنتُ أفكر دوماً أنني مدينة لوالدي في إكمال تعليمي، ولسرده القصص على مسمعي وللفضاء الفكري الذي خلقه لنا هو وأسرته. إنما في ذلك اليوم، لولا أمي، وفهمها والقصص التي حكتها لي، ما كنتُ قادرةً على الاستمرار في الدراسة. بدأتُ أؤمن أنه كي تصبحي امرأةً مثقفة له علاقة ضعيفة بأن تكوني إيرانية جيدة أو أن تجعلي أفراد أسرتكِ يفخرون بكِ. وعوضاً عن ذلك، هي ذي هدية يمكنني أن أقدمها إليها. فقد أردتُ أن أكون المرأة التي ادعت أنها كانت تبغي أن تكونها.

باتت الرحلة إلى بريطانيا والأشهر الثلاثة التي تقاسمناها معاً بالنسبة لي تجسيداً لكل ما أحببتُه وحزنتُ على أمي لأنها حُرمت منه. حين نحتاج إليها أنا ومحمد تنقلب وديعةً وحريصةً، كما لو أن جنّيها الطيب استيقظ فجأةً من نومٍ طويل. بطرائق كثيرة جداً شاهدتني أمي وعاملتني كما لم تُعامل هي إبان طفولتها وشبابها. كانت توليني كامل الاهتمام الذي حُرمتْ منه. ومما يثير السخرية أنني كي أغدو ما أرادت لي أن أكونه، وجب عليَّ أن أُبعد نفسي عنها. لا يمكنني أن أكون دميتها المتحركة. لم تدركْ البتة، حينما تعلمتُ لاحقاً أن أناضل من أجل نفسي، كم كانت بارعةً.



أنا وأمي، نتبادل تحية الوداع في محطة قطار لانكستر،
في الأول من كانون الأول (ديسمبر).

غادرتُ لانكستر في ساعةٍ مبكرة من عصر يومٍ من أيام أواخر كانون الأول (ديسمبر). كان يوماً بارداً وغائماً، وهي حقيقةٌ ذكرتني بها صورة لنا نحن الاثنتين في محطة القطار. أنا أرتدي المعطف المطري بني اللون الذي اشترته لي، والذي كنا معاً نتباهى به، وهي

بالمعطف باللونين الأسود والأحمر. هي تميل نحوي، باسمةً. على الرغم من أن أياً منا لم تكنْ تنظر إلى آلة التصوير، من الجلي أننا كلينا كنا واعيتين جداً بها. هي تتطلع إليّ، ويدها على ظهري، كأنها تحميني. إيماءتها والتعبير البادي على محياها كلاهما النموذج الذي تظهر فيه دوماً في الصور الفوتوغرافية حينما يُتوقع منها أن تشع محبة وألفة عائليتين.

قالت: «لا أريدكِ أن تشعري بالحزن». نظرتْ إليَّ بتلك الطريقة الجديرة بالشفقة كما لو أنني مصابة بمرضٍ سيقضي على حياتي. «أحيطكِ علماً أنكِ ستعودين للوطن لقضاء فصل الصيف هناك. هوّني عليكِ، هوّني عليكِ»، قالت باسمةً. ماذا كنتِ ستفعلين لو كنتِ في مكاني؟

الفصل الحادي عشر

سياسة وخداع

بعد زمن طويل من مغادرة أمي أحسستُ بعزلةٍ شديدة. لم يكنْ ذلك يقتصر على الاختلافات اللغوية، الثقافية، والبيئية بين لانكستر وطهران، أو الحنين المرضي إلى أفراد الأسرة والصديقات، بل هي صدمة التغير المفاجئ في أسلوب الحياة الذي كان مختلفاً كاختلاف السماوات الرمادية المستمرة والمطر الدائم في لانكستر عن السماوات المشمسة الزرق في طهران وجبالها المكللة بالثلوج. كانت حياتي في طهران منظمةً ومصانةً؛ تقريباً كل حركة من حركاتي محسوبة: كانت أمي تراقب ما آكله، وكانوا يأخذونني إلى المدرسة ويعيدونني منها بالسيارة ولا أحضر المناسبات خارج البيت من دون والديَّ أو موافقتهما. الآن أصبحتُ وحيدةً بكل معنى الكلمة، مع شخصٍ يحرسني لا يعرف ما أفعله أو يبالي به. فقد تُركتُ بدرجةٍ كبيرةٍ إلى رغباتي الشخصية.

كان معظم الإيرانيين اليافعين يُرسَلون إلى مدارس داخلية، أما أنا فقد أرسلوني إلى مدرسة نهارية عادية في مدينةٍ صغيرة لم يسمع معظم سكانها باسم إيران. كنتُ الأجنبية الوحيدة في مدرستي. وكان المدرّسات صبورات ومحترسات معي، وكنت بشكل رئيس موضع تسلية بالنسبة لزميلاتي في الصف. كن يطرحن عليَّ أسئلةً تنطوي على

شيء من الفضول، وذات طابع متسامح وساخر معاً: كم بعير يملك والداك؟ هل حدث أن قبّلكِ أحد الشبان؟ كن يشعرن بالتسلية إلى درجةٍ لانهائية لأنني لا أعرف ما هي (وصيلة الكهرباء) أو أنني سألتُ مرةً إحدى الفتيات بجد: ما هو طعم القبلة. لكنني سرعان ما غدوتُ واحدةً منهم - تقريباً. كان لي عدد من الصديقات: شيلا الفنانة الحساسة وإليزابيث كثيرة المزاح، ديانا الطالبة المجدة، وأفضل صديقاتي بربارة. أعتقد أننا أنا وبربارة غدونا قريبتين جداً إحدانا من الأخرى لا بسبب قواسمنا المشتركة فقط، بل بسبب اختلافاتنا. بربارة ذات عينين زرقاوين، وشعر بني قصير، هي دوماً على حافة الابتسام. كانت صداقتها مسكِنة، لأنه حياتها على ما يبدو - وأنا أؤمن إلى درجةٍ كبيرة بالواقع - كانت أقل تعقيداً من حياتي. كانت تعرف ما تريد. كان لها أبوان عطوفان يعيشان بتواضع، ويتمتعان بصحبة أحدهما الآخر وكانا يبدوان متصالحين مع نفسيهما ومع أولادهما. كانت حادة الذكاء لكنها في سن الرابعة عشرة وجدتْ صديقاً ثابتاً عرض عليها الزواج؛ طرده والدها. من دون إحساس قسري بالالتزام نحو أسرتها وبلدها كانت سعيدةً بسلوكها الخالي من الهم، لكنني لم أكن كذلك أبداً. كنتُ أشعر دوماً بأنني مذنبة بعض الشيء بشأن كوني سعيدة، وقلقة نوعاً. كانت بربارة تتحلى بصراحة غير معقدة، وكنت أحب هذه الميزة فيها. بطبيعة الحال ما من حياة صريحة، لكنها هكذا بدتْ لي يومئذ.

خلال أوقات النهار كنتُ منشغلةً بالمدرسة وبصديقاتي، إلا أن الليالي كانت موحشةً جداً. وعادةً ما ألازم غرفتي بعد العشاء، نحو السادسة والنصف. كانت الغرفة واسعة. أسحب الستائر، وأترك الضياء مفتوحاً حتى خلال ساعات نومي. عادةً ما كنتُ أشعر أنني وحيدة، وحزينة بشكلٍ فظيع، وخائفة بعض الشيء. لذلك كنتُ أقرأ،

أقرأ كل كتاب تقع عليه يداي. كانت الغرفة باردة جداً وكي أدفئها عليَّ أن أُسقط الشلنات في (الهيتر)، الذي يحرقكَ إذا جلستَ قريباً جداً منه ولن يدفئك إن أنتَ جلستَ بعيداً عنه. لذلك شرعتُ أقرأ في الفراش، وأشعر بالأمان والدفء تحت اللحاف المخملي وبجنبي قنينة الماء الساخن (في ذلك الوقت تقريباً قرأتُ الكتاب المعنون «كيف تكون أجنبياً». لا أزال أتذكر السطر الذي يقول فيه الكتاب (أن للسكان الأوربيين [عدا سكان الجزر البريطانية] حيوات جنسية، أما البريطانيون فلديهم قنينة الماء الساخن). ثمة كتابان كانا دوماً بجانب سريري - قصائد حافظ وقصائد فروغ فرخزاد، الشاعرة النسوية المعاصرة. لكنني في أغلب الأحيان أقرأ الروايات. هكذا صنعتُ وطناً لي في هذا المكان الجميل، الرمادي، والرطب، وجعلتُ غرفتي الخالية مأهولةً بقراءة ديكنز ودوستويفسكي، أوستن وستندال.

لم أكن مستعدةً للمشهد الذي سأصادفه في المطار خلال ذلك الصيف، حينما ذهبتُ أخيراً إلى الوطن في إجازة. وسط بحر الوجوه كان هنالك عدد من الغرباء المستقبلين المخيفين. وفي النهاية حدثتُ بالضبط المكان الذي وقفت فيه أمي وخالتي نفيسة بجنب رجل في منتصف العمر، رث الملابس، ذي مظهر مرح، يحمل باقةً هائلةً من زهور السوسن بلون وردي مروِّع. أما مصففة شعر أمي قولي فكانتْ واقفةً خلف هذا الرجل بمسافةٍ قليلة، تلوّح بيدها وتبتسم، إلا أن نظرتي كانت تواصل الرجوع إلى ذلك الرجل الذي يحمل زهور السوسن، حيث كان يبتسم بابتهاج على نحو ما يفعل الغريب الذي يروم أن يصبح صديقكِ المفضل بصورة مزعجة جداً. قالت أمي بينما كانت تطبع قبلاتها على كلا خديَّ: «دعيني أعرّفكِ على السيد ضياء. إنه يعمل مع والدكِ». ووقفت الخالة مينا وابنتها بجانب أبي وأخي

وحددتُ موضع العم رضا، وهو واحد من أشقاء أبي الأصغر سناً، والذي كان قد التحق حديثاً بجامعة طهران وكان يقيم معنا، إنما هنالك كثيرون لم أستطع تمييزهم، كان جميعهم على ما يبدو يتقاسمون سراً من نوعٍ ما. يمكنك أن تراه بالقدر نفسه في إيماءات أمي مثلما هو في البسمةِ المتملقة الذليلة للسيد ضياء، الذي كان، كما تبيّن لاحقاً، رئيس موظفي أبي. هكذا ستكون حياتنا، مصابةً بعدوى منصب أبي الجديد بوصفه أصغر محافظي طهران سناً. ومنذ ذلك الزمن فصاعداً، حيثما أذهب، يطوقني الغرباء الذين يتصرفون كما لو كانوا أصدقاء حميمين، إلى أن زُج بأبي في السجن، في شتاء سنة ١٩٦٣، حيث انعكست العملية كلها تقريباً. همس العم رضا في أذني بتهكم: «مرحباً بكِ في طهران أبيكِ!»

كتب لي أبي: «أمكِ تشتاق إليكِ كثيراً جداً بحيث إنها تتهمني باستمرار بعدم اكتراثنا قاسي القلب بحالتكِ. إنها تعترض على تدفئة المنزل لأن [آذي المسكينة] هناك في إنكلترا، ترتجف من البرد في ذلك المنزل الواسع، يوماً بعد يوم». كتبت لي أمي رسائل مواسية، طافحة بالأسئلة القلقة عن صحتي وسعادتي، وكانت تلح على أبي أن يبعث لي أجزاءً مقتطعة من المجلات النسائية عن فوائد عصير العنب وتنظيف أسفل قدميكِ بحجر الخفّاف (البومس). بعثت لي فواكه مجففة: كرزاً وخوخاً ومشمشاً، بالإضافة إلى قطع ملابس صوفية مُحاكة باليد: جوارب، قفازات، وبلوزات، كانت إما صغيرة جداً أو كبيرةً جداً. هذا يشكل نموذجاً على مدى السنوات المقبلة: حينما كنا بعيدتين إحدانا عن الأخرى كنا أنا وأمي نتوق توقاً شديداً إحدانا إلى الأخرى، وبعد انقضاء أيام قليلة أو أسبوع في الأكثر، كنا نعود إلى عاداتنا السابقة.

«*كان فيروز [إسحق] يتلألأ ساطعاً، غير أن دولته - يا للأسف - كانت سريعة الزوال*».[1] حينما دخلتُ غرفة المعيشة في أول جمعة بعد رجوعي من إنكلترا، سمعتُ صوتاً مألوفاً ينطق بهذا البيت من تأليف شاعرنا الكلاسيكي حافظ، في إشارةٍ إلى إسحق، وهو ملك دام عهده مدةً وجيزةً، بفضل مكائد أعدائه. يرثي حافظ نجم إسحق الساطع إنما قصير الأمد.

كان كثير من الرواد القدامى هناك في صباح ذلك اليوم: صديق والدي القديم السيد خليقي، مصففة شعر أمي (قولي)؛ المقدم الثري؛ إضافةً إلى العم رضا الذي همس قائلاً إنه خجول جداً من مهنة أبي الجديدة وقال إنه كان ينكر علاقته بأبي. ففي نظر كثير من الإيرانيين أن تتبوأ منصباً عالياً في الحكومة يعني أن تبيع روحكَ للشيطان. وكانت الخالة مينا هناك أيضاً، وحينما دخلتُ الغرفة، أومأت لي أن أجلس إلى جانبها.

كانت هناك وجوه قليلة جديدة: السيد ضياء صاحب زهور السوسن الوردية - المروِّعة، يجلس على كرسي منتصب كان يمنعه من أن يتدبر الجلوس مسترخياً. وإلى جانبه هنالك شاب، نحيل، داكن البشرة، اكتشفتُ لاحقاً أنه السيد ميشغين، وهو مراسل صحفي؛ وثمة رجل متواضع ذو ابتسامة مذعنة قدّمه أبي بوصفه السيد إسماعيلي، وهو أحد وكلائه المسؤولين عن المتنزهات والمساحات الخضر.

كان الصوت الذي سمعته يقتبس بيت شعر من حافظ يعود للسيد

---

(١) ورد هذا البيت بالفارسية في النص الإنكليزي كما يلي: Firoozeh-e Bu-eshaghi Khosh Derakhshid vali dowlatash mostajaal bud - م.

خليقي، الذي بعد أن حيّاني بحرارة مضى يقول: «عاش حافظ منذ ما يزيد على سبعمئة سنة خلت، لكن ما يقوله عن إسحق، الملك سيّئ الطالع، ما يزال ساري المفعول. عزيزنا أحمد يافع وطموح. طموحاته كلها جيدة جداً وذات نوايا طيبة. لكنه لا يدري أنه في هذه الحكومة لا مكان للنوايا الطيبة. لا يمكنكَ أن تبقى حياً بالشعور الودي نحو الآخرين».

قال والدي ضاحكاً: «أنت تثق بي كثيراً. طموحاتي متواضعة وأنا لا أهدد أولئك النبلاء المحيطين بالشاه. ولستُ ملائماً لهم». أصغيت بمشاعر مختلطة، ورحتُ أفكر ملياً في سكوت عمي. تابع أبي كلامه قائلاً: «إضافةً إلى أن الشاه يعرف هذا. فليس لديه سبب يجعله يشعر بأنني أهدده».

وردّ السيد خليقي بسرعة: «الشاه، يا عزيزي، يشعر بأنه مهدد من الجميع. وربما لديه أسباب وجيهة. بعد مصدق، فقد الشاه الثقة القليلة التي وضعها في ولاءات الآخرين. الآن هو مقتنع بأن كل شخصٍ واضح وله شعبية ينبغي عدم الوثوق به. لذا كما ترى»، قال وهو يميل نحو أبي. ثم أردف قائلاً: «لا يمكنكَ أن تضع مصيركَ بين يديّ رجلٍ ليس لديه ثقة بنفسه».

كانت هذه إشارة إلى مصدق، رئيس وزراء إيران العنيد في مطلع الخمسينات من القرن المنصرم، الذي كان معروفاً جداً بمعارضته للشاه ولجوئه إلى تأميم الشركات النفطية، التي كان يستولي عليها يومئذ البريطانيون. وأدى هذا إلى مواجهة دولية هستيرية ومليئة بالتوتر، وبشكلٍ رئيس بين إيران وبريطانيا العظمى، ومقاطعة النفط الإيراني التي حرّضت عليها بريطانيا مما زاد من تردي حال الاقتصاد الإيراني الذي كان يعاني من المشاكل. أُجبر الشاه على مغادرة إيران مدةً

قصيرة. واغتنم حزب تودة الشيوعي المدعوم من الاتحاد السوفياتي، الذي كان له ممثلون في البرلمان وتغلغل إلى الرتب العسكرية، الأزمة كي يثير القلاقل. وساند أحد ناصحي آية الله خميني: آية الله كاشاني، في البداية رئيس الوزراء مصدق، لكنه فيما بعد انقلب ضده وتصالح مع الملكيين الذين دعموا الشاه. كل هذا بلغت ذروته في انقلاب سنة ١٩٥٣ العسكري ضد مصدق، الذي سانده الأمريكيون والبريطانيون، وفي عودة الشاه. يبقى مصدق والانقلاب الذي أطاح به موضوعاً طازجاً دوماً، موضوعاً لسجالٍ لا ينتهي - من هو الصحيح ومن هو الخاطئ، مَن الذي ضلل مَن وما هو الثمن الذي دفعناه لقاء هذه المخادعات؟

كان مصدق وما يزال، في معظم الحسابات، أكثر الشخصيات السياسية شعبيةً. تعاطف أبواي معه وأحبت أمي سرد قصة يوم



مصدق أثناء محاكمته.

الانقلاب الذي أدى إلى محاكمته المثيرة للجدل ونفيه إلى أحمد آباد، وهي قرية كان يملكها. تحولت رئاستة المجهَضة للحكومة إلى تجسيد لطموحات إيران الديمقراطية التي لم تصبح واقعاً حتى الآن. وحمل مصدق معه السحر المتآكل للأحلام غير المتحققة. ومع ذلك، بعد سنوات عدة، وتحديداً في سنة ١٩٧٨، حين كانت لنا فرصة في اختيار خلف لمصدق: شاهبور بختيار، وهو شخصية وطنية ليبرالية، الذي عيّنه الشاه أخيراً كرئيس وزراء، لم يختر معظم السكان بختيار بل آثروا آية الله خميني الذي كان يبز الشاه في طغيانه. يستطيع المرء أن يطرح سؤالاً، على الأقل في الرؤية الخلفية: إلى أي مدى يمكننا أن نثق بالجماهير التي تتفجع على مصدق لكنها تنتخب خميني؟

بعد الصباح الأول من عودتي إلى إيران، كان الجميع يفكرون في مصير الشعب الإيراني. أُوحي لنا أن غالبية محننا تُعزى إلى تمسكنا العنيد بعبادة الشخصية والهالة التي أحاطوا بها الشاه. ما من أحدٍ كان باستطاعته أن يشرب كوباً من الماء من دون موافقة الشاه، هكذا قال أحدهم. فاعترض السيد ميشغين، المراسل الصحفي داكن الملامح قائلاً: «إنها ليستْ غلطته. إنه شيء يسري في دمائنا؛ هكذا نستجيب لزعمائنا. نحن نسمي كل واحد منهم: (ملك الملوك)، (ظل الله على الأرض). منذ متى أصبح حتى الرجال ذوو السلوك المعتدل جداً يؤمنون بما يسمعونه؟ مصدق نفسه كانت له ميول دكتاتورية كثيرة». التفت إلى والدي واستطرد قائلاً: «أنتَ يا صديقي تبني قصوراً في السماء إن أنتَ اعتمدتَ على الشاه. أنتَ تعرف الفردوسي خاصتك. ضع في بالكِ كم مرة ضلل ملوكه مرشديهم». وقبل أن يجد أبي فرصةً للرد، قال السيد خليقي لأبي: «نزهت خانوم، آمل أن تؤيديني.

دفع كثير من الرجال الصالحين في أسرتك الثمن غالياً بسبب خدماتهم الجليلة للشاه».

أومات أمي، التي كانت صامتةً بصورةٍ غريبة خلال هذا الحوار، برأسها ونظرت بابتسامة عريضة مريرة، وقالت: «لم أكنْ مصغيةً». «إنني وحدي من يدفع الثمن. كان عمو سعيد يحاول أن يخبره بالشيء نفسه». بصرف النظر عن مقدار استمتاع أمي بمنزلتها الاجتماعية الجديدة باعتبارها زوجة المحافظ، لم تنسَ أبداً المظالم التي وقعت على حشد من أفراد أسرة نفيسي الآخرين، المعروفين بعنادهم، وحدث أن كانوا في وقتٍ من الأوقات مكروهين، وهم إما يقضون مدةً قصيرةً في السجن أو يُطردون من وظائف الحكومة ويتم نفيهم إلى خارج البلد. هذه الوقائع تم التلميح إليها بفخر، على الرغم من المصاعب التي جلبوها إلى حيواتنا، بحيث إننا نغفر للغريب الذي يسترق السمع لنقاشاتنا إذا ما ظن أننا كنا نتحدث عن مظاهر الحفاوة والترقيات.

قال والدي مدافعاً: «الأمور أكثر تعقيداً من ذلك. أنا لستُ مصدق، فقد تغيرت الأزمنة، وعلينا أن نفعل ما نقدر عليه».

في اليوميات الخاصة التي كتبها والدي المتعلقة بتلك الحقبة الزمنية وجدتُ الفرح المخفف ذاته، ذلك الفرح الذي أحسستُ به وقتذاك. مثلما اكتشفتُ لاحقاً، جاء هذا الفرح من حقيقة أن كل شيء يجري على ما يرام، إلا أن أشياء كثيرةً جداً يُمكن إنجازها بصورةٍ أفضل كثيراً وكان قد أُؤتمن السلطة والمسؤولية كي يقوّم تلك الأشياء. في وضع كهذا، أتعلم في الوقت المناسب: أنكِ تشعرين أن ثمةَ حاجة إليكِ، وأنكِ متباهية بنفسكِ، كما لو أن مسؤولياتكِ لا حد لها، كطفلٍ

يملك عدداً لانهائياً من قطع الليغو (الآجرات البلاستيكية الملونة والمتشابكة)[1]، وقد غمركِ بصورة مستحَبة التعهد ببناء جميع القصور التي ينبغي بناؤها. ذلك، بطبيعة الحال، شيء وهمي. وإن مسؤولية خيبة الأمل التي أعقبت ذلك لا يمكنْ أن تقع فقط على عاتق الشاه، أو خميني.

تزخر يوميات أبي بوصف مرهِق إلى حد اللهاث للخطط التي اتخذها من أجل تطوير مدينة طهران - بناء المتنزهات وخلق أول خارطة شاملة للمدينة، البدء بمجالس محلية خاصة بالمدينة، محاربة الفساد - وصف لحواراته التي لا تُعد ولا تُحصى مع الشاه، التي تبدو لطيفةً وفاتنةً. يطفح النص بالنشاط: الأفعال تامة والنثر حيوي ودقيق. هكذا أتذكره في تلكم السنوات. كان مملوءاً بالحيوية التي بتُّ ألمحها فقط بين الحين والحين في السنوات المتأخرة حينما كان يشغل نفسه في الحديقة من دون جدوى مع نباتاته. كان يضع ثقته في ثقة الشاه به. كان يبدو أنه يكتسب الثقة من كل إيماءة ود من الشاه، ويتباهى بنفسه كونه صريحاً في ما نبذه باعتباره تودداً متملقاً ذليلاً. أتذكر تباهيه المتعلق بكيفية رفضه فضلاً من الشاه يقضي بمنحه قطعة أرض قرب بحر قزوين، على سبيل المثال. قال: «إنني لا أتهرب من التعبير عن انتقادي. إنني صريح في معارضاتي».

ومنذ البداية كان ثمة خلاف بين أبي والموظفين الكبار الآخرين، بخاصةٍ رئيس الوزراء أسد الله علم، ووزير الداخلية سيد مهدي بيراسته. قالت أمي عن عَلَم: «إنه ماكر كالثعلب. لا يمكنني أن أثق بهذا الرجل». كان مشهوراً بقسوته. وانتشرت قصص خفية حول

---

[1] تُسمى في العراق: قطع الميكانو - م.

الطريقة التي يتخلص فيها من أعدائه والامتيازات التي يهبها لأولئك الذين يلتزمون التزاماً شديداً بنهجه.

ومع أن أبي كان صادقاً في إصراره على أنه ليس طموحاً بالمعنى المألوف للكلمة، إلا أن طموحاته في حقيقة الأمر كانت تتفوق كثيراً على طموحات رئيس الوزراء أو المقربين منه. أعتقد أنه في بعض المستويات كان يريد أن يبرهن لهم كم كانوا ضعفاء، وأن ما كانوا يتوقون إليه من سلطة وغنى لا يعني شيئاً بالنسبة له. فقد رفض مراراً فضلاً ما من الشاه، وشوّه مكانتهم الاجتماعية في عينيّ الشاه. ومع ذلك كان قد شوّه كذلك مكانته الاجتماعية هو نفسه، التي كان يحبها ويزدريها في آن. كانت أمي تتباهى أيضاً بالطريقة التي تزجر فيها بعض أعضاء الأسرة الملكية والموظفين العدائيين. وكانت تلك هي المشكلة المتعلقة بأفراد أسرتي: كانوا يريدون السلطة كي تُكمل مُثلهم العليا لكنهم لا يريدون أن يتلطخوا بالسياسة. هذا الأمر يفسر جزئياً تعاطف أبويَّ المفرَط إلى درجة غير سوية مع أولئك المكروهين من النخبة الحاكمة، حتى حين كانوا هؤلاء أنفسهم جزءاً من تلك النخبة.

على الرغم من ثقة أبي بنفسه، خلال هذا الطور الذي شعر فيه بالنشاط والخفة، اكتشفتُ لديه شعوراً خفياً بالقلق العميق، امتد إلى أحلامي. بين الفينة والفينة، حينما غدت المعارضات السياسية متسمةً بالمجابهة بشكل خاص، كان يقول لنا: «سلّمتُ استقالتي باليد، لكن الشاه رفضها». ومع أن أمي ستدّعي لاحقاً المرة تلو المرة أنها كانت تتنبأ بالانعطافة المشؤومة التي ستتخذها مسيرة أبي، كان هو قد أخفى عنها مشاكله وكانت في حقيقة الأمر مستغرقةً في حالةٍ عامةٍ من الخوف بحيث إنها لم تستطع أن تتوقع أي تهديد واقعي. حينما يصل أبي إلى البيت متأخراً عشر دقائق، وعند تلقّيه اتصالاً هاتفياً غير متوقع، أو

عندما ينتابه شعور معيّن بالقلق، تطرح أمي سؤالاً في الحال: *ماذا؟ ماذا* جرى؟ تطرحه بقوة شديدة بحيث يبدو قلقها أقرب ما يكون إلى حالةٍ من التباهي.

تنافسُها القديم مع أبي واستياؤها الجوهري من الحياة لم يتح لها كي تثمن كلياً ظروفها الجديدة، لكنها تمتعتْ بالسلطة التي صاحبتْ تلك الظروف. وحتى خلال ذلك الزمن لم تنسَ أن تذكرنا بحياتها الفاتنة مع سيفي في منزل والده - كما لو أن أي اعتراف برضاها عن حياتها مع أبي سيكون علامةً من علامات خيانتها لسيفي. تقول أمي: «في منزل سهم سلطان كان هنالك دوماً نشاط صاخب. كان رجال السياسة مختلفين يومذاك، كانت لديهم عزيمة». وذات مرة قال أبي، وهو في مزاج جيد، بمرح إنما بمرارةٍ واضحة: «هل لاحظتِ أن أمكِ في كل مرةٍ تتكلم فيها عن أمجادها الماضية، يكون سيفي غائباً؟ ماذا كانت إنجازاته على وجه الدقة؟ بغض النظر عن كونه ابن والده، هل سبق له أن أنجز شيئاً ما؟ عندما أستمع إلى كلامها يخطر في ذهني أن خطئي الأكبر هو أنني لم أكنْ على عتبة الموت!»

أفكر أحياناً أننا نغدو خاضعين جداً للصور التي نخلقها عن أنفسنا بحيث لن يكون باستطاعتنا أبداً التخلص منها. كانت أمي قد قررت من البداية أن زواجها من والدي كان غلطةً، زواجاً بائساً من المرتبة الثانية مقارنةً بحياتها مع سيفي، وعلى الرغم من الأدلة كلها التي تكشف عكس ذلك لم تكنْ لتعدّل ذلك الافتراض الأول. ادعت الخالة مينا أن أمي كانت تحب أبي في حقيقة الأمر إلا أنها لم تكنْ تعرف كيف تُظهر حبها وهكذا أظهر هذا الحب نفسه بهيئة قلق على سلامة أبي، وبهيئة دفاع متطرف عن أنشطته السياسية، وقلق مستمر على صحته. كان غضبها وحده عميقاً ولا جدال فيه.

الفصل الثاني عشر

محافظ طهران

كان والدي يغادر البيت في نحو الخامسة من صباح كل يوم تقريباً. وقبل الذهاب إلى مكتبه كان يرغب في التجوال في المدينة، ويقوم بزيارات عَرَضية لمخافر إطفاء الحرائق والطواقم الصحية والتوقف بشكل أكثر انتظاماً في أكبر سوق في طهران متخصص ببيع الفواكه والخضر ومقابلة رئيسه غير الرسمي حجي طيب، الذي كانت له شهرة في تثبيت الأسعار من خلال الجمع بين التنمر والتخويف. كان والدي فخوراً بالطريقة التي كان يعامل فيها طيب، ويجعله يعمل ضمن نطاق القوانين والأنظمة الخاصة ببلدية طهران.

وكانت لأمي مجموعتها الخاصة من الجواسيس الذين بمساعدتهم استطاعت أن تتدخل في شؤون المدينة بحيث إنها، بطرائق كثيرة، كانت تعرف بشكل مفصّل يفوق ما يعرفه والدي. فخلال سنوات حياتها البالغة طافت شوارع طهران، ووجدت المادة ذات النوع الجيد، أنسب الأسعار، وقايضتْ، وتملقتْ، وتخاصمتْ، وعقدتْ صداقات مع أصحاب المخازن. كانت تعرف كيف يخفي بائعو الفواكه أفضل الفاكهة كي يبيعوها بأسعار مرتفعة لزبائنهم الأكثر غنىً وكانت تستجيب لدعوات معارفها وصديقاتها اللواتي يخبرنها عن قصابٍ ما أو خبازٍ ما. ما تفتقده من حسية في علاقاتها الشخصية تنبجس في غزواتها اليومية

للسوق، حيث تقيم الدنيا وتقعدها لحظةً وتعبث وتلاطف في اللحظة التالية. ولم يكن من الغرابة بالنسبة لها أن تقضي نصف ساعة في مرةٍ من المرات في التحدث مع بائع الفواكه، وبيدها برتقالة أو تفاحة، تشمها، وتفحص قشرتها، مخمنةً طعمها. وخلال مرافقتي لها في هذه المغامرات، أحسستُ أنني بشكلٍ من الأشكال أقرب إليها، كما كان يحدث لي خلال طفولتي حينما كانت، وهي تمسك بيدي شاردة الذهن، تسير من مخزن إلى مخزن تبدو وكأنها في بيتها في هذا العالم: عالم الشوكولاته، والجلد، والبهارات.

كانت نسبة كبيرة من أفكار والديَّ المتعلقة بإيران مغلفةً بوجهات نظرهم المتباينة بشأن طهران. كان أبي مغرماً بالمدينة وفضولياً فيما يتعلق بماضيها، إلا أنه كذلك متلهف جداً لأن يدفعها إلى الأمام وأن يترك عليها بصمته. أما والدتي فكانت مغرمةً بفكرة طهران، بطقوسها وشعائرها وأزقتها المغبرة، كل ذلك مفعم بالتقاليد التي شعرتْ أنها مرغمة على المحافظة عليها مهما كلف الأمر. غالباً، حينما كانت تمضي من مخزنٍ إلى مخزن، تنظر إلى السلع وتتلمسها، كنتُ أشعر أنها بشكلٍ من الأشكال تتأكد من أن الأشياء كما تصوّرتها. من المؤكد أنها خلقت أعداءً لها وكانوا يغتابونها، لكنها هنا (أي في السوق) على الأقل، على خلاف ما كانت عليه في البيت، كانت مطاعة ومحترمة.

كانت تتمتع بتقويض قوانين أبي وأنظمته، وكانت تدعو أصحاب المخازن المفضلين لديها إلى منزلنا. في صباحات أيام الجمع، إلى جانب المراسلين الصحفيين، ربما يجد المرء البقال أو الخباز الأرمني، يجلس بأدب على حافة كرسيه. ويذكّرها أبي، غاضباً، قد يعدُّ الآخرون هذا الأمر علامةً من علامات المحاباة. يقول أبي: «سوف يتهمونني بأنني أعطيهم الرشوة وآخذها منهم. لا يمكنكِ أن

تفعلي ذلك». ويصل إلى درجة أن يطلب منهم من دون علمها ألا يأتوا إلى منزلنا، بالقدر نفسه الذي يعطي فيه الرشوة للخادمات كي يمكثن وألا يكترثن لنوبات غضب ربة البيت.

بعد ثلاثة أسابيع تقريباً من عودتي من لانكستر مضيتُ أنا ووالديَّ لزيارة عمو سعيد. أصر محمد على مرافقتنا. كان شغفه بالكيمياء قد انتهى وكان لديه مشروع طموح في ذهنه: كان قد بدأ بتأسيس مكتبة. كان قد اختار ختماً واسماً لها: إيران المزدهرة، وهو اسم مجلة أسسها وحررها والدي خلال عمله في (التخطيط وتنظيم الموازنة). استجدى محمد، بصورة وقحة بحسب رأيي، مساهمات من الأقارب والأصدقاء. في هذا المسعى كان قد لقي التشجيع عموماً. استنتجت أمي، التي كانت تشكو باستمرار من كوننا نقرأ كثيراً جداً، أن مشروعه ذاك ذكي جداً وتباهت به في كل الأمكنة التي قصدتها. أن تتمدد على الأرض مستغرقاً في مطالعة كتاب شيء وأن تؤسس مكتبة شيء آخر، حيث تكون الكتب مرتبة ومصنفة. قرر محمد أن يرافقنا كي يستجدي دعماً مالياً من عمو سعيد - ومن عمو سعيد سينال روايتين وكتاباً عن الصوفية الفارسية لقاء مجهوده، إضافةً إلى قدر كبير من الاهتمام والتشجيع.

في ذلك اليوم، حتى سحر منزل عمو سعيد لم يكنْ قادراً على تغيير مزاجي القاسي والمتسم برثاء الذات. فقد تخاصمتُ مع أمي بسبب موضوعٍ ما طوال ساعات الصباح. كنتُ أرغب في الذهاب إلى صديقةٍ حميمة في تلك الليلة. كانت صديقتي ستغادر في غضون أسبوع وقد دعتني أنا واثنتين من صديقاتنا الأخريات لقضاء الليلة معها. أخبرتُ والدتي: «أماه، إنها ليست حفلة. نحن بنات فقط».

لكنها بغتةً أرادت أن ألازم البيت. كانت قد اشتاقت إليّ. لم يكنْ ذلك صحيحاً، فالأولاد يهملون عوائلهم، يعودون إلى الوطن في إجازة ولا يقضون لحظةً مع ذويهم. توسلتُ إليها قائلةً: «أرجوكِ، ماما». ردتْ عليَّ بسرعة خاطفة: «قلتُ لا، ذلك قراري الأخير. من دون كلمة أخرى». وانتهى الموضوع كالعادة بالبكاء، والاتهامات المضادة، والصمت الطويل، والمتأمل.

ما إن اتخذنا مجلسنا في غرفة المعيشة حتى بدأ عمو سعيد يضايقني بملاحظاته حول ظهوري مؤخراً على شاشة التلفاز. فقبل أيام قليلة كنتُ قد رافقتُ والدي في جولة في طهران مع عددٍ من الأمريكيين الذين كانوا يقومونِ بزيارة المدينة رفقة منظمة إنسانية أمريكية تُدعى USAID. كانت الجولة قد تمت تغطيتها في نشرة الأخبار وقد كنتُ في نطاق رؤية آلة التصوير. قال أبي: «عادةً حينما يزور الأجانب المدينة يجعلونهم يشاهدون أفضل مناطق المدينة، لكننا بدأنا بأفقر المناطق، كي نعطي هؤلاء الأمريكيين شيئاً ما يفكرون فيه. وكانوا مندهشين قليلاً لدى مشاهدتهم كم هي طهران مدينة يافعة. ابنتي هي الأخرى لم تكنْ تقدّر هذا الأمر، لذا يدور في خلدي أنها تحتاج إلى درس في التاريخ أيضاً».

سألني عمو سعيد بمرح: «هل ذلك صحيح؟ فهذا الشيء لا يتوقعه المرء من شابةٍ مهذبة كهذه». وعندذاك أصدرت أمي نخيراً غير محسوس تقريباً. ومضى يخبرنا كيف كانت طهران قبل أن يختارها ملوك القاجار عاصمةً لهم في القرن الثامن عشر قريةً صغيرةً مليئة بالحدائق الغنّاء، وكان سكانها يقيمون في كهوف تحت الأرض كي يحموا أنفسهم من الغَزاة.

«لم يبقَ الكثير من تلك المدينة الغابرة»، قال أبي بطريقةٍ جافة،

وقد آثر أن يتغاضى عن الغضب الصامت الذي يغلي بين أمي وبيني. وانضم عمو سعيد إلى الحوار قائلاً: «هذا صحيح بدرجة كافية. أن نتباهى بماضينا المجيد أسهل من أن نحافظ عليه. لم يكد يمضي قرن على تنحية القاجار عن العرش حتى زالت معظم المباني التي كانت مشيدة في عهدهم، وهذا جزء من مشروع التحديث». وشرح والدي قائلاً إنه حتى ذلك الزمن لم تكن هنالك خطة متكاملة للمدينة. إذ كانت تنمو بصورةٍ عشوائية لا غير. وتباهى بأنه استخدم مهندساً ألمانياً حي الضمير بأجر كي يرسم خطةً قابلة للتنفيذ على مدى خمس سنوات فضلاً عن خطة أخرى قابلة للتنفيذ على مدى خمس وعشرين سنةً.

وبينما كان أبي وعمو سعيد يتابعان حديثهما، وبين الحين والحين يوجهان تعليقاتهما مباشرةً إلى أمي، التي كانت تومئ برأسها من دون أن تُبدي ولعاً شديداً، كنتُ أنجرف تارةً إلى حوارهما وطوراً أتغافل عنه. في لحظةٍ ما تحوّل الحديث إلى طهران خلال (الثورة الدستورية) بين عامَي ١٩٠٥ و١٩١١. أخبرنا عمو سعيد قائلاً: «كل حديقة ومتنزه في هذه المدينة يحمل تذكارات تلك الثورة. لنأمل ألا تهجر أطياف آبائنا هذه المدينة».

تكلما كثيراً يومئذ عن حدائق طهران التي باتت معاً ملاذاً وقبوراً للدستوريين - إلا إنني ركزتُ أكثر على ما سأفتقده تلك الليلة من خلال عدم ذهابي إلى منزل صديقتي. وفي الوقت الذي كنا نستعد فيه لمغادرة منزل عمو سعيد، قررتُ أن عليَّ أن أغادر طهران حالاً، ما إن نصل إلى بيتنا.

كنا في سطح أحد مطاعم طهران التي تساير الموضة، أبي وخالتي نفيسة وأنا. ومثله مثل كل البقع الحديثة في طهران كان المطعم يحمل

اسماً أجنبياً: سورينتو. لا أدري أين هي أمي. فخلال هذه الأيام أصبح أبي وخالتي نفيسة صديقين حميمين جداً. ومنذ أن تبوأ منصبه كمحافظ، نمت بينهما علاقة جديدة وحميمية أكثر. كانت خالتي نفيسة تستمتع بالحفلات وبإعجاب رجالات السلطة، وكانت تحب الغزل والتودد حباً جماً.

كان والدي الذي وقع في فخ بين رغبته في فهم ومساعدة أمي وامتعاضه من سلوكها معي، وأفضى بإحباطه إلى الآخرين. في اعتقادي أن ذلك لم يكنْ مقصوداً من ناحيته، لكنه بهذه الطريقة كان قد اكتسب التعاطف من الآخرين. كان فاتناً وحلو العِشرة وأكثر هزلاً من أمي، التي يبدو أنها قد وقعت ميثاقاً بألا تمتع نفسها. أما خالتي نفيسة فكانت تحب الضحك والشرب والمقامرة والذهاب إلى دور السينما وصالات المسارح. كانت تتمتع بالحياة الجيدة التي كان والدي يتمناها حينما تزوج من أمي، الحياة الجيدة التي كانت أسرته المتزمّتة في أصفهان ترفضها رفضاً عنيفاً. لذلك بينما كان يتعاطف مع أمي وهو يخبرنا بقصصها وكيف أنها سُلبتْ من حقها في الميراث بسبب زوجة أبيها الشريرة، كان أيضاً يطري خالتي وكان بدوره ينال إطراءها من خلال اهتمامها به.

يجلسان قبالتي. أشعر بأن لي الشرف أن أقضي أمسيتي مع اثنين من أقرب الناس إليّ. لم أشعر بالدفء مع زوجة جدي، التي كانت فاترة العواطف وخبيثة بطبيعتها، إلا أنني كنتُ أحب الذهاب إلى منزل خالتي نفيسة



أبي، الخالة نفيسة، وأنا.

وكنتُ أتحرق شوقاً لإدخال البهجة إلى قلبها. كانت عيونهم مشعة ومركزة عليَّ فيما كنتُ أستدفئ بنور إطراءات أحدهما للآخر. إنما في حضور البديهة ذاك كان يجري شيء آخر لا صلةَ له بي. إنه يتضمن فرحاً أخرس له صلة بهما هما الاثنين فقط: شاب وشابة جذابان وناجحان، يلهوان ويعبّران عن إعجاب أحدهما بالآخر.

مع أنني لا أعتقد أننا نقوم بشيءٍ خاطئ، فإن شعوراً بالإثم لازمني لاحقاً. لم تمضِ علاقتهما أبعد من صداقةٍ حميمة يتخللها الغنج؛ كان غياب أمي المدروس عن المناسبة يجعل تلك الصداقة مشكوكاً فيها. فقبل زمن من عدم وفاء أبي لأمي، كان والداي قد مهّدا الطريق بالخداع العاطفي. سوف يتم استبدال خالتي نفيسة بوجهي امراتين أخريين - سكرتيرة أبي، وصديقة للأسرة - كانتا تبتسمان لي من الجهة المقابلة، وتمدحانني على شيءٍ أو سواه. إنه شيء غريب كيف أنهما، في ذاكرتي، تبدوان متشابهتين، تجلسان قبالتي، قريباً من أبي، تبتسمان وتتحدثان عني بصيغة الشخص الثالث (أي: هي)، تستخدمان صيغة التحبب الخاصة باسمي: آذي. خلال هذه اللحظات، على الرغم من أنني حاولتُ أن أدخل السرور إلى فؤاد أبي وفؤاد المرأة الجالسة إلى جانبه، كنتُ أحس دوماً بعبء غياب أمي.

بعد عشائنا في مطعم سورينتو بأيام قليلة، اجتمعت أمي، وخالة مينا، ومونير جوون الهزيلة جداً في حجرة المعيشة بمنزلنا. أمي تحمل راووق القهوة على نار الغاز وهن يتكلمن عن الخالة نفيسة. تقول الخالة مينا: «نزهت، أنتِ لم تواجهي نفيسة بخصوص قضايا عائلية، بخصوص الطريقة التي كانت تسيء فيها معاملتكَ هي أو أمها. أما الآن فقد اختلف الأمر. هذا زوجكِ وينبغي لكِ ألا تبقي ساكتةً».

تقول أمي: «لا يجدر بي الاعتراف بذلك. إن أفضل رد هو أن أتظاهر بعدم الانتباه».

تقول الخالة مينا بنفاد صبر: «حسن، حسن، إنما لا حاجةَ لأن تتباهي بسكوتك العنيد».

تصرف أمي تعليق الخالة مينا بإشارةٍ من يدها وتنطلق في سرد قصة أخبرتنا بها مرات عدة قبلاً. تلك القصة المتعلقة بتورط زوجة أبيها في علاقة غرامية. يبدو أن زوجة أبيها فردوس كانت غير حكيمة أمام أمي وأخ جدي الأصغر، الذي هددها بأن يخبر زوجها. وبحسب قول أمي، قلبت زوجة أبيها الموائد على حميها وادعت أنه كان ينشر الشائعات لأنها رفضت عروض الزواج التي تقدم بها إليها. هذا الاتهام أدى إلى نفور بين زوجها وأخيه الأصغر.

تسكب أمي القهوة في ثلاثة أكواب صغيرة، وبينما تسلّم واحداً إلى الخالة مينا والآخر إلى مونير جوون، تروي كيف أن والدها، طوال ما بعد الظهر، كان يذرع الحديقة ذهاباً وإياباً صحبتها طالباً منها أن تخبره ما تعرفه عن هذه المزاعم، لكنها رفضت أن تقول كلمةً واحدة. كانت فخورةً جداً بهذه الحقيقة. تقول: كنتُ صامتةً. لم أكشفْ سراً. تقول هذا بالنبرة المتباهية ذاتها التي تدّعي فيها لاحقاً أنها تحب رائحة التبغ لكنها لم تدخنْ سيجارةً واحدة. لماذا؟ لماذا لم تقلْ شيئاً؟ إذا كانت قد أخفت الأمر عن أبيها، فلماذا تخبر الآخرين به؟ كان زهوها أحياناً يتعذر تمييزه عن شعورها بالمرارة.

إني أتساءل ما إذا كنتُ، بكتابتي عنها الآن، وبكسري هذا الصمت العالق في الذهن، أنغمس في الطور الأخير من مقاومتي لها. إنني أعتقد راهناً أننا لا يمكننا أن نبقى صامتين إزاء الحقائق التي

نعرفها. في الحقيقة لم تبقَ أمي صامتةً؛ بطريقتها الخاصة كشفت أسرارهم، من خلال تكرارها المرة تلو المرة كيف أنها بقيت ساكتةً عنها. لكن ماذا كان سيحدث لو أنها واجهت زوجة أبيها ولم تشعر بالحاجة إلى المحافظة على المظاهر الخارجية؟ ماذا كان سيجري، فيما يتعلق بتلك المسألة، لو أنني واجهتُ أبي؟

ثمة مكان واحد لم يتأثر كثيراً بمهنة والدي، على ما يبدو، ألا وهو أصفهان. حينما زرنا أقاربنا على مدى أيام قليلة بدا أنه لم يطرأ أي تغيير. كنا أنا ومحمد نلقى الترحيب ونتناول وجبات الطعام الرئيسة بينما كنا ننتقل من منزل أحد الأقارب إلى منزل قريبٍ آخر. كان أبناء أعمامي وأعمامي الأصغر سناً قد طبعوا مجلاتهم الخاصة، التي كتبوها وصوّروها بالأيدي. كانوا قد أسسوا نظام مكتبة معقداً له فروع في منازل جدتنا واثنين من أعمامنا الأكبر سناً، وكانوا يعقدون اجتماعات أسبوعية تتم فيها مناقشة الأدب والفلسفة بعمق كبير. حينما زرنا أصفهان كانت هذه الاجتماعات تنعقد كل يوم تقريباً. على الفطور والغداء، وفي الشوارع ونحن نمضي من موقع تاريخي إلى موقع تاريخي آخر، وفي الأمسيات في السطح معتدل البرودة، وأثناء الليالي في شرفات الطوابق العليا تحت النجوم، كنا نتكلم، ونتبادل الأشعار، ونتجادل. هذه هي ذكرياتي عن أصفهان: أقف على السلالم السفلى للسطح المؤدية إلى الحديقة مع ابن عمي مهدي؛ نتلو بصوتٍ عالٍ قصائد شعر من تأليف فروغ فرخزاد؛ أتمشى في الجادة العريضة المشجرة الممتدة على طول النهر مع ابن عمي مجيد، وأتكلم عن شعره؛ أقف عند مائدة الفطور مع ابنة عمي نسرين، وبينما كانت أمها تمشي متثاقلةً داخلةً إلى المطبخ وخارجةً منه، أتحدث عن سارتر

وكامو ودوستويفسكي، وأنا أحاول أن أتجاهل إثماً مزعجاً طفيفاً يتعلق بعدم تقديمي المساعدة أثناء تحضير الفطور.

بعد ذلك بسنتين، وعلى السطح نفسه، يعقد عمي اجتماعاً عائلياً كي يتناول مقالةً كتبها مهدي في مجلتهم المعدّة في البيت. كتب مهدي: «كي يعيش المرء لا بد له من الأمل. نحن ليس لدينا أمل. . .» وراح يشكو من الجو الخانق في أصفهان، ذلك الجو الذي يعيق النمو الطبيعي للشبيبة ويحرمهم من سعادة كونهم يافعين ومن إمكانية العيش بصورةٍ مختلفة. التفت عمي إليّ، وقال بشيءٍ من السخرية: «لنبدأ بسيدتنا المعاصرة من طهران. هل يستطيع مكان، تُنشر وتُناقش فيه بحرية كتابة كهذه بحرية، أن يكون خانقاً؟»

تكون أمي في أغلب الأحيان غائبة عن هذه الذكريات. كانت تجد ولعي غير السوي بأسرة والدي لا يطاق. بشكلٍ من الأشكال كانت تراه إهانةً لها. ولاحقاً صارت تشكو من أنني وأخي لم نكنْ نمنح أسرتها النوع نفسه من الاحترام والحب اللذين أظهرناهما نحو أسرة والدنا. إلا أن مشهداً واحداً ظل راسخاً في ذهني. جرى ذلك خلال زيارةٍ قصيرةٍ لأصفهان في صيف تلك السنة. بعد العشاء تبعتني أمي من غرفة الطعام إلى السطح، وهي تحمل طبقاً صغيراً يحوي الكمثرى المقطعة، تتوقف بين الفينة والفينة كي تدسّ شوكتها مع قطعة من الكمثرى في طرفها في فمي. كنتُ أعي النظرات الجانبية من أعمامي وأبناء أعمامي. وفي الختام، بإيماءة مسرحية، أعلنتْ: أرجوكِ لاحظي ورطتي وتعاطَفي معي! استسلمتُ وجلستُ قبالتها، كأنني في عرض على خشبة المسرح، بينما كانت تدسّ شرائح الكمثرى عنوةً في فمي. أتذكّر بسمة النصر البادية على وجهها، والشوكة الصغيرة تتحرك ذهاباً وإياباً. في يومياتي التي بقيت بصورةٍ

عجيبة على مدى ثلاثة عقود من الزمن، كنتُ كتبتُ طوال نصف صفحة:

أكره ثمار الكمثرى
أكره ثمار الكمثرى
أكره ثمار الكمثرى
أكره ثمار الكمثرى
أكره ثمار الكمثرى...

وطوال نصف صفحة أخرى كتبتُ:

آكل ثمار الكمثرى
آكل ثمار الكمثرى
آكل ثمار الكمثرى
آكل ثمار الكمثرى
آكل ثمار الكمثرى...

غابت هذه الذكرى مع ذكريات أخرى: موجات من التعاطف والفهم من أعمامي وأبناء أعمامي. نتجادل حول الحجاب، وعن العلاقات بين الرجال والنساء، وعن الحب...

قبل عودتي إلى المدرسة الثانوية في إنكلترا بأسبوع أو نحو ذلك قام أفراد أسرتي بزيارة مكتب طبيب نفساني. في الحقيقة هو ليس طبيباً نفسانياً، بل طبيب أمراض عصبية له معرفة بعلم النفس - وهو واحد من أفضل الأطباء في البلد، بكل الحسابات، وصديق أخ والدتي من أبيها، الخال علي. نختاره بعيداً عن حاجتنا إلى التعقل - أولاً

ليس ثمة شيء خاطئ لدى أي واحد منا، وثانياً، إنه شيء عديم الفائدة على أية حال، وثالثاً، لماذا ينشر المرء غسيله القذر على مرأى من الناس؟

نحن جميعاً في المكتب مع الخال علي. وبعد الساعات التي أمضيناها في المكتب كنا نوعاً ما على عجلة من أمرنا (إذ كان ينبغي على أبواي أن يحضرا مأدبة رسمية مساء ذلك اليوم). وبعد استشارات غير باعثة على الأمل، توصل أبي إلى استنتاج مفاده أن النصيحة الطبية ربما تساعد والدتي. أعتقد أن منصبه الجديد كمحافظ، ويقينه بأنه قادر على إحداث تغيير في الميدان السياسي، قد منحه القدرة كي يعتقد أن باستطاعته أن يغيّر أيضاً حياته الأسرية. كنا نحن الأربعة جميعاً هناك لأنه ما من سبيل آخر لإقناع والدتي بزيارة الطبيب النفساني وحدها، وخالي هناك لأنه صديق الطبيب النفساني وقد طلبت أمي منه أن يرافقنا. كنا قد أقنعاها بالمجيء معنا بأن وضعنا سلفاً النظرية القائلة إن الحديث مع الطبيب النفساني ربما يساعدنا على حل مشاكلنا الجماعية.

يقول خالي بطريقةٍ سمجة: أنتَ تعرف كيف يكون الأولاد المراهقون، تاركاً البقية لمخيلتنا. تقول أمي بنفاد صبر وهي تلقي نظرةً خاطفةً على الرسوم غير الجيدة ولا السيئة للمناظر الطبيعية المعلقة على جدران حجرة الانتظار: في زمني لم يكنْ ثمة وجود للمراهقين. كنا نطيع الأكبر منا سناً بغض النظر عن أعمارنا. وماذا يكون الحال حينما يكون زوجكِ مشغولاً جداً. . هل تعتقدين أنه مشغول؟ تقول أمي. وماذا عني؟ إنه يتمتع بالشهرة وأنا الذي يقع عليَّ النقد. أضف إلى ذلك إدارة أمور المنزل، ومسؤولية الأولاد. يقول خالي العطوف بسلوكه الهادئ الشبيه بهدوء رجل ينتمي للطائفة الزنية (البوذية): كل

هذا يفرض ضريبته، ولهذا السبب أتينا إلى هنا. يسميها (نيسي)، وهو اسم التحبب الذي يطلقه عليها وعلى والخالة نفيسة. أمي تحب أخاها من أبيها حباً يصل إلى درجة العبادة وهو رجل لطيف. وكان موقفه نحو أي شخص واحد في الأحوال كلها: عاطفياً وغير منحاز.

استدعانا الطبيب واحداً إثر الآخر. يدخل أبي أولاً. وحالما يخرج تجرّه أمي إلى إحدى الزوايا وتم استدعائي. وعلى غرار أبي وأخي، إنني آتية إلى هناك كي أنوّر الطبيب المتنور أصلاً بخصوص علاقاتنا بأمي. يستغرق الأمر نحو عشر دقائق. إنني غارقة في فرح المؤامرة. إن الرسالة السرية التي بدأناها جميعاً تجعلني صريحةً بصورةٍ حمقاء مع الطبيب، ورحتُ أحصي كل مظالمي، متعاطفةً مع أبي. الله أعلم أي نوع من الزواج كان زواجه. ثمة وهمان: أن بوسعه أنْ يغيّر وأن تتكلل حياتنا بالنجاح.

وحين ظهر أخي ودعا الطبيب أمي للدخول، تطلبُ من الطبيب أن يخرج من غرفته. تقول أن ليس لديها ما تخفيه؛ على خلاف الآخرين منا، ليس لديها سر. تقول: الآن ربما يكون لديهم مشاكل يودّون مناقشتها، إنما لستُ أنا. حسن، أحمد خان شخصية عامة مهمة جداً، تقول بابتسامة ساخرة. وعلى أية حال، لديه مسؤوليات كثيرة جداً. الآن، هذه المرأة - كانت تعنيني - وأخوها في بداية حياتيهما. لديهما هموم تتعلق بدراساتهما، ومستقبلهما، ويجب عليهما كذلك أن يفكرا في أبيهما المهم جداً - فقد كان دوماً مركز حياتيهما. لكنني، تقول أمي، ربة بيت بائسة. أنا نكرة. ليست لدي هموم، ليس لدي ما أقلق عليه. ولم أشعر يوماً أنه ينبغي لي أن أشكو للأطباء مشاكلي. تمدّ يدها، وتشكر الطبيب بابتسامة حلوة بصورةٍ مؤذية، وتخرج؛ نحن نتبعها بارتباك.

في السيارة يسعى أبي لتبرير فعلته في الذهاب إلى الطبيب. يقدم لنا كل الأسباب والأعذار المألوفة ويحاول أن يقنعها بأنها على خطأ، وبأنه كان من المستحسن للعائلة أن تزور الطبيب. وبين الفينة والفينة يلتفت إلينا من أجل توكيد رأيه ونحن نغمغم بشيءٍ ما موافقين. كان يجب أن يجعلونا نترجّل عند البيت قبل أن يتوجّها إلى حفلة الاستقبال. توقعتُ منها أن تثير مشكلةً لكن، بصورةٍ غير متوقعة، لم يكن هنالك شجار. تردّ ببرود على تحيات الوداع القلقة، التي قلّما تُسمع، خاصتنا، ومضيا في حال سبيلهما.

كي نحمي أنفسنا من أمنا، تبنّينا أنا ومحمد مزاجاً مازحاً، وحوّلنا احباطاتنا إلى ألعاب، ونكات صغيرة. إحساسنا بأننا قريبان من أبينا جعلنا نحس أننا أقرب أحدنا إلى الآخر. تلك الليلة خلال تناول طعام العشاء تطرقنا إلى زيارتنا للطبيب. يقول محمد بينما هو يملأ طبقه بأكبر ما يمكن من الطبقة السفلى من قِدر الرز المطبوخ. أسحبُ الطبق من تحت يده. هِي، اترك لي شيئاً منها! ماذا نفعل الآن؟ يقول. أرد على الفور: ماذا نفعل ماذا؟ يسأل: ما الذي نفعله الآن بشأنها؟ في تلك الليلة ندبر خططاً عديدة: يمكننا أن نخدّرها بأن نسقط قرص فاليوم في كوب قهوتها، وندعو الطبيب للمجيء إلينا في زيارةٍ اجتماعية كي يشخّص حالتها سراً. يمكنه أن ينوّمها.... سم، ماذا بشأن السم؟ أقول. تريدين أن تقتليها؟ كلا، نعطيها قليلاً من السم ومن ثم ننقذها؛ بتلك الطريقة سوف تقدّر الحياة. ستقول: آه. لم أكنْ لأعرف كم هي الحياة ثمينة. أو ماذا لو نحن الثلاثة: أبي، وأنتَ، وأنا ننتحر. سوف يلقّنها ذلك درساً، أقول بفرح. أجل، أغلب الظن سيكون ذلكَ هو الحل الأمثل.

الفصل الثالث عشر

تمرين من أجل ثورة

في نهاية صيف تلك السنة أقسمتُ ألا أرجع إلى الوطن في إجازةٍ أخرى. ففي أسبوعي الأخير، كنتُ أنا وأمي نتخاصم كل يوم تقريباً، بشأن خروجي مع صديقاتي أو زياراتهن لي، بشأن الرحلات إلى أصفهان، بشأن حاجتي لاحترام الآخرين في الأوقات كلها. لكن بعد رجوعي إلى لانكستر بأسبوع كنتُ أخطط للقيام برحلتي التالية إلى الوطن. أعلمتني أمي في رسالةٍ ملؤها المحبة أنها أرسلتْ لي طرداً بريدياً يحتوي على كرز مجفف، وجوز، وجوارب صوف (لتلك الشتاءات الإنكليزية الفظيعة)، وبلوزة صوفية (زرقاء، وهو لوني المفضل). هل أريد شيئاً آخر؟ ثمة صديقة ستزور إنكلترا وسوف ترسل لي قلادة ذهب لمناسبة عيد ميلادي.

في الصيف التالي وجدتُ نفسي في طهران قبل نهاية الفصل الدراسي. لا أتذكر السبب على وجه الدقة، إنما لا بد أن تكون لذلك صلة بالاضطراب العظيم الذي كان يجتاح إيران خلال شتاء وربيع سنتي ١٩٦٢ و١٩٦٣، لتزداد حدّته في شهر محرم المقدس، الذي بدأ تلك السنة في منتصف أيار (مايو). كان الاضطراب قد تفجر عند إقرار لائحة انتخابات مجلس تشريعي جديد يسمح للنساء بالانتخاب لأول مرة وإلغاء الفقرة التي تنص على أن يكون كل المرشحين للبرلمان

مسلمين. أُعلنت اللائحة في الثامن من تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٦٢، وأحدثتْ قدراً كبيراً من الغضب في داخل أروقة المؤسسة الدينية، الذي حرّض عليه بشكل رئيس آية الله روح الله خميني.

عندما أعيدُ النظر في تاريخنا، ما يبدو مدهشاً بالنسبة لي الآن ليس كيف كانت السلطات الدينية قويةً وفعالةً في إيران بل كيف سيطرت الطرائق العلمانية المعاصرة بسرعة على مجتمعٍ هيمن عليه بشدة الدين التقليدي والدكتاتورية السياسية. أبدل البهلويون القانون الديني بنظام قضائي معاصر، لكن الضرر الذي لحق بالمؤسسة الدينية كان أكبر بكثير مما يوحي به الفعل وحده. قبل (الثورة الدستورية) لم يكنْ رجال الدين يسيطرون على النظام الشرعي فقط، بل كانوا يُملون الطريقة التي يفهم فيها المرء الكون. بينما كان بعض رجال الدين يريدون المحافظة على النظام القديم ولعلهم رأوا بصورةٍ صحيحة أن بزواله سيتضاءل تأثيرهم، آثر رجال دين آخرون التغيير وشاركوا بفعالية في الصراع.

من زمن (الثورة الدستورية) إلى أيام الهيجان في سنة ١٩٦٣ إلى (الثورة الإسلامية) سنة ١٩٧٩، لم يكن الصراع الدموي والعنيف الذي قسّم إيران سياسياً فقط بل ثقافياً وأيديولوجياً أيضاً. كان، بمعنىً من المعاني، صراعاً وجودياً. نشأت المعارضة من جانب المتمسكين بالتقاليد من ردة فعل قوية دستورية وشخصية، في وقتٍ واحد، تجاه الحركات التحديثية التي أدركوا أن الشاه محمد رضا بهلوي ووالده رضا بهلوي قد بدآ بتحفيزها. الآن، حقيقة الأمر هي أن الحركة من أجل التحديث كانت قد اتخذت مجراها قبل البهلويين ولن تتوقف بعدهم أبداً. أصبحتْ حقوق المرأة، حقوق الأقليات، والثقافة الميادين الرئيسة للكفاح. المرة تلو المرة في صيف سنة ١٩٦٣

الحاسم ربط آية الله خميني وأنصاره الاضطهاد السياسي والهيمنة الأجنبية بأسلوب حياة الشاه، وبقانون كشف النقاب الإجباري عن وجوه النساء الذي شرّعه والده، وبحب الشاه للنوادي الليلية، واحتفاظه بالكلاب (التي تُعد نجسةً في الدين الإسلامي) بوصفها حيوانات منزلية محبوبة. وكانوا قد وقفوا ضد الأفلام السينمائية، والموسيقى، والروايات وسخروا من الحقوق الفردية.

تراجعت الحكومة بوجه الاضطراب وسحبت رسمياً اللائحة التي كانت قد مررتها في تشرين الأول (أكتوبر). لكن الشاه لم يكنْ يفكر بالاستسلام. وفي الحال طلع باقتراح جديد وأكثر شموليةً أسماه (الثورة البيضاء)، التي قرر أن يضعها موضع الاختبار من خلال الاستفتاء الشعبي.

تضمنت (الثورة البيضاء) مجموعةً من المعايير التحديثية: إعادة توزيع الأرض بين الفلاحين؛ منح النساء الحق في الانتخاب وترشيح أنفسهن للبرلمان والحكومة المحلية؛ تأميم الثروات الطبيعية؛ تأسيس فرق محو الأمية مخصصة للقرى والمدن النائية؛ ووضع مشروع تقاسم الربح يستطيع من خلاله العمال الاستفادة من أرباح المصانع. عمل بعض معارضي الشاه أشياء كثيرةً استناداً إلى حقيقة أن تلك الخطة نالت مباركةً ودعماً قوياً من لدن الرئيس كيندي. ساند البعض (الثورة البيضاء)، شاعرين بأن معتقداتها الجوهرية تقدمية، في حين ظن الآخرون أن الثورة النابعة من السلطة العليا لن تحل مشاكل البلد الكثيرة.

حُدد يوم السادس والعشرين من كانون الثاني (يناير) ١٩٦٣ لإجراء الاستفتاء الجماهيري. بينما ضعف نشاط القوى الوطنية واليسارية بعد انقلاب سنة ١٩٥٣ الذي أطاح بحكومة مصدق وأعاد الشاه إلى وضعه

السابق، حشد رجال الدين جهودهم بهدوء بين أوساط «*البازاريين*» المؤثرين (رجال الأعمال التقليديين) وفي المعاهد الدينية. في الثالث والعشرين من كانون الثاني (يناير) أغلق أتباع خميني المخازن في البازار احتجاجاً. وأعقبت ذلك مسيرات ومواعظ استفزازية من المنابر. واندلعت مواجهات بين الشرطة وحشود الجماهير أدتْ إلى مزيد من الاحتجاجات العنيفة في مدينة (قم) الدينية. أسفرتْ هذه الاحتجاجات، بدورها، عن إغلاق المعاهد الدينية.

إنه اختلاف غريب بين أن تعيش لحظةً تاريخيةً وأن تفكر ملياً في نتائجها. في ذاكرتي يبدو أن الأحداث الكثيرة التي جرت في ذينك الربيع والصيف قد حُشرت في الأيام القليلة الأولى من حزيران (يونيو)، وبلغت ذروتها في ما سُمّي لاحقاً: انتفاضة الخامس من حزيران (يونيو). بالطبع، لم يكنْ بوسع أمثالنا ممن عاشوا هذه الحقبة الزمنية أن يستوعبوا كلياً ما الذي سيدل عليه ذلك في الأيام المقبلة. تأتي إليَّ الأيام بوصفها لحظات مسعورة، مَشاهد ساكنة، عشوائية تحتاج إلى تحرير وتنظيم كي تصبح ذات معنى. حتى خلال تلك الآونة كان جلياً أن شيئاً مهماً يجري. ولأول مرة كان بوسعي أن أكتشف الشروخ بين العالمين التقليدي والمعاصر اللذين كنتُ أعتبر وجودهما جنباً إلى جنب شيئاً سيظل يحدث أبداً. يبدو الآن كما لو أن كل وقائع (الثورة الإسلامية) سنة ١٩٧٩ كانت تلعب أدوارها سلفاً على نطاق مصغر.

استقيتُ مفهومي عن المسلمين التقليديين من أسرة والدي، فقد كانوا صارمين وثابتين في ممارساتهم الدينية لكنهم مرنين كفايةً بحيث كانوا يتحمّلون التجريب الفكري لأولادهم. كانت جدتي لأبي تحيط

أبناءها، مؤمنين وغير مؤمنين على السواء، بالحب والحنان. لم تعترضْ بنات أعمامي في أصفهان على منح النساء الحق في الانتخاب. كن يواجهن يومياً التناقضات الظاهرية لحيواتهن بوصفهن نساءً معاصرات، ومثقفات اخترن أن يكبلهن نمط الحياة التقليدية. من هم هؤلاء الناس الذين يستخدمون لغةً منمقةً قويةً جداً، ويسمّون النساء من أمثال أمي عاهرات؟

اتخذت التجمعات في مسقط رأسنا بطهران جواً مسعوراً عمَّ البلد بأسره. كان والدي مشغولاً أكثر من المعتاد. فبالإضافة إلى مسؤولياته كمحافظ عُيّن رئيساً لـ(مؤتمر الرجال الأحرار والنساء المتحررات)، وهي مجموعة كانت مهمتها كسب الدعم الشعبي لإصلاحات الشاه ورتبوا لائحةً من المرشحين للحكومة الجديدة. هذا الأمر نفّر كثيراً أعمامي الشبان وأبناء أعمامي مع أنهم لم يكونوا متمردين فاعلين، ومع ذلك رفضوا حكومة الشاه. وكانت جلسات القهوة الخاصة بأمي مسكونةً بالضرب المتكرر الغريب والمستمر خارج أبوابنا.

كانت مسألة إيران «*الحقيقية*» تحضر باستمرار في النقاشات الدائرة بين والديَّ وأصدقائهما: أيهما أكثر شرعيةً: التقاليد الغابرة التي قوّى بها الشاه سلطته، أم القانون الإسلامي المتزمّت لآية الله خميني؟ وبينما أنا أكتب عن تلك الأسئلة التي سمعتُ والديَّ وأصدقاءهما يكررونها مراتٍ كثيرةً جداً خلال سنوات حياتي، أود أن أضيف عدداً قليلاً من أسئلتي: ماذا عن الفردوسي ونسائه الشهوانيات وأبطاله وملوكه الذين ينتمون إلى عصر ما قبل الإسلام؟ أو ماذا بشأن شاعر انعطافة القرن الساخر إيراج ميرزا، بهجائه الإيروتيكي لرجال الدين وبانتقاده للرياء والنفاق الديني؟ ماذا عن عمر الخيام، الشاعر - عالِم الفلك اللاأدري الذي يحثّنا على تحدي سرعة زوال الحياة باحتساء

الخمر وممارسة الحب، أو ماذا عن الشاعرين الصوفيين العظيمين جلال الدين الرومي وحافظ الشيرازي، اللذين تمردا بأشعارهما الغرائبية على المعتقدات الدينية التقليدية؟

«لا تثق أبداً برجال الدين المخادعين، فكسب رزقهم يعتمد على الكذب والخداع». يمكنني أن أسمع الأصوات تجتاز غرفة معيشتنا جيئةً وذهاباً. «كيف يمكنكَ أن تثق بالشاه حينما يقول إنه يريد أن يمنح النساء حرية الانتخاب؟ هل يملك الرجال في هذا البلد حرية الانتخاب؟ كم عدد الانتخابات الحرة التي حصلت خلال العقد الأخير؟» هكذا كانت النقاشات، تدور وتدور، تسير إلى الأمام والخلف، وتعود إلى مسألة ثقة الشعب الإيراني وتقلبه، من ذا الذي يسند بحماسة أحد الزعماء في لحظةٍ ما، لمجرد أن يساند عدوه الألد في اللحظة التالية. تعجب الكثيرون من عنف أنصار آية الله خميني؛ يبدو أنهم نظموا مجموعاتهم الأمنية الأهلية التي تضرب النساء غير المحجبات وتضرم النار في المؤسسات الحكومية المختلفة.

ما أتذكره بحيوية شديدة من ذلك الصيف - ربما لأن حقيقته لم تأتِ إليّ إلا بعد سنوات - تعليقاً من السيد ميشغين، المراسل الصحفي. إذ قال: «ما هو مدهش ليس كم هم أقوياء رجال الدين، بل كيف استطاع العلمانيون، خلال مدةٍ وجيزةٍ جداً، أن يهيمنوا على خيالنا». لم يعش السيد ميشغين كي يرى حقيقة كلماته - فقد مات بالسرطان بعد سنوات من ذلك - إنما حتى بعد (الثورة الإسلامية) هيمنت بقوة النخبة العلمانية وغير المتدينة على العوالم الأكاديمية والثقافية. ففي هذه المناطق بقي رجال الدين معرضين للهجوم، وشيئاً فشيئاً من خلالهم عادت العلمانية، عادةً من طريق الإسلاميين عينهم الذين قاتلوا باستمرار ضدهم.

خلال أحد هذه الاجتماعات والنقاشات الحامية التقيتُ أول مرة بإضافة جديدة إلى حلقة والديَّ، وهو رجل أخاذ ذو حد شعر متراجع في فروة رأسه وصوت منخفض، وهادر سبق دخوله إلى الغرفة. كرهته في الحال. كان بديناً. كان بطنه يندلق خارج قميصه الأبيض المتغضن وربطة عنقه بدت كأنها مربوطة بإحكام شديد حول عنقه. ما أتذكره بجلاء شديد عنه هما عيناه القافزتان خارج محجريهما، وهما تنعمان النظر إليَّ بطمع داعر. بدا كل شيء فيه مشحوناً بطاقة شيطانية، كما لو أن جنّياً شريراً يحاول أن يحرر نفسه من الداخل. قدّموه لي بوصفه السيد رحمن.

كان تاجر سجاد ادعى أنه يمتلك قدرات روحية: يستحضر الأرواح، يستطيع أن يخبرك بمستقبلك بمساعدة القرآن، وكما اكتشفتُ حالاً، أصبح صديق أمي الحميم رقم واحد. التقى به أبواي من خلال أحد أقارب أمي. ولدى رؤيته أزهر وجه أمي ببسمة مرحّبة. أما تعبير أبي فكان أكثر تهكماً. حينما أقبل السيد رحمن كي يحييني، قبض على يدي بكلتا يديه - لسوء الحظ - مدةً طويلة. قال: «هذه هي إذاً المرأة الصغيرة. استثنائية. استثنائية حقاً». شعرتُ بأن يديه نديتان. لم يروّعني بقدر ما خيّب ظني.

يظهر السيد رحمن ويختفي كقط جيشاير(١) خلال العقد التالي من حيواتنا. ويطلع إلى السطح مرات عدة في سيرة أبي الذاتية. «نظر رحمن في عينيَّ برهةً، ومن ثم تطلع إلى راحة يدي»، يكتب والدي في نقطةٍ ما. «قال أشياء قليلةً عن مزاياي الشخصية ومن ثم شرع

---

(١) قط جيشاير Cheshire cat: قط متخيَّل وصفه الكاتب البريطاني لويس كارول في روايته ذائعة الصيت (مغامرات أليس في بلاد العجائب) - م.

يخبرني عن المشاكل في عملي. سمّى أولئك الذين كانوا أعدائي المؤكدين واسترسل كي يدّعي أن الشاه ما يزال يقف إلى جانبي بقوة ولا يستسلم للافتراءات والأكاذيب والتقارير المزورة ضدي. لكن هذا الصراع سينتهي بانتصارات أعدائي ونصحني بتقديم استقالتي». كان أبي حذراً من السيد رحمن وارتاب بأن معلوماته ليست وليدة قدراته النبوئية بل لأنه عميل لجهاز (السافاك SAVAK): أي المنظمة القومية للأمن والمخابرات. أشار أبي في سيرته الذاتية أنه كان قد قدّم من قبل استقالته مرتين بسبب خلافاته مع رئيس الوزراء وبيراسته: وزير الداخلية الذي، من بين أشياء كثيرة، اتهمه باسترضاء الملالي. لكن الشاه رفض بثبات طلب استقالته وأجبر بيراسته، الذي كان ند أبي الرئيس، على الاعتذار من أبي أمام وزير البلاط الملكي.

لا أتذكر بالضبط متى حدث الانفجار الكبير بين أمي والسيد خليقي، من بين كل الناس. كان ثمة حديث يدور حول شمولها كواحدة من بين أوائل المرشحات للبرلمان في الانتخابات القادمة، التي كان موعدها في الخريف المقبل. كانت سترشح عن محافظة كيرمان، حيث ولدت ونشأ آل نفيسي. وبغتةً أصبحت متيمةً بالشاه وضاقت ذرعاً بالترهات التي تقال عنه. قال السيد خليقي: «أنتِ، يا عزيزتي نزهت خانوم، حتى أقل تأهلاً من زوجكِ لدخول هذا الميدان».

أحستْ أمي بانعدام الود المختبئ وراء تلك الكلمات وعدّتْ ذلك علامةً واضحةً من علامات الازدراء. ما مِن توسُّل يعالج الوضع. في وقتٍ لاحق، في تلك الليلة تحديداً، يحاول أبي أن يخفف من إصرارها على عدم الإصغاء. ومنذ ذلك اليوم فصاعداً حتى إيداع والدي السجن بعد شهور عدة، لم نرَ السيد خليقي ثانيةً - لا في أيام

الجمع ولا في أي وقتٍ آخر. على الرغم من أن أبي، كما فعلها مع أصدقاء ومعارف آخرين كنا طردناهم، استمر في لقاءاته به خلسةً.



يُمكن رؤية أبي وهو يقف وراء الشاه خلال لقائه بأحد رجال الدين.

كان أبي على علاقة طيبة مع عدد كبير من رجال الدين، وبالأخص أولئك الذين يعدّهم تقدّميين. تجاهل «توصية» رئيس الوزراء بالبقاء على مسافة حذرة، وشارك في طقوس الحِداد في منزل آية الله بهبهاني المبجل، حيث كانت هنالك إشارات تحط من قدر الشاه والحكومة في كلمة رجل دين شاب. أخبر رئيس الوزراء أبي أن الحكومة قررت اتخاذ تدابير قوية ضد المناهضين له ونصح أبي بألا يتدخل في أمرٍ لا يعنيه. واقترح أن من مصلحته أن يبقى بعيداً عن الظهور العلني وأمره بإغلاق الحوانيت في الخامس من حزيران (يونيو)، اليوم الذي اختاره خميني وأنصاره للاحتجاجات والتظاهرات الواسعة. رفض أبي هذا الأمر. وبدلاً من ذلك قرر أن يسمح للحوانيت بفتح أبوابها في وقتٍ أبكر من المعتاد في ذلك اليوم، كي يستطيع الناس أن يتبضعوا الأشياء الضرورية. وابتكر مراكز طوارئ في أجزاء مختلفة من المدينة، وأبلغ المستشفيات بالاستعداد لاستقبال الجرحى من المحتجين.

في صباح الخامس من حزيران (يونيو) استيقظنا كلنا في وقتٍ مبكر جداً. غادر أبي في الفجر وكانت أمي تزداد اهتياجاً رويداً رويداً لأنها لم تستطع أن تحدد موضعه في الهاتف. في ساعةٍ ما من الصباح

الباكر أقبل سائق من البلدية كي يخبرها أن أبي على ما يرام إلا إنه كان يتجول كثيراً جداً بحيث كان يتعذر عليه أن يتصل هاتفياً بالمنزل. كان في طريقه نحو محطة الإطفاء، التي حوّلها إلى واحد من مراكز قيادته.

كان لأمي هي الأخرى مركز قيادتها الخاص، في غرفة المعيشة بمنزلنا، حيث كان الناس خلال ساعات النهار يدخلون ويخرجون بعجالة، ينقلون إلينا، لاهثين، آخر الأنباء. كان إبريق القهوة في خدمة مستمرة. غادر أخي وعمي رضا في الصباح الباكر كي يشاهدا ما يجري في أنحاء المدينة. أما أنا فبقيتُ في البيت. بيدي كتاب، كنتُ أدلف إلى حجرة المعيشة وأخرج منها، حيث كانت أمي تترأس تلك الجلسات بهدوء بينما هي تحاول أن تنقل الانطباع بأنها عصبية جداً من الداخل، قلقةً على والدي، وعلى المدينة، والناس. ما الذي بوسعها أن تفعله غير أن تتمسك بالحصن وأن تكون مستعدةً لحالة الطوارئ؟ وفي حقيقة الأمر كانت قلقةً عليه. وقد كنتُ شديدة الانتباه حينما قالت الخالة مينا إنها رأت نساءً يتظاهرن بأنهن مغرمات بأزواجهن عندما يكن خلاف ذلك، إلا أنها لم ترَ حالةً شبيهةً بحالة نزهت، التي كانت تصر بعناد على أنها لا تبالي بزوجها بينما كانت في الواقع تهتم به اهتماماً كبيراً.

وأنا أفكر في الناس الذين أقبلوا إلى منزلنا ذلك اليوم، أندهش من حقيقة كونهم متباينين. كانوا جميعاً هناك من أجلها. كانت هذه خصوصيتها: فأي عدد من التوصيات لا يمكن أن يقنعها بأن تستأجر شخصاً[١]، أو أن تذهب إلى طبيب أو مصففة شعر، ما لم تحبه أو

(١) أي تجعله يعمل أجيراً لديها - م.

تحبها. كانت تحب هؤلاء الأشخاص جزئياً لأنهم كانوا يؤيدونها، وجزئياً، أعتقد، لأنهم كانوا يعرفون كيف يستغلونها ويجعلونها تصدق أنهم يقفون إلى جانبها. كان هذا الأمر حقيقياً ليس فيما يتعلق بالأشخاص الذين عرفتهم فقط؛ كان ثمة غرباء كثيرون قرعوا بابنا قائلين إنهم التقوا السيدة نفيسي في حانوتٍ ما، في سيارة أجرة، وفي الحافلة، وكانت تطلب منهم أن يأتوا ويحتسوا القهوة معها.

على الرغم من أن معظمهم لا يملكون عقولاً سياسية، أصبحوا في غرفة المعيشة خاصتنا منهمكين بحماسة في النقاشات السياسية. كنا مشؤومين كسياسيين في أسرتنا، إلا أننا كنا وبصورةٍ شديدةٍ ذوي عقول مدنية. ربما يمكنني أن أعمم فأقول إن هذا كان حقيقياً مع كل أسرة إيرانية تقريباً - كان لهذه الحالة حضور متطفل في حيواتنا بحيث إنه ما من مواطن إيراني يستطيع أن يتجاهله. إلا أن أبويَّ كانا يحبان أن يفكرا ملياً في الأحداث وأن يحللاها بطريقةٍ لم يكنْ يفعلها الآخرون. كانت ولاءات وانشغالات الخالة مينا خاصة وفردية؛ كانت ولاءاتها لأسرتها وللمجموعة الصغيرة من صديقاتها. كانت أمي، من الناحية الثانية، حقيقةً، شخصيةً شعبيةً ومتطفلةً سياسية. ولم تكنْ مولعةً بتبادل الوصفات.

في نحو منتصف الصباح كانت لدينا زيارة غير متوقعة. زارتنا بغتةً زيارةً غير متوقعة عمة همدام التي لم تزرنا من دون إعلام مسبق. قالت أن ليس باستطاعتها البقاء طويلاً، لكنها في أمسّ الحاجة إلى الحديث مع أمي. كان حضورها يأسرني دوماً. حاولتُ أن أخفي نفسي وبقيت ضمن مرمى السمع. تحدثتا بهدوء وكان بوسعي أن أسمع شذراتٍ من الحوار. قالت عمة همدام: «لكن ذلك ليس بسببه». وقالت أمي وهي تهز رأسها عن معرفة: «آ نعم، صحيح. لم يكنْ يريدني أن أبلغ أي

شيء. أتذكرين حينما أردتُ الحصول على إجازة قيادة السيارة. حتى وقتئذ كان قد عارض المسألة».

بدأت أشك أن أبي أرسل العمة همدام كي تنصح أمي بالعدول عن قرارها بالترشح للبرلمان. فقد كان يعرف أنه ما من سبيل للسيطرة عليها أو على لسانها المشاكس. أصرت قائلةً: «أنتِ تعرفين أكثر من أي شخصٍ آخر أنني قد خُلقتُ كي أكون امرأة ذات مهنة ما. فقد وددتُ أن أصبح طبيبةً». فقالت العمة همدام بهدوء: «هذا الأمر يختلف. إنهم كالذئاب. وليس لديهم شفقة».

كانت أمي تنهمك في سلسلة أفكارها. وقالت إن أخاها علي قد أصبح طبيباً وإن الطب يجري في دمها. قالت بكآبة: «كنتُ مؤهلةً لأن أمتهن الطب، إنما لم يكنْ مسموحاً لي أن أتابع دراستي. كما تعرفين كان سيفي معتل الصحة بدرجة شديدة. ولم يكن باستطاعتي أن أتركه. وبعدها»، تنهدت وقالت: «فات الأوان. الآن بوسعي أن أفعل ما لم يسمح لي أحمد خان بفعله». في كل مرةٍ تقول فيها ذلك، كانت عيناها تركزان نظراتهما على راووق القهوة، متحاشيةً نظرات العمة همدام.

قالت العمة همدام وهي تقبل منها فنجان القهوة: «أنتِ تعرفين أنني لا أبغي سوى الخير لكِ. لكن هذه [الشغلة] لن تجلب لكِ شيئاً غير الحزن». فردّت عليها أمي بسرعة، وهي تلتفت وتنظر إليها: «كيف يمكنكِ أن تقولي ذلك؟ كنتِ دوماً مثالاً يُحتذى بالنسبة لي». فاعترضت العمة همدام قائلةً إنها مدرّسة وليس لها صلة بالحكومة. النساء المرشحات الأخريات كن بشكلٍ أو بآخر شخصيات شعبية. «صدقيني، نزهت جان، ما كنتُ سآتي إلى هنا ما لم أعتقد أن هذه [الشغلة] ستجلب لك الحزن».

تشنجتْ أمي، وقالت هازةً رأسها عن دراية: «كان يجب أن أكون رجلاً. فآنئذ سأكون حرةً طليقةً وأفعل ما أشاء. هل سيأتي زمن أكون فيه قادرةً على أن أفعل فيه ما ولدتُ من أجله؟» فقالت العمة همدام بنفاد صبر: «هذا ليس له صلة بكونكِ امرأة. أسرتنا لا تجيد السياسة. كنتُ أتمنى أن يكون أحمد خارجها. انظري إلى أخي سعيد. إنه مكروه وعاطل من العمل. ووجب على عائلته أن تعاني. السياسة تجلب لنا النحس».

فيما يتعلق بهذه المسألة كنتُ أقف بثبات إلى جانب العمة همدام. قال لي والدي سراً، وبشيءٍ من السخط، إنه من المستحيل إقناع والدتي بعدم الترشح للانتخابات البرلمانية. فالآن وُضع اسمها في المقدمة والشاه وافق عليها من بين المرشحين المقترحين لمجلس الشيوخ والبرلمان - لا أحد من المرشحين يمكنه أن يتقدم للترشيح من دون هذه العملية. في سيرته الذاتية، يشرح أبي أن اعتراضه استند إلى قلة خبرة أمي في المجال السياسي ومزاجها المتقلّب. أما أمي فقد رأت الأشياء بصورةٍ مختلفة: هذه هي فرصتها الوحيدة كي تختبر نفسها في الميدان العام. وفيما بعد نسيتْ توقها الشديد للترشح للبرلمان وتدعي أن والدي أجبرها على قبول الترشيح. وحتى إنها حكت القصة المتعلقة بكيفية ذهابها لرؤية الشاه وتوسلها إليه أن يعفيها من الترشيح، إلا إن الشاه، مع أنه كان عطوفاً معها، لفت نظرها إلى أن الترشيح كان برغبةٍ من زوجها. حينما كنا نكذب عليها كنا نعرف أننا نكذب، لكنها نادراً ما تكذب عن دراية. بهذا المعنى كانت تحكي الحقيقة حينما كانت تتباهى بإصرارها على الصدق مهما كلّف الأمر.

انقطع حوارهما بوصول رسول من أبي، وهذه المرة من محطة الإطفاء. دعته أمي للدخول مسرورةً، أعدّت له القهوة، وأمطرته بوابل

من الأسئلة. اعتذرت منها أميه همدام وغادرت المنزل. في نحو الثالثة بعد الظهر طلع علينا طبيب الأسنان خاصتنا. فقد أُجبر على غلق عيادته مبكراً. قال بتأثر: «فُتحت أبواب جهنم على وسعها! سوف يفلت الوضع وتعمّ الفوضى! لقد ألقوا القبض على حجي طيب!» كان رئيس سوق الخضار في طهران منظماً فاعلاً للاحتجاجات. وكما تبيّن لاحقاً، سيستغرق الوضع ست عشرة سنةً أخرى كي يفلت كلياً، إلا أننا يومئذ كنا نتذوق طعم السنوات القادمة.

في وقت الغداء تقريباً وصلت قولي، ومن ثم شيرين خانوم. وفي لحظةٍ ما غادرتا معاً. بدا اليوم بلا نهاية. كنتُ أدخل حجرة المعيشة وأخرج منها ومع كل رنة جرس يدلف إلينا شخص جديد محمّلاً بالأخبار. هاجم المحتجون وزارتي العدل والداخلية وكانوا يشقون طريقهم متجهين نحو محطة الإذاعة. وطوّق منزل رئيس الوزراء ما يزيد على مئتي رجل مزوّدين بالهراوات. أشعل المحتجون النار في (الزورخانة)، حيث تتم ممارسة الألعاب الرياضية التقليدية. كانوا يضربون النساء غير المحجبات ويهاجمون محطة الإطفاء قبل وصول أبي إلى هناك. فتحت الحكومة النار على المحتجين وامتلأت المستشفيات بالقتلى والجرحى وذويهم.

في وقتٍ ما بعد الظهر دخلت الخالة مينا (على غير عادتها) منزعجةً ومستثارةً. قالت لأمي وهي تتناول منها فنجان القهوة: «استغرقتُ ساعةً لمجرد الوصول من خارج البرلمان إلى هنا. أنتِ لا تصدقين الفوضى والاضطراب خارج المنزل». ثم ألقت نظرةً على الغرفة وسألت: «أتعرفين أين أحمد خان؟ إنني قلقة عليه. يقول الناس في الشوارع إن أنصار رجال الدين المحتجين ضد الحكومة كلهم مدججون بالأسلحة. وتنتشر أكثر الشائعات همجيةً - سمعتُ أن

البريطانيين سلّحوا سراً مجموعةً من الملالي المزيفين كي يغتالوا رجال السياسة البارزين».

كانت أمي تجسد الصبر. زمّتْ شفتيها وقالتْ: «حسن، إنني متيقنة من أن ذلك شائعة، إنما نعم، أنا قلقة. لكن، هل تعتقدين أن أحداً من الناس يصغي إليّ؟» وبعد برهةٍ، وعلى الرغم من إلحاح اللحظة، لم تنسيا القيل والقال عن معارفهما المشترَكين. شوهدتْ هي مع الكولونيل في وضعٍ معرّض للشبهة. «زوجها غاية في العمى». «بعض *الرجال*، يا للسخافة التي يكونون عليها». «أجل»، وكانت أمي على وشك التنهد.

خلال الدردشات المتعلقة بالسياسة والجنس، تلتقط أمي الهاتف وتدير أرقاماً قليلة في محاولةٍ منها لتحديد موقع أبي. كانت ترجع في كل مرة بالتعبير ذاته الخاص بالمكابدة الحليمة. في لحظةٍ ما كانت مهتاجةً جداً لأن أحدهم أخبرها أن أبي قد ذهب لزيارة المستشفيات وأن المناطق المحيطة بالمستشفيات ومحطة الإطفاء خطيرة جداً. تغمغم بشيءٍ ما حول كيف أنها تضرعت إليه ألا يتبوأ هذا المنصب، إن لم يكن من أجلها فعلى الأقل من أجل طفليها. «إنه يحبهما، نحن نعرف ذلك»، قالت ذلك وتنهدت. «مهما نقول عنه، نحن نعرف أنه يحب طفليه».

بحلول المساء كانت أمي قد أصبحت عصبيةً بجلاء. لم تتلقَّ اتصالاً هاتفياً من والدي، وهذا ليس من طبيعته. رن جرس الباب وبعد دقائق قليلة دخل السيد رحمن، دفع الخادمة جانباً، وعيناه جاحظتان، وبذلته الرمادية الأبدية مجعدة. فاجأني في الرواق وبيدي كتاب، وهو يمشي بكسل صوب غرفتي. «توقفي!» قال، مسرعاً للأمام وقبض على يدي بكلتا يديه. كانت ملاطفته تجعلني مرعوبةً

دوماً. كان يتجاهل محمداً، لكنه يستطيع دوماً أن يوقعني في الفخ. قلت: «عليَّ أن أعمل». رد عليَّ قائلاً: «ليس لديكِ عمل. يمكنني أن أحكم، أنتِ تقرأين كلاماً خالياً من المعنى. لكنني أحتاج إلى مساعدتكِ»، أفضى لي هامساً في أذني. «أرسلني والدكِ كي أحاول إقناع والدتكِ وأنا بحاجة إليكِ». فقلت بصورةٍ غير كاذبة: «إنها لا تصغي إليَّ». فقال: «ليس ذلك من أجلها هي بل من أجلي. وجودكِ يعيد إليّ الحظ. سوف يساعدني فيما يتعلق بقدراتي».

في هذه اللحظة فتحت أمي باب غرفة المعيشة. «آ، رحمن، ما الذي تفعله هنا»، قالت وقد بدا عليها السرور. فأجاب رحمن: «بعثني أحمد خان. أتيتُ منه. كم أنتِ موفورة الحظ لأنكِ لم تري وقائع اليوم!» كانت أمي تبتسم الآن ورحمن، من دون أن يرخي يدي المقاوِمة، يتبعها إلى قاعة الاستقبال. قالت مبتسمةً: «ما من شيء لا تهتم به القهوة الجيدة».

«عزيزتي نزهت خانوم»، بدأ حديثه ما إن استقر في كرسيه، «تنتظرنا أيام مظلمة. لديكِ زوج شجاع. . .» وأضاف حينما رأى تعبير الرفض على محيا أمي: «إلا أنه زوج أحمق. قلبي ذهب إليكِ. أمكِ»، قال وهو يلتفت إليَّ، «هي العمود الرئيس لهذه الأسرة. ماذا كنتِ ستفعلين من دونها؟»

نكستُ رأسي، وركزتُ اهتمامي باهتياجٍ شديد على كتابي، وبذلتُ كل ما باستطاعتي كي أتجاهله. التفتَ إلى الخالة مينا وطرح عليها السؤال ذاته، إلا أنها لم تكنْ في مزاجٍ جيد لمثل هذه الأمور، وغمغمت بشيءٍ ما عن تأخرها، وبسرعة قالت وداعاً وغادرت.

«إنه لا يستطيع أن يتصل هاتفياً». شرح رحمن وأضاف بصورةٍ موجزة: «لأن الهواتف ليست آمنة. جُرح عدد كبير من الناس. أصبح

رجال الدين مستعدين للمواجهة. هذا الاحتجاج، عزيزتي نزهت خانوم، كان حدثاً محسوباً ومنسقاً بعناية. رجال الدين كان لديهم مجموعتهم الخاصة من رجال الأمن مزوّدين بالهراوات والسكاكين. وقد أشعلوا النيران في أمكنةٍ كثيرةٍ جداً. ولديهم أنصار في البازار وبين صفوف الناس. مئات من الرجال بأكفان بيض بدأوا يسيرون من قرية (فارامين) متجهين صوب المدينة. كانوا قد هاجموا مخفر الشرطة هناك، والعسكر مستعدون لاستقبالهم بالبنادق. أريدكِ أن تعرفي أنه في أمان - حالياً. كم مرةً أنا وأنتِ طلبنا منه أن يستقيل من منصبه؟»

تمتمت أمي أنها لم تكنْ تريده أن يضع المنصب في المقام الأول. «أجل، هذا ما قلته له اليوم. الخطر في الأمكنة كلها، إنني أرى الخطر».

ناولتني أمي فنجاناً من القهوة وهزتْ رأسها. «هل رأيتَ ذلك في (الكتاب)؟» سألته وهي تشير إلى القرآن، الذي يتلقى منه رحمن، على ما يزعم، رسائله من الغيب.

«رأيتُه في (الكتاب)، نعم، لكنني أيضاً تحدثتُ مع الناس المطلعين على معلومات غير متاحة لغيرهم. الحمد لله، ثمة شخصية واحدة في هذه الأسرة لديها رأس في المكان الصحيح. أخبرتُ زوجكِ اليوم أنكِ، على الأقل، لديكِ إدراك جيد بعدم الترشح للبرلمان».

ألقتْ عليه أمي نظرةً قاسيةً، وأنا في هذه اللحظة أصبحتُ أكثر ولعاً. قالت ببرود: «هذا لا صلة له بي. فقد وُلدتُ في عائلة سياسية. أبي رشح للبرلمان وفشل لأن ما يُسمون أصدقاءه خدعوه. زوجي... زوجي، سيفي»، تلعثمت، «كان ابن رئيس الوزراء. كنتُ ضمن صحبة الناس من أمثال الدكتور ملسباوغ منذ أن كنتُ...» وكانت هنالك مدة توقف، وبعدها تابعت كلامها قائلةً: «منذ أن كنتُ مجرد

فتاة في التاسعة عشرة من العمر. كان باستطاعتي أن أصبح طبيبةً، إلا ذلك مستحيل الآن».

قال: «أعرف، أعرف. لكن هذه أزمنة خطيرة. نحن نحتاج إليكِ، صدقيني، نحن بحاجة إليكِ. زوجكِ لا ينتمي إلى أي مجموعة. إنه وحيد».

«هل ينبغي لي دوماً أن أدفع ثمن أخطائه؟» قالت بسخط. ومن ثم أضافت بصورةٍ أكثر هدوءاً: «هل وجدتَ ما طلبته منك؟» التفت كلاهما ناحيتي، وأنا، وقد أصبحتُ الآن مهتمةً جداً بسماع ما سيأتي لاحقاً، أتظاهر بمطالعة كتابي. قالت أمي: «آذي. أحتاج إلى التحدث مع السيد رحمن على انفراد». قلتُ: «إنني لا أضايق أحداً». إلا أنني كنتُ أعرف أنه ليس أمامي خيار سوى المغادرة. التقطتُ كتابي، وجرجرتُ قدميَّ بتثاقل، وتفاديتُ السيد رحمن، وتركتُ الباب مفتوحاً ورائي.

في الوقت الذي رجع فيه أبي إلى المنزل، زهاء العاشرة ليلاً، كنا جميعاً مرهقين جداً وربما يُغفر لنا كوننا تخيلنا أننا كنا قد شاركنا بأنفسنا في أحداث ذلك اليوم. كنتُ مريضةً قلقةً، إلا أنني خرجتُ عن عادتي كي أتيقن من أن أمي لم تكنْ تعرف بذلك. بين الحين والحين أذهب إلى الباب وأنظر إلى الخارج. وشربتُ القهوة مع كل شخصٍ دخل إلى منزلنا. وحينما دخل أبي أخيراً قاعة الاستقبال، قال السيد رحمن مؤنباً: «حسن، أحمد خان، وصلتَ في الوقت المحدد تقريباً. هذه المرأة المسكينة كادت تفقد عقلها بسبب القلق». نظرت المرأة المسكينة إلى أبي بنظرةٍ متحجرة، كما لو أنه عاد تواً من موعدٍ غرامي غير شرعي استغرق النهار كله من دون أن يزعج نفسه بأن يتصل هاتفياً ويقول إنه سيتأخر على العشاء.

في ذلك الصيف تمّت الموافقة على ترشيح أمي للبرلمان مع خمس نساء أخريات. واتخذت لها مكتباً في خريف سنة ١٩٦٣. قرر والداي أن يرسلاني إلى (مدرسة إيكولي العالمية في جنيف)، وهي مدرسة ممتازة ومواكبة للاتجاهات الشائعة؛ هذا القرار جعلني أشتاق إلى لانكستر الرثة والرمادية، وصديقاتي البريطانيات الساخرات. في ذلك اليوم: الخامس من حزيران (يونيو) ١٩٦٣، كُتبت الصفحة الأولى من ملف الخدمة السرية العائد لوالدي. في الملف، ادعى عملاء مجهولو الاسم أن والدي اشترك مع المناوئين للشاه ووقف إلى جانب رجال الدين. في تلك الآونة، لا أحد منا كان قادراً على التنبؤ بماذا ستؤثر فيه تلك الصفحات القليلة على حيواتنا، وتغيّرها بطرائق لم نكنْ نحلم بها قط.

الجزء الثالث

سجن أبي

ثمة وجع – مطلق – بحيث إنه يبتلع الثروة –
ومن ثم يغطي الهاوية بالنشوة – كي تستطيع
الذاكرة أن تخطو من حولها – وعبرها

– إميلي ديكنسن

الفصل الرابع عشر

مجرم عادي

في كانون الأول (ديسمبر) ١٩٦٣، سحبوني من درس التاريخ وأخذوني إلى مكتب مدير المدرسة، حيث أخبروني بنبراتٍ مهيبة أن محطة الإذاعة السويسرية قد أذاعت تواً خبراً مفاده أن أبي قد أُودع السجن. سألتُ: «هل كانت هنالك ثورة؟» على الرغم من قلقنا المعهود، لم يكن ثمة سبب حتى يتم اعتقاله تحت أي ظرفٍ من الظروف.

بدا كل شيء يسير على ما يرام بالنسبة له. طوال ذلك الخريف سمعتُ تقاريرَ محتدمةً عن أبي وهو يضيّف قياديين مختلفين في الدولة. وقبل ذلك بثلاثة أسابيع شاهدتُ صورةً احتلت مساحة صفحتين لأبي يقف جنباً إلى جنب مع الجنرال ديغول في «*باريس ماتش*» لم يكنْ هنالك في الصورة أحد آخر من أصحاب المقام الرفيع، ولا حتى الشاه. مال إليه ديغول، ربما بسبب حديث أبي المرحَب به، الذي ألقاه بالفرنسية مع إشارات مختلفة إلى الأدب الفرنسي. كافأه ديغول بميدالية (وسام شرف). وحينما أخبرتُ أبي في اتصال هاتفي، وقد تملّكني الفرح، بشأن صورته تلك، قال لي: «حسن، ذلك سيكلّفني، لا تدعينا، إذاً، نتسرع في الاحتفال».



أبي خلال لقائه بالرئيس الفرنسي شارل ديغول.

في مدرستي بجنيف كنا نعيش حياةً منعزلةً. لم يكن بوسعي متابعة الصحف الباريسية، وكان تواصلي مع العالم الخارجي يقتصر على زيارات مرصودة من الأقارب والأصدقاء. وحينما اتصلتُ هاتفياً بالوطن كي أسأل أمي عن الاعتقال، طمأنتني قائلةً إنها مجرد إشاعة،

وإن أبي كان يتنقل بين الوظائف وهو في منطقتنا الواقعة على بحر قزوين ليأخذ قسطاً ضرورياً جداً من الراحة. كتبت لي الخالة مينا أنه مُنح وظيفة وزير الداخلية وهي تتطلع إلى رؤيتي في الوطن لدى عودتي لقضاء العطلة. كان من المفترض أن أمضي عطلة عيد الميلاد (الكريسماس) خاصتي في فرنسا، إنما قيل لي أن الخطط تغيّرت وإنني سأذهب إلى الوطن. بخلاف ذلك كل شيء بدا على حاله.

كان رضا ابن خالتي نفيسة الذي التحق بمدرسة (لي روسي) في سويسرا، في الرحلة نفسها بالطائرة التي تعود بنا إلى طهران. وحالما استقررنا في مقاعدنا أخبرته أنني غير متأكدة من سبب استدعائي إلى الوطن (تغيرات مفاجئة طرأت على خططه هو أيضاً)، وأوحيت له ربما يتعلق الأمر بوالدي. قال وهو يلوّح بجريدته بصورةٍ اعتباطية في اتجاهي: صحيح. على الصفحة الأمامية كانت هنالك صورة أبي تحت عنوان بارز كبير يتعلق باعتقاله.

عدّدت المقالة لائحةً من التهم من بينها الرشوة وسوء استخدام الموارد المالية. نحو أربعين شخصاً سواه - أغلبهم مقاولون - اعتُقلوا معه. في التقارير التي حفظها جهاز (السافاك)، الشرطة السرية، تم الإبلاغ عن أبي باعتباره مؤيداً للمعارضة، واتُّهم بكونه ذا علاقات طيبة برجال الدين وبـ«العصيان». رئيسا الوزراء: أسد الله عَلَم وخلفه الذي سيحل محله حسن علي منصور الذي كان في سن أبي نفسها وصديقه المزعوم، اعتبراه «مشكلة». أحدهما لم يكن بوسعه أن يعفو عن غطرسة أبي والآخر، الشاب والطموح، عدّه نداً خطيراً.

في صباح اليوم التالي لوصولي إلى طهران جعلتني الأصوات المألوفة ورائحة القهوة أشعر على مدى لحظة أنه لم يتغير شيء، وأنني بمسيري في غرفة المعيشة سأجد أبي يبتسم بتسامح لضيوفنا. كانت

الخالة مينا هناك والسيد خليقي، الذي جلب قصيدةً كي يرحب بعودتي، تفجع فيها على حقيقة أن أبي لم يكن قادراً على استقبال ابنته المحبوبة في المطار. كان التعبير العابس على وجه ميشغين قد وازنته بسمة نادرة ومتكلفة بانت على محيّاه. وابتسمت لي قولي بسمةً دافئةً بينما نفّستْ شيرين خانوم بحرية عن غضبها على البهلويين المنحطين وطرائقهم الكافرة.

جلس السيد رحمن قريباً من أمي، مركّزاً نظراته عليَّ. كنتُ متأكدةً من أنه فعل ذلك لمجرد أن يجعلني أشعر بعدم الارتياح. فقد كان الآن رسمياً جزءاً من حاشية أمي، وهو ملازم لها في المنزل وفي يوميات أبي. حذر رحمن من أن منصور كان يبدو شديد البأس الآن، لكن من يستطيع أن يخبرنا بما يخبئه له القدر؟ كانت أمي أقل تلطفاً في أحكامها على الآخرين. قالت: كيف يستطيع المرء أن ينسى أن أباه، آخر رئيس وزراء لأبي الشاه، قد سلّم رضا شاه للبريطانيين؟ «أما ابنه فهو مدافع عن الأمريكيين لا يُعوّل عليه كثيراً، ونحن نرى كيف يفضل أن يخون بلاده».

السيد بيهداد، وهو محام بارز تولى لاحقاً مهمة الدفاع عن عن والدي، كان قد جاء صبيحة ذلك اليوم مع السيد إسماعيلي، مدير المتنزهات والمساحات الخضر، والأخير واحد من زملاء أبي وكان يزورنا بانتظام. كل يوم يمضيه أبي في السجن كانت هنالك زهرية من الأزهار النضرة في غرفته؛ بعد إطلاق سراحه اكتشف أن تلك الأزاهير التي كانت تُرسل من دون اسم كان يبعثها إسماعيلي. في الشهور والسنوات التي أعقبت ذلك أتوصل إلى تقدير وفاء أشخاص بعيدي الاحتمال على غراره هو وعلى غرار ضياء، رئيس موظفي أبي، الذي اعتبرتُه مجرد متملق ذليل.


أبي وهو في السجن.

كان ضياء يقول لو أن نزهت خانوم باستطاعتها رؤية رئيس الوزراء وإقناعه ببراءة السيد المحافظ (لم يكنْ يتوقف عن تسمية أبي: السيد المحافظ) فربما يتم إطلاق سراحه فوراً. قال السيد خليقي بشيءٍ من الغضب: «أيها السيد الفاضل، رئيس الوزراء من بين كل الناس، يعرف تمام المعرفة أن أحمد بريء. يبدو أنكَ نسيتَ أنهم فبركوا تلك التهم. ما ينبغي لنا أن نقوم به هو معرفة السبب الحقيقي لإيداعه السجن».

قوطع تأمل عديم الجدوى كهذا بوصول الخالة نفيسة، التي دخلت مبرهنةً عدم اهتمامها باحتمال مقاطعة الحديث وتقبلت الصمت المباغت بوصفه إجلالاً لها. كانت الخالة نفيسة قد بدأت تشنّ حملة دفاعاً عن والدي. اتصلت بموظفين حكوميين من أجله وجعلتْ أعمالها الخيرية ألعاباً نارية، كانت تزوره بانتظام، وترسل إليه طعامه المفضل، وحتى أنها أبدتْ استعدادها لإعارته المال كي يستطيع أن يرانا خلال الأيام العصيبة. بعد أن عبّرت عن شكرها للانضمام إليّ بايماءة عامة وقدمت لي خدها، التفتت إلى أمي ورحمن، الذي تبعها إلى خارج الغرفة. ألقى وصولها سكوناً عابساً على كل المجتمعين.

بينما كانت أمي والخالة نفيسة تنتظران عند بوابة (مركز الشرطة الخاص بالاحتجاز)، وهو مقر مؤقت للمجرمين العاديين، كنتُ أقف بعيداً عنهما قليلاً، وعلى وجهي، كما فسرها الملاحِظون المتعاطفون،

بسمة صغيرة جريئة. في السيارة بدأنا أنا وأمي حربنا - بدأتُ بالغمغمة عن رغبتي في المكوث في طهران وحصولي على درجات عالية في المدرسة بمساعدة معلمين خصوصيين أما هي، ولسبب لا يعرفه سواها، فكانت تريدني أن أغادر في أقرب وقتٍ ممكن. وعندما أودعتنا السيارة أمام بوابة حديد ضخمة، بدت وكأنها تمتد إلى ما وراء الجدران وتتغلغل إلى مملكة أخرى، آنذاك فقط باغتني الرعب.

حصلنا على امتياز واحد: التقينا بأبي في مكتب مدير السجن، وهو عبارة عن حجرة طويلة وضيقة نوعاً ما، وبطلاء أزرق - رمادي متألق، وبحافة ذات لون أزرق أكثر قتامةً. في أحد الجانبين، وقريباً من الجدار، كان هناك مكتب المدير، وخلف المكتب رجل أصلع الرأس ببذلة رسمية زرقاء، نهض بقلق كي يرحب بنا. إزاء هذه الخلفية الباهتة أشرق وجهه المستدير البهيج بتعبيرٍ يشي بالتواضع الحقيقي. قبالة مكتبه، بجوار الحائط، ثمة صف من الكراسي الصغيرة وطاولتان.

بدأتْ أمي وخالتي تتحدثان حديثاً مهذباً مع الكولونيل خورامي: مدير السجن، بينما كنتُ أجلس في الركن، أستند إلى الحائط الزلق، وأتطلع من النافذة. كان ثمة توقف في الحوار: التفتُ ناحية الكولونيل، ومن زاوية عيني، شاهدتُ أبي، وقد بدا أنحف وأصغر سناً، واقفاً عند الباب المفتوح وعلى وجهه ابتسامة. ملتُ للأمام، فتعثرت بالطاولة الحديد الضيقة. بأدب أشاح الكولونيل نظرته جانباً. ندَّ هتاف صغير من خالتي، وربما بدرتْ نظرة استهجان من أمي. كنتُ واقفةً هناك إلى أن سار أبي باتجاهي وضمّني بين ذراعيه وبينما كان يقبّلني همس لي قائلاً: «هذا شيء حسن، أنا سعيد جداً برؤيتكِ».

في البداية تحدثوا حديث البالغين بينما كنتُ جالسةً بجنبه

وممسكةً بيده، كما اعتدتُ أن أفعل من قبل حينما كنتُ طفلةً صغيرةً. إنني أندهش من الصور القديمة لنا: أنا وأبي، بسبب الطريقة التي حاولتُ فيها أن أخلق شكلاً معيناً من التماس الجسدي بيننا: أميل إليه، أريح رأسي على كتفه، أو أضع كفي على ذراعه.

أول شيء قاله لي بعد أن قبّلني هو: «لا تُظهري أي علامة من علامات الضعف، أي علامة بأنكِ تشعرين بالأذى أو الخجل. أنتِ لستِ خجلةً، أليس كذلك؟ هذه مجرد اختبارات لتحمّلنا. هذا هو الزمن الذي يجب أن أتباهى فيه». *هذا هو الزمن الذي يجب أن أتباهى* فيه. وعلى مدى سنوات عدة سأسمع هذا مرات كثيرة منه ومن أمي. فبينما كان أبي محافظاً شاباً واعداً نال تأييد الشاه، كنا جميعاً حذرين قليلاً من كوننا فخورين به. كي تكون فخوراً بنفسك عليكَ أن تصبح ضحيةً للظلم.


أمي، إحدى صديقات الأسرة، أبي، وأنا.

«أتذكرين كيف اعتدتُ أن أقول لكِ إن بوسعكِ دوماً أن تعتمدي عليَّ؟» همس أبي بينما واصلت أمي وخالتي تبادل النكات مع مدير السجن. «أن بوسعكِ أن تشعلي ريشةً، كتلك الريشة التي أعطاها طائر السيمرغ إلى زال في «*الشاهنامه*»، وسوف أهبُّ لنجدتكِ. حسن، سأبقى هكذا بالنسبة لكِ، بغض النظر عن المكان الذي أوجد فيه. لكنني الآن أحتاج إلى مساعدتكِ. عليكِ أن تعتني بوالدتكِ. من الضروري أن تكوني عطوفةً ورقيقةً معها». وقال

إنه طلب الشيء نفسه من أخي. «أنتَ الآن الرجل في الأسرة»، أخبره، وهو شيء أخذه أخي ذو السنوات الإحدى عشرة بمزيدٍ من الجد. «أنتَ تعرفين أن أمكِ ليس لها أحد سواكِ وسوى أخيكِ الآن»، قال لي، وهو ينظر إليَّ نظراتٍ مركزة. «عليكِ أن تعديني بأن تعتني بها. لقد خذلتُها، وأحتاج إلى أن أعوّضها عن ذلك. أحتاج إلى أن تعديني بألا تؤذيها أو أن تعصيها بأي حالٍ من الأحوال». وعدته أنني سأعتني بأمي وأن أبذل أقصى ما أستطيع كي لا ألحق بها الأذى. إنه وعد سألتزم به وأخلفه مرات كثيرة.

أخبرني أبي أن أتصرف كما لو أنه لم يحدثْ شيء. عملنا كل ما بوسعنا كي نتصرف بصورةٍ طبيعية، إلى حد أننا توصلنا تقريباً إلى أن نصدق نحن أنفسنا ذلك على الرغم من الحقيقة التي مفادها أن لا شيءَ في العالم يبدو طبيعياً. لو أننا تصرفنا بمزيدٍ من التواضع لكنا كاذبين، لأننا لم نؤمنْ بإثمه. لم نكنْ متواضعين البتة. ومع ذلك فإن تصرفنا كما لو أن هذا الوضع لم يؤثر فينا كان كذبةً أيضاً. وجهاراً اخترنا الكذبة الثانية، إنما في حيواتنا الشخصية جربنا الكذبتين معاً إلا أن أياً منهما لم تنفع.

ما أزال ممتنة لخالتي التي أمسكت بيدي طوال رحلة عودتنا إلى البيت وعصرتها بطريقة ودية حينما راحت الدموع تسيل على وجهي فيما أشاحت أمي نظراتها عني. لعلها أحست أنها لا تستطيع أن توفر أي عاطفة نحو الآخرين، حتى ابنتها؛ ألم تكنْ هي، على الرغم من كل شيء، الضحية الحقيقية؟ ومهما كانت معاملتها سيئة مع أبي، إلا أنها لم تشكّ بنزاهته العامة. فيما بعد فقط كررت الشائعات ضده التي هي نفسها أنكرتها بشدة ذات مرة بينما كانت تذكّرنا بسيفي، وبنزاهته، واستقامة أسرته. ووجب عليها هي، كنّة سهم سلطان، أن تكابد مزيداً

من ذلك الإذلال العام! كم هي مذهلة قدرة البشر على خداع ذواتهم: أمنية أبي في السعادة الأسرية، أوهام أمي عن زوجها الراحل، واعتقادنا أنا وأخي أن باستطاعتنا أن نجعل أبوينا سعيدين، وأن نحمي أحدهما من الآخر.

الفصل الخامس عشر

يوميات السجن

الصفات التي ننسبها إلى أوضاعنا - «مأساوية»، «ساخرة»، «ظريفة» - تأتي إلينا متأخرةً دوماً، بعد أن اكتسبنا الموضوعية. حينما أفكر في تلكم الأيام الآن تقفز بعض هذه الكلمات إلى ذهني، وبالتأكيد كلمتا «مأساوية» و «ساخرة» معاً، إنما في أغلب الأحيان كنتُ حائرةً مترددة كأنني أمشي في الضباب. لا أحدَ كان لديه أدنى فكرة عما سيحصل لوالدي. كانت هنالك شائعات لا نهاية لها بأنه سيتم إطلاق سراحه في اليوم التالي، تعقبها تحذيرات مشؤومة بأنه سيُسجن مدة أربع عشرة سنة (لماذا أربع عشرة، إني أتساءل الآن - لم لا تكون ثلاث عشرة أو خمس عشرة؟) أو أسوأ من ذلك، أن يُقتل في السجن ويتم الادعاء بأن قتله كان انتحاراً. هذا التذبذب المستمر بين نهايتين كان يُكرر في المنزل، حيث كانت أمي، أخي، أصدقاؤنا، أقاربنا، والغرباء المتعاطفون كلهم يحيكون قصص الأمل واليأس.

بعد تسعة شهور على اعتقاله، شرع أبي يكتب في يومياته: كان قد توقف عن الكتابة حينما مضى إلى السجن لأنه يومياً كان يأمل أن يتم إخلاء سبيله. أقرأ في المدخل الأول: «اليوم مرت تسعة شهور بالضبط منذ أن أودعوني السجن. منذ اليوم الأول الذي اعتقلوني فيه استناداً إلى تهم ملفقة، كانت أسوأ كارثة هي أنهم وعدوني بأن يطلقوا

سراحي. هذا الوضع زاد سوءاً منذ أن تولت الحكومة الجديدة السلطة».

الحكومة الجديدة التي يشير إليها هي حكومة صديقه القديم حسن علي منصور، الذي حل محل عَلم. كان صعود منصور إلى السلطة كصعود النيزك: من رئيس موظفين إلى رئيس وزراء في سن الثلاثين، ومن ثم رئيس (المجلس الاقتصادي) ونائب رئيس الوزراء في سنة ١٩٥٧، حينما كان في نحو الرابعة والثلاثين. أتذكره بوصفه رجلاً طويل القامة وأصلع الرأس، وذا عينين بلون البندق وذا بشرة سمراء ضاربة إلى الصفرة. كان والدي يتحدث بمسحةٍ من الحسد عن زوجة منصور (فريدة إمامي)، التي أتصورها امرأة صغيرة الجسم وأنيقة ذات شعر بني طويل وسبط. كانت تبدو دوماً كأنها معلقة بخيط خفي مربوط بزوجها. كلما يرد اسم منصور يلجأ أبي إلى ذكر تفاني زوجة منصور من أجل زوجها وسيرته الوظيفية. أما الآخرون، المراقبون الأقل إحساناً، فيرونها امرأةً شديدة التعلق، وطموحة، لا تترك زوجها المسكين وحيداً.

أتذكر حفلةً في حديقة حضرها رجال ونساء يرتدون ثياباً جميلةً وأنيقةً، الأضواء من حول المسبح: يخطو منصور خطوات واسعة عبر المرج، برشاقة يسحب أبي من الثلة التي كان يتحدث معها، ويقوده بعيداً، يده تطوّق كتف والدي. راقبتهما، شابان، واثقان بنفسيهما ومتيقنان أين يقفان وإلى أين هما ماضيان، وضع خاص حميم، تآمري تقريباً. بعدها ببرهة قصيرة تنضم إليهما زوجة منصور وعلى وجهها يظهر تعبير جدي ومعقد، نظراتها معلقة بهيام بزوجها بينما هي تتشبث بذراعه.

وشاءت الظروف أن يصبح منصور أحد هواجس أبي. يكتب عنه

في يومياته بالسجن أكثر مما يكتب عن «أعدائه» الآخرين: من الصعب جداً أن تتحمل طعنة من الخلف صادرة من صديق. يكتب في الصفحة ٣١٢: «عرفتُه على مدى خمس وعشرين سنة. وأصبحنا صديقين حميمين طوال السنوات القليلة المنصرمة. كان رجلاً ذا ذائقة، موهوباً، متواضعاً، لكنه كاذب، متملق، وطموح إلى درجةٍ قصوى. يضحي بكل شيء كي يقدّم نفسه على الآخرين. كان يحلم باستمرار بأن يصبح رئيس وزراء ويفعل كل شيء من أجل الوصول إلى هذه الغاية المنشودة. اعتدتُ أن أضمر له قدراً كبيراً من المحبة لكنني سرعان ما اكتشفت ازدواجيته وخداعه. في السنوات الأخيرة اعتبرني نده الحقيقي الوحيد، على الرغم من حقيقة كوني أفتقر إلى ارتباطاته ووسائله».

ولاحقاً يذكر أبي أن أحد معارفه ممن يتجسس في المراكز العليا قد أخبره أن منصوراً كان يعتبر أبي نداً له. بحسب هذه الرواية طبخ منصور وشخص له علاقة بالسفارة الأمريكية يُدعى السيد روكويل، بعض الأكاذيب وقدماها طعاماً للشاه. كان الأمريكيون سيكفلون نجاح منصور. يفكر أبي ملياً: ما هي تلك الفرص التي تجعل رجلاً مثله، من دون أنصار أقوياء ومن دون إسناد أجنبي، يستطيع أن يبقى حياً في ظروف كهذه؟ سيظهر هذا السؤال في حواراتٍ عدة خاضها أبي مع أصدقائه وأفراد الأسرة، فضلاً عن صفحات يومياته. يعاود السيد روكويل الظهور على السطح بعد ذلك بصفحات قليلة، عندما يتساءل أبي ما إذا كانت شائعات ارتباطات منصور به حقيقية. أكان ذلك هو السبب الذي جعل الحكومة الإيرانية تصر على نقل السيد روكويل قبل عودة السفير الأمريكي من إجازته؟

روى أصدقاء آخرون أنه قيل للشاه إن أبي أعطى قائمة المرشحين

للبرلمان إلى الأمريكيين (لم تُعلَن القائمة إلا بعد موافقة الشاه عليها)، أو أنه كشف لهم مضمون حواره السري مع الشاه. «أحمد خان، بين الأصدقاء فقط، قل لنا الحقيقة»، ناكده سافيبور، وهو رجل طيب القلب، وصاحب المجلة الشعبية «*أوميد إيران*» والمحرر فيها. «هل سجنوك لأنكَ ساندتَ المرشحين للبرلمان الذين لم يستطع الأمريكيون تحمّلهم، أو بسبب تسريبكَ القائمة للأمريكيين؟ إذا كان السبب هو الأول سنبدأ بالاتصال بأصدقائنا الأمريكيين في المراكز العليا؛ أما إذا كان السبب هو الثاني فسوف نحاول كسب تأييد الأمريكيين في قضيتك، لكن إذا كان السبب لا هذا ولا ذلك»، قال بضحكة مجلجلة، «عندئذ قضيتك ميئوس منها حقيقةً!»

لماذا أُودع السجن؟ هل أغاظ الشاه؟ هل كان ذلك ناجماً عن منافسة صغيرة؟ أم ناجماً عن طموحاته هو؟ قلّة هم الذين صدّقوا التهم الموجهة ضده، وحتى أعداؤه لم يصدّقوها. في إيران يتم التعامل مع المعارضة السياسية باعتبارها شكلاً من أشكال الجريمة: غالبية المذنبين حوكموا بتهم كاذبة وهنالك حيز صغير للدفاع عنهم. إن الحقيقة القائلة إن التهم لم تكنْ تؤخذ على محمل الجد جعل الوضع كله كاذباً، وتقريباً هزلياً بعض الشيء. كنتُ أتعلم درسي الأول في السياسة الإيرانية والحياة العامة: الحقيقة لها أهمية قليلة جداً.

يزوره كبار الموظفين في الدولة ويتساءلون بصوتٍ عالٍ عن «السبب الحقيقي» لاعتقاله، أو يرسلون مبعوثين كي يجعلوه يعرف أنهم كانوا مؤمنين أنه بريء ولا يعرفون لماذا دخل السجن. كانت يومياته المكتوبة في السجن مليئة بتقارير عن هذه الزيارات. «في المساء تقريباً أقبل لزيارتي الدكتور جمشيد عموزيغر - وزير الخزانة وفيما بعد رئيس الوزراء - مع سافيبور-» يكتب في بداية يومياته.

«تحدثنا عن أشياء كثيرةٍ جداً وأراد هو أيضاً أن يعرف السبب الحقيقي لاعتقالي. قال إنه داخل الخزانة وخارجها، يعلم الجميع علم اليقين أنني لستُ لصاً ولا مختلساً. على العكس، كنتُ خادماً كبيراً للشعب. يعتقد هو أن قضيتي لا بد أن تكون سياسية. فكرنا أنا وعموزيغر طويلاً وحللنا كل ما خطر ببالنا، لكننا، والله أعلم، لم نستطع أن نكتشف طبيعة جريمتي!» وبعدها بصفحات قليلة يكتب: «ليلاً، حينما أكون وحيداً، أبكي كثيراً. أبكي على نفسي، وعلى أولادي، وعلى هذا البلد اللعين. الآن وقد أصبحت لدينا فرصة لعمل شيءٍ من أجل الناس الفقراء، وقعت الحكومة بين أيدي الشباب المتحيزين، والفارغين».

ومتلهفاً لإقناع محاوِر غير مرئي ببراءته، يروي أبي بالتفصيل لماذا يصعب عليـ«هم» أن يصدقوا أنه لم يسرق من خزينة الحكومة. أولاً، بوسعهم معرفة حساباته المصرفية. سيعرفون ديونه وكذلك ممتلكاته الشخصية، بعد خمس وعشرين سنة من الخدمة المدنية، بغض النظر عن ميراث زوجته، فهي لم تبلغ مستوىً عالياً. إنه يقدم حساباً دقيقاً جداً عن مصروفاته ويقتبس قولاً لأحد القضاة حيث قال لو أن نفيسي كان يبغي سرقة المال، لفعل ذلك حينما كان نائب الرئيس في مديرية (التخطيط وتنظيم الموازنة)، التي كانت تنظم موازنة البلد. وفيما يتعلق بملاحظة أن الشاه كان مستاءً من طموحاته، رد على هذه الحجة بالحقيقة القائلة إن الشاه كان يعرف جيداً جداً أنه ليس لديه رغبة على الإطلاق في أن يكون رئيس وزراء. كان من دواعي سروره أن يبقى محافظاً لطهران، كي يكمل ما بدأه. ويذكر تسجيلاً صوتياً كان أعداؤه قد «فبركوا» فيه حواراً بينه وبين امرأةٍ في حفلة تحدث فيه بترفع عن الشاه.

إلى أين سنذهب حينما لا يكون هنالك أي قدر من التفكير الدقيق

كي يوفر لنا الجواب الشافي؟ العالم الذي عاش فيه أبي كاذب وغير معقول. أتت قناعته العليا من الاستجابة بجفاف لمحاوِره، ومن دون أن يستسلم، يقلب الموائد المحيطة به ويشير إلى الشراك في نقاشاته. وأحياناً بدا المحاوِر المحبط كأنه يتوسل إلى أبي كي يساعده لإيجاد مدخل ربما يفضي إلى تبرير التهم الموجهة ضده.

ولم يستطع الإجابة عن سؤالين جوهريين جداً، مع أنه على الأرجح حاول ذلك: لماذا هو في السجن وماذا سيحصل له؟ غالباً ما يجد ملاذاً في عالم الأحلام. وكالروائي الذي ألّف تواً كتاباً يكشف فيه أكثر أسرار أفضل أصدقائه خصوصيةً، يعلن قائلاً أن لا أحد من شخصيات روايته له أي شبه بالناس الحقيقيين، يكتب أبي بصورةٍ مؤثرة أنه لا يؤمن بالخرافة، ولا بالمشعوذين، أو بقارئي الطالع، في حين يملأ دفاتره بأحلامه هو وأحلام الناس الآخرين. في هذه الأحلام الرمزية بصورةٍ ساخرة والملبية للأمنيات، يبزغ عالَمٌ معقول أكثر وقابل للتصديق أكثر من الواقع نفسه. نجد (شاهاً) مرغماً على رؤية العقل، وموظفين يقومون بشيء محتشم، وأبي وقد استطاع أخيراً أن يقدم قضيته بقوة، ومنطق، وبصورة مقنعة. غدت التغييرات التي أصبحت مستحيلةً في الواقع هي النموذج في هذه الأخيلة الجامحة. وتأسس عالَمٌ أكثر إنصافاً في هذا الكون النظير، حيث كل صنوف البشر صريحون وذوو عقول متفتحة ومستقلة. في مستطاعهم أن يحذروا، وينصحوا، وحتى أن يرشدوا الشاه إلى الشيء الصحيح. والشاه يفعل ذلك: إنه يصغي، إنه مقتنع.

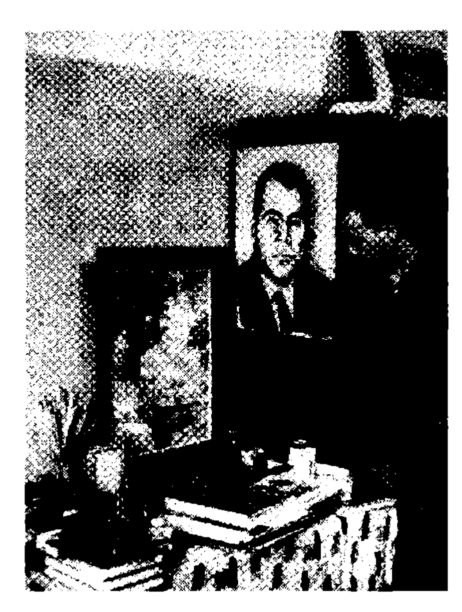
«إنني أكتب هذا لنفسي أولاً ومن ثم لابنتي وابني»، يكتب أبي في صفحةٍ ما بعد المئتين في يومياته التي دوّنها في السجن. «عندما

يكون لديهما متسع من الوقت أكثر من الآن، وقدرة على التحليل، ربما تكون هذه الكتابات مصدراً للمشورة والإرشاد بالنسبة لهما. خمسة مجلدات وألف وخمسمئة صفحة تقريباً بقيت من يوميات أبي، سجّل فيها أبي حياته في السجن حتى إطلاق سراحه ومن ثم تبرئته النهائية بعد أربع سنوات. دأب والدي على القول بصورة شبه مازحة إن سنواته التي قضاها في السجن هي من بين أكثر سنوات حياته عطاءً. كان يقول ذلك أحياناً في إشارةٍ إلى السجن الذي يعتقد أن أمي خلقته له في البيت. إنما ثمة ناحية أخرى من ادعائه، تلك الناحية التي تظهر في يومياته، وفي قصائده ورسومه العديدة. إذ كانت له موهبة إتقان العمل تحت ظروف عسيرة. ثمة شيء كان يحدث، ثمة شيء جعله يقاوم أي شيء في طريقه. ولهذا فقد تفتحت إمكاناته في أمكنة غير متوقعة على الإطلاق.

عندما نراه خلال زياراتنا الأسبوعية القصيرة في غرفةٍ ليست غرفته، منفصلاً عن كل الأشياء والأمكنة التي ترتبط في ذهني به، من الصعب أن يتخيل المرء تجاربه الحقيقية في الساعات الكثيرة عندما لم نكنْ هناك. وأنا أقرأ يومياته الآن، يثب عالمٌ آخر من الصفحة، كوكب بوتائره وقوانينه وسكانه غير المرغوب فيهم. الشيء الذي بدا أنه شد أزره، عدا الأمل وحب الأسرة والأصدقاء، هو تلذذه الهائل بالحياة. يبدو كأن السجن قد قلص كل حبه للحياة إلى لحظات ذات قوة رائعة، بحيث كان باستطاعته أن يتعلم لغات جديدة، يكتب ويقرأ، يتأمل التاريخ، يرسم، ويطرح أكثر من عشرين رطلاً (أكثر من تسعة كيلوغرامات).

يصف في يومياته وتيرةً يوميةً جنونية». أستيقظ من النوم في الرابعة والنصف، وبعد الاغتسال أمشي حول غرفتي حتى السابعة

تقريباً وخلال مسيري أطالع «نهج البلاغة» - كتابات الإمام علي - «أو كتباً في تفسير القرآن أو التاريخ أو الدين. في السابعة أتناول فطوري مع ضباط مركز الاحتجاز وأطالع حتى الثامنة. من الثامنة حتى العاشرة أسير حول غرفتي، أدرس اللغة الألمانية. بين العاشرة والظهر يكون لدي عادة زائرون، أو يزورني ضباط أو سجناء آخرون. وبعدها حتى الواحدة



أبي في السجن مع عدد من رسومه.

بعد الظهر وهو وقت الغداء، إما أقرأ أو أكتب. بعد الغداء أرتاح، أقرأ، وأحياناً آخذ قيلولةً حتى الثالثة. من الثالثة حتى الخامسة آخذ دشاً وأقرأ الفرنسية خلال المشي. من الخامسة حتى السادسة استحم، أقرأ الصحف، أتناول طعام العشاء، وأنهمك في حوار مع أي شخص جاء ليزورني. وبعدها وحتى حلول الوقت الذي يغلبني فيه النعاس زهاء منتصف الليل أستمع للمذياع أو أقرأ».

ينتقل من دون فاصلة من مشاعره الخاصة بالإحباط، وإحساسه بالخداع والحزن، إلى حواراته مع كادر السجن، والسجناء الآخرين، وأفراد الأسرة، والأصدقاء، إلى تعليقاته على الوضع السياسي في البلد وعلى الأحداث الجارية في أصقاعِ أخرى من العالم - وفاة تشرشل سنة ١٩٦٥، والحرب في فيتنام. يحتفي بحريات الشعب الأمريكي، وقدرتهم المذهلة على إعادة خلق أنفسهم، وفي الوقت ذاته يتأسف

على السياسة الخارجية الأمريكية. في نقطةٍ ما يكتب رسالةً مفتوحةً إلى الرئيس الأمريكي جونسن يقتبس فيها من جون كوينسي آدمز، فرانكلين روزفلت، دانييل وبستر، وأبراهام لنكولن. يشرح في رسالته قائلاً إنه يكتب بوصفه فرداً «شهد القلق والخوف الباديين على وجوه العمال المضربين في ديترويت الذين رأيتهم في أقصى درجات اليأس مستلقين على الممرات الجانبية مع زجاجات الويسكي... البنايات المدمَّرة والمسوّدة من الدخان في هارلم وشيكاغو، الشقاء والجوع في نيو أورليانز وبالتيمور... إضافةً إلى المباني الجميلة الحديثة بأبوابها الأوتوماتيكية، النِّعم اللامحدودة للحريات الشخصية والجمال، الراحة وثقافة البلد...» يتحدث عن ضرورة الاعتراف بفضل أمريكا على الأمم الأخرى ويطلب من جونسن «ألا ينخدع بالسياسيين المستبدين في البلدان الأخرى، وألا يأخذ بعين الاعتبار أولئك الذين يفكرون بطريقة مختلفة عنه كأعدائه، وألا يرتكب الأخطاء كالخطأ الذي ارتكبته أمريكا في فيتنام وألا يقدم أعمالاً خيرية نابعة من الشعور بالتفوق - إن أردتَ أن تساعدها فعليكَ أن تفعل ذلك على وفق المبدأ واستناداً إلى كونكم متساوين».

يكتب الأشعار الموجهة لطفليه، لزوجته، وللأصدقاء والأقارب المحبوبين. إنه يقع في حب سقراط، فولتير، وبوذا، ويترجم قصيدة (الحرية) لـ بول إيلوار، ولـ فيكتور هيغو، وبصورةٍ غريبة، يترجم أيضاً كتاباً عن الجسد البشري، يبدو أنه سحره. يُنشئ صندوقاً لجمع المال كي يساعد السجناء الآخرين على إرسال كفالة بالبريد كي يطلقوا سراحهم، ويتعلم كيف يرسم، ويصقل لغته الألمانية، ويبدأ بتعلم لغتين جديدتين هما الروسية والأرمنية، من نزيل آخر.

في السجن يشتغل على ثلاثة كتب للأطفال ينشرها بعد عقود:

ترجمة لقصص لافونتين، وهي قصص كاملة مع صور جميلة مستنسخة من النص الأصلي، ومجموعة قصص من تأليف الفردوسي، ومختارات قصصية من تأليف الشاعر الفارسي العظيم نظامي. يصف كيف علّمني وعلّم أخي هذه القصص حينما كنا في الثالثة أو الرابعة من العمر، ومدى أهمية هذه القصص. في معظم الحالات تكون نبرته استذكارية، إنما في حالة الفردوسي يغدو أحياناً معقود اللسان. يكتب في نقطةٍ ما: «أحببتُ الفردوسي منذ البداية. في رأيي إنه أعظم إيراني على وجه البسيطة، و«*الشاهنامه*» خاصته لا نظير لها. إنها تعكس حبه للبلد، وإخلاصه، وصدقه. لا أحدَ يعلّم النزعة الإنسانية، والشفقة، والطيبة أفضل منه. . . كل إيراني ينبغي أن يجلّه. أريد أن يتعلم أولادي حب الوطن، والإنسانية، وأن يفهموا قيم الإيرانيين القدماء جداً. كان أبطال الفردوسي جميعاً يخافون الله وإنسانيين. لم يمدح الفردوسي مستبداً قط، ولم يهبْ أبطاله صفات شريرة».

وعلى مدى برهةٍ يتمكن من مناقشة الفردوسي ساعاتٍ طويلةً مع زميلٍ له في السجن، وهو الجنرال بهارماست، الذي كان يُدعى الجنرال الفردوسي. اعتُقل الجنرال بتُهم التحرش، إنما، بحسب ما قاله أبي، جريمته الحقيقية هي أنه كان المستشار القانوني لـ حجي طيب، مدير سوق خضار طهران، الذي أُعدم لمؤازرته آية الله خميني خلال انتفاضة الخامس من حزيران (يونيو).

أناس غرباء ما فتئوا يدخلون ويخرجون فجأةً صفحات يومياته: رسام موهوب يصبح معلماً لأبي، وثمة شاب لديه أربعمئة صديقة اتُّهم بقتل واحدة منهن، والسجين المحبط الذي شنق نفسه، وهنالك الأمريكي الذي اعتُقل لأنه قتل زوجته. يذكر أبي رجلاً يعود إلى الحياة في المشرحة؛ بدلاً من أن يرعاه موظفو السجن يطيلون التفكير

في «الأعجوبة» بإعجاب خبيث إلى أن يموت الرجل المسكين من البرد. ويتذكر كيف، في الحجرة ذاتها التي كان محتجزاً فيها، وهي متاخمة للمشرحة، كان قد زار منذ سنوات ماضية سجيناً آخر بارزاً. يشكو عادةً كيف أن الناس ما برحوا يقولون له - غالباً من باب المواساة - إنه سعيد الحظ بأن يكون في السجن. («تقول لي نزهت إنني محظوظ بأن أكون هنا وألا أعمل مع الحكومة الجديدة!» «يقول لي رحمن إنني محظوظ لأني في السجن، فلولاه لكنتُ ربما في عداد المقتولين!») هو نفسه اعتاد أن يخبرنا كم هو سعيد الحظ لأنه لم يكنْ عضواً في المعارضة الراديكالية أو أن يكون على غرار بعض نزلاء السجن الآخرين، من دون اسم بارز ومن دون مال، حيث كانوا يعلقون أملهم على الله والله وحده. وبينما أنا أقرأ يومياته في السجن لا أستطيع أن أتمالك نفسي عن التفكير - بنفس الشعور من السخرية واليأس - كيف كان السجن بالنسبة له نعمةً متنكرة.

الفصل السادس عشر

امرأة ذات سيرة

مهما كان أبونا في أذهاننا - وقد كان دوماً في أذهاننا - وجب علينا أن نعيش حيواتنا الخاصة، وفي الحال غدا الواقع الجديد جزءاً من وتيرتنا. نزوره وبعدها نتركه وراءنا، كمريض ميئوس منه. كان جل نشاطنا يتركز عليه، غير أن كل واحدٍ منا بطريقته الخاصة كان يشق حياته. «*الحياة من دون أبي*» سيكون عنواناً مؤثراً لهذا الجزء من قصتي. بمعنىً من المعاني شعرتُ بأني تيتمتُ، أو تيتمتُ فعلاً، لأن مصيره، كمصائرنا، معلّق بخيط. كتب أبي في الصفحات المبكرة من يومياته: «أشعر بالأسف على آذر. في هذا العمر حيث تكون في حاجة إلى روحٍ تتعاطف معها وإلى الارشاد، وهي ذي وقد تُركت وحيدةً. إنها لا تنسجم مع أمها. منذ أن كانت في سن السادسة أو السابعة سعيتُ بكل ما أُوتيتُ من قدرة إلى إحلال السلم بينهما، لكن ذلك لم يُجدِ نفعاً. الحقيقة هي أنني حمّلتُ آذر عبئاً كبيراً وضغطتُ عليها كثيراً. لسوء الحظ لا تعرف نزهت أن الطفل، أي طفل، يحتاج إلى أن يتصرف بطريقةٍ صبيانية وأن الشاب يحتاج إلى أن يتصرف بشبابية. إنها تعامل ابنتها بالطريقة ذاتها التي كانت تعاملها فيها زوجة والدها. إن لم تكنْ معرفتك أفضل فربما تظن أنها ليست أمها».

كنتُ مجبرةً على مغادرة طهران في ذلك الشتاء. أعادتني أمي إلى

المدرسة على الرغم من تضرعاتي، واعتراضات أبي، والحقيقة التي مؤداها أن بوسعي أن أدرس دراسة مرموقة بمساعدة مدرسين خصوصيين في طهران. القناعة الوحيدة التي نلتها هي أنني بدلاً من المدرسة السويسرية المقتنعة بتفوقها وزبائنها من الطبقة الراقية، أرسلوني بالباخرة ثانيةً إلى لانكستر الرثة، والرمادية. وبعد شهرين أو ثلاثة من عودتي كسرتُ عمودي الفقري أثناء محاولتي النزول من غرفة نومي الكائنة في الطابق الثاني - كانت غرفتي مباشرةً فوق منطقة معيشة (سكبر) وكنتُ أحب رؤية التعبير المندهش على محيا حارسي وهو يراني أنزل أمام نافذته. وجب عليَّ أن أرقد في السرير في البداية في المستشفى ومن ثم في المنزل، طوال نحو ثلاثة أشهر. وحينما عدتُ إلى الوطن صيف ذلك العام، كان عليّ ملازمة الفراش.

أقنعتُ (سكبر) ألا يرعب أمي بأن يخبرها بالحادثة بصورةٍ مباشرة. وبدلاً من ذلك، اتصل بالخالة نفيسة أو الخالة مينا - لا أتذكر أيهما. وادعى رحمن أنه قبل أن تصل إليه الأنباء كان يعرف أصلاً بتلك الحادثة. يبدو أنه أخبر أمي، مفضلاً استخدام صيغة التحبب: «سأقول لكِ شيئاً عن آذي. وقع لها شيء ما، لكنني لا أريدكِ أن تكوني مرعوبةً». الأمر الذي جعلها مرعوبةً جداً بحق. التقط حقيبتها اليدوية وجعلها تسقط على الأرض، وهو يقول: «ما جرى لها هو أشبه بسقوط هذه الحقيبة. ستكون على ما يرام، إنما عليكِ أن تعيدي الطفلة إلى الوطن. إنها تحتاج إلى أمها»، أضاف، بصورة شديدة المكر - لم يقلْ تحتاج إلى والديها، بل إلى أمها. «إنها تحتاج إلى إشراف أمها الحكيم».

وهكذا عدتُ، إنما ذلك قلما يعني أن كل شيء سيسير على وفق خططي. من دون والدي كوسيط، سنحيا أنا وأمي معاً في قرابة غير

مخففة. إذا ما وددتُ الذهاب خارج المنزل فعليَّ أن أتوسل وأترجى. كانت الهستيريا تساعدني على تحقيق ما أرومه، أو حتى عندما أفقد الوعي - أو شيء من هذا القبيل يبرهن على عمق تعاستي. عندئذ ستسمح لي بالذهاب. ذات مرة، حينما رفضت السماح لي بالذهاب إلى حفلةٍ ما، أخبرتها أن المضيّف يتيم وسيشعر أنني أزدريه إذا ما تغيبتُ عن حضور حفلة توديعه. كان حقيقياً أنه يتيم إلا إنه لم يكن يضمر مثل هذه الأنواع من الغيرة التافهة وفي الواقع تمتع بقصة كيف لانت أمي وسمحت لي بالذهاب ليس لألهو بل لأهدئ المشاعر الحساسة لطفل يتيم. كان المرض والتعاسة يجعلانني دوماً أكتسب نقاطاً إضافية.

في هذا الوقت اعتدنا أنا وأخي على نزعات أمي: على غرار متعاطي المخدرات، كنا نحتاج إلى جرعة من الدراما كي نتقدم. حينما كانت تزعق وتتهمنا بجرائمنا المتنوعة نغدو هستيريين، وكنا نصرخ، ونمزق ثيابنا، وحتى إننا حاولنا أحياناً أن نلحق الأذى الجسدي بأنفسنا. وبينما كنا قلقين بصدق على أبينا، كانت تبدو وكأنها تبني نجاحها على احتجازه. كانت لديها قناعة، وكانت مغرمةً جداً بالمستبدين، وبالحالة الدائمة من الطوارئ. ولاحقاً، بعد (الثورة الإسلامية)، اعتدتُ أن أمزح قائلةً إننا هيأنا أنفسنا لزمنٍ كهذا من خلال العيش مع أمنا. إن المسألة المتعلقة بحالٍ كهذا ليس أنكَ لا تستطيع القيام بما ترغب - غالباً تكون قد قمت به - بل المجهود الذي تبذله كي تسترضي أو تقاوم الآلهة المتحكمين، المجهود الذي يجعلك مرهقاً جداً بحيث يمنعك من أن تلهو بحق. حتى يومنا هذا، لا أزال أعدُّ اللهو، أو مجرد أن أمتّع نفسي قليلاً مسألةً تأتي على حساب القناعة التي مؤداها أنني اقترف جريمةً غير مكتشفة.



إنـمـا، كـمـا فـي مـعـظـم الحالات، ثمة جانب آخر من القصة. لا بد أن القلق قد غربل أمي فيما يتعلق بمصير أبي. وعلى الرغم من أنها كانت ترفض رفضاً قاطعاً أن تقلق على أبي، فقد كانت منزعجة باستمرار من



أمي خلال المدة التي كانت فيها عضوة في البرلمان.

الكوارث المتخيلة التي يمكن أن تقع عليَّ أو على أخي. لم يكنْ بوسعي الذهاب لتسلق الجبل لأنه من المحتمل أن أكسر فقرات عُنقي، ولم يعد باستطاعة محمد ركوب الحافلات أو الذهاب إلى مباريات كرة القدم التي كان يحبها إلى درجة العبادة لأنه من المحتمل أن يخطفه أعداء أبي. ومن ثم كانت هنالك مسألة وظيفتها. فهي الآن في

البرلمان، ولأول مرة في حياتها كانت لديها وظيفة (باستثناء المدة القصيرة التي عملت فيها في المصرف)، وهو شيء يبرهن أن طموحات حياتها لم تذهب سدىً. لكن لحظة نصرها كانت قد أُصيبت بالكسوف بسبب وضع أبي. وكانت جل أنشطتها في البرلمان قد تحددت بمعرفة - من ناحيتها هي ومن نواحي الآخرين كلهم - أن والدي نزيل في السجن. نصح الجميع، بمن فيهم مديرة مدرستي السابقة الدكتورة بارساي، وهي عضوة البرلمان الآن، أمي أن تتوخى الحذر، وأن تبتعد عن الأضواء. شكت من هذه الوصايا التي قُدمت إليها، ونادراً ما أصغت إليها. في الواقع، كلما وجدت الفرصة سانحةً كانت هي العضو الأكثر صراحةً من المعارضة. هل كان هذا علامةً أخرى تنم عن تجاهلها الأناني وضع أبي، كما كان يدّعي عدد غفير من الأصدقاء والأقارب؟ أم أن ذلك انعكاس لإحساسها بالكمال، وإصرارها على القيام بالشيء الصحيح، مهما كان ثمن ذلك؟ في اعتقادي ربما يكون الاحتمالان صحيحين.

في غياب أبي أعادت أمي تصميم جلسات القهوة خاصتها. كان هنالك تحوّل تدريجي من النساء الهامسات إلى الرجال بأربطة العنق والبذلات. كانت تترأس، بين الحين والحين، تجمعات خاصة مع صحفيين وموظفين حكوميين بارزين، ممن تطلق عليهم بفخر «أصدقائي من الرجال». (تتباهى بالقول: «إنني أنسجم مع أصدقائي الرجال بصورةٍ أفضل بكثير مقارنة بالنساء»). كان غالبية الرجال يأتون إلى منزلنا لأنهم مهتمون بمصير والدي، مع أن بعضهم كانوا يقبلون لأنها تركت فيهم انطباعاً جيداً. بما أنها التحقت بالبرلمان في خريف سنة ١٩٦٣، أي قبل شهور قليلة من اعتقال أبي، كان بمستطاعها أن

تدّعي أن ارتباطاتها السياسية ناجمة عن دورها الشعبي. وعدّت الجنرال بكروان، الرئيس السابق لوزارة الإعلام، بوصفه واحداً من أصدقائها. وكان باستطاعتها أن تتحدث عما قاله لها الشاه، وكيف تجادلت مع الشاه، وعن كيت وكيت مما دار بينهما.

كانت جلسات القهوة هذه مختلفةً عن ساعات قهوة صباحات الجمع الأكثر عفويةً وضجيجاً، حينما كان السيد خليقي يقفز من السياسة إلى الأدب. ولسبب واحد، كانت تلك الجلسات تعي ذاتها أكثر. كان هنالك صحفيون من مثل سافيبور، أو السيد ميشغين ذو العقلية الجادة. أقبل محامون مرموقون من مثل السيد بهداد، السيد عويسي، والسيد صادق وزيري، الذين أصبحوا فيما بعد محامي أبي؛ موظفون حكوميون؛ وأعضاء من البرلمان. في هذه الجلسات كان الرجال يجلسون باستقامة، كأنهم طلاب مدرسة يتوقعون أن يتم استدعاؤهم بين لحظةٍ وأخرى. كانت أمي تتكلم بولعٍ كبير، مطلقةً النار على الحكومة بدءاً من رئيس الوزراء، الذي كانت متيقنةً من أنه مُسند من البريطانيين والأمريكيين معاً (بالطبع، نحن نعرف من هو خلف هذا الرجل النبيل)، إلى السلطة القضائية (اللصوص الحقيقيون، من الوزير نزولاً). تحفظتْ على أقسى انتقاداتها للجنرال نصيري، الرئيس السابق لجهاز الشرطة، الذي كان يتولى الآن مسؤولية منظمة الاستخبارات الإيرانية المخيفة (سافاك)، وبيراسته وزير الداخلية، الذي كان العدو رقم واحد لوالدي. كانت على يقين أن هذين الاثنين هما المسؤولان الرئيسيان عن تلفيق القضية ضد أبي. تقول: «لستُ خائفةً من هذين الجبانين، من هذين المجرمين ضعيفي العقل».

أما السيد أميراني فلم يأتِ سوى مرة واحدة، أو ربما مرتين،

وحده في المناسبتين. كان محرراً لمطبوع مؤثر اسمه «*خاندانيها*»[1]. (ربما تركت فيَّ الصحف انطباعاً قوياً جداً من خلال تذكري إياه). ففي مقالاته الافتتاحية كان جسوراً في نقده العنيف للحكومة. وقد قيل إن الشخص الوحيد الذي استثناه قلمه هو الشاه نفسه. صمم السيد أميراني على الوقوف إلى جانب والدي، وحتى أحياناً نشر بعض كتاباته. لا أتذكر أنني رأيته شخصياً حينما كان أبي في غرفة مكتبه، لكننا سمعنا عنه ومنه مرات كثيرة ما إن تم اعتقال والدي. تساءل أبي في يومياته: «إذا كان بالمستطاع أن يكتب المرء على غرار أميراني، فلم لا يحذو الآخرون حذوه؟ وإذا كان ذلك مستحيلاً فكيف يكتب هو إذاً بهذه الطريقة؟» نشر مطبوع «*خاندانيها*» مقالةً افتتاحية دفاعاً عن والدي أثارت سجالاً كبيراً. يذكر أبي في يومياته أن بيراسته أعطى أميراني عشرة آلاف *تومان* كي ينشر موقفه الشخصي من القضية، لكن أميراني رفض ذلك. واصل نشر ما يرسله أبي من السجن وكذلك استمر في دفاعه عنه. كان أبي قلقاً جداً بخصوص مسألة مساومة أميراني مراقبي المطبوعات بشأن سطرٍ ما في إحدى المقالات. فبالنسبة لأبي ما هو غير مكتوب، ما حُذف، أصبح أهم مما نُشر.

كان السيد أميراني نحيلاً، يكاد يكون أصلع، ذا عينين يقظتين تحدقان إليك من وراء نظارتين بإطارين أشبه بقرنين. كان وجهه نحيفاً وحاداً، مما أضفى عليه مظهر العالِم. ذكّرني ببوم هزيل. كانت أمي فخورةً جداً بصِلتها به - كانت تصرّ على أنه كان (صديقها)، وادعتْ

---

(١) وردت بالفارسية في النص الإنكليزي، كما يلي: Khandanyha، وتعني: المقروء.

أن دعمه لأبي ناجم عن تأثيرها عليه. تكاد تكون لاذعةً، الطريقة الصبيانية التي تنافست فيها مع والدي على هؤلاء الرجال المؤثرين. بعد سنوات شاهدتُ وجه أميراني النحيف، والحاد بجنب وجه الرئيس السابق لجهاز الأمن، الجنرال بكروان، الذي أنقذ آية الله خميني بعد انتفاضة الخامس من حزيران (يونيو) ١٩٦٣. وكلاهما أعدمه نظام خميني الإسلامي.

كانت هذه اللقاءات دوماً تجعل أمي تعمل بنشاط، وغالباً تكون نشيطةً بصورةٍ خطيرة. عادةً بعد تلك اللقاءات ترفع الهاتف وتعطي أيَّ شخصٍ يصغي إليها عينةً من وجهة نظرها. تقول: «ربما هو ليس بالزوج المثالي، إلا أنه أب حنون، أب متسامح، ورجل ذو مبادئ». تدير قرص الهاتف وتتصل برقمٍ ما وتقول بصورةٍ استفزازية: «أعرف أن أتباع السيد نصيري الأمناء يتنصتون، دعني إذاً أخبركم أيها المجرمون، الجزّارون، ملوّثو سمعة النساء...» أياً كان هذا الشخص الذي اتصلت به يحاول أن يهدئها، لكنها تستمر في كيل النعوت. فيما بعد، يزور الناس أبي في السجن ويطلبون منه أن يكبح زوجته، قائلين إنها كانت السبب في إطالة مدة عقوبته. إلا أن أمي لم تكنْ لتُكبح. كل شخص يمررها إلى التالي، كمادة متفجرة خطيرة، آملاً أن تنفجر في مكانٍ آخر.

تقول لي بصورة ملَغزة ذات صباح: الناس يدفعون ثمن أفعالهم. يبدو أن بيراسته كان يخاطب البرلمان، عدداً قليلاً منهم، بمن فيهم أمي، يطلبون منه باستمرار أن يتكلم بصوتٍ أعلى، أن يرفع صوته. التفت إلى أمي بابتسامة متكلّفة وقال: «إذا كنتِ صبورةً كفايةً فسوف يرتفع [هو] في الوقت المناسب»، وهو يقوم بتلاعب لفظي بالفارسية

في كلمة «يرتفع» في إشارةٍ إلى عضوه الجنسي. سبّب هذا ضجيجاً في المبنى. تعطلت الجلسة، والتفت الجميع معتذرين منها. وسرعان ما كتب السيد أميراني مقالةً لاذعةً جداً حول هذه الحادثة، وطوال أيام قليلة كنا جميعاً نتنعم بمجد هذا الخطأ الفاضح.

غالباً ما يدور في ذهني أن السنوات التي قضاها والدي في السجن - خلال معظمها كانت أمي عضوةً في البرلمان - هي من بين أفضل سنوات حياتها. كانت أمي تأخذ وظيفتها بمنتهى الجد: وقد جلبت لها نفس الضراوة والعزيمة اللتين جلبتهما لكل شيءٍ قامت به. كانت فخورةً جداً بالحقيقة التي مفادها أنها انتُخبتْ سكرتيرةً للبرلمان. يدّعي أبي أن زملاءه السابقين كانوا مندهشين من أن نزهت أخذت وظيفتها بمنتهى الجد، ذهبت إلى ناخبيها في مدينة (بافت) الصغيرة في محافظة كيرمان وحفزتهم بنقدها لإهمال الحكومة مع وعود بإجراء تغييرات جذرية تهدف إلى تحسين أحوالهم المعيشية. اعتادت أن تقول إنه بينما منعها القدر من أن تمتهن الطب، فهي الآن على الأقل لديها الفرصة كي تُظهر نشاطها الحقيقي. كان السيد حسن علي منصور رئيس الوزراء الجديد من بين أوائل الذين اختبروا هذا النشاط.

اشتبه أبي أن أنداده، وبخاصة منصور، قد تصوروا أن أمي ستكون شاكرةً لمهنتها في البرلمان وأنها ستغدو أداةً طيّعةً في أيديهم. كم كانوا مخطئين! كانت مولعةً بإخبار الناس بتلك الحادثة حينما دُعيت مع زملاء آخرين إلى مأدبة غداء مع الأميرة أشرف، أخت الشاه التوأم القوية، التي يقال إنها ذات علاقة وثيقة ببعض الأشخاص (بمن فيهم بيراسته وباهري وزير العدل) الذين أودعوا أبي السجن. تقص أمي بزهو كيف أنها حينما طُلب منها أن تجلس إلى مائدة الأميرة رفضت بصوتٍ عالٍ. لماذا يكون تناول الطعام معها شرفاً؟ سألت زملاءها الذين أعتقد

أنهم حتماً بذلوا كل ما بوسعهم كي ينفصلوا عنها أسرع ما يمكن.

في سنة ١٩٦٢، قبل أن يصبح منصور رئيساً للوزراء، رشح نفسه للبرلمان، وتم انتخابه كثاني ممثل عن محافظة طهران، بعد عبد الله ريازي، الناطق الرسمي للمجلس التشريعي. وقد انتُخب ضمن لائحة مرشحي (التحالف التقدمي). وجاء أول فعل من أفعال تحدي أمي حينما شكّل منصور حزباً جديداً اسمه: (إيران نوفين). توقع أن ينضم أعضاء من البرلمان إلى حزبه، الأمر الذي فعله السواد الأعظم منهم، وجعلوا منه زعيم الأغلبية. لم ترفض أمي الالتحاق بـ(إيران نوفين) فقط، بل تأكدت من أن رفضها أُعلن عنه بشكل جيد. كانت تفتخر بأنه حين أوحى منصور أن الشاه نفسه كان مهتماً بدعمها الفاعل لـ(إيران نوفين)، أجابت قائلةً: إذا كان جلالته يرغب في أن يبعث رسالةً إليها، فبوسعه أن يفعل ذلك مباشرةً.

لم يستمر منصور كزعيم للأغلبية في البرلمان مدةً طويلةً. فقد خلّف عَلَم كرئيس للوزراء حينما استقال الأخير من منصبه سنة ١٩٦٣. ومنذ البداية، كانت حكومة منصور مثار جدل. فبعد أن تولى منصبه بوقتٍ قصير رفع سعر البنزين كي يسد العجز في الموازنة، فأضرب سائقو سيارات الأجرة محتجين ونجم عن ذلك استياء شعبي اضطره للتراجع عن قراره. في خريف ١٩٦٤، جلبت حكومة منصور لائحة مثيرة للجدل إلى البرلمان سُميت: قانون الامتيازات الأجنبية، الذي أعطى حصانة دبلوماسية للعسكريين الأمريكيين، وجعلهم بمنأى عن السلطة القضائية للمحكمة الإيرانية المختصة بالأفعال المدنية والجنائية. رفضت أمي وآخرون قليلون (كانت تؤكد أنه شخص واحد فقط) تأييد هذا القانون. ادعت بسخط أن أولئك الذين صوّتوا إلى جانب القانون لا يفتخرون ببلادهم. في البدء البريطانيون والآن

الأمريكيون. وليس من الغرابة أن يُزج الرجال النزيهون الذين ليس لديهم صلات بالسلطات الأجنبية في السجون.

أُعجب كثير من الناس بجرأتها في التصويت ضد قانون الامتيازات الأجنبية، لكنها حيّرت السواد الأعظم من الناس حينما عارضت قانون حماية الأسرة لسنة ١٩٦٧. ألغى هذا القانون الطلاق خارج المحاكم، وسمح بتعدد الزوجات في حالات محدودة جداً، وأسس محاكم متخصصة بالنظر في شؤون الأسرة. صدم تصويتها ضد هذا القانون أولئك المدافعين عن حقوق النساء. ناقشت قائلةً إنه شيء كاذب أن يتم تمرير قانون يدّعي حماية النساء اللواتي يشترطن أنهن ما يزلن يحتجن إلى إذن الزوج الموثق لدى كاتب العدل كي يغادرن البلد. كانت راديكالية جداً، أو صلبةً جداً، بحيث لم يكن بوسعها قبول الحل الوسط الذي اقتُرح، وآثرت التصويت ضد القانون على قبول ما عدّته أنصاف الحلول. لقد اختلفتُ معها اختلافاً شديداً بشأن قانون حماية الأسرة، ولا أزال، ومع ذلك لا أملك سوى أن أبدي إعجابي باستقلالها العنيد.

تقول أمي لاحقاً إن بوسعكِ أن تريه قادماً. اقترحت وهي تأخذ نَفَساً عميقاً: «لستُ من معجبي منصور. لقد رفضتُ كل لائحة مفردة جلبها إلى المجلس التشريعي. ذات مرة سعى إلى استمالتي - بطبيعة الحال كان مؤدباً جداً دوماً، ليس على غرار الأحمق بيراسته، الذي لا أخلاق له - أين تربى؟ أخبرتكِ ما فعله في البرلمان، أليس كذلك؟ حينما أهانني؟ رأى الناس بيراسته على حقيقته. إنما منصور كان مختلفاً. إنه رجل نبيل (جنتلمان)، وجذاب دوماً. أنتِ لا تعرفين أين وقفتِ معه».

واستطردت قائلةً: «كنتُ قد تركتُ البرلمان، وجرى ذلك في مخزن المعجنات. أتذكرين كم كنتِ تحبين فطائر الكريم المنتفخة؟ كان صاحب المخزن مولعاً بكِ أيما ولع. أتذكرينه؟» «أجل، ماما، السيد تاجبخش». «كانت لديه دوماً فطائر كريم منتفخة مجانية لكِ. كنتُ واقفةً هناك عند النضد (الكاونتر)، أتحدث مع تاجبخش، حينما سمعتُ أحدهم يقول: [هل يمكنني أن أتدخل؟] رأيتُ السيد تاجبخش يتجمد فجأةً، لذا التفتُّ وإذا بي أرى السيد منصور، إنه يبتسم لي ببسمته الفاتنة. لم تخدعني بسمته. يقول: «هل يمكنني أن آخذكِ لحظةً عن هذا النشاط المهم جداً؟» قلتُ له: «لا بد أنه شيء مهم». يأخذني إلى الباب ويسأل: [هل يمكنني أن أنال سعادة مصاحبتكِ في تناول الغداء؟] أقول له: [لا، لا يمكنكَ.] ربما كان زعيم الأغلبية، إنما لم يكنْ يشرفني بالضبط لأنه يريد أن يتناول الغداء صحبتي. أقول: [إن كان ثمة شيء تود أن تخبرني به، أرجوك أخبرني به هنا تحديداً.] وهكذا نقف هناك، خارج الباب مباشرةً. يقول: [كنتُ أفكر فيكِ دوماً كصديقة.] أقول له: [حسن، لديكَ طريقة غريبة في إظهار صداقتك.] يقول: [أحمد لا يساعد على حل قضيته، إنه يرغب بخلق أعداء له.] لا أتفوه بكلمة وأقف هناك أنظر إليه. أتعرفين نوع النظرة التي ألقيها على الناس حينما أعرف ما يدور في أذهانهم؟» «أجل، ماما، أعرف». «بطبيعة الحال، لقد تربيت في كنف السياسيين - والدي حينما رشح نفسه عن محافظة كيرمان، وسهم سلطان. . . .

«ومن ثم أقول: [أتيتَ، إذاً، إلى هنا كي تهين أسرتي؟ تريد أن تقول إن زوجي مسؤول عن أكبر خدعة في تاريخ البلاد] - لأنها كانت خدعة، إذ اتهموا أحمد باختلاس المال من تلك المؤسسة المفلسة، أو

ادعوا أنه تآمر ضد الشاه. مهما فعله والدكِ بي»، قالت وهي تخاطبني: «كنتُ دوماً عادلةً معه».

«يقول برقة: [نزهت جان، إنني أتحدث إليكِ ليس بوصفكِ زوجته، إنما كزميلة، زميلة محترمة. دعينا نضع أحمد جانباً لحظةً. لِمَ لا نعمل معاً؟] والحق كان بوسعي أن أعمل معه. لو كنتُ أرغب في ذلك لكان بوسعي أن أكون نائبةً في البرلمان مرةً ثانية. كان الشاه منحازاً جداً إلى جانبي. تركتُ ذلك كله. تخليت عنه لأن كبريائي لا تسمح لي بألا أناصِر زوجي! ما كنتُ لأهتم بهذه التضحية، سواء تم تثمينها، أو على الأقل الاعتراف بها... المسألة وما فيها، هي أنني فقط رفضت الإذعان له وقد أغضبته، على الرغم من أنه حاول التغطية على ذلك، ومنذ ذلك اليوم فصاعداً نادراً ما تكلم معي، ولم يقترب مني ثانيةً. وهذا الواقعة الآن!»

وعندما قالت أمي «وهذه الواقعة الآن»، كانت تشير إلى اغتيال منصور على يد رجل يُدعى محمد بوخاريي، وقيل إنه انتسب إلى (تحالف الجمعيات الإسلامية)، وهي مجموعة تشكلت بوصية من آية الله خميني سنة ١٩٦٣. كان هؤلاء يتلقون الدعم والتشجيع من علماء دين رشحهم خميني لهذه المهمة، ومن بينهم تلميذه وتابعه الموثوق به مطهري، وبعض ممن أصبحوا في المستقبل قادة الثورة الإسلامية من مثل رفسنجاني وبهيشتي. كانت هذه المجموعة قد وضعت عدداً من الأشخاص على لائحة الاغتيال، ومن بينهم الشاه؛ ثلاث عشرة شخصية بارزة في حكومته؛ طبيبه الشخصي، الجنرال أيادي، قيل إنه استُهدف لأنه بهائي؛ الجنرال ناصري، الرئيس الجديد للمخابرات؛ أحد عشر موظفاً حكومياً مدنياً، ومحررو الصحف الذين شنوا هجوماً على رجال الدين وخميني. سُحقت انتفاضة الخامس من

حزيران (يونيو)، وليس المعارضة الدينية التي قادت تلك الانتفاضة.

من يوميات أبي: «الجمعة، الأول من بهمن ١٣٤٣ (الثاني والعشرين من كانون الثاني [يناير]، ١٩٦٥ م). سمعت اليوم قرابة الظهيرة أنهم أطلقوا النار على منصور. في بادئ الأمر لم أصدق ذلك. ففي هذه الأيام، لسوء الحظ، كانت الشائعات المتعلقة بالحكومة كثيرة جداً. لكن سرعان ما تم تأكيد ذلك النبأ. قالوا إنه في نحو العاشرة صباحاً، أطلق شاب أربع رصاصات عليه. يبدو أن العيارات النارية لم تكن قاتلة. وقد أعلنوا اليوم من المذياع أن طبيبه يقول إن ضغط دمه مرتفع، وسيستعيد صحته في غضون شهر. شعرت بأسف شديد عليه... لم يكن رجلاً سيّئ الطبع، ولم يشأ أن يخون بلاده، وكان لديه سبب وجيه لخدمته، بيد أنه كان قليل الخبرة، وكان طموحاً وعجولاً...»

وبعد أيام قليلة يكتب أبي: «حسن علي منصور، رئيس وزراء إيران الشاب، بعد أسبوع من الغيبوبة، والألم الشديد، غادر عالمنا في يوم الأربعاء، السابع من بهمن، ١٣٤٣ (السابع والعشرين من كانون الثاني [يناير]، ١٩٦٥ م). قبل ذلك بيومين كانت قد انتشرت شائعات تفيد بأنه كان قد مات. ففي بلد لم تكن حكومته نزيهة وصريحة على الإطلاق مع شعبها، كانوا يبقون الأنباء الحقيقية في طي الكتمان، وتحل الشائعات محل الحقائق. كان جلياً منذ البداية أن الرصاصات كانت قاتلة، لكن حتى يوم قبل رحيله كانت نشرات الأنباء الجديدة تزعم أن صحته تتحسن. وفي يوم الاثنين وصل بهم الحد أن زعموا أنه قد تجاوز مرحلة الخطر».

وفي يومياته يصف أبي كيف وقف إلى جوار نافذة غرفته، التي

كانت تنفتح على الرواق المؤدي إلى المشرحة، منتظراً وصول جثمان منصور. «جعلني موته أشعر بالأسف، وأستدر الدموع من عينيَّ. لم أنم طوال الليل. . . قبل سنة ونصف كنتُ أنا وهو من بين أبرز الشبان في هذا البلد؛ وكانت عيون الحاسدين الكثيرين، وعيون بعض الطموحين مركزة علينا نحن الاثنين. أما اليوم فواحد منا زُج في السجن بفضل المنافسين عديمي الحياء وجماعاتهم الخبيثة، وعلى مسافة ثلاثة أمتار منه يسبح الآخر بدمه، وجسده البارد محشور في الثلاجة الواقعة في الزاوية. هو ذا درس لنا نحن الاثنين. كان من المؤمل أن نكون نحن الاثنين نافعين لبلادنا».

بعد ذلك، ظلت صورة منصور تلازم أبي. كان اغتيال منصور شيئاً لا يُصدق، وهو الشخص الذي عُدَّ وافر الحظ، وكان يبشر بالأمل، وأثار قدراً كبيراً من السجال خلال الحقبة الزمنية القصيرة التي تولى فيها منصب رئيس الوزراء، وقورن مراراً بالشاب الوسيم جون ف. كيندي. حُوّل قبره إلى ضريح، وبعد الثورة الإسلامية، سُوّي قبره بالأرض، شأنه شأن أضرحة كثيرة، من بينها ضريح رضا شاه، وكان النظام الإسلامي وراء هذه الأفعال.

الفصل السابع عشر

زواج مناسب

يكتب أبي في يومياته في خريف سنة ١٩٦٤: «جاءت نزهت لزيارتي. ومرة أخرى، كانت متوترة وقلقة. لماذا لا تغادر آذر إلى بريطانيا؟ لماذا زجوا أبي في السجن؟ لماذا لا يدور العالم في صالحنا؟ كانت نزهت واحدة من أولئك الناس الذين فضّلهم الله على الآخرين، وتعتقد أنها لا ترتكب الأخطاء. كلما تقع أحداث سيئة، تعتقد نزهت أن ذلك بسبب الأخطاء التي يقترفها الآخرون. وفي حالتي هذه تعتبرني الجانب المذنب». كانت نبرته، عندما يكتب عن الشاه وموظفي الحكومة الآخرين، مليئة بالتحدي المصطبغ بالسخط، أما عندما يكتب عن أمي فمن المؤكد ثمة إحساس بخيبة الأمل يتسلل إلى صوته.

«منذ اليوم الأول من اعتقالي كنت سعيداً بفكرة أن نزهت ستكون معاقَبة، وسوف تستغني أخيراً عن الوهم بأن العالم سيكون في خدمتها. وقد ظننتُ أنها عندما تراني في السجن، ستفهم ما لم أستطع أن أُفهمها إياه عندما كنت حراً. لكنني اليوم فهمت أنها بعد أن عشتُ حياتي، ووجودي كله معها - ليس فقط أنها لم تتعلم شيئاً قط بل إنها تعتقد أنني في أفضل الأمكنة، وأنني مدين لها كثيراً جداً».

هناك عدد كبير من الرجال يستخدمون زوجاتهم وأفراد أسرهم

لأغراض سياسية، أما والداي فكانا يُصنفان باختلافاتهما بحيث كانا يأملان أن تحل حياتاهما السياسيتان مشكلاتهما في المنزل. وذات مرة سمعت أبي يقول لأحد أصدقائه إن علاقته بأمي كانت تذكّره بقصة كتبها فريد الدين العطار، الشاعر الفارسي الصوفي الذي عاش في القرن الثاني عشر الميلادي، عن رجل ركب بلا خوف ولا تردد على ظهر نمر مفترس. وعندما لاحق الراوي هذا الرجل الشجاع إلى بيته، صُدم عندما رأى كيف كان يرتعب بسهولة من زوجته. كيف يستطيع رجل لا يهاب من حيوان مفترس أن يكون خائفاً أشد الخوف من زوجته؟ فردّ عليه مضيفه بسرعة قائلاً: [لولا ما يحدث في البيت لما كان بمستطاعي أن أركب على ظهر النمر].

«أنت هنا بمنأى من المشاكل كلها، تفعل ما تشاء، بينما يقع العبء كله على كاهلي»، تقول أمي من دون سخرية. هذا كله جعلني أنا وأخي شديدي الحرص على أبينا. كنت أشتري له ما يشاء، وأمتدح الهدايا التي ابتاعها لأمي، وكنت أواسيه. كنت أعدّ له الكعك، وكتبت له ملاحظات تضم جملاً قصيرة تبيّن كم كنت فخورة به. كذلك كذبت عليه عندما أخبرته أن الأمور كانت تجري على قدم وساق في البيت - مقولات كانت تتناقض حالاً مع ملامحي الحزينة جداً، ومع شكاواي شبه الواضحة.

وكتب في يومياته أيضاً: «طلبت مني نزهت اليوم أن أقول لآذر أن تقلل من زياراتها لي. هل سمع أحدكم بشيء مضحك أكثر من هذا؟» وتساءل كيف أصبح «ليس زوجها فحسب، بل صديقها، مستشارها، محاسبها، وفي الواقع خادمها». كان يكتب لها القصائد، كانت تتجاهلها. أما أنا فقرأتُها بتوق شديد، وجمعتُها.

كنتُ في الخامسة عشرة عندما طلبت أم بيهزاد ساري يدي للزواج. كان زوجها الذي توفي منذ زمن قريب قاضياً محترماً، وكانت لها، على العكس منا، أسرة منظمة جداً. كانت، حقيقة، أماً متسلطة، تحكم أسرتها بقبضةٍ من حديد. كانت لأمي أصدقاء، وكان لأبي صديقات، وكان معجباً بشخصياتهن المميزة وقوتهن. كانت بروين دولت أبادي، وهي شاعرة معروفة، واحدة من هؤلاء النسوة؛ وكانت السيدة ساري، أم بيهزاد، امرأة أخرى من أولئك النساء. كانت مسرفة جداً في الأناقة، وكانت ذات شخصية مميزة إلى حد بعيد، وهي متسلطة، وحريصة على توكيد تفوّقها على الآخرين، وهاتان الصفتان لا تروقانني، وربما يرجع ذلك إلى أنني اكتشفت فيها ما رأيته في أمي: الرغبة في السيطرة على الآخرين - الفرق الوحيد بينهما أنها ناجحة جداً مقارنةً بأمي. كانت من طراز البشر الذين يصعب معارضتهم أو مقاومتهم. كان أفراد أسرة (ساري) يكرّسون جل اهتمامهم على منزلتهم الاجتماعية، ولعلهم يبالغون في هذا الأمر، غير أنهم، عموماً، كانوا أناساً طيبين.

عندما طلبت يدي للزواج نيابة عن ابنها، كان أبي ما يزال محافظ طهران. كانت العلاقات بين أسرتينا قد توطدت منذ وقت قريب، وكنا نراهم بانتظام، مرةً أو مرتين في الأسبوع. كان بيهزاد شاباً في السابعة والعشرين، لا هو بالوسيم ولا بالقبيح، وقور، ومجدّ في عمله. كان أبواي يعتقدان أنه سيعاملني بما يُسمى: الاحترام. لم يكن لدي تذمّر حقيقي من الزواج منه، عدا أنني كنت أعتقد أنه بليد، ولم أكنْ أحبه. وعلى الرغم من ذلك لم يقف والداي ضد الزواج، أغلب الظن بسبب علاقاتنا الحميمة مع أسرته. وتركوا الأمر معلقاً في الهواء، الأمر الذي كان يعني أنهما أخبرا السيدة ساري، بأدب جم، أن القرار الفصل

متروك لي، وكنت يومذاك يافعة جداً على اتخاذ قرار كهذا، لكنهما شجعاها على الاعتقاد أن رغبتي يمكن أن تتغير بمرور الزمن.

وعندما أُودع أبي السجن، كانت تلك المسألة في صالح بيهزاد، فقد كانت أسرته لا تزال ترغب في أن يتزوج ابنها مني. كان وفاء بيهزاد قد أصبح حسنة الآن حيث كان أبي قد أصبح مكروهاً. دُعيت إلى منزلهم، حيث تبادلنا الهدايا الصغيرة، وخضعت إلى إطراء مفرط. «دأبت على الاعتقاد أنهما شفتاها، لكن انظري إلى أنفها»، كانت السيدة ساري تقول لابنتها، وهي تلقي عليّ نظرات فاحصة. شعرتُ أنني أشبه بجثة في درس التشريح. وكلما كان بيهزاد يدنو مني كنت أشغل نفسي بابن اخته البالغ من العمر سنة واحدة. كل شيء فيهم كان يسبب لي الضجر والملل، عدا ابن اختهم ذاك، والقصص الممتعة المتعلقة بأخت بيهزاد، التي كان بمستطاعها أن تلعب بيسر دور راهبة سيئة السلوك. كانت ملامحها بريئة، بوجهها المدور، وعينيها الكبيرتين، الزرقاوين الفاتحتين، المسبلتين، وبشرتها الصقيلة كالخزف الصيني، توازنت مع تباهٍ رخيص بالشق الكائن بين ثدييها الذي كان يظهر جزئياً. كانت الشائعات تشير إلى أنها فرّت من بيت أبويها بقصد الزواج من رجل من طراز دون جوان، لكن أمها أعادتها إلى الأسرة ذات التقاليد الراسخة عبر زيجة سريعة، وقوية الآصرة.

أما شقيقها فلم يكنْ يتمتع بأي صفة من هذه الصفات المثيرة. كان مهندساً ناجحاً، متوازناً وصريحاً. ولهذا السبب أحبه والداي. وعندما جاء ذات يوم إلى منزلنا حاملاً باقةً من الورود ليسألني عن ردي الأخير، أُصبتُ بالرعب، وقلت له: «لا أريد أن أتزوج الآن. لا أريد الزواج منك تحديداً، بل إنني بالأحرى غير مستعدة للزواج». أوقفني كما لو أنه لم يسمعني، وقال لي: «لقد كبرت ولا أستطيع أن

أنتظر أكثر، أريد أن أعرف جوابك *الآن. حالاً*». كان التوق في عينيه قد أفزعني.

قبل إلقاء القبض على أبي، كان أبواي مقتنعين بأن يقولا إنني ما زلت صغيرة السن كي أتزوج. وأخبر كلاهما بيهزاد وأسرته أنه بالإمكان أن أتزوج منه في حالة واحدة، وهي أن يُسمح لي بمتابعة تعليمي. لكن فجأة كانت صدمة مواصلة اعتقال والدي قد جعلت الأمور كلها مقبولة ظاهرياً. فإذا كنا نعيش في عالم من الممكن أن تُصنع فيه المصائر، وتُحطم، بصورة اعتباطية جداً، عندئذ يكون بمستطاع البنات اللواتي من المفترض أن يكملن تعليمهن أن يتزوجن وهنّ في سن السادسة عشرة أو السابعة عشرة أو الثامنة عشرة، لا لأنهن مغرمات، بل لأن هناك شاباً لطيفاً من أسرة طيبة قدم عرضاً وعدها فيه بأن يرعاها ويحميها. ما من أحد كان باستطاعته أن يرغمني على الزواج، وكذلك لم يسمح لي أحد بأن أخرج مع الصبيان الذين في مثل سني. ولم يمضِ وقت طويل حتى أعلنت رفضي للزواج منه، وكان رد فعل الاثنين هو وأسرته هو الإحساس بخيبة الأمل، ولكنهما أيضاً تقبّلا الأمر عن طيب خاطر. وفي الحقيقة، كنتُ منجذبةً إلى رجل آخر، على العكس تماماً من بيهزاد. كان طويل القامة، وسيماً، رومانسياً، وواثقاً بنفسه. كان يتكلم بصوت رخيم عن الشعر والفلسفة. والشيء الأهم، كان هذا الرجل مغرماً أيضاً بامرأة أخرى، الأمر الذي جعله آسراً أكثر، ومرغوباً أكثر.

إن معظم النساء يمكن إثارتهن بواسطة النظرات أو الانجذاب، لكن يمكن للحوار أن يغويكِ. عندما قال لي أحد أصدقائي ذلك منذ أمد طويل جداً - كنا جالسين على مقعدين واطئين (ستولين) في أحد

مقاهي طهران بعد الثورة الإسلامية، نأكل سندويتشات لحم الخنزير، التي أصبحت الآن ممنوعة، وتُباع سراً للزبائن الموثوق بهم، ونتحاور حول «*ليلة في الأوبرا*» و«*جوني غيتار*» - كان الحوار آسراً جداً بحيث إنني في تلك اللحظة كنت مستعدة لأن أصارحه، وكان صديقي هذا رجلاً ذا مظهر طبيعي إلى أبعد حد، وأكثر الرجال إغواءً في العالم. وقال لي: «لم ألتقِ يوماً بامرأة يمكن أن تفرح فرحاً كبيراً بحوار عن وُودي ألن».

كان محقّاً. كنت أنجذب بشدة إلى الرجال الذين يثيرون عقلي. بمعنى من المعاني، يمكنني أن أقول إنني ورثت هذه الصفة من أبويَّ. كان أبي يعشق الفلسفة والأدب، وكانت أمي مولعة بإثارة المناقشات السياسية مع «أصدقائها». وأنا أقرأ رسائلي التي بعثتُها من بريطانيا، التي كتبتُها وأنا في سنوات مراهقتي المبكرة، دُهشتُ لأنني حاولت كثيراً أن أترك انطباعاً جيداً لدى أبي عبر التكلم عن الكتب بلغة فخمة تشبه لغة الأساقفة.

كان تحوّلي إلى وودي ألن قد استغرق بعض الوقت. بين سن العاشرة والثالثة عشرة كان نجمي السينمائي المفضل هو يول براينر، الذي كنت أشفق عليه إلى حدٍّ ما بسبب حبه لديبورا كير التي لم تكن تبادله هذه العاطفة - في الظاهر على الشاشة وخارجها. واعتدت أن أجمع صوره. كان أبي يمقت هذا الأمر، وفي ما بعد ظهيرة أحد الأيام، عندما سقطت إحدى صوره التي كنت قد حفظتها بين صفحات أحد الكتب التي كنت أقرأها، جعلني أحضر له جميع صور يول - كما كنتُ أسميه بدافع من ولعي به - ومزقها. وخلال مدة معينة من الزمن كنت (وغالباً أعتقد أنني ما زلت) متيمة بـ ديرك بوغارد، ببسمته الملغَزة، وعينيه اللتين تنظران إلى ما ورائك حينما تثبتان نظراتهما

عليك. ولم يمنعني اكتشافي الفاجع بأنه غير مولع بالنساء من أن أبقى مفتونة به. وبعدها، في وقت معيّن من السنوات المبكرة من عشرينياتي، وقعت في غرام وودي ألن. وكانت زميلاتي في الصف ينظرن إليّ بصدمة وبشيء من الأسف، إلا أنني كنت أحس بأنني أسمى منهن؛ وعلى أية حال، لم يكن بوسعي أن أتمالك نفسي، فالفؤاد يفعل ما يحس به الفؤاد، كما قال لنا الأستاذ نفسه بعد عقود.

عندما وقعت في غرام ميهران أصولي، كنت في مرحلة تحوّل بين يول براينر وديرك بوغارد. أعتقد أن ميهران عجّل من حركتي نحو وودي ألن، مع أن الاثنين يبدوان غير متشابهين على الإطلاق. كان حسن المظهر، وطويل القامة، وله شعر بني فاتح وعينان بنيتان فاتحتان، وصوت جميل ومهدئ. كان يشبه قليلاً لاعب كرة قدم أمريكي، وهو من ذلك الطراز الذي تتأجج في داخله رغبة سرية في أن يصبح كاتباً أو فيلسوفاً عظيماً. بدأ افتتاني به عندما كنت في سن الخامسة عشرة، وكان هو في سن الحادية والعشرين، طالباً في المرحلة الثانية من كلية القانون بجامعة طهران. كان لزوجة أصغر أعمامي حسين أربعة إخوة وسيمون، كانوا جميعاً قد اعتادوا أن يكونوا محبوبين جداً من الفتيات. وكان ميهران يبزهم جميعاً في الجد. كان يبدي ولعاً قليلاً بالألعاب التي تمارسها الفتيات اللائي سحرهن الحب. يمكنني أن أحدد الليلة التي وقعت فيها في غرامه. كنا في منزل أسرته مع العم حسين وزوجته الشابة، منهمكين على الغداء في نقاش ساخن عن (طبيعة الحب). في بادئ الأمر بدا ميهران غير مهتم بالموضوع. بينما كنا نحن البقية نقاطع بعضنا بعضاً باستمرار، كان يستقيم في جلسته، ويدلي بتعليقات منتخبة قليلة. صوته الجميل حبس أنفاسي. وعندما كان الليل يتقدم، بدا لي فجأة كما لو أننا نحن الاثنين كنا المتكلمين

الوحيدين. تطرقتُ إلى (رودبه وزال) بطلي «*الشاهنامه*»، وماتيلدا وجوليان سوريل بطلي «*الأحمر والأسود*»، وعلى حين غرة استشهد ميهران بمثل فارسي شهير. قال: «إنكِ لم تعاني الجوع كي تنسي الحب»، وقصد بذلك أن الحب للمتخمين العاطلين من العمل. وبعدها همَّ بالمغادرة. من وجهة نظري كانت تلك المقولة الدنيوية جداً مليئة بالمعنى الخفي. كنت مقتنعة بأنه وجّهها لي، وأن ما عناه هو على النقيض مما تضمّنه ذلك المثل الشائع.

استمتع ميهران بدوره كبطل رومانسي. وقادني إلى الاعتقاد أنه كان يعيش قصة حب يائسة مع أخت أفضل أصدقائه التي كانت تكبر أخاها سناً. هكذا بدأت علاقتنا: لقد أخبرني بكل التفاصيل المتعلقة بها. كان يحب فكرة الحب غير المتبادَل. كنت طيعة جداً، وبسهولة تأثرت بملاحظاته الحكيمة. وفي الوقت المناسب كان يخبرني بالمرة الأولى التي قال لها فيها إنه يحبها. ما أتذكره ليس قصته التي رواها لي بل الحادثة نفسها، كما لو أنني كنت حاضرة هناك، ألاحظ كل حركة من حركات العاشقين من وراء ستارة غرفة الطعام. بعد الغداء غادر الجميع الغرفة وتركا الاثنين وحدهما. كانت تصدح أغنية حب شائعة - أغنية ما أزال أتذكرها حتى يومنا هذا. إنهما يقفان بالقرب من مائدة حجرة الطعام، ويقول لها عندما كانت تهمُّ بالمغادرة: «مهلاً، لديَّ شيء أود أن أقوله لك». وتراءت لي في مخيلتي أنها تدير رأسها، ربما مندهشة، وربما لا، وعلى ثغرها ترتسم ابتسامة خفيفة. خلال هذه الروايات كانت حبيبته الطيّعة صامتة دوماً، وكانت تتلقى دوماً تودده مشبوب العاطفة.

يبدو لي الآن أن قصصه كانت تجذبني إليه أكثر من ملامحه الجميلة. وخلال مدة معينة من الزمن كنت أراه بانتظام؛ كنا نلتقي في

نزهات أسبوعية نتسلق خلالها الجبال، تلك النزهات كان ينظمها عمي حسين. وخلال تلك السويعات في كل جمعة كنا نتمشى ونتحدث ونحن بعيدان عن الآخرين. وعندما كنت أتسلق بعجلة صخرة صعبة كان يمد يده إليّ كي يساعدني على الصعود. في البداية رفضت مساعدته، لأنني كنت أشعر بأنني شجاعة ومستقلة، لكنني بعد قليل قبلتُ مساعدته، وقد أمسك بيدي مدةً أطول من اللازم. وغالباً كان يحدق في عينيَّ عندما يفلت يدي بتعبير ينمّ عن الرقّة والهمّ اللانهائيين، كما لو أنني كائن تائه من حكاية مستحيلة من حكايات الجان. يتوقف قليلاً في منطقة عالية ليحدق إلى منظر جميل جداً لطهران، يكتب اسمه حبيبته في القذارة بعود ومن ثم يمسحه بجزمتيه. كنت أقف إلى جانبه، شاردة الذهن، أشفق عليه، وأتظاهر بافتقاري إلى الهم والقلق. لم أعرف أبداً لماذا أحب هذه المرأة. لم يصفها بكونها جميلة، أو ذكية، أو أنها تمتلك صفات خاصة. كانت فقط الأخت الكبرى لأعز أصدقائه.

رويداً رويداً تكرر مسك اليد كثيراً، وكنا نتكلم أقل فأقل عن حبيبته السابقة. وبدلاً من ذلك، أمضينا ساعات طويلة نتكلم عن «وضعي». فقد كان لي وضع خاص مع أمي. ومثّلتُ دور أخته الصغرى، وكان يسدي لي النصيحة، ويكتب لي ملاحظات صغيرة ذكية. وبعدها في لحظة ما حللتُ محل أخته الكبرى في عواطفه، وهي نقلة أظهرها هو بأن أصبح شديد الغيرة وميالاً إلى الاستئثار بحبي بأن أعطاني الترجمة الفارسية لأسوأ كتب همنغواي وأكثرها وجدانية الموسوم بـ«*عبر النهر وبين الأشجار*». وخاطبني قائلاً: *آيي هيجا ميا* (يا فتاتي). لكن عبارته تلك جاءت في وقت متأخر جداً.

تحاول بعض الأسر أن تخفي توترها أمام الغرباء، أما أمي، فقد كانت بخلاف ذلك، امرأة شديدة الالتزام بقواعد آداب المعاشرة الاجتماعية، فلا وجود لمثل هذه التفاصيل. كانت تستسلم لعواطفها بغض النظر عن المكان الذي توجد فيه. حاولتُ ألا أجعلها تعرف شيئاً عن ولعي بـ ميهران، غير أنها كانت تمتلك غريزة صياد، فهي يقظة، وكانت تتحسس خلواتي السرية. كانت غريزتها تعينها في ذلك، في هذا المثال، عبر تطفلات يومية على الزوايا الخاصة جداً من حياتَي طفليها. كانت تتنصت على مكالماتي الهاتفية، وتقرأ رسائلي ويومياتي، وكانتْ تتمشى في غرفتي ذهاباً وإياباً كلما أحستْ أنها ترغب في ذلك. لم يكن بمستطاعي أن أتأكد أيهما كنت أستاء منه: حقيقة أنها كانت تقرأ يومياتي ورسائلي أم أنها لم تكن تسمح لي بأن أشعر بالسخط حيال أفعالها تلك، إذ كانت تستخدم دليلها الجديد كبرهان على خياناتي.

دعونا نتوقف قليلاً عند يوم معيّن. إنه يوم من أيام أواخر الخريف، عندما كان البرد الجاف لطهران يستقر على أوراق الشجر التي ما تزال غضة. مشاعري وعواطفي تتناغم مع تبدل الموسم. الخريف في طهران جميل، لكنني أحب فصول الشتاء لأنها تمزج الشمس بالثلج، حيث يكون بمستطاع المرء أن يشم الهواء المنعش. كنت أنجرف من سجن أبي إلى موضع آخر، إلى شارع شاهبور المشجر. جلسات البرلمان تنعقد حالياً، لكن أمي ترسل السيارة كي تأخذني من هناك. وعلى العكس من قراري الأفضل أقول للسائق أن يأخذني إلى منزل ميهران. أقول له عَرَضاً: «لا حاجة بك لأن تنتظرني، سوف آخذ واسطة نقل من هنا وأذهب مباشرة إلى صفي بعد ذلك». كانت أمي تعارض بشدة زيارتي لـ ميهران، أو أي من أعمامي،

غير أنه شيء أقوم به بشكل منتظم. ذات يوم، عندما اكتشفتْ أنني ذهبتُ إلى منزل أسرة ميهران من دون أن أخبرها بذلك، جاءت إلى باب منزلهم، وطلبت مني أن أتبعها إلى منزلنا. كان ذلك الأمر محرجاً لأول وهلة، إنما بعدها، أصبح الجميع يتعاطفون معي تعاطفاً شديداً عندما شهدوا ورطتي. كيف التوصل إلى حل لمشاكل آذر مع أمها، هذا الأمر أصبح موضوعاً لنقاش لانهائي. لم يعودوا الآن محض أصدقاء بل شركاء في المؤامرة أيضاً.

فؤادي يخفق في برودة أواخر الخريف. أنا ألبس سترتي الحمراء الخفيفة، وأرفع ياقتها إلى الأعلى، بحيث تحتكّ ببشرتي. كان الموقف برمته مثيراً ورومانسياً. أخبر السائق أن ينزلني أمام زقاق ضيق. هذا هو الجزء القديم من طهران، حيث توجد مخازن البهارات الصغيرة، والأزقة الضيقة المغبرة ذات الجداول الجافة التي تتسلل إلى داخل المنازل ذات الأسوار العالية التي تحميها من البرد والظروف المناخية. وعندما أدنو من منزلهم آخذ قارورة العطر خاصتي وأرش من عطر Nina Ricci's *L'Air du Temps* على رسغيَّ، وخلف أذنيَّ. أقرع الجرس. ينفتح الباب، وأسير بضع خطوات متجهةً إلى الفناء المرصوف بالحصى ذي الشجرة المعمرة، والبركة الصغيرة المستديرة، وحجرات الطابق الأرضي معتدلة البرودة.

بعد مرور ساعة تقريباً يرن الجرس وهناك ضربات عنيفة متكررة على الباب. يتوقف قلبي عن الخفقان. أعرف أن الطارق لا بد أن يكون أمي؛ كانت قد استفسرت من السائق عن الأمكنة التي أقصدها. «أين هي؟ أعرف أنها هنا»، تصيح أمي. «إنها ليست هنا»، يقول مراد، أخو ميهران الأصغر، «يمكنكِ أن تدخلي، وتفتشي بنفسك». لقد غدونا أكثر ذكاءً، وهذه المرة لا تستطيع أن تعثر عليّ. وبعد أن

تغادر، أنتظر نحو عشر دقائق قبل أن أتوجه إلى خارج المنزل. أجتاز متاهة من الأزقة الملتوية قبل أن أصل إلى الشارع الرئيس - وهناك أصبحت وجهاً لوجه مع أمي.

إنني أكذب (إنني الآن ضليعة في الكذب). أقول لها إنني مضيت إلى المنزل كي أستعير بعض الكتب - أُريها الكتب، وأقول لها إنني حالما ضغطت على زر الجرس أخبروني أنكِ كنت هناك، تبحثين عني، لذلك خرجتُ مسرعةً. أقول لها ببراءة: «لا بد أنني ضيعتك تواً». «وماذا كنتِ تفعلين قبل ذلك؟» تقول أمي، وهي تتصنع عدم الاهتمام. «سـ. . . سرت مسافة طويلة سيراً على الأقدام!» وهذه الكذبة لم تنفعني فتيلاً، لكن ينبغي المحافظة على الكذبة التي اختلقتُها. وحتى إذا كانت تعرف أنني أكذب، وكانت تعرف ذلك فعلاً، كان يتعين عليَّ التمسك بقصتي. وبعد برهة قصيرة تتلون أسخف كذبة بلون الحقيقة. هذه اللقاءات غير المتوقعة لا تتعلق بالحقائق، على أية حال: كانت لها (أي اللقاءات) منطقها الخاص، وفي لحظة ما، عندما تكون عواطفنا قد سلكت طريقها الخاص، سيُنسى السبب الرئيس لاندلاع الغضب. بعد مرور عدّة سنوات، عقب الثورة الإسلامية، أجرّبُ موقفاً ديناميكياً مشابهاً على مقياس أكبر حجماً. نحن الذين نمارس لعبتهم. فقد اخترعنا قصصاً غير منطقية على الإطلاق، كي نشرح لهم لماذا كانت أنفاسنا تعبق برائحة الكحول، ولماذا كانت شفاهنا تصطبغ بأحمر الشفاه، وماذا كان يفعل ذلك الشريط المسجل الذي يغني فيه مطرب أجنبي مشهور ممنوع على (داشبورد - دشبول، بالعامية العراقية) سيارتنا، وبإعطاء رشوة صغيرة أو كبيرة، بحسب الحالة، يتركوننا وشأننا. وطوال عدّة أسابيع بعدها، في حفلات أنس وسمر مختلفة، يصبح نصرنا المثير للشفقة موضوعاً للنكات.

وأول شيء تفعله أمي قبل أن تتركني عند القنصلية البريطانية كي أتلقى دروسي الإنكليزية هو أن تبلغني بأنني لا أستطيع أن أذهب لتسلق الجبل في يوم الجمعة ذاك. لا أستطيع أن أشكو لأبي، الذي حاولتُ أن أحجب عنه مجابهاتنا، على الرغم من أنني أعرف أنها ستصر على طرح موضوع خطيئتي عندما تزوره في المرة القادمة. («لماذا تعتقد نزهت أنني أنجبتُ هذه البنت من زوجة أخرى؟» يسأل أبي مراراً في يومياته). لكن أبي حتى وهو في سجنه، وعلى الرغم من معاناته الشخصية وصراعاته العامة، لم ينسَ أن يذكّرني بالمشقات التي تكابدها أمي، وحاجتها إلى الحب، وواجبي بأن أفهمها وأقف إلى جانبها.

عندما أفيق من النوم في صبيحة اليوم التالي أجدها مشغولة بالتهيئة لجلسة القهوة خاصتها. ألاحقها من حجرة الطعام إلى حجرة نومها، أتوسل إليها أن تسمح لي بالذهاب لتسلق الجبال، لكنها لا تتزحزح. وبعدها تلتفت إليّ، وتخاطبني قائلةً: «في الحقيقة، إنكِ لن تذهبي ثانية في هذه النزهة السخيفة». أقول لها إنني سأذهب بموافقتها أو من دون موافقتها. «ماذا تريدين مني؟» تبدأ بالصياح، «ألا ترتاحين إلى أن أموت؟» أنظر إليها نظرة ساهمة، ولا أنبس ببنت شفة. لكن عقلي غير ساهم. أحس أنني أود أن أفعل شيئاً فظيعاً - أرمي كأساً نحو الجدار، أبكي بصورة هستيرية إلى أن يفسح نشيجي المجال إلى غمغمة عاجزة، وتلين، وتأتي إليّ، وتخاطبني قائلةً: «هوّني عليكِ، هوّني عليكِ، توقفي عن البكاء».

«أنتِ لستِ ابنتي»، تقول بغضب. كانت تستحوذ على ذهني صورة باهتة لماتيلدا، بطلة ستندال في روايته «*الأحمر والأسود*»، وهي تضع رأس جوليان سوريل المقطوع في حضنها. «أنتِ وأبوكِ. . .»

تزعق أمي والصورة الماثلة في بالي تكتسب لوناً وتفصيلاً. ماتيلدا في العربة، وصوت حوافر الخيول يتعالى شيئاً فشيئاً - أسمع صوت أمي، صوت حوافر الخيول، وصمت ماتيلدا. ورويداً رويداً أسيطر على رغبتي الملحّة في الصراخ والبكاء. وبما أنها لم تحقق غرضها، وهو أن تجعلني أتحول إلى ذرف الدموع الهستيرية، لن تتكلم معي طوال اليومين القادمين.

أقول لها: «إنني ذاهبة إلى الجبل، ولن تستطيعي منعي». وكلتانا الآن تصرخ. يرن جرس الباب، لكننا لا نعيره أي اهتمام. تقول لي إنها لم تربّني كي أصبح مومساً. وتقول بغضب: «ألهذا السبب تريدين البقاء في طهران؟ ليس من أجل أبيك، وليس لأنكِ تشعرين بأي شيء نحوه، بل لكي تذهبي وتتبختري في أرجاء المدينة مع أشخاص لا يعرفهم إلا الله». وعندما أسمع ذلك أنفجر باكية. أقول لها: «لا أستطيع العيش في هذا البيت بعد الآن. لا أستطيع أن أتحمله». نحن لا ننتبه إلى أخي وهو يخرج من حجرته، ويقف في وسط الرواق، ولا نسمع صرير الباب الأمامي وهو يُفتح.

وبعد دقائق قليلة تدخل الخالة مينا. أنا لا أزال أبكي. وأمي تقبّلُ الخالة مينا، التي تقبض على يدي. أقول: «لا أقدر أن أتحمل. لا أريد أن أبقى هنا بعد الآن». تقول الخالة مينا: «حسناً، لا تقلقي»، وبرفق تأخذني إلى حجرتي، وترسل أخي ليحضر لي كوباً من الماء. يمكنني أن أسمع صوت أمي الغاضب وهو يخفت بينما هي تنزل درجات السلم متجهة إلى المطبخ. تجلس الخالة مينا، وتخاطبني كأنني امرأة بالغة، وكما لو أنها تبادلني الثقة. تقول لي: «لا أعرف، كيف تستطيع نزهت أن تكون فظة مع نفسها ومع أولئك الذين تحبهم». أتلعثم قائلة: «تطلق عليَّ أسماء قبيحة. وتقول لي إنني أنتظر

موتها». «إنها لا تعني ما تقول»، ترد عليّ الخالة مينا بوداعة، وتعطيني كوب الماء، وتصرف أخي. «نعم، إنها تعني ما تقول. إنها تقول إنني كالآخرين، نسعى للحصول على مالها». «هي تقول ذلك»، تقول لي الخالة مينا، «لأنها لا تستطيع أن تقول ذلك لأولئك الذين يؤذونها حقيقة».

أظهرت أمي أفضل وأسوأ شيء فينا. ولأننا لازمنا أمكنتنا الخاصة، كنا مجبرين على أن نخلق عوالم سرية أخرى خاصة بنا، وذلك بأن نُشغِل مخيلتنا في أغلب الأحيان. كان أبي يهرب إلى حديقته، شعره، وعمله. وحتى الآن أستطيع أن أتخيل التعبير البادي على وجهه في الصباحات، عندما يحضر طبقاً مليئاً بتويجات الياسمين العطِر إلى المائدة، أو عندما يوقف، في رحلاتنا إلى الفيلاّ الخاصة بنا الواقعة على بحر قزوين، السيارة فجأة، ويتغلغل إلى أعماق الغابات بحثاً عن الأزهار البرية كي يزرعها في حديقة منزلنا عندما نعود. وبين الحين والآخر كان يناديني - وأنا غارقة في عوالم الرواية التي أقرأها، ومستلقية باسترخاء على الأريكة - ويأخذني إلى الخارج كي يريني زهرة مذهلة تتفتح تواً. أهرب إلى ممالك القصص: كانت رودبه هي قدوتي، وجوليان سوريل هو حبيبي، وناتاشا روستوفا، إليزابيث بينيت، كاترين إنشو، والعديد من بطلات الأدب الأخريات هن سيداتي اللواتي أنتظرهن، واللائي سيساعدنني على أن أعثر على تلك الذات المراوغة التي كنت آمل أن أكونها. كم يبدو العالم المتخيَّل مختلفاً ومدهشاً مقارنةً بذاك الذي أعيش فيه!

الفصل الثامن عشر

نساء من ذلك الصنف

في هذا الزمن تقريباً بدأت أقضي الساعات وأنا مستلقية في السرير، أقرأ. كنت أضع الخطوط تحت الفقرات، أكتبها من جديد في يومياتي، وألجأ إلى تكرار الأبيات التي كتبتها شاعرتي المفضلة فروغ فرخزاد. «كينونتي كلها أنشودةٌ كئيبةٌ ستأخذكَ إلى فجر الثمار السرمدية». في صباحات أيام الجمع أدخل إلى غرفة المعيشة خلال مواعيد جلسات القهوة التي تقيمها أمي ومعي كتاب كان ينتزع عادةَ تعليقاً أو تساؤلاً. كانت أمي تفهم هذا بوصفه تحدياً غير ملموس. لم يكنْ بوسعها أن تضع إصبعها على ما هو خاطئ في حبي للكتب. وكان عذرها أنني مهووسة جداً، لكنها لم تستطع أن تبين بوضوح لماذا كان ولعي المتميز بالكتب يبدو لها أنه ينطوي ضمناً على التمرد، وأنه دليل على نوع مشكوك فيه من الاستقلال. وعندما أعلنتُ رفضي الزواج من بيهزاد ساري لأنني لا أحبه، ألقت أمي المسؤولية على قراءتي الكثير جداً من الشعر، والانسجام مع أسرة والدي، الذين تآمروا كي يمنعوني من الزواج منه. بمعنىً من المعاني، كانت أمي محقّة. كانت قصائد فروغ فرخزاد تجسيدات للطاقة الكامنة التي اكتشفتها في بطلات القصص الخيالية اللواتي أحببتهن. كانت فرخزاد تعيش ما كانت تكتبه، ودفعت ثمناً باهظاً عن ذلك. كان هناك خيط

غير مرئي يربط رودبه بفروغ فرخزاد. كان هناك قدر من الجرأة والانفتاح في ثقافة حرمتْ الاثنتين منهما.

وُلدت فرخزاد سنة ١٩٣٥، وتزوجت خلال سنوات مراهقتها. لم تكن تلك زيجة إجبارية - كانت قد وقعت في غرام برويز شاهبور، وهو رجل ذائع الصيت في الأوساط الفكرية، وكان يكبرها سناً بستة عشر عاماً. وبعد ولادة ابنها كامي مباشرةً تركت أسرتها، زعم بعضهم أن ذلك حصل بسبب علاقة غرامية. وكرّست ما بقي من سنوات عمرها للشعر وبعدها لصناعة الأفلام السينمائية. تُوفيتْ في حادث اصطدام سيارة سنة ١٩٦٧، وهي في سن الثانية والثلاثين. كانت قصائدها الصادمة جداً - تلك التي جلبت لها سمعة سيئة - احتفالات بعلاقاتها الغرامية، لكنها كتبت كذلك قصائد مشبوبة العاطفة عن السياسة والمجتمع، وبخاصة في سنوات حياتها الأخيرة. كانت تمتلك الوقاحة بأن تعترف بعلاقاتها الغرامية من دون خجل أو حياء في أشعارها، وهذه الجرأة هي التي جعلتها تكتسب منزلتها المرموقة بوصفها أيقونة نالت الإعجاب والكره الشديدين في آن. وحولت فكرة «الإثم» الشخصي («ارتكبت إثماً حافلاً بالمتعة، / في عناق دافئ ومتأجج») إلى تحدٍّ بوجه السلطة، وبخاصة سلطة الله.

سئمتُ من الزهد الإلهي،
في منتصف الليل، في سرير الشيطان
صرتُ أبحث عن ملاذٍ في المنحدرات السفلية
للخطيئة الطازجة.

«وحده الصوت يبقى». هذا هو عنوان القصيدة التي كتبتها فروغ فرخزاد، والتي دوّنتُها في أعلى إحدى صفحات يومياتي، ووضعتُ

تحتها خطين. وإلى الأسفل منها كتبتُ أنني تشاجرتُ مع أمي شجاراً كبيراً بشأن فروغ (كانت تشير إليها دوماً باسمها الأول، وهي حرية نادراً ما تلجأ إليها حقيقةً مع أسماء الشعراء الذكور). كانت أمي تكرر القول إنها لم ترسلني إلى المدرسة كي أحذو حذو «نساء من ذلك الصنف». كتبتُ في يومياتي أنني أظن لو كانت أمي شديدة الشبه بـ«نساء من ذلك الصنف» لكنا جميعاً قد عشنا ظروفاً أفضل كثيراً من تلك التي كنا نعيشها.



فروغ فرخزاد.

وبعدها بأيام قليلة، خلال عودتي من حصة دراسية بعد الظهر في القنصلية البريطانية، استُدعيت إلى المكتبة. كانت أمي تجلس منتصبة القامة على كرسي من الجلد الناعم. وكان رحمن يسترخي على كرسي قريب، والخالة مينا، يبدو عليها عدم الارتياح، جالسة قبالته. وكانت المتهمة، يومياتي، بغلافها البلاستيكي الأسود الممل، على منضدة جانبية كي يراها الجميع. نظر إليّ السيد رحمن شزراً، وعلى ثغره ترتسم ابتسامة محبة للخير وفطنة. كان من دأبه أن يبادر للدفاع عني، لكنه هذه المرة بقي صامتاً، ومن حين إلى آخر كان يطقطق بتأنيب، وعيناه الجاحظتان مبتهجتان بالأذى.

كانت أمي تريد أن تعرف كيف يمكنني أن أقول إنني فضلت تلك المرأة (فروغ فرخزاد) على أمي، كما كتبتُ، فعلاً، في يومياتي. كانت الخالة مينا تحاول أن توفق بيننا نحن الاثنتين. وكنتُ أريد أن أعرف لماذا قرأتْ أمي يومياتي الخاصة؛ بأي حق فعلتْ ذلك؟ واقترح

رحمن بورع أن من حق الأم أن تمنع الخطيئة من الوقوع. وفي الدين الإسلامي حتى الغرباء من حقهم أن يمنعوا الخطيئة من أن تحصل. وكلما ازداد إحساسي بالعجز، أصبحتُ متغطرسة أكثر. وفي دفاعي عن نفسي، قدمتُ رأياً موجزاً يتعلق بأهمية فروغ كشاعرة.

وفي هذه اللحظة، تبنّت أمي نبرتها الفظيعة، المجردة، الهازئة. «*إنكِ* بالطبع محقّة». قالت بسخرية. «إنكِ مجموعة من كنوز المعرفة النفيسة. كيف تستطيع امرأة جاهلة مثلي أن تأمل بالوصول إلى هذه القمم!» عندما كانت تتعارض معنا، يكون تعبيرها بارداً إلى أبعد حد، وكانت تستخدم بشكل مدروس كلمات رسمية. تدعوني (مدام)، كما كانت تفعل عندما تكتب لي الملاحظات التحذيرية. كانت تكتب الرسائل التي تتركها في مكانٍ ما بالمنزل. كانت الأسر الأخرى تتحدث فيما بينها، أما نحن فنكتب عما كنا نحس به أو نأمل حدوثه، وعما كنا نعاني منه - كنا نكتب ذلك كله، كما لو أننا لا نطيق أن ينظر أحدنا في وجه الآخر، وأن نتكلم فقط.

في بعض الأحيان تكون ملاحظات أمي قصيرة وصريحة، وهي تهنئنا على أعياد ميلادنا، ولمناسبة حلول السنة الجديدة، أو على تحقيق منجزٍ ما. لكنها كانت تكتب بشكل رئيس عندما تكون غاضبة. ووقتذاك تخاطبنا بمصطلحات عامة: زوجي القدوة، أولادي المقرين بالجميل، ابنتي المطيعة. لم يكنِ شيئاً استثنائياً بالنسبة لها أن تعدد جميع التضحيات المختلفة التي بذلتها من أجلنا. «إن هدف الأم في الحياة هو أن تُنشئ أولاداً مستقيمين...» كتبت ذات يوم. «إنني سعيدة كوني ربيت شخصين»، بدأت ملاحظتها، قبل أن تعرّج على آثامنا. لم تُنكر «منجزاتنا»، كما كانت تسميها، منجزاتنا التي كانت متيقنة منها. وكانت عادةً تنهي ملاحظتها بالقول: «إنني متأسفة لأنني

لستُ أماً ذات كفاءة. إنني غير مرغوبة في هذه الأسرة، إنني دخيلة. إنني أتمنى لكم أنتم الثلاثة أفضل الأمنيات». وفيما بعد كانت تضيف أسماء أحفادها إلى قائمتها الخاصة بالمتهمين.

لا بد أنني رأيت أن هناك شيئاً جوهرياً مفقوداً. «من دون أدنى ريب، آذر طالبة لامعة الذكاء»، تكتب بتروٍّ، وهي تجرد كتابتها من أي إحساس أو عاطفة. أو تكتب: «إن مهمة الأم الرئيسة في الحياة هو إخلاصها لأولادها». لقد حزنت الآن على هذا الحب البعيد بصورةٍ موجعة. في ذلك الزمن، كنا معتادين جداً على تلك الملاحظات بحيث إننا لم نلتفت إلى الوجع الواضح الذي تسبب فيها.

في ذلك اليوم، كنتُ قد تعرضتُ إلى التوبيخ، وبعد أن اعتذرت على مضض اعتذاراً مصحوباً بالدموع، نُفيتُ إلى حجرتي. وظل ذلك اليوم راسخاً في بالي: أمضيتُ اليوم كله في حجرتي، رفضت تناول الطعام أو الردّ على المكالمات الهاتفية. أرسلت أمي الخادمات، وأخي، وعمي في أوقات مختلفة كي يستدعوني إلى وجبة الغداء، لكنني لم أذهب. فقد استرجعت كل شيء عبر عينيَّ المصطبغتين بالدمع، وسرعان ما انجرفتُ إلى حالة مسكِّنة من الإشفاق على الذات. وحتى ميهران نفسه لم يكن بوسعه أن يحافظ على ولعي به. ولم أضيّع وقتي بالتفكير في بيهزاد ساري، الذي كنت قد رفضت الزواج منه. ليتني أستوطن عالماً يختلف اختلافاً جذرياً عن ذاك الذي سكنتُ فيه. ليتني أعيش حياةً طبيعيةً أكثر. ليس لديّ أدنى فكرة عن الكيفية التي وصلتُ فيها إلى الاستنتاج الذي بلغته، لكنني في نهاية المطاف حدثتُ نفسي قائلةً: «حسن، إذاً، سأتزوجه».

كتب أبي في يومياته: «يوم أمس جاءت نزهت وآذر لزيارتي.

هناك شاب جديد تقدم لطلب يد آذر. رفضت الأخيرة عدداً قليلاً من المتقدمين للزواج منها. هذا الشاب الجديد هو مهدي مزهري، ابن الكولونيل مزهري. إنني أعرف الجنرال مزهري، عم الشاب، رجل طيب السمعة. أسرتهم أسرة مشهورة في أذربيجان. لكن ما يقلقني هو سلوك أمها، وورطتي أنا، وسذاجة آذر، وقلة خبرتها من ناحية، والأذى والألم النفسي المبرح الناجمان عن أوضاع المنزل، من الناحية الأخرى. لعلها أُرغمت على القبول به بسبب هذا الوضع... كانت أمها ترغب أن يتم ذلك الزواج في أسرع وقت ممكن. أغلب الظن، كانت تريد أن تتم مراسم الزفاف خلال المدة التي لا تزال فيها عضوة في البرلمان. كانت آذر دامعة العينين، وحزينة، باستمرار. ولم تشأ أن تتزوج حتى مغادرتي السجن، لكنني لا أعرف متى يُطلق سراحي، ولا يمكنني أن أبقيها معلّقة».

ينحدر مهدي مزهري من أسرة عسكرية، كانت من عدّة نواحٍ على العكس تماماً من أسرتنا. كان يصغر أصغر أخواته بعدّة سنوات، وهو الولد الوحيد في العائلة، وهو قرة عين أمه. عندما التقيت به كان في المرحلة المنتهية في قسم الهندسة الكهربائية بجامعة أوكلاهوما. كان نجمه المفضل المغني الشهير فرانك سيناترا، الذي كان يقدره بشكل رئيس بسبب اعتقاده أن سيناترا يمثل: الثروة، السحر، النجاح العالمي، الخدم الذين يلبسون القفازات عند مائدة الطعام. كانت أسرة مهدي أسرة مادية بصورة لا يخجلون منها، بينما أسرتنا لا تأبه بأشياء من هذا النوع.

في بادئ الأمر لم آخذ طلبه الزواج مني على محمل الجد. لم أكنْ مغرمةً به. وحتى لم أكنْ منجذبة إليه جسدياً. كان طالب يدي الدائم هو بيهزاد، الذي لم أفكر جدياً في الزواج منه. لم أكترث كثيراً

لمهدي إلى أن بدأ في لحظة معينة يوليني اهتمامه. الصبي الوحيد القريب من عمري الذي كانت أمي تسمح لي أن أتسكع معه هو ابن صديقتها ألنغو المدعو بهمن. كانت تعدّه جديراً بالثقة، بينما كانت تحس أن أخا زوجة العم حسين أو أي فرد من ناحية أبي من الأسرة لا يناسبني. كان يُعتقد أن بهمن وأصدقاءه ثلة «آأمن». كان مهدي واحداً من أصدقاء بهمن.

كان الوقت بعد الغداء، ودعاني مهدي إلى غرفة الطعام. كنت واقفة، أما هو فجالس على كرسي. أمسك بيديَّ، وقال لي: «أريد أن أتزوجكِ».

لم أقلْ كلمة. قال لي: «ألم تخمني ذلك؟» فأجبته قائلةً: «حسناً، في الحقيقة لم أفكر في الموضوع». أخبرني أنه كان يريد دوماً أن يتزوج في سن مبكرة؛ كان يرغب أن يمزح مع زوجته - وهي مسألة قانونية بما يكفي - لكنه بعدها مضى يقول إن أبويه مسنان، وكان هو أصغر أولادهما سناً، وابنهما الوحيد - كانا يريدان أن يتزوج وينجب الأولاد قبل أن يتوفيا. كان يعتقد أنني أنحدر من أسرة صالحة، ذات ارتباطات ممتازة، على الرغم من أنه لم يكن يوافق على علاقات أبي بالآخرين. (قال لي: شخص واحد فقط يجب أن يكون مسؤولاً في الأسرة، وفي بيتكم ذلك الشخص هو بالتأكيد ليس أباك). أخبرني مهدي أن مظهري الخارجي أعجبه عندما رآني لأول وهلة. فقلت له: «لكن، من المؤكد ثمة بنات كثيرات أعجبك مظهرهن الخارجي». فردّ عليّ قائلاً: «أجل، لكنكِ بريئة جداً». «بريئة؟» «كنتِ في بريطانيا لكنك حتى الآن لا تعرفين ما هي القبلة الفرنسية». أخبرني أنه شخص غيور جداً. وقال لي: «سأنام ومعي مسدس تحت

وسادتي». وبعدها عاد إلى مسألة أسرتي، حيث قال: «على الرغم مما وقع لوالدك، فأسرتكم أسرة صالحة. أسرة بارزة تحمل اسماً طيباً».
سمحت له أن يقبلني، بشكل رئيس كي أوفر على نفسي الإجابة عن سؤاله وقتذاك. ولاحقاً، خطر في ذهني أن طلبه الزواج مني كان حتماً بمنزلة تحذير مما سيحصل من أمور. وذكّرني ذلك بصورة مبهمة بالسيد كولنز عندما طلب يد إليزابيث بينيت في رواية «*كبرياء وهوى*». لسوء الحظ، لا أستطيع أن أدّعي أن سلوكي الشخصي كان شبيهاً بسلوك إليزابيث بينيت.

تلك الليلة عدتُ في وقت متأخر إلى المنزل، وكانت أمي ما تزال مستيقظة. وبينما كنت أسير على أطراف أصابعي متجهة صوب حجرتي، نادتني من غرفة نومها. كانت الحجرة مظلمة، وهي في سريرها. قالت: «ماذا حصل، إذاً؟» قلت: «وجّه لي طلباً». «ماذا طلب منك؟» «طلب مني أن أتزوجه». «ماذا أجبته؟» «لا شيء». «ماذا؟» قلت باقتضاب: «حسناً، أحتاج إلى التفكير بعض الوقت».

فيما بعد سوف ألقي اللوم على أمي لأنني اتخذت قراراً بالزواج من مهدي مزهري. سأذكّر أي شخص يريد أن يصغي كيف كانت ترسلني إلى منزلهم، وتبقى تنتظر ليلاً لتسمع مني كيف جرت الأمور؛ وكيف أنها من دون موافقتي زارت أبي في السجن، وألحت عليه كي يعطي موافقته على تلك الزيجة المستعجلة؛ وكيف أنها تهربت خلسةً من طلب والدي أن تسترشد برأي أخيه الأكبر المقيم في أصفهان.

وكذلك ألوم ميهران بصورة خاصة. كانت مراوغاته جذابةً في البداية، لكنها أخذت تصبح مضجرة. كان قد قطع علاقته بصديقته التي حدثني عنها، غير أنه كان خجولاً، وكان يختبرني باستمرار، ويخبرني عرضاً عن هذه الفتاة أو تلك من اللواتي التقى بهن في حفلة

من الحفلات - وكان يقول، إن أي واحدة منهن لم تكنْ تعني له شيئاً. وفيما بعد خطر ببالي أن صمتي، وفي الحقيقة، موقفي المنكفئ برمّته، كان حتماً عاملاً جوهرياً كي يجعله يتصرف بتلك الطريقة. وحالما أخبرت ميهران، عرضاً، بطالب يدي الجديد أصبح - وكان الأوان قد تأخر كثيراً، كما تبين - قاسي الفؤاد وقال لي إنه لا ينبغي لي أن أتزوج ذلك الشاب، وإنه كان ولا يزال «لي وحدي» بصورة مطلقة ولا يرقى إليها الشك.

ربما نشعر بنوعٍ من الارتياح عندما تسلّم نفسكَ إلى شخص يتفوّق عليك في الحسم. كان مهدي يعرف ماذا كان يريد، وشعرتُ بسعادة حمقاء في الاستسلام للحياة الجديدة التي قد يهبها لي في الزواج. كنت أنجذب دوماً إلى الرجال الذين يشبهون أبي، وهم مثقفون يمتلكون رؤية ورسالة، رجال نبلاء كانوا مرنين ووديعين (نظرياً على الأقل، إن لم يكونوا دوماً كذلك من الناحية العملية). أما مهدي فكان على العكس من ذلك. اخترت الزواج من مهدي لا لأنني توقعت منه شيئاً معيناً بل لأنني أردت أن أكون أهلاً للدور الذي خصصه لي. كنتُ قد أنهيت الدراسة الثانوية، وتقدمت للقبول في جامعة كاليفورنيا في سانتا بربارة لدراسة الأدب. أما هو فكان يدرس الهندسة الكهربائية في أوكلاهوما، وأحسست، على غرار أمي، أنني أمضيتُ وقتاً طويلاً جداً في أحضان كتبي. كنتُ مليئةً بالشكوك فيما يتعلق بالزواج. أما هو فكانت لديه آراء ثابتة عنه، وكانت لديه قوانينه الصارمة حول الأدوار المختلفة التي يجب أن يلعبها الزوج والزوجة. أقنعت نفسي بأنه لهذه الأسباب تحديداً كان ملائماً لي، مع أنني شعرتُ في بعض الأحيان أنني في طريقي لأغدو «امرأة أخرى تالفة».

كان الشيء المثير للسخرية هو أنني وأمي معاً اخترناه للأسباب

نفسها، وهو أنه يعرف ما يريد، وقد اجتاز اختبار أمي الشبيه باختبار ورق عباد الشمس المتعلق بطالبي يدي المناسبين. «ابنتي لم تُخلق لتصبح ربة بيت، بل يتعيّن عليها أن تنهي تعليمها»، قالت له عندما التقيا لأول مرة. وطمأنها مهدي قائلاً إن الزوجة المتعلمة ستكون ريشةً في قبعته، ما دام أبواها كانا مستعدين لتسديد نفقات تعليمها. لقد أصبحت الآن نوعاً ما خبيرة في طرائق الرجال «الحاسمين». إنهم ليسوا صارمين، بل يبدون كذلك فقط. ولأنهم يمتلكون صيغة جاهزة لكل شيء، وكانوا يفرضونها بشكل قسري، كانوا يبدون واثقين بأنفسهم. إلا أنهم غير قادرين على مواجهة الأشياء غير المتوقعة. وفي الأزمات كانت قدرتهم على مواجهة تلك الأشياء أقل بكثير من قدرة أولئك النساء الضعيفات ظاهرياً اللواتي كانوا يتنمرون عليهن ويخافون منهن سراً.

ومع ذلك، كان مهدي يمتلك شيئاً لا أمتلكه، ألا وهو: أسرة مستقرة، وسعيدة. كانت أسرته تختلف عن أسرتي - يبدو أنه لا وجود للقلق، ولا للخجل والتردد. كان بوسعهم أن يجتمعوا في المنزل حول مائدة كبيرة وأن يضحكوا أو يغضبوا. كانوا يمضون عطلاتهم معاً، يسافرون بأعداد غفيرة. ومقارنة بأسرتهم كانت أسرتنا تبدو بائسة جداً. كنا بطريقتنا الخاصة نهتم أحدنا بالآخر - غالباً أكثر من اللازم - غير أن هذا الاهتمام كان مصحوباً بالقلق ومشحوناً دوماً.

نفذتُ ما طلبته مني أمي. لكنها لاحقاً نكرت ذلك وزعمت أنها كانت منذ البداية ضد هذه الزيجة، إنما في يوميات أبي كانت هناك إشارات عديدة إلى إصرارها على الزواج، ورغبتها في أن يتم على وجه السرعة. كان والدي يحاول أن يؤخر موعد الزفاف، وطلب منها أن تنتظر ريثما يستخير عمي القرآن الكريم فيما يتعلق بهذا الزواج (أي

هل سيكون زواجاً ناجحاً أم لا)، لكنها لم تمتنع عن ذلك. كنت أمضي هنا وهناك من دون إدراك عقلي بينما كانت هي تقوم بتهيئة الاستعدادات بسرعة مدوِّخة. بعد أقل من شهرين بعد أن قررتُ الزواج من مهدي، كنت أرتدي فستان الزفاف الأبيض القصير، دامعة العينين، أحمل في يدي قطعة صغيرة من الكعك، في طريقي إلى سجن أبي. فقد قررتُ الذهاب لرؤيته قبل حفلة الزفاف الحقيقية بسويعات قليلة، والتي أُقيمت في منزلنا. بكيتُ في الليلة التي سبقت الزفاف، وبكيت أيضاً في طريقي لرؤية أبي، وظللت أبكي حتى قبل الحفل بساعة واحدة.

في يوم الزفاف دأبت أمي على القول كم كانت مصائرنا متشابهة: كان أبوها غائباً في حفل زفافها هي أيضاً. كتب أبي في يومياته أن مصائرنا بدت «مجدولة معاً»، لأنني ارتكبت الخطأ نفسه الذي ارتكبه هو. في فقرة غريبة، يكتب فيها بصيغة الشخص الثالث، يقول أبي: «وختاماً يصبح مصير آذر متطابقاً مع مصير أبيها. فقد أَرغمتْ نفسها على الزواج. بسبب شقائها في المنزل وغياب أبيها، آثرت الهرب إلى منزلها هي. إن المرأة الوحيدة التي كانت تفكر فيَّ باستمرار حوّلت الآن عواطفها إلى رجل آخر». أمضى أخي جزءاً من عطلته الصيفية في أصفهان. وقد استُدعي الآن إلى طهران ليقضي الأيام القليلة الأخيرة هنا قبل موعد الزفاف، يطوّف حول الفناء، وهو يحاول أن ينصحني بالعدول عن هذا الزواج. ولم أردّ على اتصالات ميهران الهاتفية. كان أخي يحس شأنه شأن السواد الأعظم من أسرة أبي أنه ليس ثمة قاسم مشترك بيني وبين مهدي، وقد كان حائراً حيال موافقتي.

قبل ذلك بعشر سنوات، كان أبي قد أخبرني أنكِ لا تستطيعين أن تكوني فقط صلبة بوجه موقف ما، بل تحتاجين أيضاً إلى أن تكوني

صلبة في اتخاذ موقف ما. لم تصر رودبه على الزواج من زال كي تعارض رغبة أبويها، أو لأنها كانت «مستقتلة»، أو لأنها كانت تريد أن تغيظ أي شخص، بل لأنها كانت مغرمة بزال. وقال أبي إن ذلك هو الذي جعل إصرارها شيئاً مقبولاً، وجديراً بالإعجاب. كانت وثاقة الصلة بالموضوع الذي حدثني عنه قد واتتني متأخرة جداً.

كل الأشياء المتعلقة بالزفاف كانت ميلودرامية. وكان ميهران يتصل بي هاتفياً حتى النهاية، وتوسل إليَّ أن أغيّر رأيي؛ وكان أخي يتوسل إليّ أن ألغي الزواج. وقبل الزفاف بأيام قليلة، اتصل العم أبو تراب بأمي من أصفهان ليقول لها إنه استخار القرآن الكريم، وكانت النتيجة سلبية. وأجلستني ليلى، الابنة الصغرى للخالة مينا، وهي ناصحة مخلصة وصارمة، وحاولت أن تُفهمني أنني الآن أصبحت ما أرادت أمي دوماً أن أكون: سيدة. كانت لي مسؤوليات، ويتعين عليَّ أن أتصرف وفق هذه المسؤوليات الملقاة على عاتقي. أومأتُ برأسي موافقة مثلما فعلتُ عندما ألقت عليَّ محاضرة عن واجبات المرأة. ربما كان يجب أن أسأل ليلى ماذا يمكنها بوصفها امرأة بالغة واثقة من نفسها أن تقدّم من نصائح إلى فتاة مراهقة خائفة نوعاً ما، وحائرة، ومتنكرة؟

مضينا لقضاء شهر العسل في فيلاّ أسرتنا الواقعة على بحر قزوين مع أسرة زوجي. سكنت أخواته الثلاث وأزواجهن وأطفالهن في منتجع شعبي قريب. كان أبي قد اشترى الفيلاّ قبل بضع سنوات، عندما كانت الأرض المحيطة بها بعيدة عن التطور. لقد أحبها، وكان يعود إليها كلما سنحت له الفرصة. إذا استطاع مكان ما أن يستوطن روح شخصٍ ما، فبوسعي أن أقول إنه وضع روحه فيه.

إن سواحل بحر قزوين فريدة في نوعها مقارنةً بسواحل العالم كله، مع أنني، والحق يقال، أعيد حصراً ما اعتاد أن يخبرني به أبي. وقد شرح لي قائلاً إن أمكنة قليلة أُسبغتْ عليها النعمة بأن يكون البحر في أحد جانبيها، والجبال والغابة في الجانب الآخر. كان يقضي ساعات طويلة في أعماق الغابة، باحثاً عن نباتات وأزهار غريبة كي يزرعها في حديقته. كانت الحديقة تشغله أكثر مما يستطيع أن يشغله أي حبيب. وخلال سنوات شبابي، في أيام الشتاء القاسية، وفي حرارة الصيف القائظ، حتى لو كان لديه يومان فقط كان يسافر مدة أربع ساعات ونصف من طهران كي يعتني بحديقته. وشيئاً فشيئاً اشترت أسر بارزة الأرض القريبة من الفيلاّ، وحدث أن أحاطت منزلنا البسيط حدائق غناء وفيلاّت فخمة. رفضت أمي دوماً السكن هناك. كانت امرأة تنتمي إلى المدينة، وكانت تحمل معها كل ضروب القلق التي تزخر بها المدينة. كانت الزهور في نظرها إعلانات تزيينية لا غير. ومنذ اللحظة الأولى لوصولنا، كانت تكهرب البستاني المسكين وأفراد أسرته جميعاً لكي يدعكوا المنزل. كان أبي شخصاً اجتماعياً؛ كان يريد أن يدعو جيراننا وأصدقاءنا، إلا أن أمي كانت تجعل من مسألة التواصل الاجتماعي شيئاً مستحيلاً. كانت تقلق بشأن الطعام الذي يجب علينا أن نقدمه إليهم، ومَنْ هؤلاء الذين ينبغي أن نوجه إليهم الدعوة. لم تكنْ ترغب في السباحة. لم تكنْ تعرف كيف تسترخي.

إذا كان بمستطاعي أن أغمض عينيَّ، وأتخيل نفسي في مكان أستطيع أن أسترخي فيه، وأحس أنني حقاً في منزلنا، فإنني سأختار ذلك المنزل، وتلك الحديقة. يمكنني أنِ أُعيد إلى الحياة: رائحة البحر والرمل، الدرجات اللونية المختلفة للاخضرار، رطوبة الهواء، ابتسامة أبي المنتصرة فيما هو يرينا آخر اكتشافاته، زهرة بلون اللهب

تُدعى الفردوسي، وثمة زهرة أخرى، ذات براعم صغيرة، وهشة، تتدلى كعناقيد العنب، تُسمى (جدائل العروس). وإلى هناك ذهبنا، أنا وزوجي لقضاء شهر العسل خاصتنا. كان أسوأ مكان يمكننا أن نختاره.



محمد وأنا: أحمل صورة أبي الذي لم يتمكن من حضور حفل زفافي.

منذ ذلك الحين مسحتُ معظم ذكرياتي المتعلقة بأول ليلتين أمضيناهما معاً. أتذكر أنني لم أستطع أن أطارحه الغرام. كنت فزعة، ووحيدة، وفجأةً شعرتُ أنني بسبب كوني صغيرة السن ليست لدي أي خبرة على الإطلاق بالحياة والناس. كنت أريد الذهاب إلى منزلنا. فكرت في أبويَّ وفي أخي، ولم يكنْ بمستطاعي أن أفعل شيئاً قط. لم يكن مهدي وديعاً، كما لم يكن فظاً، خشن الطباع. لا أتذكر على وجه الدقة كيف كان سلوكه. كان يريد فقط ما يحس به، ببعض التبرير، وهذا ما كان يدعيه.

كنتُ خائفة، وحزينة حقاً، لكنه لم يفهم هذا الأمر. كان يعتقد أن نفوري من ممارسة الجنس معه هو إشارة إلى احتمال أنني غير باكر. هل خُدع؟ يتراءى لي في مخيلتي مشهد واضح واحد بالأبيض والأسود: الهواء رطب، هيئته واضحة المعالم، يلبس رداءً أبيض من الوبر، يقف مستغرقاً في تفكير حالم بالقرب من الباب، يدخن سيجارته. أين كنتُ؟ لا بد أنني كنتُ واقفة إلى جواره، أشرح شيئاً ما، وأطمئنه أنني ما زلت عذراء. وفي الليلة التالية بينما كنا نتناول

طعام العشاء، ووسط أصوات القهقهة وجو الابتهاج، قال لأخته الصغرى: «أخبريها ماذا تفعل». فالتفتت إليّ بطريقة لطيفة - لم تكنْ لطيفة جداً من قبل كما كانت عليها الآن - وقالت لي: «فقط أغمضي عينيكِ، واصرفي عن ذهنك كل شيء. تخيلي نفسك في مكانٍ آخر. تخيلي أي شيء مهما كان، تخيلي أنك تأكلين الأومليت».

فعلتُ ما أخبرتني به. تظاهرتُ أنني في مكانٍ آخر، مع أنني لم أستطع أن أرغم نفسي على التفكير في الأومليت. لا أحسب أنني نجحتُ تماماً في أن أكون في موضع آخر بالطريقة التي كنتُ قادرةً على القيام بها عندما كانت أمي تقول أو تفعل أشياء تسبب لي الأذى، وتجرحني. لكنني غيبتُ ذاتي عن جسدي. ومنذ ذلك الحين وصاعداً، وطوال عقود من الزمن، كان الجنس بالنسبة لي شيئاً تفعلينه لأنه شيء متوقع منكِ، لأنك لا تستطيعين أن تقولي لا، لأنك لا تأبهين به، ولا تستطيعين أن تهتمي به، ولذلك ستكونين خجولةً بشأنه إذا ما قللتِ من أهمية التعليقات التي أدليتِ بها، من مثل: أرجوكَ، لا تؤذِني. لم تجعلني تجارب الإيذاء الجسدي التي كابدتُها خلال سنوات طفولتي أشعر أنني قذرة ومذنبة كهذه التجربة، تجربة النوم مع زوجي في فراش واحد. عندما اخترت الزواج من مهدي، كنت قد كذبتُ على نفسي، وبمعنىً من المعاني خدعتُ مُثلي العليا، وهي مُثل ذلك النوع من النساء الذي كنتُ أطمح أن أكونه - شغفي برودبه وفرخزاد بدا لي الآن أشبه بحفرة صغيرة.

في أول زيارة قمت بها لأبي بعد شهر العسل لبستُ نظارتين شمسيتين داكنتين، ورفضتُ أن أرفعهما عن عينيَّ، وعلى مدى زمن طويل كنتُ ألبسهما حتى عندما أكون في الداخل. كنتُ أشعر بخجل عميق. وهذا الخجل ظل يلازمني زمناً طويلاً جداً.

الفصل التاسع عشر

الحياة الزوجية

في أيلول (سبتمبر) وصلنا إلى نورمان، حيث التحقت أول مرة كطالبة مرحلة أولى بجامعة أوكلاهوما ريثما يكمل مهدي دراسته في الهندسة وينال الشهادة، وكانت تنتظرني وقتذاك مفاجآت قليلة جداً. ثمة أشياء لم يفسرها لي - على سبيل المثال، أنه عاش طوال أربع سنوات مع امرأة أمريكية كان الناس يظنون أنها زوجته. كنتُ أحتقر دوماً الرجال الذين درسوا خارج إيران، وعاشوا مع نساء أمريكيات، واستمتعوا ليس بالجنس فقط بل بنوع من الألفة التي لن يعرفوا مثيلاً لها مع العذراوات الساذجات اللواتي تزوجوا منهن، لكنهم لم يفكروا في الزواج من هؤلاء الخليلات الأجنبيات لأنهن كن «صديقات ولسن زوجات»، كما كانت تقول أمي. لم أعتبر نفسي أبداً تلك الفتاة الفارسية الساذجة، وفي الحقيقة إنني لم أكن السبب الوحيد عندما ازدادت الأمور سوءاً.

كان أول خلاف في الرأي نشب بيني وبين مهدي بسبب المال. كان يفكر مسبقاً وبشكل مفرط إلى درجة غير سوية في الأشياء التي يمكنه أن يشتريها بالمال، وقد ارتاب في تأكيداتي المستمرة أن أبي لم يترك ثروة كبيرة، مسروقة من الخزينة العامة. وفي خاتمة المطاف، كان يتعيّن على أبي أن يكشف لوالد مهدي وعمه ظروفه المالية،

وجعلهما يعرفان أنه بعيداً عن كونه سرق مبالغ هائلة، كان يعيش جزئياً على القروض من إخوته منذ أن أُودع السجن. «اعتذر الجنرال مزهري، وتبللت عيناه بالدموع بعد أن أكملنا حديثنا»، هذا ما كتبه أبي في يومياته بعد أن دار حوار بينهما. كانت معاناتهما في بعض نواحيها قانونية. كانت أمي قد وافقت على تغطية بعض تكاليف معيشتي، لكنها امتعضت من الترتيب، وصعبت الأمور عليَّ، عندما لم تكنْ ترسل المال في الوقت المحدد.

كان مهدي يلعب القمار (البوكر) مرتين في الأسبوع على الأقل، وأحياناً يلعب حتى الفجر. كان يرغمني على أن أصبغ شعري، وعلى أن أذهب إلى مصففات الشعر أسبوعياً (كان يقول لي: يجب على كل امرأة أن تظهر دوماً بأحلى مظهر)، ومنعني من تدخين السجائر وتناول المشروبات الكحولية (النساء يجب أن لا تفوح منهن رائحة السجائر أو الكحول). أما هو، فكان بالطبع يفعل الاثنين معاً: تدخين السجائر واحتساء الخمر. ذات ليلة، قبلت كأس نبيذ بينما كنت أتحدث مع صديقة لي: أقبل إليَّ، أخذ الكأس من يدي، وسكب النبيذ في الحوض. اكتشفت أنه كان يخبرني بالحقيقة عندما قال لي إنه غيور. بطبيعة الحال، لم يكنْ يخبئ مسدساً تحت وسادته، كما أوحى لي، لكنه خرج عن طوره وجعل يزعق ويتصرف بفظاظة عندما شاهدني في المكتبة مع أحد زملاء صفي.

تُظهرني صور تلك المدة الزمنية وأنا أرقص بسعادة مع زوجي، شعري الأسود الفاحم مصفف بشكل جيد جداً. من هي تلك المرأة؟ كان يبدو كما لو أنني خلقتُ شخصية موازية لي كنت أرنو إليها من مسافة ما بفضول وفزع. كانت الإيماءة الميلودرامية التي تبنيتُها في شهر العسل، وأنا ألبس النظارات الشمسية الداكنة في داخل المبنى،

كجاسوسة أخفي هويتي الحقيقية، أو إحساسي بالإثم، سرعان ما تتخذ صفةً ذاتية. دونتُ ملاحظات لنفسي ما زلت أحتفظ بها: «لا تجرحي كبرياءه من خلال الشجار معه»، كتبت. «عندما تختلفين معه في الرأي، ابدئي كلامك بالمجاملة، وبعدها اقترحي آراءك». أو: «لا تهزئي بآرائه أو تتخاصمي معه في كل مرة يلعب فيها القمار». نصيحة مثالية، تستحق النشر في «*مجلة بيت السيدات*». لكنني لم أصغي لنصيحتي الشخصية.

كنتُ أكره أن أُحبس في زاوية غرفة معيشة في منزل شخص ما مع مجموعة من النساء الأخريات، نتحدث معاً من دون كلفة في أمور شتى، بينما الرجال يلعبون (البوكر) حتى السادسة فجراً. سئمت من آرائه، وارتبت في ولعه بسائقي السيارات ذوي القفازات السود، ولعلي لم أكنْ مذعنة مثلما كان يطمح، على الأرجح، فيما يتعلق بسلطة الرجل في الأسرة.

على الرغم من ملاحظاتي الممتازة، لم أصبح تلك الزوجة التي كان يريد مهدي أن أكونها. لم أصبح، حقيقة. كان كتاب فرخزاد الشعري «*ميلاد آخر*» إلى جوار سريري باستمرار. كانت قد تمكنت من أن تحل محل رودبه في أحاسيسي. وقد وضعتُ إشارات على فقرات عديدة من قصيدة «الوهم الأخضر»، التي تصور امرأة تجلس إلى جوار النافذة وهي ترنو إلى العالم الذي يمر بها. البيت الأول من القصيدة، وضعت تحته خط عدّة مرات.

طوال النهار وأنا أبكي أمام المرآة
طوال النهار وأنا أثبت عينيّ حياتي

على تلكما العينين القلقتين الخائفتين
اللتين تحاشتا نظرتي المحدقة
وفتشتا، كالكذابين، عن ملاذٍ في خلوة
أجفانهما الآمنة.

أصبحتُ مهووسةً بوصف فروغ لنفسها كغريبة حميمة لكنها مخيفة، زوج من العينين المؤنبتين تصدران الأحكام، وتدينانها. لم يكن قرارها في التخلي عن الحياة الأسرية، وهجرها لزوجها وابنها، وتركها الأمان الذي وفره لها الزواج قراراً سهلاً، بل كان قراراً محتوماً، لا تستطيع أن تحيد عنه. لم يكن موقفها ذاك يدل على أنها تهنئ نفسها، لكنه موقف نابع من الإثم المعذِّب. كانت فرخزاد تعرف أن انتصارها كامرأة متحررة يُمكن أن يُفهم أيضاً على أنه «هذا الخداع، هذا التاج الورقي».

كانت تؤمن أن بقاءها في زواج خالٍ من الحب خطيئة، غير أن تركها لمنزلها وتخليها عن مسؤولياتها قد ملأها بالإثم، وجعلها تشعر بأنها وحيدة. في هذه القصيدة، وفي قصيدة أخرى حملت عنوان (الطلعة المرعبة)، تكلمت فروغ عن ذاتها الأخرى، الذات المنعكسة في المرآة التي تنظر إليها هي بدورها، تنظر إليها باتهام ومن دون حنان ولا شفقة. ولاحقاً، اكتشفتُ السلف الأدبي لهذه الصورة المنعكسة في قصائد عَلَم تاج، وهي ربة بيت، كانت تكبر فرخزاد بجيلين تقريباً، حيث أُجبرت عَلَم على الزواج من رجل عمره ضعف عمرها، ووجدت أن جسده مثير للاشمئزاز. أخفت عَلَم القصائد التي كتبتها - شجبت رياء الدين، والزيجات الخالية من الحب، والحيوات التالفة - بين صفحات كتب شعرائها الكلاسيكيين المفضلين: حافظ الشيرازي،

سعدي الشيرازي، ونظامي. اكتشف ابنها تلك القصائد بعد موتها. وفي قصيدة تلو القصيدة، كانت تشكو حالة النساء اللواتي مثلها، تزوجن من دون موافقتهن، ولم يُسمح لهن بأن يجربن الحب، وتشجب النفاق الديني الذي يحرم النساء من الحريات التي كان يسبغها بكل سخاء على الرجال. في قصيدة (التنبؤ بحرية النساء)، كانت تحلم بزمنٍ بعد وفاتها، تنعم فيه نساء بلدها بالحرية. تقول في قصيدتها إن «حرية الغد» تشبه الطفل الوليد المستريح في حضنها. تسمي الزواج المُجاز دينياً نوعاً من الزنا، وهي تكره نفسها لأنها تنام مع رجل لا تحبه، لأنها تربي طفلاً أنجبته من زواج خالٍ من الحب، «زواج لا يصاحبه الحب، بل تصاحبه الغريزة»، كزواج البهائم. وكذلك كتبت قصيدة عن تجربة التطلع إلى غريبة، إلى ذاتها الأخرى، الجريحة، في المرآة. ولأنها تكره الظروف القاسية التي فُرضت عليها، الظروف القاهرة التي لا تستطيع التحكم بها، فهي تكره ذاتها. هذه الصورة المنعكسة في المرآة المتعلقة بالوجه الذي يوجه إليها إصبع الاتهام، ظلت تلازمني بعد زواجي من مهدي.

عندما رجعنا إلى طهران في الصيف التالي، كنت مستعدة لطلب الطلاق، لكنني شعرت أنني لا أريد أن أزيد حياة أبويَّ تعقيداً، وأضيف هموماً أخرى إلى همومهم. لم تسفر قضية أبي عن تقدم ملموس. وبين حينٍ وآخر كان يُستجوب، وفي بعض الأحيان يطلقون الوعود بقرب الإفراج عنه، وكانت الآمال تكبر لكنها سرعان ما تتبخر، ولم أكن أجرؤ على أن أزعجه بمشاكلي الشخصية. وبعد أن كانت أمي تناصر مهدي، بات الأخير أكثر كوابيسها إزعاجاً. كان إلحاحه في طلب المال سبباً كافياً لاستيائها منه. قالت، أدركتُ الآن

«طمع» أسرته، واتهمته بـ«قلة الاحترام». كيف يتسنى لها أن تتوقع أن يحترمها مهدي عندما لم تكنْ ابنتها تدافع عنها؟ قالت لي: " لقد مضيتِ وتزوجت على العكس من مشيئتي، لكنني الآن من يتعين عليه أن يدفع الثمن. كان الاقتراح منافياً للمنطق إلى درجة أنني لم أفكر في أي شيء يمكنني أن أقوله. تعاملتْ مع مهدي ببرود وبتعالٍ، تخاصمت معه بضراوة، ومن ثم قدمت لي إنذارها: اختاري بيني وبين زوجك. كان إنذاراً سخيفاً - جوهرياً، كان الإنذار يعني أن أطلب الطلاق من مهدي حالاً وهناك. قالت لي إنني إذا اخترته فعليَّ أن أحزم أمتعتي وأغادر منزلنا.

إذا كان بوسعي أن أنسب العاطفة التي شعرت بها ذلك اليوم إلى شيء محسوس - لون الفستان الذي كنت ألبسه؛ كيف، عندما قالت لي أن عليَّ أن أغادر المنزل، كنتُ في غرفة الاستقبال، أدير ظهري إلى النافذة؛ أو كيف، وأنا أصعد درجات السلم المؤدية إلى حجرتي، كان صوتها يتناقص تدريجياً، أحسستُ بألم مفاجئ في ساقيَّ - إن كان بوسعي أن أتذكر هذا الأمر، وأربط ذاكرتي العاطفية بظروف ملموسة أكثر، ومن ثم إذا كان بمستطاعي أن أهب أحاسيسي نوعاً من اللحم والدم، عندئذ ربما لن تكون، حتى في الوقت الحاضر، فجة تماماً. غير أن كل ما استطعت أن أقوله فعلاً هو أنني صعدت السلالم المؤدية إلى حجرتي، حزمتُ حقيبتي، وتبعتُ زوجي بخنوع، وخرجت من منزل أمي، ومضيت للمكوث مع والديه. لا أتذكر ماذا قلنا أنا ومهدي بعد ذلك. كان ينحدر من عالم مختلف، ولم يتعلم كل منا أن يتكلم بلغة الآخر. كان يطرح أسئلةً لا أجد أجوبةً شافيةً لها (لماذا كانت أمي تسمح بهذا القدر من الحريات؟ لماذا كان أبي ضعيف الشخصية؟) وأسئلة أخرى جعلتني أمتعض منه (لماذا يتعين عليَّ أن أزور أبي في

السجن يومياً؟ لماذا آخذ الكتب على محمل الجد؟). غير أنه لم يكن من السهل أن أقيم مع أبويه. على الرغم من أنهما لم يكونا يقولان شيئاً مباشراً عن طردي من منزلنا، أحسستُ أنني مُذلة ومهجورة نوعاً ما.

«الاثنين، السادس من حزيران (يونيو)، ١٩٦٦. اليوم، عند الظهر تقريباً، جاءت آذر وزوجها لزيارتي». كتب أبي في يومياته خلال الأسبوع الأول من عودتنا إلى طهران. «تلك الفتاة السعيدة، والطافحة بالأمل، تحولت إلى سيدة شابة حائرة، يتملكها القلق». وبعد بضعة أيام ذهبتُ لزيارته وحدي، وأول شيء سألني عنه: «هل أنتِ غير سعيدة مع السيد مزهري؟ لا أريدك أن تقعي في فخ زواج غير سعيد. من الأفضل أن تنفصلي عن زوجك الآن». مال عليَّ بتلك الطريقة الجدية التي كان يقوم بها حين يريد أن يوضح لي فكرةً ما ويحاول أن يقنعني بها. قرّب إحدى يديه من الأخرى، وجعل أصابعه تربت على بعضها الآخر. قال لي ثانية: «يتعيّن عليكِ أن تنفصلي عن زوجك، قبل أن يكون لك أطفال». كانت أمي، بطريقتها الاعتباطية المعهودة، قد زارته، ووصفت مبلغ قلقها عليَّ، وكانت تبكي عليَّ ليلاً. يكتب أبي: «قلت لها لا يكفي أن يبكي الأبوان على أبنائهما، وفي غضون ذلك يجعلان أبناءهما يبكون!»

قلت له إنني تزوجت من مهدي لأهرب من المنزل، لكن فيما يتعلق بآمالي، أردتُ أن أحاول تحقيقها. قلت له: «سأغيّره. سأجعله يفهم». هكذا يوثق حوارنا في يومياته. ويضيف أنه على الرغم من تطميناتي، ظل قلقاً عليّ. يكتب: «أخشى ألا تكون هناك نهاية سعيدة لهذه القصة».

في هذا الوقت تقريباً، لجأ أخي إلى طرح سؤاله على أبي بشأن وجود الله. (كان يقرأ برتراند رسل، ويتحدث مع ابن عمي مجيد، الذي كان منهمكاً في قراءة جان بول سارتر). سأل أبي نفسه لماذا يجب على ابنه أن يؤمن بكل ما يقوله. كانت سيرته الوظيفية كلها مكرسة لتحسين أوضاع البلد الذي أحبه. وقد كان يحكي لنا دوماً أنه مهما كانت العقبات مُربكة، فسوف تسود العدالة في آخر المطاف، لكننا الآن نستطيع أن نرى بوضوح تام أن العدالة لا تسود على أرض الواقع. في يومياته التي دوّنها خلال تلك السنة، المشتتة بين أفكاره المتعلقة بتخبطات أمريكا في فيتنام، الشجار المستمر بين إيران والعراق، حسنات الشِّعر، وغباء الشخص الذي كان يحقق معه، وهناك سطر يطفو غالباً على السطح: «إنني أكره نفسي، ولا أريد أن أبقى حياً». كانت تسكنه بصورة متزايدة مشاعر اليأس والإحباط. «زوجتي تعاملني بطريقة ما بحيث كنت أخاف منها»، يكتب في زمن آخر. «كنتُ أخشى أن أطلب منها خدمة، وتنفذها لي بعد وقت طويل وبذلك الترفع الشديد بحيث يفقد المرء السعادة. أخبرت نفيسة اليوم لعل الله قرر أن يختبرني من خلال زوجتي». وبعد لقائه بأحد مقاولي البلدية، كان يعرض عليه استعداده لأن يقرضه المال، يكتب أبي: «بلغتُ مرحلةً حيث المقاول الذي كان يعرض عليَّ الرشاوى بالملايين والتي رفضتُها من قبل، هو ذا الآن يعرض عليَّ استعداده لأن يقرضني خمسة آلاف *تومان*» - نحو سبعمئة دولار - «لأنه يعرف أنني لا أملك النقود. يا لها من حياة حقيرة! لماذا يجب عليَّ أن أتحمل هذا العار. لا يمكنني أن أطيق ذلك بعد الآن. اللهم وفّر عليَّ مَشاهد من هذا الطراز، واقتلني فقط».

بغتةً، في تموز (يوليو) ١٩٦٦، تتغير نبرة يومياته. كان ثمة

حديث يدور حول احتمال إطلاق سراحه بكفالة. قبل ذلك الوقت، حاول عدد من الأشخاص أن يقنعوه بكتابة رسالة يطلب فيها العفو. كانوا يشعرون أن هذه الطريقة يمكنها أن تحفظ ماء وجه الحكومة، وتتسارع وتيرة إطلاق سراحه. بطبيعة الحال، رفض أبي ذلك. كان يشك أن الحكومة كانت تريد طريقة ما للإفراج عنه، ولم يشأ أن يوفر لهم تهرباً سهلاً - وثم، كانت هناك مسألة كبريائه.

بدأ الأمر حينما نشر ألفريد فريندلي، المراسل الصحفي البارز لجريدة «*ذي واشنطن بوست*»، مقالةً طويلةً عن إيران، ذكر فيها قضية أبي. كتب أبي في يومياته المؤرخة في صيف ١٩٦٦ ما يلي: «نُشرت أمس النسخة المترجمة من مقالة ألفريد فريندلي في جريدة «*ذي واشنطن بوست*». إنها مقالة شيقة. وبينما تمتدح المقالة الشاه، وتعتبر مشاريعه سبب التقدم والتحديث، إلا أن كاتب المقالة غير متفائل كثيراً فيما يتعلق بإيران. بل إنه حتى خائف جداً على مستقبلها. . . وتنحصر همومه في مسألتين: الوضع الاقتصادي وأرجحية نشوب أزمة، والقضايا المتعلقة بتحقيق العدالة الاجتماعية، ويذكر صاحب المقالة اسمي في هذا الشأن. وعلى الرغم من أن ما يقوله مختصر ضمن سياق مقالته الطويلة، يظل شيئاً جوهرياً». كتب فريندلي سلسلة من المقالات حول إيران، وفي إحدى المقالات المنشورة في السادس من حزيران (يونيو) ١٩٦٦، كتب تحت عنوان «رائحة مكيدة بحق شخص بريء» ما يلي:

«إن القضية المشينة في الوقت الراهن هي حبس السيد أحمد نفيسي محافظ طهران السابق مدة اثنين وثلاثين شهراً من دون محاكمة. فبعد أن كان رجلاً يحظى بالتقدير والاحترام، ونال

استحسان الشاه وإطراءه، اتُّهم نفيسي (بصورة عادلة أو غير عادلة، بحسب الشخص الذي تستمع إليه) بالفساد المالي فيما يتعلق بمقاولات معينة خاصة ببلدية طهران، يُشم من هذه القضية رائحة مكيدة دبّرها ضده خصومه السياسيين، وأعداؤه الشخصيون. قبل أسابيع مضت، وبعد أخذ ألفي صفحة من الإفادات، لم يجد النائب العام أي قضية ضده. وبدلاً من إطلاق سراحه، كانت النتيجة البدء باستجواب جديد. وربما يبقى نفيسي في السجن بضع سنوات من دون محاكمة».

*

نشر السيد أميراني ترجمة لمقالة فريندلي في مطبوع «*خاندانيها*». يُقال إن الشرطة السرية منعت نشرها، لكن أميراني رفع شكوى إلى الشاه، الذي كان مسروراً بانتقاد برنامجه الإصلاحي، فأمر بنشرها. أثارت المقالة لغطاً واسعاً في الأوساط السياسية. وفي ثقافة ما استندت إلى الأقاويل والتلميحات، ثمة حقيقة تفيد بأن إعادة نشر المقالة باللغة الفارسية عُدّتْ إشارة إلى أن قضية أبي سوف يتم تفعيلها مجدداً. زار أبي أصدقاء فرحون، وأناس يتمنون له الخير، حدسوا جميعاً أن يتم إطلاق سراحه حالاً. وعلى الرغم من تشاؤمه، كان لهذه التوقعات الواثقة بنفسها تأثير عليه. وكانت ترميه غالباً في لجة الرعب. ماذا سيفعل؟ إذا خرج من هنا، فإلى أين يذهب؟ طوال سنوات حياته عمل موظفاً حكومياً، وتسلق درجات السلّم الوظيفي. ماذا سيفعل الآن؟ هل سيكون مديناً أبداً لأمي بعد أن فقد الآن وظيفته؟

السيد جاهانباني، وهو صديق أبي، ومرافق حميم لرئيس الوزراء أمير عباس هويده، زار أبي كي يخبره أن «أمير عباس» بعث بأحر تحياته، واقترح أنه ما دام «سوء الفهم» قد حُلَّ، فإن الحكومة تريد أن تغلق ملفه، وتدعوه للعودة إلى وظيفته. «لو أنهم حبسوني عشرة أيام

أو شهراً لا غير»، يكتب أبي في يومياته، ويضيف: «لو أنهم جهزوا فقط عشرين أو ثلاثين ملفاً ضدي، لو لم يتعرض ما يزيد على ثلاثمئة عامل وموظف في بلدية طهران للاضطهاد، والتهديد، ويتم استجوابهم عنوةً من قبل قسم العدالة، ويُعتقل بعضهم، وتُلطخ أسماؤهم بالوحل، لو لم يكن مقدار المال الذي تزعم الحكومة أنه سُرق هو ستمئة مليون *تومان*، فربما سيكون لاقتراح رئيس الوزراء معنى ما».
وبعد مرور شهر زار السيد جاهانباني أبي مجدداً كي يقول له إن الشاه قد أمر قسم العدالة أخيراً باتباع النص الحرفي للقانون: أن يتم الإفراج عنه بكفالة، وتُضمن له محاكمة عادلة حيث يستطيع الدفاع عن نفسه. أخبرته أمي فرحةً أنها سمعت من أم زوجة الشاه أن الشاه أمر رئيس الوزراء أن ينهي التحقيق. عاد رحمن من زيارة له إلى أصفهان في ذلك الوقت تقريباً، وزعم أنه تحدث بحميمية مع طيف جدي، الذي قال له إن مدة الحبس هذه ستكون مفيدة لأبي. وبحسب ما قاله رحمن، إن طيف جدي كان يوصيه بأن يهتم أكثر بأمه.

وفي هذه اللحظة، جاء الجنرال ناصري، رئيس جهاز الشرطة السرية البغيض الذي لعب دوراً فاعلاً في تلفيق تهمة ضد أبي، جاء لزيارته في السجن. قال إن سبب حبس والدي هو تشدده وعناده. وبعدها أخبر أبي أن يكتب رسالة ندم موجهة إلى الشاه، مشيراً ضمناً أن رسالةً كهذه هي وحدها التي ستحقق له حريته. وفي كتابه، نشر أبي الرسالة التي دوّنها أخيراً مخاطباً فيها الشاه وفيها يستعرض التُّهم التي لُفقت ضده ويفندها. وبعدها يكتب: «أود أن أعتذر عن كل الجرائم التي لم أرتكبها، أو التي لا أعرف طبيعتها، لأنني شوّشت هدوء بال جلالته. إنني أترك المجرمين الحقيقيين لغضب الله». واستشهد أبي بآية من القرآن الكريم ذكر فيها أن أولئك الذين يخادعون

الله عليهم أن يعرفوا أن لا سلطة تعلو على سلطة جلالته، وأن الله هو الذي سيعيد إليهم ثمار خداعهم.

أخبر الجنرال ناصري أبي أن تلك الرسالة لم تكن اعتذاراً، ولن تحل المشكلة. وبدلاً من الاعتذار، فإنه يتهم الحكومة، ويتهم الشاه ضمنياً. وعندما أُطلق سراح أبي بكفالة في خاتمة المطاف، بعث له الجنرال رسالة قائلاً له إن رسالته كانت مسؤولة عن المدة الإضافية التي قضاها في السجن.

كان الجنرال ناصري واحداً من أكثر الناس الذين تكرههم أسرتنا، ويأتي مباشرةً بعد بيراسته، وزير الداخلية. عندما أصبح ناصري رئيس جهاز (السافاك)، تعدت كراهيتنا له الأسباب الشخصية. لم أظن يوماً أنه إنسان ذو قلب. ومع ذلك يظهر في يوميات أبي بوصفه رجلاً ساذجاً، وبسيطاً، يذرف العبرات عندما يرى أبي في السجن. لقد عرفت كيف أن الأمور كانت أعقد مما ظننت، وأن الرجال الذين يسفحون الدموع بوسعهم أيضاً أن يكونوا غلاظاً وأجلافاً وظالمين. بعد الثورة، عندما شاهدت وجهه الذي تعرض للضرب الشديد على شاشة التلفاز، وبعدها صادفت صور جثته، جنباً إلى جنب مع جثث الموظفين الآخرين المعدومين، أحسستُ، ويا لدهشتي، بحزن شديد. طوال سنوات عديدة حلمت بالثأر، ليس لأبي فقط، بل لأولئك المنشقين الذين أُلقي القبض عليهم، وعُذبوا، بسبب الرعب الذي كان يبثه جهاز (السافاك) في أفئدة الناس. وعلى مدى أعوام، فكرت في هذا الرجل بوصفه ظالماً خسيساً، وكنت أنتظر نوعاً من العقوبة. وحينما شاهدته على شاشة التلفاز، بدأت أدرك كم من السهل علينا أن نكون انتقاميين ووحشيين على غرار أولئك الذين كنا نتهمهم.

داستان تلخ!

۳۳ ماه زندانی شهردار تهران و ۳٤ مهندس وشخصیت تشکیل صدها جلسه محاکمه وبازپرسی ـ ترتیب ۳۷ هزار برگ پرونده ـ نوشتن وقرائت ۳۵ صفحه رای دادگاه ـ تحمل میلیونها ریال خرج برای نگهداری این زندانیان همه وهمه براساس:

یك اعلام جرم پوچ وواهی !؟

بااعلام رای دادگاه در مورد پرونده نفیسی وهمکارانش دادگستری بازهم ثابت کرد که دادگستری واقعی میکند



أعلنت الصحف بحماسة نبأ إطلاق سراح أبي.

أُطلق سراح أبي بكفالة في أواخر آب (اغسطس) ١٩٦٦. ولكي تصعّب المحكمة الأمور عليه بأكبر قدر ممكن جعلت الكفالة بمبلغ خمسة وخمسين مليون ونصف *تومان* (ستة ملايين ونصف مليون دولار تقريباً). يكتب أبي بسعادة وتأثر وبزهو واضح أنه صُعق عندما رأى العدد الغفير من الناس الذين غص بهم قسم العدالة كي يبدوا استعدادهم لكفالته. يكتب: «شعرتُ أنني أكاد أبكي. لم أكنْ أعتقد أن سكان طهران طيبين إلى هذه الدرجة. هذه الأمة غاية في الغرابة. تشاهد الاستبداد في صمت، وفجأةً تبرهن على إرادتها - حقيقة وجودها - عبر المقاومة المنفعلة. كان هناك بين أولئك الناس الذين تجمهروا اليوم ليكفلوني أشخاص من مختلف الطبقات الاجتماعية، وشتى الأديان: البقال في آخر الشارع فضلاً عن صاحب (سوبر ماركت إيران)، رجل يهودي تربو ثروته على مئات الملايين. أصدقائي، زملائي، أقاربي القريبون مني والبعيدون: جميعهم كانوا هنا اليوم. بحلول وقت الظهر قدموا مئة وعشرين مليون *تومان*». وفي يومياته يدرج أبي في قوائم أسماء الأشخاص الذين قدموا له العون، كي نُظهر لهم نحن أبناءه - لاحقاً - اعترافنا بجميلهم.

في النهاية أُطلق سراحه بكفالة، وأجّلوا محاكمته. لم يُحدد تاريخ لمحاكمته. كان يتعين علينا أنا وزوجي أن نعود إلى أوكلاهوما ذات يوم، ولم يكنْ بوسعي النوم ولا تناول الطعام خوفاً من احتمال سفري قبل أن أشهد إطلاق سراح أبي. تصالحتُ مع أمي، ورجعت إلى بيتنا. كان هاتفنا يرن ليلاً ونهاراً، وكان الناس يزوروننا في الأوقات كلها. أمضت الخالة نفيسة معظم ساعات النهار في منزلنا، وحاول رحمن أن يقبض على يدي، حيث جعل يربت عليها، ويقول: «انتبهي

إلى كلامي، سترين أباك قبل مغادرتك إلى أمريكا. وماذا تعطيني إذا تحقق هذا الأمر؟»

تناقل الناس شائعة مفادها أن الرئيس الجديد لسوق الفواكه والخضار قد حشد جميع الباعة وأصحاب المخازن كي يستقبلوا إطلاق سراح أبي بهتافات الاستحسان. وغص قسم العدالة بالمؤيدين. كنا قد انتظرنا هذه اللحظة إلى درجة أنها حينما وقعت بدت أشبه بشيء نسجه خيالي. كانت تغمرني طاقة عصبية، ولم يكن باستطاعتي أن أبقى في موقع واحد. لكنني أحسستُ أيضاً أنني مخدَّرة ومرهَقة بصورةٍ مثيرة للفضول، وهذا ناتج عن الانتظار المصحوب بالقلق الذي دام ثلاث سنوات. مكالمات هاتفية، زهور، وركض نحو باب منزلنا. متى سيصل إلى هنا؟ كنا جميعاً نصطدم بعضنا ببعض، كمشاهدي عرض فني تزاحموا لمشاهدته. ولم يطلقوا سراحه من السجن إلا عندما أصبح الوقت الساعة الحادية عشرة ليلاً. وعلى الرغم من حقيقة أن الوقت متأخر، وسئم الناس من الانتظار، يكتب أبي أنه رأى الوجوه الشبحية للمؤيدين المتوقعين يصطفون على امتداد الشارع خارج السجن. قالت له مصادر حكومية إنه يتعيّن عليه ألا يذهب مباشرةً إلى منزلنا لأن هذا الحدث قد يجتذب الجبناء. لذلك كانت محطته الأولى منزل خالتي نفيسة. لا بد أن هذا الأمر قد كلّف أمي نوعاً من الألم. كانت تستاء من أختها من أبيها فقط وفي الوقت نفسه كانت متلهفة لفضلها كما لو كانت أختها الصغرى، التي أخطأت خطأً فاضحاً. كانتا تتخاصمان ولا تكلم إحداهما الأخرى شهوراً، لكنهما عندما تتصالحان، كانت أمي تتخذ موقفاً متملقاً ذليلاً نوعاً ما نحو خالتي، الأمر الذي جعلنا نحن الاثنين أنا وأخي نشعر بالغضب وبالخجل.

بعد إطلاق سراح أبي بثلاثة أيام غادرتُ طهران. أمضى أبي ليلته

الأولى في منزل خالتي نفيسة، وأمضى نهار اليوم التالي مع حشود من الزائرين وباقات الورود، لكنه ذهب إلى منزلنا ليلاً. قضيت ليلتي الأخيرة في منزلنا كي أكون قريبة من أبي. كتب أبي في يومياته: «صباح الخميس غادرت آذر متجهةً إلى الولايات المتحدة الأمريكية. في المطار حصلت بعض المشادة الكلامية بين نزهت وزوج ابنتها. لسوء الحظ، هذا الشاب مغرم بالمال، ومتلهف لأن يضع يديه عليه، على العكس تماماً من آذر. أخشى أن يفترق هذان الاثنان في نهاية الأمر».

*

إن معظم المشادات الكلامية الجدية في الحياة ليست سياسية، إنها وجودية. قد يتفق المرء مع وجهة نظر سياسية لأحد ما، لكنهما لا يتفقان بصورة جوهرية فيما يتعلق بطريقة وصولهما إلى ذلك الموقع. إنها مسألة موقف، مسألة وضع أخلاقي. كانت لنا نحن الاثنين، أنا وزوجي، الكثير من المظالم، لكنها تقلصت إلى اختلاف جوهري في الطريقة التي كنا نرى فيها الحياة، السياق الذي تعرفنا في داخله إلى أنفسنا وعالمنا. ولذلك، لم تكن هنالك مصالحة أو حل، كان هنالك فقط الانفصال أو الاستسلام.

في لحظة ما، لم يعد بوسعي أن أتحمل أكثر. لم يكن ذلك لأنني لم أعد قادرة على تحمّله، بل لأنني لم أعد أتحمل نفسي. إن لم أتركه حالاً فإن ذلك سيكون إثماً بشكل من الأشكال، لأنني أحسست أنني الشخص الذي كان زائفاً. عندما تزوجنا كنت أعرف جيداً أي نوع من الرجال كان مهدي. لم يخفِ طموحاته عني. صحيح أنه لم يخبرني عن المرأة التي كانت تسكن معه، والتي طردها بسهولة شديدة، لكنني بصرف النظر عن ذلكَ، اتخذتُ قراري بعينين مفتوحتين، مع أنهما عينا فتاة لا تزال في سني مراهقتها، وتخضع لضغط كبير.

قال لي مهدي إنه يود العودة إلى طهران بعد تخرّجه في كلية الهندسة الكهربائية، لأن أبويه طاعنان في السن، ويريد أن يكون قريباً منهما. لم يكنْ يريد أن أبقى في أمريكا وأنال شهادتي أنا أيضاً، ولا يستطيع الانتظار حتى تخرّجي. الحقيقة هي أننا سواء بقينا في نورمان ريثما أكمل دراستي، أو قصدنا أي مكان آخر، كنتُ سئمةً من الدور الذي كنتُ ألعبه. بدأت أسعى لمصادقة فتيات لا يذهبن إلى مصففات الشعر - غالبيتهن زميلاتي في الصف يدرسن الفلسفة والأدب الإنكليزي. هؤلاء الصديقات ينتمين إلى حركة (الهيبيز)، يقرأن لشعراء من مثل فيرلنغيتي وغينسبرغ. أما أنا، على غرار معظم فتيات المجموعة، كنت متيمة بزميل لي في الصف يُدعى شارلي، كان يلبس زي بطل فيلم «غريب في بلاد *الغرباء*» للمخرج روبرت هينلين. كان زوجي يكره صديقاتي، ولا يريد أن أزورهن. لذلك فعلت ما تعلمت أن أفعله مع أمي: عندما يأتي ليسأل عني، يقلن له إنني لست هناك.

وبعدها تخاصمنا. كنت أريد أن أمتلك حرية لبس سراويل (الجينز) والفساتين الطويلة. كانت ملاحظاتي الشخصية قد ذهبت من «*مجلة بيت السيدات*» إلى بيتي فريدان، إلى حدٍّ ما تحت تأثير أستاذة جامعية أصبحت صديقتي وناصحة مخلصة لي. سأتذكر دوماً اختبار شريط عباد الشمس الخاص بالحب الذي لقنتني إياه. إنكِ تعرفين أنك تحبينه إذا أحببتِ حتى جواربه القذرة، قالت لي وهي تبتسم ابتسامة حلوة وأصيلة. إن لم تستطيعي أن تتحملي الجوارب الوسخة فعليكِ أن تنفصلي عنه.

رفض مهدي فكرة الطلاق. في البدء كان يقول: «لقد دخلتِ منزلي بفستان الزفاف الأبيض، وسوف تخرجين منه بالكفن الأبيض». (في الواقع، لم يكن ذلك المنزل ملكاً له، بل شقة مستأجرة، كنت

أسدد نصف بدلات إيجارها). ولذلك لجأت إلى الانتقام منه. فعلتُ ما أردت. انتعلت أحذية المقسين[1]، وسراويل (الجينز)، بدلاً من الفساتين الصغيرة متكلفة الاحتشام واللائقة التي كان يحبها. لم أذهب إلى صالون الحلاقة النسائية، وكنت أشرب كأساً من الخمر عندما أرغب في ذلك.

ذات مساء، في خضم شجار حصل بيننا، صفعني على وجهي. بعدها تركت المنزل. قلت له إننا لا نستطيع العيش معاً إذا رفع أحدنا صوته بوجه الآخر، والآن تدهورت علاقتنا أبعد من ذلك. ولهذا من دون أن أخبر أبويَّ بالسبب الحقيقي للرحيل عن نورمان، حزمت حقائبي، ولحقت بصديقتي الأستاذة الجامعية إلى مزرعة للماشية في نيو مكسيكو، حيث كانت قد انتقلت إلى هناك كي تبدأ سيرة وظيفية جديدة بوصفها رئيسة لقسم الفلسفة في كلية صغيرة.

بشكلٍ من الأشكال كنت أشعر بالشفقة على مهدي. لم ينلْ ما ساوم عليه، أما أنا فكانت لي ميزة أنني لم أتوقع شيئاً. قال لي: «إنكِ لن تكوني ربة بيت جيدة. لكنني لم أحبكِ بسبب تلك الصفات، بل أحببتكِ لنفسك». والشيء الرهيب أنني صدقته.

كنتُ في نيومكسيكو عندما بدأت محاكمة أبي جدياً، في أيلول (سبتمبر) ١٩٦٧، بعد سنة من إطلاق سراحه بكفالة. كانت جلسة المحاكمة مغلقة، مع أن الحكومة أعلنت أنها ستكون مفتوحة؛ وحتى عمي لم يُسمح له بحضورها. كان الدليل المقدم في المحاكمة مثيراً للضحك في معظم الأجيان. قدم النائب العام شريطاً مفبركاً لأبي مع

---

(١) المقسين: حذاء لا كعب له مصنوع من جلد ناعم - م.

أكثر الناس الذين أحطوا من قدره: سيد مهدي بيراسته، وزير الداخلية، وفي الحوار المسجل أهان أبي الشاه. كان الغرض من هذا الشريط المسجل هو البرهنة على واحد من الادعاءات ضده: الادعاء بالعصيان والتمرد. كان صوت بيراسته هو نفسه لكن صوت أبي كان مزيفاً بشكل جلي؛ نبرة صوته وسلوكه كانا زائفين. كان الشريط المسجل نموذجاً للقضية المرفوعة ضده.

كان أبي رابط الجأش، وقدّم دفاعه عن نفسه. كان بطول مئة وثمانية وعشرين صفحة، ويبدأ باقتباس من الفردوسي، وتخللته حكايات ونوادر من جلال الدين الرومي، وسعدي الشيرازي، وشعراء فرس آخرين فضلاً عن الإمام علي، والقرآن الكريم، وفولتير. وفيما بعد أخبرني أبي أن قراره بالاقتباس من الأدب الكلاسيكي كان مدروساً: اختار أفضل ما في التراث الإيراني، لكي يُري أعداءه أنهم لم يكونوا الأبناء الحقيقيين لهذا البلد، وأن إيران تمتلك تقاليد أخرى، وقيماً أخرى، وكان أبي يمثل تلك التقاليد، وتلك القيم.

في بداية دفاعه اقتبس نادرة من الملا نصر الدين، الشخصية المعروفة بالقصص الخيالية الساخرة. ذات يوم، كان الملا مدعواً لإلقاء موعظة. وعندما صعد إلى المنبر، سأل جمهوره ما إذا كانوا يعرفون ما سيقوله. فأجابوا بلا. غضب الملا - ما هي الفائدة من التحدث إلى أناس جهلة كهؤلاء؟ وفي اليوم التالي كرر السؤال نفسه. قال بعض الأشخاص من بين الجمهور إنهم يعرفون ما سيقول، وبعضهم الآخر أجاب بلا. وهذه المرة قال لهم نصر الدين: «أولئك الذين يعرفون يمكنهم أن يخبروا أولئك الذين لا يعرفون». وفي اليوم الثالث كرر سؤاله مجدداً، فردّ الجميع أنهم يعرفون ما سيقول. «لم يتعيّن عليَّ أن أبدد وقتي بأن أخبركم ما تعرفونه أصلاً؟» سأل الملا

بينما هو ينزل من المنبر. أخبر أبي المحكمة أن هذه هي قصته: «إنني لا أعرف لماذا أُلقي القبض عليَّ. إذا لم يكن هناك شخص غيري يعرف السبب، فإننا إذاً سواسية. وإذا كان هناك، على أية حال، بعض الأشخاص يعرفون فعليهم أن يخبروا الأشخاص الآخرين منا الذين يجهلون السبب». شجب أبي المحكمة، واتهم بعض الموظفين الحكوميين بالاسم، من بينهم بيراسته، بالتآمر الخبيث. وجعل يتطرق إلى جميع التهم، وراح يفندها واحدة واحدة، وأنهى دفاعه بقصيدة كتبها لهذه المناسبة.

انتهت المحاكمة في السابع والعشرين من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٧، وقد بُرّئ من جميع التهم إلا واحدة، ألا وهي: العصيان، ونتيجة لذلك مُنع من العمل ثانية في الوظيفة الحكومية. وفي النهاية أُعيد النظر في ذلك القرار، وأُسقط في المحكمة العليا، التي برأته من كل التهم الموجهة ضده. كانت الصحافة تقف إلى جانبه بصورة ساحقة؛ الصحف الرئيسة الثلاث: «*سيبيد سيا*»، و«*خاندانيها*»، و«*أوميد إيران*»، خصصت افتتاحياتها للدفاع الذي أدلى به أبي. بعد تبرئته منحه رئيس الوزراء وظيفة حكومية، لكنه رفضها. كان قد قرر إلا يدخل سلك الخدمة الحكومية ثانيةً.

كنتُ في نيومكسيكو عندما اتصل أبي هاتفياً كي يخبرني بالأنباء. هنأته، وبعد أن تحدثنا قليلاً، قلت له فجأةً: «أريد أن أطلّق مهدي». كانت نبرة صوتي حيادية ورسمية. كنت أخشى أن أكون عاطفية جداً. أعتقد أن أبي أدرك ذلك. صمت قليلاً. «هل أنتِ متأكدة؟»

قلت: «أجل. إنني متأسفة، إذ إنني لم أشأ التطرق إلى هذا الموضوع الآن». قال لي: «كنت أروم أن أسألكِ عما تفعلينه في نيومكسيكو. لا تبالي، سنتحدث عن كل شيء فيما بعد. لا تبالي».

كنتُ مندهشة لأن لا أبي ولا أمي طلبا مني أن أعيد النظر في مسألة الطلاق. وفي الصيف التالي عندما رجعنا أنا ومهدي إلى طهران، بذل أبواي أقصى ما يستطيعان كي يسهلا عليَّ الأمور. في البداية لم يوافق مهدي على طلبي الطلاق منه. فذكّر أبي زوجي بقدرتي على طلب مؤخر الزواج في أي وقت، حتى إذا لم يطلقني. المؤخر في إيران هو المال الذي اتفق الطرفان في وقت الزواج على أن يُدفع إلى الزوجة في حالة الطلاق، وبوسع الزوجة أن تطالب به في أي وقت من الزواج. وقد استخدمت نساء كثيرات هذه المسألة كي يتخلصن من الزيجات الرهيبة. وفي الختام، توصلنا إلى الاتفاق بأنه إذا وافق على الطلاق فإنني سأتنازل عن كل مستحقاتي من المؤخر. نجح الاتفاق. كان أبواي قد وقفا إلى جانبي، ودعما موقفي، إلى درجة أنني كدتُ أنسى أنني تزوجت وانفصلت عن زوجي. «يا آذي المسكينة، إنكِ لم تستمعي بحياتك»، قالت أمي، وهي تنظر إليّ، وعيناها طافحتان بالشفقة عليَّ. وأضافت: «كان بوسعي أن أحدس منذ البداية أن هذا الزواج لن يُكتب له النجاح. فهو ليس من طرازنا. إنما لم يستمع إليّ أحد».

كانت السنوات الأربع التي أمضاها أبي في السجن قد غيّرتْ حيواتنا إلى الأبد. ولأول مرة أدركنا هشاشة الحياة، وكيف من السهل أن نفقد كل شيء، وكيف غيّر ذلك طريقتنا في النظر إلى الحياة برمّتها، تلك الحياة التي كنا قد حسبنا أنها ستستمر بالوتيرة نفسها. أصبحت أمي شخصية مختلفة. وعلى مدى الشهور التالية، عندما اتخذت حياتنا وتيرتنا الجديدة، راحت تقرأ، بعينين تفيضان بالدمع، قصائد أبي التي كتبها لها. وحتى حاولت أن تشاهد معه البرامج

التلفازية الأثيرة لديه، على الرغم من أن النعاس كان يداهمها في أغلب الأحيان في منتصف البرنامج التلفازي. ظلت مخاوفها وهمومها على ما كانت عليه: كانت تقلق عندما يعود متأخراً بعض الشيء إلى البيت، وحينما يرن الهاتف في ساعة متأخرة من الليل، أو يرن جرس الباب في الصباح الباكر. كان الأمر يتطلب مكائد عدّة رجال ممن يمتلكون نفوذاً في البلد كي يستطيع أبي أن يحقق حلمه في زواج سعيد. وراح ينظر الآن ببعض القناعة إلى الماضي، وتحديداً إلى ذلك اليوم، عندما كان شاباً في الثامنة عشرة، ولاذ بالفرار من بيت أبويه بتقاليدهما الراسخة التي لا مناص منها، وطلبهما بأن يتزوج من فتاة يختارانها له كي يبدأ حياة جديدة، كل الجدة.

لأبدأ من جديد:

يمكنني القول بكل صدق وإخلاص إن حبس أبي قد جلب عهداً جديداً إلى حيواتنا. تزوجتُ وانفصلتُ، فقدتُ إيماني بالزواج والأمانة الزوجية. أعتقد أن ذلك حصل عندما قرر أبي أن يخون أمي بصورة خطيرة. لقد فقد جميع آماله في الحياة العامة التي كان يرغب فيها. كان ما يزال في مقتبل العمر - إذ لم يكن قد بلغ الخمسين. أما أنا وأخي محمد فقد كنا بالغين. عندما أُطلق سراحه من السجن لا بد أنه قرر أنه ما دامت السياسة غير واردة، فإنه سيحاول أن يحقق حلمه في حياة أسرية سعيدة. لكن أمي لم تتغير على الإطلاق. وكما اتضح لاحقاً، كانت ثمة عواقب شخصية معينة فضلاً عن عواقب سياسية لحبس أبي، لكننا لم نكتشفْ ذلك إلا بعد مرور إحدى عشرة سنة.

الجزء الرابع

تمردات وثورة

«ماذا يبقي من إنسان يبلغ مرحلة التداعي. ماذا يبقى من الجزء المتكلم منه. من جزء من كلامه».

– جوزيف برودسكي

الفصل العشرون

أسرة سعيدة

بعد طلاقي قدمت إلى جامعة كاليفورنيا الواقعة في سانتا بربارة، وقُبلتُ فيها. كُنتُ أعتقد أن فيها قسماً كبيراً للغة الإنكليزية، ولسبب ما كنت قد صممت على الذهاب إلى هناك قبل زواجي من مهدي.

كنتُ مستلقية في فراشي أقرأ رسالة قبولي في الجامعة عندما دخل أبي غرفتي. جلس على حافة سريري وقال لي إنني إذا التحقت بكلية جديدة في منتصف دراستي الجامعية فإنني سأضيع كثيراً من الوحدات الدراسية التي تلقيتها، وإن تخرجي في الجامعة سيتأخر. كان يريد مني أن أنهي دراستي في جامعة أوكلاهوما. واحتججتُ قائلةً إنني كنتُ أرغب دوماً في الذهاب إلى سانتا بربارة، لكنه مضى يقول إنه كان يأمل أن تكون لديه الفرصة ليمضي معي الوقت قبل أن يهرم، كما قال إنه يريد مني أن أتخرج مبكراً، وأن أعود إلى بلادنا في أقرب وقت ممكن. قال: تذكري أنك من البداية لا تريدين أن تغادرينا. كنتُ قد أسدلت الستائر، ولم يكن هناك ضوء في الغرفة باستثناء ضوء المصباح الذي بجانب السرير. كان جالساً في طرف السرير، وأنا نصف جالسة، وأستند إلى أحد مرفقيَّ. صورة شخصية (بورتريه) حميمة، الأب والابنة، بإنارة الضوء الصناعي المنبعث من المصباح.

لذلك بقيتُ في جامعة أوكلاهوما. لم أندم على ذلك. لكنني

ربما كنتُ سأعود إلى الوطن في وقت أبكر لو أنني التحقت بجامعة كاليفورنيا في سانتا بربارة، حيث لم تكنْ هناك حركة الطلبة الإيرانيين التي كانت قد تأسست منذ عهد قريب واضطررت للإسهام في أنشطتها، وكان بمستطاعي أن أركز أكثر على دراستي، بدلاً من تنظيم المسيرات الجماهيرية.

بدأت حياتي في أوكلاهوما من جديد، كما لو أنني لم أتزوج من قبل - كان ذلك، على الأقل، هو إدراكي الحسي، مع أن الآخرين لم يشعروا هكذا. أما بعض أصدقائنا ومعارفنا القدامى، فقد حاولوا إما أن يتصيدوا أخطائي، أو أنهم أبعدوا زوجاتهم عني مخافة أن أنقل إليهن تأثيراً سيئاً. وحصل ذلك أيضاً مع الشبان الأمريكيين الذين كانوا يعدّون الشابة المطلقة مستهترة. وحتى زوجي السابق فعل الشيء نفسه، إذ كان يكتب لي رسائل غرامية من إيران، ينصحني فيها كيف ينبغي لي أن أتصرف، وإلى أين أتوجه، وماذا أفعل، وكيف أحافظ على كمالي.

عندما عدتُ إلى الوطن في الصيف التالي، قدمني أبي إلى المرأة التي وقع في غرامها. «تفتش نزهت عن ذاتها المجهولة وغير المرئية»، هذا ما كتبه في يومياته ذات يوم، قبيل إطلاق سراحه من السجن. «ذات يوم فقدت نزهت شيئاً ما ولا تعرف كيف تجده. لعلي كنتُ ذلك الشيء الذي كانت تبحث عنه، لكنني لستُ هذا الشيء. لعلهم الأولاد، لكنهم ليسوا هذا الشيء. ربما كان هذا الشيء هو المنصب، الثروة، أو الشهرة. لا أدري ما هو بالضبط. إنها قلقة، متوترة الأعصاب، ضجرة دوماً. تظن نفسها قلب العالم! ماذا أفعل؟» من بين جميع إخوانه، كان قد غامر بخطورة في رفض رؤية أبيه إلى العالم. كان شيئاً ضرورياً بالنسبة لأبي، ولحلم النجاح الذي راوده وحثّه على

مغادرة أصفهان وهو في سنته الثامنة عشرة، أن يجد امرأةً يعشقها. كتب في خريف تلك السنة: «تمنيت لو أن لي حبيبة، ويكون لي فضاء أختلي فيه معها، ونكون مخلصين أحدنا للآخر، ونسعد معاً، لكن للأسف لقد شخت، وأخشى أن هذه الأيام الباقيات سوف تمر هي أيضاً، وتكون السعادة المتخيلة التي حلمتُ بها غايةً لا تُدرك، كما هو حالها دوماً».

لم يمرّ وقت طويل على خروجه من السجن حتى قَبِلَ بمنصب المدير التنفيذي لمعمل نسيج عائد للقطاع الخاص، كان يملكه صديق عزيز عليه توفّي منذ مدّة قصيرة. في معمل النسيج التقى بـ شاهين، التي كانت سكرتيرته، وفيما بعد، عندما ترك عمله وأصبح نائب مدير البنك الإيراني، تركت عملها هي كذلك.

كنت قد حللت في طهران قبل بضعة أيام حينما أخذني للقاء بها. شربنا الشاي معاً، وناقشنا ميزات الشعر المعاصر، وبخاصة شعر أحمد شاملو - لعله أكثر الشعراء المؤثرين الأحياء في إيران - والرذيلتين المتلازمتين في قصائده: الرياء والنزعة المادية. كان حواراً عمومياً مليئاً بالأشياء التافهة والكلمات الكبيرة، وهي طريقة للتأكد من أن الشخص الآخر هو على غرار شخصيتك. سواء عن وعي أو لاوعي، كنا نحن الاثنتين نرغب في أن نحب إحدانا الأخرى، وأن ندخل السرور والرضا إلى قلب أبي. وكان أبي سعيداً، وهو ينعم بهذه العلاقة الغرامية المتبادلة.

لم تكنْ شاهين جميلة كأمي، إنها فقط أصغر سناً، وواثقة بنفسها أكثر. ربما (مبوّزة) هي الكلمة الصحيحة. في ظني إن ما جذب أبي إليها هو أنها على ما يبدو كانت تشاركه اهتماماته: كانت تجمع قصائده، وتتعاطف مع حالاته، وكانت تقدم على ما يبدو ملاحظات

حكيمة مستقاة من كتب علم النفس. كتب والدي في يومياته: «تكلمت عن هذا الأمر إلى صديقتي المحبوبة وهي جميلة وعاقلة في الوقت نفسه. قالت لي: من وجهة النظر النفسية، إن النساء اللواتي يبلغن العمر الذي تتلاشى فيه جاذبيتهن، يفعلن أي شيء من شأنه أن يلفت الأنظار إليهن، حتى إذا كان ذلك يعني أنهن يتمنين موت الزوج».

كانت تلك سخرية جلية تماماً أن نساء أبي كن يُستقبلن خير استقبال من لدن أمي. لقد اختارتهن هي نفسها. وقد لفتن انتباهها لأنهن أبدين إعجابهن وولعن به. لم يكنْ لأي واحدة من نساء أبي قاسم مشترك مع أمي، ومع ذلك سعت إلى إقامة علاقات شخصية معهن. إن حقيقة تطرقها إلى سيفي باستمرار كشفت بشكل صريح خيانتها العاطفية، وهو أمر لم يخطر في ذهنها. وهكذا كان الأمر مع شاهين. أمي، التي لم يكن بالمستطاع إبقاؤها بعيداً عن مكتب أبي في معمل النسيج، كانت قد وجدت لديها ميلاً لشاهين خلال زياراتها المنتظمة للمعمل. فقد وجدتها فتاة فاتنة، جدية، حسنة السلوك، وكانت تدعوها عادةً لتناول الغداء أو لشرب القهوة. يتراءى لي الآن ذلك كله مجدداً، ونحن جالسون في غرفة المعيشة الساطعة، والواسعة بمنزلنا، أبي، أمي، شاهين، وأنا. تضع شاهين كوب قهوتها الخزفي على الطاولة، ترهف السمع بأدب إلى أمي، تتمتم بشيء مناسب رداً على كلامها. شاهين تلبس بذلة بسيطة، بنية اللون، شعرها مسحوب إلى الوراء بقوة في كعكة أنيقة خلف رأسها. وثمة قرطان كبيران ومستديران من الذهب يلمعان بإزاء شعرها الأسود: مظهرها يشبه مظهر سيدة، جذابة، ولطيفة. وكانت أمي تبتسم بسمة ودية تحتفظ بها للخاضعين لسلطتها. وبدلاً من أن أتعاطف مع أمي، كنت أشعر بالحرج نحو شاهين لأن عليها أن تتحمل ذلك. وبين الحين والآخر

كانت تتفادى النظرات، وتشيح عينيها جانباً، لا لتنظر نحو أبي، بل كي تبعد نظراتها عنه. لمحت النظرات المتبادلة بينهما، بينما هو ينظر نحو نقطة بعيدة عنه، ويبتسم بسعادة بسمة غير ملائمة.

عدتُ إلى أوكلاهوما في منتصف آب (أغسطس) بعد أقوى وأعنف شجار لي مع أمي حتى ذلك الوقت. وأخذتُ على نفسي عهداً ألا أعود إلى طهران، وكتبت رسالة إلى أبي طافحة بالمحبة، وصفت أمي فيها كونها مجرد امرأة مخبولة، وقلت إنه يجب أن تُودع مستشفى الأمراض العقليةّ. عثرت أمي على الرسالة، وفتحتها من دون معرفته أو موافقته، وانفتحت أبواب الجحيم على وسعها. إن الشيء الاستثنائي في هذه الوقائع ليس حجم العواطف المكشوفة بل الحقيقة التي مفادها أننا كنا نمضي من دون أن نقطع اتصالنا إلى الأبد، من دون أن نلجأ فعلاً إلى الهجوم الدائم. يبدو أن أمي كانت تجد أن هذه الاكتشافات ترفع معنوياتها، وتوفر لها الدليل، إذا جاز التعبير، على أنها كانت محقّة دوماً. وبعد عدّة سنوات ظلت تحتفظ بنسخة من تلك الرسالة، وكانت تلوّح بها بين الحين والآخر أمام عينيَّ، وعلى وجهها يظهر تعبير يشي بالقناعة المريرة، أو تشير إليها بحيادية.

ولم يمر على ذلك وقت طويل حتى اكتشفت الحقيقة المتعلقة بشاهين. كان أبي يتذبذب باستمرار بين رغبته المتأججة في البدء بحياة جديدة وخوفه من ذلك. وكان يكرر تهديده بمغادرة المنزل، وألا يتراجع عن قراره. وفي أوقات مختلفة، كان قد غادر البيت برهةً من الزمن، وجعل أمي توافق على الطلاق، إلا أنها كانت تنكث بوعدها في الدقيقة الأخيرة، أو كان يُقنع بالرجوع إلى البيت. يكتب أبي في يومياته: «تقول زوجتي إنها لن توافق على الانفصال الدائم، لأن ذلك

سيجلب لي السعادة، ولا تريد هي أن أكون سعيداً في حياتي!» وفي وقت لاحق قال لي أبي خلال تناولنا وجبة غداء في أحد المطاعم إن (رحمن) أخبر أمي بالعلاقة الغرامية بينه وبين وشاهين، بعد أن رفضت الأخيرة عروض رحمن الجنسية. قال لي أبي ذلك بعد موت رحمن المفاجئ في صيف ١٩٧٣. حزن أبي على وفاته، وشعر أنه لو لم يسئ رحمن استخدام طاقاته الاستثنائية لكان بوسعه ربما أن يفيد نفسه ويفيد أولئك الأشخاص القريبين منه.

آجي ماجي لا تراجي: أسمع رحمن وهو يطلق هذه الكلمات الخالية من المعنى، على اعتبار أنها تعاويذ سحرية، بينما كان يحاول بصورة مضحكة الإمساك بيدي. كان له حضور جسدي طاغ، وحينما كان يدخل الغرفة بوسع المرء أن يتحسس نوعاً ما بدنه الضخم وهو يملأ الحيز الذي يحيط به، إلى درجة أنني بصورة غريبة افتقدته - أو أحسستُ بغيابه، بالفراغ الذي تركه، كما لو أن للمكان نفسه حجماً، وهناك جزء منه، يتخذ شكل السيد رحمن، قد قُص بالمقص.

بقي أبواي معاً عقداً آخر من الزمن. تزوجت شاهين من شخص ثري طلب يدها، وقد زعمت لاحقاً أنه كان مقامراً منعها من الاقتراب من ماله لأنه كان يخشى أن تتركه حالما تحصل عليه. أخبرني أبي أنهما كانا يقضيان معظم أوقاتهما خارج الوطن.

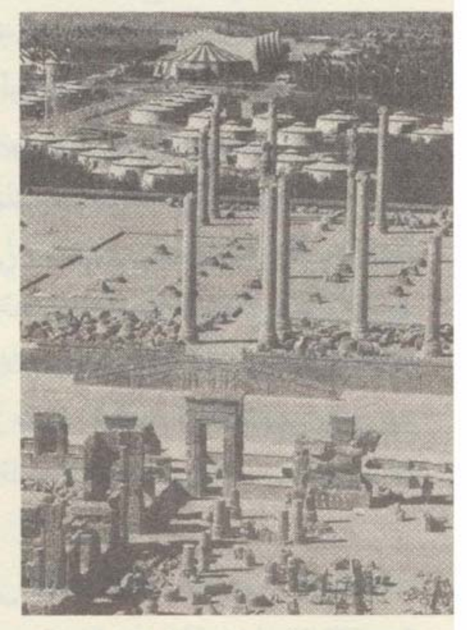
الفصل الحادي والعشرون

تظاهرات

عندما رجعت إلى الولايات المتحدة الأمريكية وقعت في غرام تيد، الذي كان يقرأ مسرحيات بيكيت، ويعزف على الغيتار الكلاسيكي. أعطاني كتابي الأول «*آدا*» الذي ألّفه فلاديمير نابوكوف. في الصباحات، كنا نخرج للتظاهر ضد حرب فيتنام، وضد (سلك الضباط الاحتياط)، تيد يحمل آلة التصوير خاصته كي يوثق مجريات الأمور. لا أزال قادرة على تخيل أولئك الشبان من أعمارنا الذين كانوا يبدون شديدي الحساسية بينما كانوا يحاولون أن يتجاهلوا ملاحظاتنا الساخرة. وفي الأمسيات كنا نحتسي الخمر، ونمضي لمشاهدة أفلام إنجمار بيرجمان وفيديريكو فيلليني. ساعدني تيد على أن أصنع فيلماً للصف يستند إلى تجربة زواجي التعيس - وقال أستاذي الجامعي إنه فيلم بيرجماني (يحمل طبيعة أفلام بيرجمان) حقاً، وأعطاني درجة جيد جداً. هكذا كانت الأزمنة. وعندما انقطعت العلاقة بيني وبين تيد توصلت إلى قناعة مفادها أن العلاقات لا تدوم طويلاً، وربما يجب أن تكون كذلك.

في سنة ١٩٧١، شاهدتُ على شاشة التلفاز الأمريكي الاحتفالات المسرفة لمناسبة مرور ألفين وخمسمئة سنة على الإمبراطورية الفارسية بالقرب من آثار برسيبوليس، حيث أشعل فيها الإسكندر المقدوني النار

بعد استيلائه على بلاد فارس سنة ٣٣٠ قبل الميلاد. مشاهير وملوك، ومن بينهم الأمير فيليب والأمير شارلي من بريطانيا، الأمير رينيه والأميرة غريس من موناكو، والملك هيلاسيلاسي من أثيوبيا، هؤلاء شاركوا في المراسم الاستثنائية الباذخة في مدينة مغطاة بخيمة بالقرب من الآثار صممها مجموعة من المعماريين الفرنسيين لهذه المناسبة تحديداً. تم استيراد الأطعمة والخمر من فرنسا، وسُورت المدينة دون عموم الإيرانيين. واستعرض موكب من الرجال يلبسون زي الجنود الأخمينيين من أمام جمهرة النبلاء. وتحدث الشاه بطريقة خطابية موجهاً كلامه إلى قورش، ملك الأخمينيين العظيم: «قورش، نَمْ قرير العين، لأننا جميعاً يقظون!» وأصبح كلامه ذاك مزحة تداولها الإيرانيون.



الخيام التي نُصبت لمناسبة الاحتفال بمرور ٢٥٠٠ سنة، في برسيبوليس.

في وقت سابق من تلك السنة كانت معارضة الشاه قد اتخذت طابعاً ملحّاً جديداً عندما تحولت من إجراءات سلمية في أغلب الأحيان تقوم بها المجموعات القديمة إلى وسائل قتالية أكثر تقوم بها المجموعتان الثوريتان المسلحتان الجديدتان، إحداهما ماركسية، والأخرى إسلامية. في الانتفاضة المسلحة في قرية سياخال، كانت هناك مجموعة من المقاتلين الماركسيين، تُدعى منظمة

(فدائيي خلق) - جميعهم في مقتبل العمر، متعلمون، رجال ونساء من الطبقة الوسطى - إما قُتلوا في مناوشات مع الشرطة، أو أُلقي القبض عليهم وفيما بعد أُعدموا. وفي الوقت عينه، كانت هناك منظمة قتالية إسلامية سُميت (مجاهدي خلق)، تدعو إلى الكفاح المسلح ضد النظام.

خلال السنوات المبكرة من السبعينات، كان البلد يعيش حياة متناقضة ظاهرياً: كان الوطن يستمتع بالازدهار الاقتصادي بفضل ارتفاع أسعار النفط الصاروخي (الذي سيؤدي حالاً إلى مشاكل اقتصادية عديدة)، غير أنه كان منقسماً انقساماً عميقاً بفعل المعايير الاجتماعية التحررية التي أدخلها الشاه. وفي الوقت نفسه أصبح البلد مشحوناً أكثر، ومنغلقاً سياسياً. كان هذا الكبت المتزايد قد جعل أبناء الطبقة الوسطى ينسلخون عن المجتمع، وهم الذين كانوا أكثر المستفيدين من الإصلاحات السياسية والاجتماعية. وفي آذار (مارس) ١٩٧٥، ألغى الشاه نظام الحزبين الاسميين، وطلب من الأمة كلها أن تتوحد في حزب واحد، سُمّي (راستاخيز) (يعني الولادة الجديدة، أو البعث). كان أولئك الأشخاص الذين نصحوه بأن يفعل ذلك يأملون أن تجتمع القوى والزمر المختلفة معاً. كان حزب الشاه الجديد من دون قاعدة جماهيرية منذ البداية، وكانت مقولته الموجزة هي أن كل من يعارض الحزب، كائناً من يكون، له الحرية في مغادرة البلد. وفي السنة التالية قرر بطريقة دونكيخوتية أن يحوّل التقويم السائد في إيران من التقويم الإسلامي الذي يبدأ من هجرة النبي محمد من مكة إلى المدينة، إلى تقويم جديد استند إلى تأسيس الإمبراطورية الفارسية على يد قورش العظيم، وجعل سنة ٢٥٣٥ بديلاً عن سنة ١٣٥٥ الهجرية. كان تاريخ إيران قد جرى تقسيمه بفعل سلطتين سياسيتين مستقطبتين: سلطة

الشاه، الذي كان يماثل دوره بصورة متزايدة مع إيران الغابرة في عهد ما قبل الإسلام، وسلطة المؤسسة الدينية، التي كانت تحدد التاريخ الإيراني كونه بدأ فقط بعد الفتح العربي.

في هذا السياق، كانت أنشطة الوسط الجامعي في الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا قد غدت قتالية أكثر ومستقطبة. ففي السبعينات كان من السهل على الإيراني الشاب المقيم خارج البلد أن يكون معارضاً للحكومة - الوضع في داخل إيران، بطبيعة الحال، قصته مختلفة. شيئاً فشيئاً وجدتُ نفسي منجذبة إلى (اتحاد الطلبة الإيرانيين)، وهو إحدى الحركات الأكثر نشاطاً في الأوساط الجامعية بالولايات المتحدة. وهناك لم يعاملوني كشابة مطلّقة، بل كانوا يدعونني للإسهام في المجاميع الطلابية التي تقرأ كتابي فريدريك إنجلز «*أصل العائلة*»، «*الملكية الخاصة والدولة*»، وكتاب كارل ماركس «*برومير الثامن عشر*»، ولاحقاً كتاب لينين «*الدولة والثورة*». وجعلتُ من كتب «*رفاق السرير الغرباء*» لتوم جونز، «*ترسترام شاندي*»، «*صعود سايلس لافام*»، «*إقناع* »، و«*واينزبيرغ، أوهايو*» تقاسمني الفراش، والتهمتها بسرعة شديدة إلى درجة أنه عندما بدأ العام الدراسي كنتُ قد انتهيت من قراءة معظمها.

كان الاتحاد منظمة شاملة تتألف من مجموعات طلابية ذات وجهات نظر أيديولوجية مختلفة، لكن بمرور الزمن، وبخاصة في الولايات المتحدة، أصبحت الأيديولوجيات الأكثر قتالية والأكثر راديكالية هي السائدة. في مجموعتنا بدا كما لو أن كل شيء يمكن أن يجري على قدم وساق، وجميع الأسئلة يمكن الإجابة عنها: العالم يمكن التحكم به، صقله، تطهيره، وتنقيته. كان ثمة خط واضح بين الأشخاص السيئين - الشاه وأسياده الإمبرياليين - والأشخاص

الصالحين، أولئك الذين على غرارنا ممن كانوا أبطال المظلومين والمضطهَدين. كانت قد أتلفتنا النزعات الأيديولوجية الجامدة لذلك الزمن، فحوّلنا تعاليم تشي جيفارا، وماو، ولينين، وستالين، إلى أحلام رومانسية بالثورة.

كانت حركة الطلبة الإيرانيين في الولايات المتحدة قتالية عموماً، وبمرور الوقت غدت متزمّتة بصورة متزايدة: كانت الأواصر الأسرية، والمودة الجنسية قد شُوهت سمعتها، وفي بعض الحالات دُفنت تحت الأرض. إنها صرخة بعيدة من الشعر التحرري لفروغ فرخزاد! كانت المجموعات القتالية أكثر من (اتحاد الطلبة الإيرانيين) قد أطلقتْ على الحركة النسوية صفة (بورجوازية)؛ كانت النساء رفيقات، والصور منزوعة الجنس في الملصقات الآتية من الصين هي مثالنا الأعلى. لكن بما أن الإنسان لا يقدر أن يعيش على الأيديولوجيا وحدها، استسلمتُ، شأني شأن الآخرين، للعلاقات، ومثلهم أخفيت تلك العلاقات، وقلت لنفسي إن ذلك كله يصبّ في مصلحة الحركة الطلابية. وهكذا فإن المشاكل التي بدأت منذ عهد الطفولة، وتفاقمت بالزواج، وجدتْ لها ملاذاً كي تتقيح من دون اعتراض.

بين الفينة والفينة، كان أبي يطلب مني أن أنتزع أمي من بين يديه بضعة شهور، كي يكون باستطاعته أن «يتنفس قليلاً». وكانت تهبط عليَّ في أوكلاهوما صحبة حقائب السفر المليئة بالجوز، والكرز المجفف، والقهوة التركية، والأوشحة الصوفية، والبلوزات السميكة، وتشرع حالاً في تنظيف شقتي وإعداد الطعام لي. اختلطت بأصدقائي وصديقاتي، واندمجت معهم، وراحت تقدم لهم القهوة، وتهزأ من أنشطتنا. كنتُ في تلك الآونة مساعدة تدريس في قسم اللغة الإنكليزية. كان أخي محمد قد التحق بجامعة أوكلاهوما مدة سنة؛

ومن ثم انتقل إلى باريس وبعدها إلى جامعة كينت، حيث نال فيها شهادته قبل رجوعه إلى الولايات المتحدة للدراسات العليا في كلية (نيو سكول) للبحث الاجتماعي.

وبصورةٍ مثيرة للدهشة نوعاً ما، لم تخرج أمي عن طورها فيما يتعلق بأنشطتي السياسية، على الرغم من أنها سبّبتْ لهم المشاكل في الوطن. استدعى البوليس السري أبي وأجبروه على توقيع تعهدات فيما يتعلق بسلوكي المستقبلي والتي لم يكن قادراً على المحافظة عليها. كنت نشيطة في مجموعة سُميت (لجنة العالم الثالث)، نظمها طالب جامعي صيني كان هادئاً ومثابراً في الوقت نفسه. كنا جميعاً مغرمين بالرئيس ماو تسي تونغ، أو على الأقل مغرمين برومانسية أسطورته. وعندما توفي ماو سنة ١٩٧٦، كانت أمي في الولايات المتحدة، في واحدة من زِياراتها. أحدثنا ضجة حقيقية فيما يتعلق بوفاته، عبّرنا عن حِدادنا عليه بالكلمات، وعقدنا اجتماعات إحياءً لذكراه. أتذكر التعبير الهازئ على وجه أمي عندما عدتُ إلى البيت دامعة العينين، ولا عزاء لي. قالت لي من دون إدراك: «إنكِ تنشجين كما لو أن أحد أبويكِ قد فارق الحياة!»

حينما التقيت بـ بيجان نادري، كان يومذاك قائداً لزمرة من الطلبة قيادتها العليا كاليفورنيا، اخترنا أن نكون صديقين. كانت مجموعته أكثر عقلانية، وراضية عن نفسها بصورةٍ أقل ضراوة مقارنةً بمعظم الزمر الأخرى. كان لديها أيضاً أعضاء قليلون في الولايات المتحدة. لم أكنْ أتحدى الرجال الآخرين. وكنتُ أتنازل عن مسؤوليتي عبر إخفاء علاقاتي. لكن منذ البداية لم يكن هناك مراوغة وإخفاء مع بيجان. لم يكنْ يصعقه خوفي من الزواج مرة واحدة في العمر، أو

علاقاتي الغرامية السرية. كانت علاقتنا هي العلاقة الأولى التي أعلنتها أمام الملأ ما دمتُ قطعتُ علاقتي بتيد. ووقتئذ كنتُ مقتنعة بأن الزيجات لا تدوم طويلاً، وتلك التي دامت كانت زيجات غير سعيدة على الإطلاق. وحقيقة لم يحدث أبداً أن أخبرني في أي وقت من أوقات مغازلتنا لماذا قرر الزواج مني: «أليس هو شيئاً واضحاً؟» كان يقول لي. كان يعرف النزر اليسير عن خلفيتي وظروفي، ولم يكن مهتماً بصورة خاصة بمعرفة ذلك. ومما أزعجني أنه لم يكنْ مهتماً كثيراً بزوجي الأول. وبحسب معرفتي عن أسرته، كان أبوه، وهو رجل عطوف ومزاجي، قد جمع حاجياته ذات يوم وغادر المنزل بلا رجعة، تاركاً وراءه ملاحظة صغيرة موجهة إلى بيجان، طالباً منه أن يعتني بأمه وأخواته. كل ما أخذه معه هو حقيبة سفر صغيرة، والبزة التي كان يلبسها. كان بيجان ينتظر أن تتزوج أخته الكبرى (ماني)، وترتب الأمور له، وكان يومذاك شاباً في السابعة عشرة، بحيث يلتحق بها في أمريكا. أما أخته الأصغر سناً (تارانه) فقد وُضعت في عهدة خالها. لم يعثروا على والد بيجان، مع أن الجميع كانوا يذكرونه بخير، إلا أن أحداً لم يتطرق إلى فصل اختفائه الغريب.

التقت أمي ببيجان سنة ١٩٧٦، خلال رحلتها الأخيرة إلى أوكلاهوما. لقد أحبته: قالت إنه يبدو أهلاً للمسؤولية، والأكثر من ذلك، إنه يبدو «متماسكاً» أكثر من مهدي، ابن عمي، الذي كان وقتئذ منهمكاً في الحركة الطلابية نفسها. ومن



أنا وبيجان نادري: زوجي الثاني.

الأمور التي ساعدت في ذلك أن أولويتها الرئيسة كانت حمايتي من أسرة أبي، ولأنها أحبت بيجان أكثر مما ينبغي فإن ذلك كان يعني ازدراءها لمهدي. قلت لها: «إنه صديق لا غير». كانت تتلهف لأن يكون ودياً أكثر، أو على الأقل ذلك ما كانت تلمح إليه ضمناً عندما نكون أنا وهي وحدنا. وعلى الغداء كان يصعب عليّ أن أجعلها تتحول إلى موضوع آخر. «بيجان لديه مهنة»، تقول أمي بصورة عَرَضية بينما أنا أركز نظراتي على طبقي، متفحصةً كل لقمة بولع بالغ. «إنه ليس على غرار أولئك المتشردين الذين أُرسلوا إلى هنا كي يدرسوا ويصبحوا أعضاءً نافعين في المجتمع، وماذا يفعلون حقاً؟ إنهم يلبسون السراويل المبقعة، ويتصرفون كقطاع الطرق الأميين. إنه يمتلك مهنة، صحيح؟» وتواصل حديثها، وهي تتبعني إلى المطبخ حاملةً أطباق الطعام. «لا، لا»، تقول بإلحاح، «اغسلي الحوض أولاً». «ماما، لماذا عليَّ أن أغسل الحوض؟» وسألتني: «هل هي مهنة جيدة؟»

كان لديّ الآن درع جديد وكامل يساعدني على أن أوصد الباب دون صوتها - فيلدنغ، لينين، إديث وارتن. وفيما بعد، عندما جلست والكتاب في يدي، سألتني مجدداً وهي تقشر برتقالة بالسكين: «إنه حقيقةً يمتلك وظيفة، أليس كذلك؟» «أجل، ماما»، قلتُ أخيراً، وأنا أحمل الكتاب قريباً مني كما لو أنه يحميني. «إنه مهندس مدني، وأنا لا أحب المهندسين». «*وماذا تحبينِ يا ترى؟*» سألتني بسخط. «هل تنتظرين (رئيس ماو) آخر؟»

بعد خطوبة قصيرة الأمد، أعلنا تاريخ زفافنا - التاسع من أيلول (سبتمبر) ١٩٧٩. طار أبواي إلى واشنطن دي سي، وأقبل محمد وصديقته جانيت من نيويورك. وصلت أمي وهي مليئة بالخطط،

وزاخرة بالطاقة، ولفتت الأنظار إليها إلى درجة أن المرء قد يظن أنه زفافها وليس زفافي. كانت تريد كل الأشياء التي لا أريدها: المؤخر المعتاد، فستان زفاف مناسب ومراسم، خاتم ماس مناسب. كانت قد أحضرت معها جميع متطلبات الزفاف الفارسي التقليدي - ماء الورد؛ مكعبات سكر هائلة، تيلة القطن الخاصة بمراسم الزفاف التقليدية؛ مجوهرات - وراحت ترتب كل شيء باهتمام بالغ. لم أستغرق وقتاً طويلاً جداً كي أفهم أن مراسم الزفاف هي على العكس تماماً مما مطلوب منها أن تكون: احتفالات بهيجة، ومنسجمة يجتمع فيها الحب والأسرة.

ومنذ البداية تقريباً كوّنتُ علاقة تتسم بالحب والغنج مع أسرة بيجان، وبالأخص مع أختيه. وقد أذهلني كرمهم المتواضع، وإحساسهم بالكمال الأخلاقي.

خلال هذه التحضيرات الحربية، عاملتني أم بيجان وأختاه كامرأة غريبة الأطوار محبوبة. توسلن إليَّ كي أذعن لمتطلبات أمي. كانت أم زوجي منزعجة بصورة مبررة من الإنذارات التي تبادلناها أنا وأمي، وصممت ماني وتارانه على أن تلعبا دور رسولتي سلام. أسمع وقع أقدام ماني وهي تهبط درجات السلم، أجلس منتصبة القامة، وأستعد لمواجهة طلباتها ببراهين مضادة. صوتها وديع وحذر. «آذي جان؟» أرى وراءها تارانه، تبتسم ولا تقول شيئاً. «جميع الأمهات هكذا، انظري إلى آفاق جون»، تقول ماني، التي كانت معروفة بأن ترمي نفسها والقريبين منها إلى الذئاب كي تصنع السلام. زوجها، (كيومارس) (الذي نسميه ك)، هو أفضل زوج في العالم، لكن إذا اشتكت صديقة من عدم اكتراث زوجها وفظاظته، تقول لها ماني بكل العاطفة التي في العالم: «أعرف بالضبط ماذا تقصدين»، محرضةً (ك)

كي يسخط سخطاً ودياً. تقاطعها تارانه قائلةً: «لنذهب ونشترِ فستاناً كي نتخلص من هذا كله». «يمكننا أن نشتري القهوة من (مول وايت فلنت)»، تضيف ماني، لعلها تريد أن ترشوني كي أنضم إليهما. وبعد مضي نصف ساعة، كجنرالين مهزومين من جيش خاسر، تعودان وتصعدان درجات السلم.

توسل إليَّ بيجان أن أدع أمي تفعل ما تريد - وعلّق قائلاً إن عنادي لن يزيد الطين إلا بلةً، والصفقة الكبيرة ستكون أكبر. تسأله أمي بهزء: «ماذا تريد القول من وراء كلامك هذا؟ أنا وأنت يلزمنا أن نتكلم كلاماً جدياً». يومئ بيجان برأسه، ويذعن مبتسماً في إشارة إلى كونها على صواب، أجل، عليهما أن يتناقشا نقاشاً جدياً، وبعدها يتوارى عن الأنظار. وفي النهاية أستسلمُ، على الأرجح بسبب الإعياء لا لسبب آخر، وتكسب هي المعركة بكل الحسابات. يقول بيجان مبتسماً: «سوف نمسحكِ بالزيت لنكرسك قديسة، بسبب معاناتك كلها، إنما الآن، من فضلك، كوني فتاةً صالحة، ودعينا نبدأ حياتنا».

طوال ثلاثة أيام، كانت أختا بيجان الصبورتان تجرانني من (مول مونتوجمري) إلى (مول وايت فلنت)، وتطوّفان بي في أرجاء مقاطعة كولومبيا (D. C.)، بحثاً عن حذاء وفستان زفاف مناسبين. ما عثرنا عليه لم يكن مثالياً، وكان جذاباً جداً بحسب ذوقي، غير أن تلك ليست هي المسألة. جرى الزفاف كما خُطط له. وعلى الرغم من المعارك الضارية التي سبقته، كانت المراسم نفسها دافئة وودية.

في صبيحة اليوم الذي سبق الزواج مضينا إلى (دار الدولة - ستيت هاوس) لإجراء ترتيبات الزواج المدني، وفي منتصف هذه الإجراءات كلها، وعلى حين غرة، غرقتُ في ضحك يتعذر السيطرة عليه. حتى يومنا هذا لا أعرف السبب، لكنه على الأقل أفضل من

الدموع التي ذرفتها في زفافي السابق.
شعرت ماني بالحرج بسببي. وألقى عليَّ بيجان نظرة قذرة، وشرعت صديقة أخي محمد المدعوة جانيت، التي كانت أحد الشهود، تقهقه مثلي.


حفل زفافي الثاني، التاسع من أيلول (سبتمبر) ١٩٧٧: (من اليسار) أم بيجان، أنا، أبي، وأمي.

في صبيحة اليوم الذي تلا الزواج المدني أقمنا طقسين آخرين، الأول طقس بهائي ترأسته سيدة هندية، ومن ثم طقس الزواج الإسلامي. كانت أسرة بيجان بهائية، وهي حقيقة تقبّلها أبواي بقليل من النفور، مما أثار دهشتي. في تلك الليلة احتشد نحو عشرين صديقاً وصديقة وأسرة في منزل ماني. وبينما كانت أختا زوجي ترقصان، كان أعضاء أسرتي يقفون في الجوانب، ترتسم على وجوههم ابتسامات سخيفة، ينظرون بإعجاب، وربما حتى بشيء من الغيرة إلى براعتهما.

الفصل الثاني والعشرون

ثورة

بعد العرس غادر بيجان متوجهاً إلى باريس كي يتكلم مع قادة مجموعتنا هناك. شحنت المنظماتُ القتالية المسلحة، والاضطهاد المتزايد، الخطابَ السياسي للمعارضة الإيرانية، وجعلت الحركة الطلابية في الخارج تتخذ طابعاً راديكالياً. مكثت أمي مدة شهرين. استأجرت شقة في نيويورك، حيث كان يدرس أخي محمد، وبما أننا، أنا وبيجان، لم يكن لدينا وقت كاف كي نجد منزلاً شخصياً لنا، فقد وافق زوجي على أن أسكن معها وأن أعمل على أطروحة الدكتوراه خاصتي ريثما يعود من سفره. كانت نيويورك، موطن الأنشطة الراديكالية إبان الثلاثينات، مكاناً ملائماً لي للعودة إلى كتابة أطروحة الدكتوراه خاصتي حول (مايك غولد) والكتّاب البروليتاريين (المنتمين للطبقة العاملة) في الثلاثينات.

لم تخفق أمي في إلقاء اللوم على أسرة بيجان بسبب تلك الرحلة الآثمة التي قام بها زوجي. «يتزوج مدة أسبوعين، ويترك ابنتي لسبب غير مبرر»، هكذا ترثي لحالي، وتغمغم بهمس أنه يسير على خطى أبيه - الولد سر أبيه. واتصلت بأمه كي تخبرها أنني في صحة سيئة، ومرهَقة بسبب العمل الزائد، ومن ذا الذي سيعتني بي لو أنها لم تقرر البقاء في نيويورك؟ «أهذه هي الذخيرة التي حفظتموها لابنتي

المسكينة؟» كانت أم بيجان في حالة لا تُحسد عليها لأسبابها الخاصة. وقد ظنت أمي أن عملاء الحكومة الإيرانية ربما يغتالون بيجان، وبخاصة خلال مدة بقائه في أوروبا.

في تلك السنة أسس الرئيس الأمريكي جيمي كارتر مكتباً لحقوق الإنسان في (قسم الدولة [ستيت ديبارتمنت])[1]، وبذلك أعطى الإشارة إلى حصول تغيير في السياسة الخارجية للولايات المتحدة. في مخزن هنغاري للمعجنات في (شارع أمستردام المشجر)، الذي لا يبعد كثيراً عن جامعة كولومبيا، ناقشنا أنا وزملائي تأثيرات ما أسماه بعضهم «جيموكراسي» (كلمة مشتقة من [ديمقراطية جيمي] - م.)، على حركة المنشقين في إيران.

كتبتْ مجموعة من القوميين رسالة إلى الشاه يطلبون فيها تطبيق مواد الدستور، وتقليل دور المَلَكية. وطالبت (لجنة حقوق الإنسان) التي تأسست في طهران أن الحقوق التي حددها جيمي كارتر يجب أن تُحترم في إيران. أُطلق سراح بعض السجناء السياسيين، وتحسنتْ معاملة أولئك القابعين في المعتقلات. وعقدت (جمعية الكتاب) سلسلة من الأمسيات الشعرية في (معهد غوته) في طهران حضرها عدد غفير من الجمهور غصت بهم قاعة المعهد، وأعلن الكتّاب والأدباء على رؤوس الأشهاد أنهم يشكون من نقص حريات التعبير. وفي الليلة الأخيرة، وقف الجنود خارج مبنى المعهد، وكانت السماء تمطر، بينما كان الشعراء والكتّاب يتكلمون عن القمع والاضطهاد. تلقّى الجنود

---

(١) State Department: المكتب الفيدرالي التنفيذي للولايات المتحدة الأمريكية، ويُعنى بالعلاقات الدولية للولايات المتحدة، ويعادل وزارة الخارجية في البلدان الأخرى - م

تعليمات بعدم استخدام القوة ما لم يندلع العنف، وانتهت الأمسية من دون أي مشاكل. لكن سلسلة ثانية من القراءات في (جامعة آريا ميهر) خرجت عن الخط المرسوم لها بسبب (جهاز السافاك [المنظمة القومية للأمن والمخابرات]).



المتظاهرون يحتجون على الشاه، قرب البيت الأبيض.

وعلى الرغم من أن القوى العلمانية هي التي بدأت الاحتجاجات، إلا أن آية الله خميني وأتباعه برزوا الآن في إيران. ولأننا كنا متعجرفين جداً لم نعتقد أنه يشكل تهديداً، كما كنا نتجاهل عمداً ما كان يخطط له، ساندناه. ومع ذلك كانت هناك كل الأشياء التي بوسعنا رؤيتها: كان كتاب خميني «دور *فلسفة التشريع*» يدعو إلى إنشاء دولة دينية يقودها ممثل عن الله؛ وقد شجب حق النساء في التصويت بوصفه شكلاً من أشكال العهر؛ أطلق تصريحات لا حصر لها ضد الأقليات الدينية والعِرقية، وبخاصة البهائيين واليهود. بحماسة رحبنا بالأحاديث

الصاخبة التي أطلقها خميني ضد الإمبرياليين والشاه، وكنا نرغب في التغاضي عن حقيقة أن تلك الأحاديث لم يكن يطلقها بطل من أبطال الحرية. كان خميني نفسه يحجم بدهاء عن نشر خططه بين الجماهير. وقد أشار ضمنياً في مقولاته العامة أنه ما إن يعود إلى إيران سوف يعتكف في مدينة قُم المقدسة، ويترك قضايا الدولة للسياسيين.

خلال العقود الأولى من القرن العشرين، كان عمو سعيد وأبناء جيله - رجال من أمثال دخودا، هدايت، نعمة، دولت أبادي، رفعت، إيراج ميرزا، عشقي - جميعاً يعون جيداً الدور الرجعي لبعض رجال الدين. ودوّن كثيرون كتابات ساخرة لاذعة جداً، ينتقدون فيها رياءهم الديني ورجعيتهم. وكنا نحن الثوريين الشبيبة نمتلك كتاباتهم كي نشير إليها، غير أننا كنا مخمورين لحظتها، وأعمتنا أهواؤنا. وهكذا، عندما امتدت الانتفاضات إلى المدن الرئيسة من مثل تبريز وقم سنة ١٩٧٨، نحن المقيمين في نيويورك، واشنطن، وبيركلي، عزونا تلك الانتفاضات إلى «قواتنا». وفي حفلة أقامها أخي وزملاؤه في الحجرة في نيويورك، حضرها بول سويزي وهاري ماغدوف، محررا مجلة مونثلي رفيو، اقترح سويزي أن نشرب نخب صحة «أول ثورة عمالية حقيقية». واستغرق الأمر بضعة شهور قبل أن تزول أوهامنا. وبعد مرور سنتين نشرتُ مقالة بالإنكليزية في نيويورك ليفت رفيو اليسارية، تطرقتُ فيها إلى حالة النساء المزرية بعد قيام الثورة، ووقعتها بـ AZ.

خطط (اتحاد الطلبة الإيرانيين) للقيام بتظاهرة كبرى في واشنطن، دي. سي.، في الخامس عشر من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٧، خلال زيارة الشاه الرسمية إلى الولايات المتحدة، وذهب بيجان الذي كان قد عاد تواً من باريس إلى واشنطن، وانضممت إليه هناك. تجمع

نحو ألفي طالب جامعي حول (البيت الأبيض)، تحرسهم الشرطة الخيالة. أنا وامرأتان أخريان من زمر أخرى ألقينا كلمات، وأطلقنا بصوت عال الشعارات المناوئة للشاه وحكومته. تجمع نفر قليل من مؤيدي الشاه بالقرب من مرج (البيت الأبيض)، وغرقتْ أصواتهم في بحر شعاراتنا الهادرة: الموت للشاه؛ يا عملاء وكالة المخابرات المركزية CIA، ناصحو الولايات المتحدة، أخرجوا من إيران؛ إيران هي فيتنام القادمة؛ أيتها الولايات المتحدة أُخرجي من إيران.



الشاه والرئيس الأمريكي جيمي كارتر في البيت الأبيض.

في اليوم التالي نشرت جريدة «*ذي واشنطون بوست*» الصورة الشهيرة للشاه وجيمي كارتر في مرج (البيت الأبيض). امتد الغاز المسيل للدموع المستخدم ضد المتظاهرين ليصل إلى المرج والشاه، فأحنى الأخير رأسه، ووضع منديله على عينيه، وبدا كما لو أنه يبكي. لم نكن نعرف آنئذ أنه مصاب بالسرطان، ولم نكن نتصور كم غدا

مشوشاً عندما شاهد (بعد عودته) مئات الآلاف ممن كان يعتقد أنهم رعيته المخلصين سيتظاهرون ضد حكمه. وحينما رجعتُ إلى نيويورك في اليوم التالي، كنت قد فقدتُ قدرتي على التكلم. أخفيت مساهمتي في التظاهرات عن أمي، التي كانت ستعارض ذلك بشدة. اتصلتْ هاتفياً مرة ثانية بأسرة بيجان لتشكو حالة ابنتها الضعيفة، وعدم اهتمام زوج ابنتها التام بصحتها.

وبعد بضعة أيام عادت إلى إيران، ومضيت أنا إلى ولاية كولومبيا ثانية للقاء بيجان. وأخيراً أقمنا في ولاية كولومبيا، حيث كان يمضي للعمل في شركة إنشاءات، وبدأتُ أخيراً أركز على أطروحة الدكتوراه خاصتي. حولتُ غرفة المعيشة في شقتنا المؤجرة إلى مكتب لي، وما إن أفيق من نومي، وآخذ دش حمام، حتى آخذ فنجان القهوة خاصتي وأعود إلى سريري، وأقرأ الأنباء المتعلقة بإيران. كانت إحدى زوايا غرفة النوم خاصتنا قد امتلأت حالاً بنسخ قديمة مبقعة بالقهوة من جريدتي «*ذي واشنطن بوست*» و «*ذي نيويورك تايمز*». في بعض الصباحات أذهب إلى مكتبة (الكونجرس)، حيث كنتُ أمضي ساعات لذيذة وأنا أنظر من خلال مجموعة قديمة من (المايكروفيلم) الخاصة بـ«*ذي ماسس*»، «*ذي نيو ماسس*»، والمطبوعات الأخرى التي كانت تصدر في الثلاثينات، للاستفادة منها في أطروحة الدكتوراه خاصتي. كان بيجان يأتي ليأخذني بعد أن ينتهي من عمله، ونتمشى حول (دوبونت سيركل)، نتناول شيئاً ما، ونذهب إلى شقتنا.

في آب (أغسطس) ١٩٧٨، أُضرمت النار في (سينما ريكس) في عبادان، وهي مدينة - ميناء تقع على حافة حقول النفط، على يد

مشعلي الحرائق عمداً، ولقي ما يزيد على أربعمئة شخص مصرعهم من جراء الحادث. نفت حكومة الشاه مسؤوليتها عن الواقعة، وزعمت أنه من تدبير المعارضة الدينية. ثارت ثائرة المعارضة العلمانية والدينية على السواء، واتهمت النظام بالتورط في الجريمة، قائلةً إن غرضه من وراء ذلك واضح وهو إلقاء اللوم عليهما لأنهما سبب تقويض تعاطف الجماهير معه. ومن الجدير بالذكر أن الحريق حدث في شهر رمضان المقدس. عدد قليل من الناس صدّقوا ما قالته الحكومة، وأصبح العمل الوحشي رمزاً لكل الجهود التي اضطلع بها نظام الشاه للحفاظ على قوّته. وطوال بضعة أسابيع ذكّرنا حادث (سينما ريكس) بالحقيقة التي مؤداها أنه لن يكون هنالك أي حوار، ولن تكون هنالك أي تسوية بين المعارضة ونظام بهذه الدرجة من الوحشية. وأفزعتنا صور الضحايا الأبرياء ممن قصدوا دار السينما في عصر ذلك اليوم الصيفي، تلك الصور التي شاهدناها على صفحات الجرائد والنشرات التي ظهرت مستنكرةً هذه الجريمة البشعة. كانت الوحشية البالغة لهذا الحادث حجة أخرى لقلب نظام الشاه.

بعد الثورة، طالبت أسر الضحايا بإحقاق الحق. تجاهلت الحكومة الإسلامية مطالبهم، الأمر الذي أفزعهم وأدهشهم: هوجمت احتجاجاتهم واعتصاماتهم، واستقال عدد من النواب العامين خلال التحقيقات. وبسبب الضغوط الجماهيرية، اعتُقل وأُعدم أشخاص كثيرون، مذنبون وأبرياء على السواء. في بعض الحالات كان واضحاً وضوح الشمس أن التهم الموجهة إليهم ملفقة - واعتُبر أحد الضباط مذنباً ونفّذوا بحقه عقوبة الإعدام وهو حتى لم يكنْ حاضراً في المدينة وقت وقوع الحادث. وزعم شاب كان متورطاً بشكل مباشر في الحادث أنه اعترف للسلطات لكن لم يأخذ أحدٌ اعترافاته تلك على

محمل الجد. كانت الهستيريا والغضب يتفوقان على الحقائق كلها. وكان الناس يصدقون ما يريدون أن يصدقوه.

وفيما بعد تبيَّن أن الحريق لم تخطط له حكومة الشاه، بل المتعاطفون مع المعارضة الدينية، الذين أحسوا أنهم بصنيعهم هذا يمكنهم أن يسرّعوا العملية الثورية. ولأن التحقيق تعثر منذ البداية، تجلّت الحقيقة تدريجياً. أخفت الحكومة الإسلامية والصحف الرسمية الشاهد، وحاولوا أن يلقوا باللوم على الشاه. إن الجريمة الكبرى التي كان بوليس الشاه متهماً بارتكابها، في هذه القضية، هو القرار الخاطئ. ولأنهم كانوا مرعوبين ومرتبكين فقد تصرفوا بصورة حمقاء: عندما شاهدوا مجموعة من الأشخاص يحاولون أن يشعلوا ناراً صغيرة في إحدى الزوايا، تمنوا أن يقبضوا على المجرمين قبل أن يلوذوا بالفرار، لكنهم أمروا بإغلاق أبواب صالة السينما ريثما يصل رجال الإطفاء. وحينذاك كانت النار قد امتدت إلى البناية كلها، وأحرقتْ جميع المشاهدين تقريباً.

أين كنتُ عندما اكتشفنا هذه الحقيقة؟ ماذا فعلتُ؟ هل قرأتُ الصحف، وناقشت الأنباء الواردة فيها مع أصدقائي، وعبّرت عن غضبي، وتابعت تناولي أقداح (الآيس كريم)؟ هل حدث ذلك في اليوم الذي عدتُ فيه إلى منزلي راضيةً عن نفسي لأن درساً عن (توم جونز) مرَّ على ما يرام؟ الشيء السيّئ في هذه الأفعال أنها لا تخلّف أبرياء: الجميع متورطون، حتى الضحايا، أو المتفرجون، ومنهم أنا.

بعد مدة قصيرة من مأساة (سينما ريكس)، قام بيجان برحلة ثانية إلى باريس كي يناقش مستقبل مجموعتنا الطلابية. عاد مخيَّب الآمال فيما يتصل بالزعماء، الذين بدأوا في الحال بحملة ذات طابع ستاليني ضده. وخلال وجوده في باريس توصل الأطباء إلى تشخيص مرض

سرطان الرحم لدى أمه، والذي امتد إلى دماغها. استغل بعض زعماء المجموعة مرض أم بيجان ضده، متهمين إياه كونه تخلى عن وعوده السياسية كي يميل إلى أمه. كان يُنظر إلى ميل المرء إلى أمه باعتباره مرضاً بورجوازياً.

أن يكون المرء ملتزماً بمعتقداته السياسية ومخلصاً لها ولأسرته في آن مثل بيجان، أمر غاية في الصعوبة. لم يكنْ ينام كثيراً في الليل، على الرغم من أنه قلما يتكلم عن ذلك. توفيت أمه خلال بضعة شهور. وأنا كذلك كنتُ مضطرة لأن أختار بين تعهداتي السياسية وإخلاصي الشخصي لبيجان. وفي النهاية انعزلنا معاً عن الآخرين، وتحررنا من الأوهام التي هيمنتْ علينا. ربما كنت مدينة لأطروحة الدكتوراه خاصتي لتحرري من الوهم، وأخيراً أُجبرتُ على التركيز على كتابتي.

كلما ازداد انكبابي على أطروحتي غدوتُ متحررة أكثر من وهم موضوعها، وهو كاتب بروليتاري من الثلاثينات، ومن موقفه الأيديولوجي. بدأتُ أقرأ كتب ريتشارد رايت، وآرثر كوستلر، وإغناثيو سيلون، الذين كانت تجاربهم المتعلقة بالشيوعية ترجّع صدى أنشطتي في الحركة الطلابية، وشرعتُ أتساءل: كيف يقدر المرء أن يبقى مخلصاً لمُثله العليا التقدمية من دون أن يتمسك بأيديولوجية مدمِّرة؟

في خريف ١٩٧٨ طرد العراق خميني في محاولةٍ منه لتحسين علاقاته مع إيران. وبعد أن كان مغموراً في كربلاء حيث رعى شبكةً من رجال الدين والأنصار، ظهر فجأةً على المسرح العالمي. كانت صورته البارزة كإنسان إلهي، جليل وأخروي في آن، قد غطت عليها تماماً صورة فوتوغرافية له جالساً تحت شجرة تفاح في قرية فرنسية

صغيرة تُدعى Neauphle-le-Chateau. وسرعان ما راحت وسائل الإعلام العالمية، وكل شرائح المجتمع الإيراني - العلمانيون، القوميون، وحتى الراديكاليون - يحجون إلى Neauphle-le-Chateau، كي يعبّروا عن احترامهم وتقديرهم له، وكي يشبعوا فضولهم، وكي يكوّن - بعضهم - رأياً عن زعيم إيران المحتمل في المستقبل. إن مفارقة



آية الله خميني، في منفاه بباريس.

الرجل الإلهي الذي يدير ظهره للعالم وفي الوقت نفسه يتآمر ويخطط للسيطرة عليه كانت تسحر أنصاره الذين كانت أعدادهم تربو على الملايين.

في كانون الثاني (يناير) نشرت (وزارة البلاط) في طهران مقالة في صحيفة «*إطلاعات*» الرسمية، تحت عنوان «الإمبريالية الحمراء والإمبريالية السوداء». كان عدوا الديمقراطية والحرية قد تم تعيين هويتيهما: الشيوعيون (الإمبريالية الحمراء)، ورجال الدين المتطرفون الذين يقودهم خميني (الإمبريالية السوداء). فجرت المقالة سلسلة من التظاهرات في مدينة قم المقدسة، وخلّفتْ ستة قتلى. وبعد مرور أربعين يوماً، ووفقاً لعادة المسلمين في الحِداد على الأموات، اندلعت تظاهرات في تبريز وكان هنالك ثلاثة قتلى آخرون. وفي التظاهرات التي جرت في مدينة يزد وفي اليوم الأربعين إحياءً لذكرى الأموات في تبريز، قورن الشاه بـ(يزيد) قاتل الإمام الحسين الشهيد. وخلال مطلع سنة ١٩٧٨ كان الشاه يتذبذب بين اتخاذ إجراءات صارمة ضد

المناوئين له وبين استمالتهم. وفي السادس من أيلول (سبتمبر)، اشترك عدة آلاف في التظاهرات التي جرت في عيد الفطر الذي يحل بعد شهر رمضان. أضاف (تحالف الجمعيات الإسلامية) كلمتي «حكم إسلامي» إلى شعاره «حرية واستقلال».

حينما تحدثتُ بالهاتف مع أبي، الذي كان يومذاك بباريس في زيارة عمل، بدا فرحاً بالتغييرات الحاصلة في إيران. وجعل يكرر أن إيران عانت طوال بضعة قرون من بطش الملوك المستبدين وضيق أفق رجال الدين الرجعيين، وهذه هي الفرصة للتخلص من الاثنين معاً. قال: «إنني أشعر بالشفقة حيال الشاه، وحيال المتملقين الذليلين المحيطين به، الذين يقولون له إنه [ظل الله على الأرض]». كان مريضاً بالسرطان، مشوش الذهن، ويشعر بالأذى من جراء ردود أفعال الشعب، غير مطمئن فيما يتعلق بالدعم العالمي لنظامه، وبخاصة دعم الأمريكيين، وبدا الشاه كأنه فقد عزيمته. لم يرغبْ في المزيد من العنف، ورفض العمل بنصيحة أولئك الذين اقترحوا عليه اتخاذ تدابير صارمة ضد المتظاهرين، وجعل الجيش يتراخى في موقفه من الشعب. كانت تلك، كما أوحى عدد كبير من الناس في حينها، إيماءة وداد متأخرة جداً، نوعاً ما.

في السادس عشر من كانون الثاني (يناير) ١٩٧٩، غادر الشاه إيران. قبل مغادرته، ولكي يستميل المعارضة، عيّن شاهبور بختيار، الشخصية الوطنية الليبرالية الحليفة لمصدق، رئيساً للوزراء. حدث ذلك عندما حصل أول شجار جدي بيني وبين بيجان - إذا كان بوسع المرء أن يسمّيه شجاراً. قبل نحو شهر من ذلك حصل بيننا شجار، لا أتذكر سببه. ومنذ ذلك الحين أعطاني بيجان العلاج الصامت. لم يجادل أو يصيح، ببساطة كان ينسحب. عندما أقول إنه كان ينسحب

أعني أنه لا ينسحب من الشجار فقط بل من كل شيء. وبينما كان يغدو متحفظاً أكثر، ويقلّص اتصالاتنا إلى جمل قليلة ضرورية، كنتُ أكتئب. كنت أستيقظ في الصباح مرهَقة، وكنت أحمل إلى الليل الشجار الذي تجنبناه نهاراً. هذا الوضع الباعث على اليأس هو برهان آخر لي على أن الزيجات لا تنفع. وعلى الأقل، لم تكنْ نافعة لي. فكرتُ مع نفسي: خير لكِ أن تتخلصي من المحنة، قبل فوات الأوان.

في تلك الليلة ذهبنا بالسيارة إلى منزل صديق في صمت. خلال تناول طعام العشاء، كانت هناك المناقشات المألوفة عن الشاه وخميني. احتشدنا جميعاً قرب التلفاز كي نسمع خبر تعيين بختيار - رئيس الوزراء الخامس والأخير في أقل من سنتين. «في اعتقادي إذا كانت القوى اليسارية والعلمانية في إيران حكيمة». قال بيجان باعتدال إنما بتوكيد، «فسوف تحتشد خلف بختيار. إنه ديمقراطي أصيل، وسياسي ناضج. علينا جميعاً أن نصطف وراءه».

قلتُ: «ذلك هراء. بختيار هو الذي سيقوم بتسوية الأمور». فسأل بيجان: «وما الذي سيفعله فيما يتعلق بالتسوية؟» «سيحل جهاز (السافاك)، وسيأتي بحكومة ليبرالية، ويمنع خميني من أن ينتزع نفوذاً أكبر». لكنني، على غرار الكثيرين، كنت على خصام تام مع الشاه. لن ينفع شيء سوى الإطاحة بالنظام. وبدأت أحصي من جديد، كوني شاهدة مستقيمة على مثل هذه الأوضاع المتطرفة، جميع الجرائم التي ارتكبها الشاه. نظر إليّ بيجان وقال بازدراء إنه لا حاجة بي لأن أزعج نفسي بإخباره بجرائم الشاه. لم يستمر في جداله، الأمر الذي جعلني، بالطبع، أغضب أكثر.

وفي طريق عودتنا إلى شقتنا، وبعد أن كنا صامتين في السيارة،

قلتُ من دون تفكير: «أريد الطلاق». حلت هنيهة صمت: صُعق بيجان حقيقة. مهما كانت توقعاته، ما كانت لتصل إلى هذا الحد. قال لي: «لماذا تطلبين الطلاق؟ بحق السماء، لماذا تفكرين بتلك الطريقة؟ تربطنا علاقة جيدة جداً». فأجبته قائلةً: «نحن لا نكاد نتكلم منذ شهر». حاول جاهداً أن يقنعني أنه يحبني ومهما كان مبلغ غضبه - وعندما كان يغضب لا يقدر أن يتكلم عن الحب - لم يحدث شيء كي يجعله يعتقد حتى لحظةً أنه يلزمنا أن ننفصل. قال بشيء من اليأس: «كما تعرفين، هنالك طرائق أخرى كي تعبّري عما في داخلك؛ طرائق أخرى غير الكلام».



امرأة إيرانية مع صورة جدارية دعائية لخميني.

في الأول من شباط (فبراير) ١٩٧٩ عاد خميني منتصراً إلى طهران، حيث غصت الشوارع بالملايين للترحيب به. وعندما سأله أحد الصحفيين ما هو إحساسه وهو يعود إلى أرض الوطن بعد نحو ثمانية عشر عاماً، قال آية الله خميني: «لا شيء». كان آية الله خميني قد تم ترفيعه إلى درجة (إمام)، وهو لقب لدى شيعة المسلمين، يقتصر على الذين يأتون بعد النبي محمد. إن التلفظ باسمه بغير احترام، أو إهانته، تترتب عليه الآن عواقب وخيمة. اكتشف آلاف الإيرانيين، عرفتُ بعضهم بأنهم أصحاء تماماً، ومن بينهم خالتي نفيسة العلمانية والمثقفة بصورة معقولة،

صورته في القمر. ولاحقاً، عندما أدليتُ بتعليق يقلل من شأنه، ردتْ عليّ قائلةً: «عزيزتي، من فضلك لا تقولي أشياء كهذه. روت لي أمي حكاية عن امرأة شوهت سمعته، فقفزت قطة من برميل القمامة، وعضت ذراعها بقسوة شديدة إلى درجة أنها فارقت الحياة».

إذا كانت خالتي قد شاهدت خميني في القمر، فهنالك أشخاص آخرون في أسرتي شاهدوا أشياء ممكنة قبل سنة واحدة فقط ربما كانت تبدو خادعة بالقدر نفسه. ابن عمي حميد، أقل أبناء العم أبو تراب ميلاً للسياسة، الذي عاد إلى الوطن بعد نيله شهادة الماجستير في الإعلام والصناعة السينمائية من (جامعة كاليفورنيا، لوس أنجلس)، كي يساعد في تأسيس قسم السينما والإعلام في (الجامعة المفتوحة)، لم يجد الآن فضاءً كافياً له ولزوجته الأمريكية كيلي، في إيران. جمعوا حاجياتهم، وغادروا متجهين إلى أمريكا، بينما عاد مجيد ومهدي، أخواه الأصغر منه سناً، اللذان انضما إلى مجموعة ماركسية متطرفة، إلى إيران قادمين من الولايات المتحدة. أما الجيل الشاب، جيلي، الذين يسيطر عليهم توق رومانسي إلى الثورات والإرهاصات، فالصورة التي رأيناها في القمر هي صورة المستقبل حيث، بالتوافق مع الطبقة العاملة (البروليتاريا)، سنحرر البلد، ونعيش بعدها بسعادة سرمدية. إلا إذا كان هناك، على ما يبدو، شيء خاطئ جملةً وتفصيلاً في الطريقة التي تشكّل فيها حلمنا.

أصبح مجيد، الذي أدهش الجميع بأشعاره مبكرة النضج، الطاقة الواعدة لمجموعة من المثقفين المؤثرين في أصفهان. كان متمرداً أبدياً، ينكر معتقد أبويه وطريقتهما في العيش. لم يقطع مجيد طريقاً إلى منتصف المسافة. في عشرينياته تخلى عن الشعر واختار السياسة، وشاء أن يتبع الشكل القتالي جداً من الماركسية. وأقسم ألا يكتب

قصيدةً أخرى ما لم تتحقق ثورة العمال. «ماذا فعلتِ من أجل الثورة؟» كان يسألني بجد، حتى قبل أن يكون لدينا أي تلميح بأنه من المحتمل أن تكون هنالك ثورة فعلاً. كانت الدراسة، وقراءة الأدب، كل هذا، من وجهة نظره، أشياء بورجوازية، ومضادة للثورة. ذات مرة، جرى بيننا جدال عنيف بخصوص ادعائه أن كيَّ الملابس نشاط بورجوازي. جعلني أخرج عن طوري، غير أنني كنتُ معجبةً بعناده وعزيمته، وهما صفتان شعرت شخصياً أنني أحتاج إلى المزيد مما أمتلكه منهما. كان منهمكاً بالشعر، وفيما بعد بالسياسة، قلباً ونفساً. أتمنى الآن لو أنني سألته يومذاك: «لماذا هجرتَ الشعر؟ كيف تقدر أن تنسى أن التحولات الكبرى في هذا البلد حدثتْ بتأثير الشعراء والسياسيين على السواء؟»

عندما عاد مجيد إلى طهران، تعلق فؤاده بشابة اسمها عزت التقى بها خلال فعالياته الثورية. أخته الصغرى نوشين، التقت أيضاً بزوجها حسين بالطريقة نفسها. شارك أربعتهم في انتفاضات مدينة الأكواخ الواقعة في ضواحي طهران سنة ١٩٧٧.

في مخطوطة موجهة إلى زوجته، يصف مجيد كيف تفتحت قصتهما الغرامية خلال تلك الأيام الوهمية بين الأول من شباط (فبراير) ١٩٧٩ عندما عاد آية الله خميني إلى إيران، والحادي عشر من شباط (فبراير) حينما فرض سلطته على البلد. لم ألتقِ بـ عزت يوماً. تبدو في الصور الفوتوغرافية هزيلة وأشبه بغلام. يصفها مجيد كونها غلامية ذات عنق أسطواني، نحيفة، لكنها ليست قصيرة القامة مثل أخته نفيسة. في إحدى قصائده يصفها وهي ترتدي سترة خاكية، «ضئيلة البدن، نحيلة، ذات وجنتين عظميتين».

في الثامن من شباط (فبراير)، ذهب مجيد وثلة من طلبة الجامعة

إلى معمل يقع في ضواحي طهران. بسبب عدم الاستقرار السياسي لم يكن المعمل يبيع بضائعه طوال الشهور الثمانية المنصرمة، ولم يسدد صاحب المعمل أجور عماله. أحضر عاملان صاحب المعمل إلى الفناء الأمامي. يكتب مجيد: «كان ممتلئ الجسم وطويل القامة، وذا خدين كبيرين أحمرين. كان خائفاً، ولم يكن قادراً على التكلم. لم نكن نعرف ماذا نفعل. كان بعض العمال يتحدثون بجرأة، وصاحب المعمل يصغي بأدب. كانت الحكومة تعاني سكرات الموت، ولم تعد قادرة على الوقوف إلى جانبه. غير أن العمال كانوا ينالون دعمنا ومساندتنا. وفي النهاية تقرر أن ينتخب العمال مجلساً كي يدير شؤون الإنتاج والمبيعات». بينما كان مجيد ذاهباً إلى المنزل، أطلق مجموعة من الجنود الرصاص في الهواء، وطلب عدد من راكبي الدراجات النارية ينتمون إلى منظمة (فدائيي خلق) الماركسية من الناس التوجه إلى (حامية فرح آباد) لدعم انتفاضة الطيارين المتمردين. مر مجيد بشاب يعلّم طلابه المتلهفين كيفية صنع كوكتيلات قنبلة المولوتوف. وفي صباح اليوم التالي فتح الباب لزوجته عزت، التي كانت عائدة تواً من أصفهان، وأمسك بها، وهو يرتجف من البرد، بين ذراعيه. «حانت لحظة الانتفاضة»، يكتب مجيد. حب وثورة، هل ثمة شيء آخر أكثر رومانسيةً منهما؟

في ذلك اليوم: مجيد، عزت، حسين، نوشين ركبوا دراجاتهم النارية متجهين إلى (حامية فرح آباد) لدعم الجنود المتمردين. تسلقوا إلى جوف دبابة، وقادوها إلى (سجن إيفين) الرهيب، الذي كان قد استولى عليه المحتجون. غادر السجناء بأقصى سرعة، وفي المطبخ عثروا على مصافي هائلة الحجم، نصف مملوءة بالأرز المغسول. «حاولت مجموعة من المدنيين المسلحين أن يخرجوا الناس كي

يسيطروا على السجن»، يكتب مجيد، ويضيف قائلاً: «كانوا يسعون إلى تنظيم أول وحدة سجن تابعة للنظام الجديد». وبعدها مضوا إلى سجن آخر يحمل اسم (قصر). «فهمت أن السلطة ليست هبة إلهية. كان السحر قد زال. السجون، الحاميات العسكرية، والقصور المَلَكية، أصبحت كلها بنايات عارية، خالية من أي حماية استثنائية. كان الشاه، الوزراء، عملاء (السافاك)، وجنرالات الجيش ينتمون إلى جنس بشري لا تجري في عروقه دماء نبيلة. والآن رشّت السلطة الجديدة سُماً سحرياً جديداً في الهواء. لبست السلطة الجديدة عباءة وزي رجل الدين، وأطلقت لحيةً كي تخفي أصلها الإنساني».

وبينما كانت تغمرنا نشوة العبث بالدبابات وكوكتيلات قنابل المولوتوف، كانت الشعارات تركز بصورة متزايدة على آية الله خميني، ودوره البارز بوصفه القائد الوحيد للثورة. خدع آية الله كاشاني، مرشد خميني، زعماء المجموعة القومية، الذين كان مرشدهم مصدق، وتخلوا عن بختيار، حليفهم السابق، واصطفوا حول خميني. كان هناك جو من اليقين النظيف بهذه الأمور كلها: كان عدد غفير من الناس يعتقدون أنه ما إن تطأ قدما خميني التراب الإيراني حتى يعتكف في مدينة قم المقدسة. عاد خميني فعلاً إلى قم برهة من الزمن، لكنه لم يعتكف فيها، لكن العنف الذي كان قد أيده في البداية والموجه ضد (الشيطان الأكبر) وخدمه المحليين الخنوعين، تحوّل الآن ضد مؤيديه من العلمانيين والمسلمين معاً.

اختبأ بختيار في مكان ما، وفي خاتمة المطاف غادر إيران سراً في نيسان (أبريل) من تلك السنة. (قتله عملاء [الجمهورية الإسلامية] في شقته الباريسية في السابع من آب [أغسطس] ١٩٩١). كانت الفوضى

العارمة تعم الشوارع، والقوة الوحيدة التي بمستطاعها أن تحفظ النظام هي الجيش المنقسم حالياً، وقد احتلتْ ثكناته العناصر التابعة للمنظمات القتالية المسلحة، وآلاف من عامة الناس ممن سيطرت عليهم الحماسة الثورية. في الثامن من شباط (فبراير) أعلن خميني عن تشكيل حكومة مؤقتة يترأسها منشق إسلامي معتدل هو مهدي بزركان. أشار خميني في حديثه وهو يقدم بزركان إلى أنه هو نفسه رجل يمتلك سلطة «من خلال [الولاية][1] التي امتلكها من صاحب الشريعة الإسلامية المقدس [النبي]». قال إن الحكومة الانتقالية يجب أن تُطاع لأنها ليست حكومة عادية، وإن «التمرد على حكومة الله تمرّدٌ على الله. والتمرد على الله بمنزلة الكفر». وكي يعزز سلطته، بدأ خميني بتشكيل منظمات موازية لقوى الجيش والشرطة: لجان ثورية، وميليشيا ثورية، منظمات مسلحة، كانت سلطاتها غير معينة، وغير محدودة. في مستهل الأمر كانت اللجان الثورية مجموعات غير مسلحة دورها هو القضاء على الفوضى العارمة وحماية المجتمعات، لكنها في الوقت عينه كانت تُلقي القبض على الثوريين المضادين، وكان المقصود بهم في البداية مؤيدي النظام القديم، لكن هذه التسمية سرعان ما امتدت لتشمل القوى الليبرالية والراديكالية.

ولم يمضِ وقت طويل حتى أصبح أعضاء هذه اللجان حراساً على أخلاقنا، وشرعوا يعتقلون المواطنين بسبب مدى واسع من (الجرائم)، بدءاً من التجديف وانتهاءً بامتلاك المشروبات الكحولية وتسجيلات الموسيقى الغربية. وفي الحادي عشر من شباط (فبراير) قرر (المجلس العسكري الأعلى) وبالإجماع أن يعلن عن كونه حيادياً،

(١) اصطُلح على تسميتها: ولاية الفقيه - م.

وأمر كل الملاك العسكري بالعودة إلى وحداتهم. في ذلك اليوم أعلن آية الله خميني وحكومته الانتقالية عن تحقيق النصر. وخلال بضعة أسابيع، وعلى الرغم من احتجاجات منظمات حقوق الإنسان والانتقادات اللاذعة من العناصر المعتدلة في بنية النظام الثوري الجديد، أُعدم من دون إبطاء مئات الموظفين المنسوبين إلى النظام السابق.

أعلن القادة الجدد أن أعضاء اللجان الأهلية الإسلامية الذين كانوا يطوفون الشوارع هم أصوات الشعب. وأصدر خميني مرسوماً أعلن فيه أن لبس الحجاب إجباري، والذي أُرغم على التراجع عنه بعد تظاهرات واعتصامات ضخمة ومنظمة قامت بها النساء، وهن يهتفن: «الحرية لا شرقية ولا غربية. الحرية عالمية». لكن اللجان الأهلية هاجمت النساء غير المحجبات، أحياناً بالحامض، والمقصات،



احتجت النساء الإيرانيات على قانون فرض الحجاب الإسلامي، سنة ١٩٨٠.

والسكاكين. أُلغي قانون حماية الأسرة حالاً، وأصبحت القوانين الدينية هي قانون البلد، وقللوا العمر القانوني للزواج (فيما يخص النساء) من سن الثامنة عشرة إلى التاسعة، وأجازوا قانوناً تعدد الزوجات، و«الزواج المؤقت»، وجردوا القاضيات من وظيفتهن، وأدخلوا الرجم بالحجارة حتى الموت كعقاب على الزنا والعُهر.

الفصل الثالث والعشرون

المرأة الأخرى الثانية

في الوقت الذي أنهيت فيه دفاعي عن أطروحة الدكتوراه خاصتي، في صيف ١٩٧٩، وغادرت أمريكا رفقة بيجان متجهة إلى طهران، كانت لدي بضعة أوهام فيما يتعلق بالحكومة الجديدة في إيران. كان أبواي قد استُدعيا للمثول أمام محاكم ثورية. أمروا أمي بإعادة الرواتب التي تقاضتها عندما كانت عضوة في البرلمان، وصودرت معظم الثروة التي كانت مسجلة باسمهما، لكنهما لم يُسجنا أو يُعدما، الأمر الذي حصل لعدد كبير من الموظفين الحكوميين السابقين ممن في مرتبتهم. إن تصويت أمي ضد قانون الامتيازات الأجنبية وقانون حماية الأسرة عُدّا نقطتين في صالحها. وأُنقذت حياة أبي بسبب المدة التي قضاها في السجن، وتقارير خدمته السرية، التي كشفت عن تعاطفه المزعوم مع المحتجين خلال انتفاضة حزيران (يونيو) ١٩٦٣. كان أبي يذكّرنا غالباً متعجباً أن السيد رحمن قال له إن المدة التي يقضيها في سجنه ستنقذه من كارثة أكبر ستواجهه في الأيام المقبلة. وكانت أمي تهز رأسها عن دراية، «مَن كان يصدق ما يقوله؟»، تقول محدثةً نفسها، مثلما تحدثنا. «من الذي جعله قريباً منا، على الرغم من كل جهودكِ في طرده من المنزل؟»

خلال وجودي في أمريكا، انتقل أبواي إلى منزل جديد يقع في

الجزء الشمالي من طهران، قبالة ما كان يُسمى مرةً (المستشفى الأمريكي)، والذي تحوّل حالاً إلى مستشفى مخصص لمعالجة المحاربين القدماء ممن ساهموا في الحرب الإيرانية - العراقية. عندما رجعنا أنا وبيجان، قررنا السكن معهما. كان في نيتنا أن نجعل هذا الترتيب مؤقتاً، ريثما نحصل على عملين لنا، ونجد منزلاً خاصاً بنا، لكن هذا الترتيب شأنه شأن الكثير جداً من الترتيبات المؤقتة سرعان ما تحوّل إلى قاعدة. كان لأخي محمد منزله الخاص، إلا أنه كان يزورهما في كثير من الأحيان، وبخاصة في أيام الجمع، لحضور جلسات القهوة التي يقيمها أبواي، التي كانت بكامل قوتها ونشاطها.

شهدت الغرفة الواسعة في الطابق الأرضي من البيت الجديد نقاشات مشحونة وحامية وكثيرة: كان مصير البلد على كف عفريت، وكان لدى الجميع، باستثناء كولونيلنا الساحر والكسول، شيء ليقولوه في هذا الصدد. كان أبي لا يزال يعلق آمالاً كبيرةً على الثورة الفتية: وظل يكرر نظريته التي مفادها أننا إذا تخلصنا من القوتين الظالمتين الخاصتين بالمَلَكية المطلقة والدين المتزمّت من خلال تقوية القوى العلمانية والدينية المعتدلة، سنكون على الطريق الصحيح. كان أبي يشعر أن رئيس الوزراء بزركان يمتلك السلطة والإرادة إلى درجة أنه يستطيع أن يوحّد المجموعات والأشخاص ذوي التوجهات الديمقراطية في جبهة واحدة - وهو وهمٌ سرعان ما طواه النسيان.

في هذه الآونة كانت أمي وشيرين خانوم كلتاهما معجبتين بخميني. كانت أمي تدافع عنه بضراوة في مواجهة فريق نامي من الشكوكيين الشبيبة يتألف مني ومن أخي وأصدقائنا. ولم تكنْ تجد ضيراً في أن يطبق أحد القادة دينها عملياً، كما كانت تقول. يرد عليها أحدنا بسرعة: «دينكِ! نزهت خانوم، لو كان بمستطاعه للفّكِ أنتِ

وابنتكِ وكل امرأة في هذه الغرفة بالسواد من قمة الرأس حتى أخمص القدمين».

كانت أمي ترفض حدساً كهذا، وتُمرر علينا طاسات الفواكه، وتُناولنا فناجين القهوة، وقطع المعجنات الصغيرة. قالت: «ليس من الصحيح أن ننشر الشائعات. إنه رجل حازم، إنه يعرف كيف يحكم البلد». وعندما تستمع بنفاد صبر إلى القصص المتعلقة بالإساءات والانتهاكات التي يرتكبها الحراس الثوريون لم تكنْ لتهتز قيد أنملة. كانت تصرّ على القول إن العنف لم يكن بمشيئة خميني بل إنه عمل يقوم به ثلة من المتطرفين الذين سرعان ما ينالون قصاصهم العادل.

ولم يكد يمر وقت طويل حتى نسيت أمي الزمن الذي دافعت فيه عن خميني. وقضت الأنباء المتعلقة بالأعمال الوحشية التي اقترفها النظام الجديد على مزاجنا المرح، وهشمت آمالنا بالتغيير. قُتل عدد من زملائنا وأصدقائنا على أيدي رجال النظام الجديد - السيد أميراني، رئيس تحرير مطبوع «*خاندانيها*»، الذي ساند أبي بجرأة شديدة خلال السنوات التي قضاها في السجن، والسيد خوشكيش معسول اللسان، وطيب القلب، خطيب أمي الخجول، الذي كان رئيس البنك المركزي، كلاهما قُتلا من دون محاكمة أو تُهم رسمية. وكان هنالك آخرون: مديرة مدرستي السابقة الدكتورة برساي؛ الجنرال بكروان الذي ساعد، بالمصادفة، في إنقاذ حياة آية الله خميني سنة ١٩٦٣؛ عدونا القديم الجنرال ناصري؛ وكثير غيرهم ممن كانوا حقيقةً ضد نظام الشاه، ومن بينهم أشخاص، مثل ابن عمي سعيد، قضوا بعض الوقت في سجون الشاه. وفيما بعد امتدت حوادث القتل لتشمل الناس العاديين الذين كان إثمهم الوحيد هو ببساطة تشويه سمعة خميني أو الإسلام. وحاصر النظام المستهترين، الزناة، وتلكم النساء اللواتي

اعتُبرن عاهرات، فضلاً عن بعض الأقليات الدينية والعِرقية، وبخاصة البهائيين. وفي الوقت الذي تم فيه وضع اليد على السفارة الأمريكية، في الرابع من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٩، وسقوط رئيس الوزراء المعتدل بزركان، كان شهر العسل بين أبويّ والثورة قد انتهى.

في الجمعة الأولى بعد عودتنا إلى طهران، كانت أمي متلهفة لأن تعرّفني إلى ضيفة جديدة. شرحت لي أن المرأة التي هي بصدد أن تقدمني إليها كانت مرافقة لخالي علي، الذي كان يدير مستشفى شهيراً في طهران. «سمعتُ الكثير عنكِ»، قالت لي زيبا خانوم بابتسامة ذات مغزى، كانت نبرة صوتها حميمة جداً بالنسبة لشخص التقت به تواً. بقيت لتتناول الغداء معنا بعد أن غادر الضيوف الآخرون، وكان قد انضم إليها زوجها، وابنتها ذات السنوات العشر، وهي فتاة جميلة، خجولة، التي كانت على الرغم من خجلها تتصرف على سجيتها كما لو أنها في منزل أهلها، وكانت تلح عليها أمي كي تتناول الشوكولاته. وبعد وجبة الغداء أخذنا أبي إلى حديقة المنزل. «أمضى أبوك وقتاً طويلاً جداً في حديقته»، قالت زيبا خانوم مبديةً إعجابها بالحديقة. «كل زهرة من الزهور زرعها بيديه».

كانت أمي هي أول من اكتشفها. التقت بها في زيارة لها إلى مستشفى الخال علي، حيث كانت زيبا خانوم من بين الكادر الإداري في المستشفى. وسرعان ما مالت إليها أمي، ودعتها، ومن ثم دعت أفراد أسرتها، لزيارتنا في المنزل. وفي الوقت الذي رجعتُ فيه مع بيجان إلى إيران، كانت زيبا خانوم وزوجها من بين أقرب أصدقاء أبويّ. في الظاهر، بدأت العلاقة الغرامية عندما راح أبي وزيبا خانوم يشكيان معاً من زوج كل منهما. «إنه بارد»، قال لي أبي بثقة، «وغير

مكترث بصورة مذهلة بجمال عاشقة مشبوبة العاطفة». ليس هنالك مثل زوجين ساخطين عندما يجتمعان معاً لتدبير مؤامرة عاطفية.

كانت زيبا خانوم أجمل من شاهين، ومتمسكة بالعرف أكثر. ممتلئة الجسم نوعاً ما، ترتدي ملابس تقليدية، طاهية ماهرة، وربة بيت مقتدرة، تعمل بمثابرة وبصورة جيدة، لا تملك أياً من ادعاءات شاهين. في فجر الثورة، عندما كانت الحكومة الجديدة تعتقل موظفي النظام السابق، وكان أبواي قلقين من احتمال أن يُستدعى أبي، وفّرت له زيبا وزوجها ملاذاً للتخفي على مدى بضعة أيام.

رأينا منها أشياء كثيرة تزيد على ما رأيناه من شاهين، لأنها كانت صديقة الأسرة (وهي فضلاً عن ذلك صديقة حميمة)، ولأنها «لُقية» أمي. عندما كنتُ بعيدة، كانت أمي والخالة مينا قد تشاجرتا لأسباب غير واضحة على الإطلاق. ورداً على استفساراتي، كانت أمي تشير بصورة مبهمة إلى أكاذيب، وكونها خُدعتْ، وكيف أنها لم تستطع أن تتحمل أكثر من ذلك. كانت أمي قد تأثرت بـ«سلوك زيبا المهذب»، وإحساسها اللائق بالاحترام ومراعاة الآخرين، وبدأت تحل محل



شهران (صديقتي الحميمة وزوجة محمد الأولى)، أناء بيجان، ومحمد، سنة ١٩٨٣.

الخالة مينا. أزعجتني الطريقة البريئة والمتواصلة التي امتلكتها أمي في مجاملة هذه المرأة وأفراد أسرتها. وجعلتنا جميعاً غير مرتاحين، بما أننا جميعاً كنا نعرف ماذا يجري - بيجان، محمد، وفيما بعد زوجة محمد الجديدة شهران، التي سرعان ما أصبحت صديقتي الحميمة.

الفصل الرابع والعشرون

عندما لم يعد الوطن وطناً

يمكنني أن أحدد التاريخ الذي بدأت به الحرب مع العراق (الثاني والعشرين من أيلول [سبتمبر] ١٩٨٠) والتاريخ الذي انتهت به (العشرين من آب [أغسطس] ١٩٨٨)، ويمكنني أن أخبركم أن أعداد الجنود القتلى والجرحى والمفقودين كانت عالية، لكنني أشعر بأني عاجزة فيما يتعلق بوصف التغيرات الحاذقة التي طرأت على نسيج حيواتنا، بحيث أصبح بوسعي أن أتمشى في الشوارع التي كنتُ أقطعها عندما كنت طفلة صغيرة، وأشعر كما لو أنني غريبة عنها تماماً. في إحدى يومياتي التي بدأتها في خريف ١٩٨٠، في مكانٍ ما بين ملاحظاتي التدريسية لمحاضراتي عن «*هكلبري فن*»، «*غاتسبي العظيم*»، ورواية «*الأم*» لغوركي، كتبتُ: «لم يعد الوطن وطناً». تغيرت حيواتنا، ليس بسبب الكارثة والأشلاء، بل أيضاً بسبب شتى أنواع العنف، ومعظمه عنف غير ملموس، كان يلتهم كالدود حيواتنا اليومية الطبيعية.

ومثل ابن عمي مجيد، الذي كان يتجول في شوارع طهران على أمل أن يُحدث ثورة، أنا كذلك حلمتُ بأن يحصل تغيير في النظام السياسي، لكنني في قلبِ كل شيء أقوم به كانت تراودني فكرة العودة إلى وطني، إلى تلك الجبال، إلى تلك السماء الليلية التي نمتُ تحتها

طوال سني طفولتي، إلى شارع نادري وروائح السمك، والجلد، والقهوة، والشوكولاته، إلى دور السينما والمطاعم والمقاهي بموسيقاها المفعمة بالحيوية، إلى أبي، وهو يمسك بيدي بينما نحن نسير بامتداد الشارع الرحب الذي تحفه الأشجار من الجانبين متجهين صوب الجبال، ويقول لي: «لسبب واحد يجب علينا أن نؤمن بالله، هو وجود أشعار من مثل أشعار جلال الدين الرومي أو أبي القاسم الفردوسي». ما من شيء قاتل أكثر من الآمال المحطَمة: كان من المفترض أن تغيّر الثورةُ النظامَ السياسي، وأن تجلب لنا مزيداً من الحرية، وأن تجعلنا نشعر أننا نتصرف على سجيتنا. الآن وقد عدتُ إلى وطني، ولم يعد ثمة شيء على ما كان عليه. أو، ما يعكر المزاج أكثر، بدا كل شيء على ما كان عليه، إنما كان مختلفاً في حقيقة الأمر: أصبح للشوارع أسماء مختلفة، أصبح اسم (إيران) (الجمهورية الإسلامية في إيران). وحتى اللغة بدت، وبصورة غريبة، غير مألوفة، لغة كان فيها المواطنون إما رُسل الله أو الشيطان، أما النساء اللواتي مثلي فهن «عاهرات» و«عميلات غربيات». كان وجه الدين يتغير من تعاليم أبي السمحاء إلى أحاديث أيديولوجية متبجحة تطلقها مجموعة من الناس، ويجعلونها حكراً على أتباع آية الله خميني، الذين يسمون أنفسهم (حزب الله). وكان شعارهم: «ثمة حزب واحد لاغير، ألا وهو: حزب الله».

لم يعد الدين جزءاً من الثقافة الإيرانية، يشكّلها وتشكّله؛ كان آية الله خميني يذكّرنا المرة تلو المرة بأن وطننا الحقيقي ليس إيران بل الإسلام، وأن حدود الإسلام تمتد من إيران لتصل إلى العالم الواسع.

لا أستطيع أن أفكر في الحرب الإيرانية - العراقية من دون أن

أتذكر أن هذه الحرب لم تكن بين حكومتين كانتا تقومان في الوقت نفسه بحملة وحشية ضد شعبيهما. كان آية الله خميني يسمي تلك الحرب (نعمةً)؛ كانت بالنسبة له انحرافاً كبيراً عن القضايا المحلية والمعارضة المتزايدة. كان يعتقد أن على الأمة بكاملها أن تجتمع معاً ضد الأعداء الغزاة في حين في الوقت نفسه كان بمستطاع الدولة أن تكمّ أفواه جميع المعارضين باسم الأمن القومي. خلال السنوات الثماني التي استمرت فيها الحرب، قُصفتْ طهران بالصواريخ مراراً، لم يكن هذا القصف شديداً مثلما جرى في المدن الحدودية في محافظة خوزستان[1]، لكن في الحقب الفاصلة بين قصف وآخر ظل الخوف سائداً. وفي كل مرة نسمع فيها نشيد النصر من المذياع وهو يعلن قصف «وكر آخر من أوكار الجواسيس» في بغداد، كنا ندرك جيداً أن تلك «الأوكار» لم تكن سوى أناس عاديين مثلنا، مثلما كنا نعرف أن طهران سرعان ما تكون هدفاً، وسوف يعلن صدام حسين عن تدمير «أوكار الجواسيس» في طهران. لقد شعرتُ بقدر كبير من التعاطف مع أولئك العراقيين الذي أُجبروا كي يصبحوا أعداءً لنا، لكنهم في واقع الحال كانوا نظراءنا في المحنة.

بعد انقضاء شهر على عودتي إلى طهران، بدأتُ التدريس في جامعة طهران، في كلية للبنات، كان تغير اسمها رمزاً للأزمنة المتغيرة باستمرار: في عهد الشاه كانت تُدعى (كلية فرح بهلوي)، على اسم زوجة الشاه؛ وبعدها صار اسمها (كلية متحدين)، على اسم عضوة في

---

(١) خوزستان: إقليم في جنوب إيران، يتصل بالخليج. قاعدته الأهواز. ومن مدنه: عبادان، تستر، وخورمشهر (المحمرة)، يشتهر بقصب السكر، والبترول – م.

(منظمة مجاهدين الإسلامية)[1] القتالية، قُتلتْ إبان حكم الشاه. وعندما تعمقت الخلافات بين (منظمة مجاهدين الإسلامية) والنظام الجديد، تغير اسم الكلية مجدداً ليصبح (كلية الزهراء)، لإحياء ذكرى فاطمة الزهراء، ابنة النبي محمد. في أول يوم دخلتُ فيه حجرة الجلوس الرئيسة الشبيهة بالكهف التابعة لقسم اللغة الفارسية واللغات الأجنبية وآدابها في جامعة طهران، صدمني طنين الأصوات المختلفة التي كانت تعلو وتنخفض. كانت قد صُفت عدّة مناضد عليها كراسات، وكتب، ووريقات، كل منضدة من تلك المناضد تمثل تجمعاً سياسياً مختلفاً. وسرعان ما اعتدتُ تلك الضوضاء، وتلك الحشود التي كانت تزداد وتتقلص عند المناضد، وذلك الحراك المستمر.

وبعد مدة قصيرة أنا بدوري أصبحتُ جزءاً من ذلك الحراك: أجري بسرعة من اجتماع إلى اجتماع، محتجةً على طرد أستاذ جامعي، أحضر إلى المظاهرات والاعتصامات. لكن المسألة التي نالت تركيزي واهتمامي كانت دوماً محاضراتي. ومنذ اللحظة التي وطأت فيها قدماي، بخوف وقلق، الحجرة العميقة كي ألقي محاضرة على قاعة دراسية جامعية سُميَّتْ بصورة لا علاقة لها بالموضوع «قاعة البحث»، وكتبتُ على السبورة السوداء القراءة المطلوبة: «*مغامرات هكلبري فن*»، أحسستُ بالارتياح كما لو أنني في منزلي. بصرف النظر عن الجو المشحون والمليء بالخصام الذي كان يسود الجامعة، كان شيئاً يبعث على السكينة أن هذه الكتب كانت بمنأى من الحروب، والثورات، والمجاعات. كانت هذه الكتب موجودة قبل ولادتنا،

---

(١) المقصود هنا: منظمة (مجاهدي خلق) - م.

وستبقى دهراً طويلاً بعد رحيلنا عن هذه الدنيا. (ماذا قال الفردوسي؟ «لن أموت، هذه البذور التي زرعتها سوف تنقذ / اسمي وسمعني من القبر»). أمست روايات جورج إليوت، جين أوستن، فلوبير، وتولستوي بوتقةً نعبّر من خلالها عن الحاجة إلى تعزيز ديمقراطية الأصوات. علمتنا رواية «*توم جونز*» قيمة الهزل، وعلمتنا رواية «*ترسترام شاندي*» الهجاء، ويبدو أن كل رواية قرأناها كانت تعطينا درساً في تعقيد الخيارات الأخلاقية، والمسؤولية الفردية. أصبحت هذه كلها، وبصورة عميقة وملحة، وثيقة الصلة بالواقع الذي كنا نعيشه. غالباً، كنت أزاوج بين نماذج الأدب الفارسي، وأنا أستعير بصورة رئيسة من رواية صادق هدايت «*البومة العمياء*» ***Buf-e Kur***، وديوان «*ميلاد آخر*» لفروغ فرخزاد، أو من أدب ماضينا الكلاسيكي، وأناقش الهزل النابض بالحيوية لجلال الدين الرومي، أو الابتهاج العابث لحافظ الشيرازي وهو يقوّض الفكر التقليدي. ناقشنا استبدادية الكتّاب السيئين الذين يفرضون أصواتهم الخاصة على شخصياتهم الروائية المتخيّلة، منتزعين حقها المشروع في الحضور. لماذا، في الروايات التي تحمل رسالةً ما، يكون الأوغاد مختزلين جداً كما لو أنهم يجيئون إلينا وعلى جبهتهم علامة تقول: حذار، أنا مسخ؟ ألم ينص القرآن على أن الشيطان يغري البشر، يغويهم وعلى ثغره ترتسم ابتسامة ماكرة؟

في الحادي والعشرين من آذار (مارس) ١٩٨٠، لمناسبة السنة الإيرانية الجديدة، أطلق آية الله خميني تصريحاً لاذعاً اتهم فيه الجامعات كونها عميلةً للإمبريالية الغربية. وفي صلاة الجمعة يوم الثامن عشر من نيسان (أبريل)، شن علي خامنئي (الذي حل محل خميني كونه القائد الأعلى سنة ١٩٨٩) هجوماً على الجامعات الإيرانية

واصفاً إياها بقوله: «نحن لا نخشى العقوبات الاقتصادية أو التدخل العسكري. ما نخشاه هو الجامعات الغربية، وتدريب شبيبتنا وفق مصالح الغرب أو الشرق». كانت هذه إشارة لما سيُسمى لاحقاً بـ(الثورة الثقافية): التخطيط لغلق الجامعات من أجل «أسلمتها»، ووضع مناهج دراسية جديدة، وتطهيرها من الهيئات التدريسية والإدارات والكوادر الوظيفية والطلبة غير المرغوب فيهم.

لم تستسلم الهيئات التدريسية، وكذلك الطلبة، من دون نزاع. إنني أتذكر الخطب النارية، التظاهرات والاعتصامات، أعضاء لجان الأمن المحلية وهم يظهرون بغتةً حاملين السكاكين وقطع الحجارة كي يهاجموا المتظاهرين. أتذكر الهرب إلى مخبأ آمن في الأزقة المغبرة. أتذكر العثور على ملاذ في مخزن كتب قريب قبل أن يغلق صاحبه أبوابه ببضع ثواني، وتدافعنا جميعاً داخلين من النافذة كي نتحاشى الأعيرة النارية. كنا نسمع يومياً أنباءً عن طلبة مقتولين، وكان عملاء النظام يختطفون جثثهم، ويأخذونها بعيداً عن مسرح الحدث. هذه المشاهد الرهيبة تنبجس من حيث لا أدري، ولا تزال تقضّ مضجعي.

وسرعان ما أُزيلت المناضد التي كانت توضع فوقها الكراسات. وكثير من أولئك الذين كانوا يقفون خلفها، ويمثلون تجمعات وميولاً طلابية مختلفة، فُصلوا، واعتُقلوا، وفي بعض الحالات نفذوا بحقهم عقوبة الإعدام. أُغلقت جميع المنظمات باستثناء المنظمات الإسلامية - مع أن هذا الأمر لم يحدث من دون احتجاجات دموية، اعتصامات، ومزيد من الاعتقالات، وزج في السجون، وإعدامات. في هيئتنا التدريسية، أنا واثنتان من زميلاتي كنا نرفض لبس الحجاب الإجباري، وسرعان ما فصلوني من التدريس مع زميلتيَّ الأخريين.



في تلك الآونة، أُصيب عدد كبير من الطلبة ممن أصروا على «أسلمة» الجامعات، بخيبة الأمل، وشرعوا ينتقدون النظام، ويعبّرون عن احتجاجاتهم أمام الملأ، وينظمون التظاهرات. هل كان بمستطاع أي واحد منا



خلال عملي بالتدريس في طهران؛ لبس الحجاب إلزامي في الجامعة.

أن يتنبأ كيف سيغدو بعضهم مفتونين بجين أوستن، وف. سكوت فيتزجرالد، وسبينوزا، وحنا أرنت، ويبدأون بالتشكيك في معتقدات النظام الذي كانوا أيدوه بحماسة شديدة فيما مضى؟ وسرعان ما راح يطالب بالعلمانية والديمقراطية أولئك الذين اعتُقلوا، وأُلقوا في غياهب السجون، وواجهوا عقوبة الإعدام.

كنت أغادر (كلية الزهراء للبنات) متجهة إلى البيت، وأبدي إعجابي، كالعادة، بالطريقة التي كانت فيها الحديقة، بمرجها المجزوز، ومزاهرها، مرتبةً بحيث كانت تبدو منثورة معاً بصورة عشوائية، هذا المنظر يجعل المرء يشعر بالأمان والصفاء وسط كل هذا الاضطراب العظيم خارج بوابة الكلية مباشرةً، عندما سمعت همساً عالياً خلفي: «بروفيسورة!»

لم ألحظ أحداً يتعقبني، وجفلتُ عندما التفتُّ وشاهدتُها قريبة جداً مني. سألتني: «هل يمكنني أن أكلمكِ؟» «بالطبع»، أجبت. «ذات يوم عندما كنتِ تكلمين الآنسة باقري عن (*مرتفعات وذرنغ*)»، قالت لي، فأجبتها: «لقد فعلتُ». كانت الرواية قد جرحت إحساس الآنسة باقري، هي التي كانت مدافعة شديدة عن الأخلاق في الحرم الجامعي. كانت قد كمنتْ لي ذات يوم بعد الدرس كي تعلن احتجاجها على التردي الأخلاقي في الرواية: قالت إنها تقدم نموذجاً سيئاً من خلال التغاضي عن الزنا. «إن الروايات تتناول الحياة، وتشمل جميع مظاهر الوجود»، قلت لها، وسألتها: «عندما تقرئين الفردوسي، هل تبدئين بالإيمان بالعفاريت والناس الذين عاشوا مدة أربعمئة سنة؟ هل تقررين الذهاب لصيد الحيتان عندما تقرئين (*موبي ديك*)؟» فردّت الآنسة باقري: «هذا شيء مختلف. الزنا خطيئة». قلت لها: «ذلك هو هدف الروايات. إن الشيء الوحيد المقدس فيها هو أنها بطبيعتها تنتهك حرمة المقدسات. إن (*مرتفعات وذرنغ*) قصة حب عظيمة. هل يمكنك أن تذكري لي قصة حب عظيمة واحدة ملتزمة بالقواعد الأخلاقية؟» وفي نهاية الدرس، أخبرتني الآنسة باقري نفسها بحماسة أنها الآن متيمة بكاترين وهيثكليف بحيث إن البنات اللواتي في مهجعها الجامعي هزأن بها.

قالت الطالبة التي طاردتني خلسةً: «وهكذا، أود أن أعرف ماذا عنيتِ عندما قلتِ إن الشيء الوحيد المقدس في الرواية، أي رواية، هي أنها تنتهك حرمة المقدسات». كانت تلبس شادوراً أسود، يكشف «وجهها البيضوي» فقط، كما كانت تبين مراسيم اللباس اللائق. كان وجهها عصياً على الوصف. كان طويلاً نوعاً ما، وشاحباً نوعاً ما، وخالياً من الدم تقريباً، وبارز العظام. ولها عينان جديتان، لا تشبه عيون عدد كبير من الطالبات الأخريات، تنظران إليك مباشرةً. لا أتذكر أسمها. كانت تختلف عن الآنسة باقري. كانت تمتلك تمسكاً في الرأي، نوعاً من العناد، أعجبني - لن تغيّر رأيها في «*مرتفعات وذرنغ*» طوال شهور عدة. لم يأتِ تشبثها برأيها من تحيزها أو معتقداتها الدينية؛ بدا لي كما لو أنها كانت تسعى إلى حل مشكلة ما بينما كانت تتكلم معي. وعلى الرغم من إيمانها، بدا كأن حيرةً داخلية قد جرفتها، وأن نوعاً من عالم باطني يلفّها بوشاحه. وكانت مدة الصمت المؤقت بين جملتي الأخيرة وجوابها تطول كثيراً جداً في بعض الأحيان إلى درجة أنني ظننت أنها نسيت أننا كنا نتحاور.

كان سلوكها الجاد يجعلني أحس أنني تافهة. وددتُ أن أضحك، وأخفف العبء عن كاهلها. لم تكنْ هذه المناقشة من نوع المناقشات التي اعتدت أن أخوضها مع طالباتي الجامعيات المتدينات عن الأخلاق في أي عمل أدبي - لقد اكتشفتُ كم كانت حججهن شبيهة بصورة مضجرة بحججي وحجج زفاقي ورفيقاتي عندما كنتُ ناشطة راديكالية، إلى درجة أنهن اختزلن الأدب كله إلى رسالة أيديولوجية.

قلت لها: «أغلب الظن، إذا ناقشنا أنا وأنتِ بعض هذه الروايات التي اصطُلح على تسميتها بـ(غير الأخلاقية)، سيكون ما أعنيه أكثر

وضوحاً». سألتني عن لائحة كتب. قالت إنها قرأت فروغ فرخزاد، وذكّرتُها أن أعمالها الشعرية مُنعت من التداول والبيع. ردت عليّ قائلةً: «كل شيء، على ما أعتقد، مسموح به، إن كان بدافع الفضول المعرفي». الفضول المعرفي! هذه هي واحدة من الصياغات المناسبة. قالت: «على أية حال، كانت فروغ فرخزاد (غربية) أكثر. لم تكن تتبع تقاليدنا». واقترحتُ أنه ربما يتعيّن عليها أن تلقي نظرة مختلفة على النساء في «*الشاهنامه*»، والحكايات الكلاسيكية الأخرى. وفي المقام الأخير، الزنا ليس صناعة غربية، ولا الحب. في «*ويس ورامين*»، يرتكب العاشقان الزنا بشكل صريح، لأن انهماكهما الأخلاقي الرئيس هو الحب. ولكننا ما دمنا نتناول موضوع الزنا والرواية، فما رأيكِ إذا بدأنا بـ«*مدام بوفاري*» و«*آنا كارنينا*»؟

وطوال الشهرين التاليين، كنتُ أنا وهذه الطالبة الجامعية نلتقي مرةً واحدة في الأسبوع على الأقل. كنا نجلس على المرج، أو نتمشى ذهاباً وإياباً في الشارع المشجر الذي كان حرمنا الجامعي يقع فيه. مرةً أو مرتين، أحضرتُ فطيرة منتفخة مليئة بالقشدة أو فطيرتين، وكانت تؤكد أنها ستحضر معها في المرة القادمة علبةً كبيرة من المعجنات. قرأت «*مدام بوفاري*» وشيئاً من «*آنا كارنينا*». قالت إن هاتين المرأتين كانتا نادمتين في النهاية. فقلت لها: «ليستا نادمتين، بل يائستين. لقد تحطم فؤاد آنا، ووصلت إيما إلى نهاية حبلها». قالت: «لقد قلت إنها عن الحب. وتلك أيضاً، لكن فيما يخص إيما، هي تتناول بصورة رئيسة الأوهام، الأحلام التي نفرضها على واقع رتيب وقاسٍ. لقد تزوجت إيما بسبب ذلك الحلم واحتالت على زوجها للسبب نفسه. لقد قرأت إيما روايات رومانسية كثيرة جداً، وأرادت أن تكون بطلة رومانسية كبطلات الروايات التي طالعتها بشغف».

قالت: «لقد فسخت عهدها. كان لديها عهد شرف». فقلتُ ببطء: «لقد فعلتْ ذلك، لكن تشارلز بوفاري كان هو أيضاً وإلى حدٍّ ما ضحية أوهامه الرومانسية. كان يحب فكرة إيما بالقدر نفسه الذي يحب فيه إيما نفسها، إن لم يكنْ أكثر. كان يجهل مَنْ هو الشخص الذي تريده، وماذا كانت تريد منه».

سألتها: «لماذا لا تعتقدين أن النساء اللواتي يتزوجن من دون حب زانيات؟ يبدو لي أنهن أسوأ». قالت: «إنهن مجبرات على أداء واجباتهن، إنهن لا يكذبن». قلت: «هنالك أنواع مختلفة من الكذب. أعرف امرأةً قويمة الأخلاق لا تحلم أبداً بارتكاب الزنا، ومع ذلك طوال نحو ثلاثين سنة كانت تخدع زوجها، عاطفياً، مع زوجها الأول المتوفى». (ذات مرة سألتُ أمي: لماذا لم ترقص ثانيةً بعد تلك الرقصة مع سيفي، فأجابتني قائلةً: «لأنه ليس هناك أحد لأرقص معه»). عندما رويت لطالبتي عن تلك المرأة، قالت لي: «إنني أشفق عليها، وأشفق على الجميع كذلك. هذه المرأة التي تتكلمين عنها، كانت تعاني من غياب الحب» - قالت طالبتي هذا كما لو أن غياب الحب كان نوعاً من الألم. لقد سجلتُ هذه الفقرة، وكنت أعود إليها بين الحين والآخر، حينما كنت أفكر في أمي، وجدتي، والخالة مينا، وفي الشاعرة عَلَم تاج، ونساء كثيرات جداً كن يشعرن أن حيواتهن ضاعت ليس بسبب طموحاتهن الاجتماعية المجهَضة بل لأنهن أيضاً عانين من غياب الحب.

انطلقنا من هناك، ببطء ورقّة، إلى معنى الأمانة واحترام الذات، وبصورة لا فكاك منها، تطرقنا المرة تلو المرة إلى وضع النساء، النساء في أوروبا، وأمريكا، ومصر، وتركيا، اللواتي خضن النزاعات نفسها، وعانين من ضروب الإذلال عينها. سألتني: «لكن لماذا لم يحكي لنا

أحد عن ذلك كله؟ لماذا لم يذكروا لنا ذلك في المدرسة؟» وأنهينا كلامنا بالحديث عن النساء في بلدنا، اللواتي بوسعهن أن يقصدن المدرسة والجامعة ويقرأن «مرتفعات وذرنغ»، لكنهن محرومات من حقهن في تحديد خياراتهن المهمة جداً فيما يتعلق بحيواتهن: من هذا الرجل الذي تتزوجه المرأة الإيرانية، وما هو الزي الذي تلبسه، وأين تعمل. برق في عينيها الذكيتين ضوء جديد. قالت: «من المضحك أن أفكر الآن في هذه الأمور. قبل الثورة، كنتُ على الأغلب سأستسلم إلى زواج توافقي، كي أغيظ الحكومة، لكنني الآن لم أعد متأكدة من ذلك. أخمن أن هذا هو فعلته فيَّ الرواية، إنها تجعلنا نفكر في هذه الأشياء - أو تفعل شيئاً من هذا القبيل».

توقفتْ فجأةً عن حضور الدروس، وانتهى الفصل الدراسي. تركتُ (كلية الزهراء)، وانهمكتُ في معارك الحرم الجامعي التي انفجرت في جامعة طهران. كنت أود أن أسأل الآنسة باقري عنها، لكنني لم أفعل. بين الحين والآخر كنتُ أعود إليها، وأسأل نفسي ماذا جرى لها. هل تزوجت رجلاً اختارته هي بنفسها؟ هل حدث أن أغواها رجل آخر، أو أغوتها فكرة حياة أخرى؟

جرت العادة أن نستيقظ صباح كل يوم على حدث جديد، وغير متوقع. كانت مصادر أمي (كانت لها «عيناها وأذناها» في كل زاوية من زوايا البلد، كالإمبراطور داريوس) قد أعلمتها أنه ستنقلب حالاً أقدار الحكام الجدد. كان تغمز إلى زوجي، الذي كانت تسميه السيد تشرتشل، وأبي كذلك يطلق عليه الاسم نفسه. لسبب ما كانت تعد تشرتشل ماكراً جداً (لعله كان كذلك) ودبلوماسياً (في بعض الأحيان لم يكن كذلك). كانت تقول عن بيجان: «إنه دبلوماسي جداً، لا

يقول شيئاً، يبتسم فقط، لكنه مع ذلك خطير جداً». وكانت واثقة بأنه «سرعان ما يتمرد آيات الله الكبار على خميني».

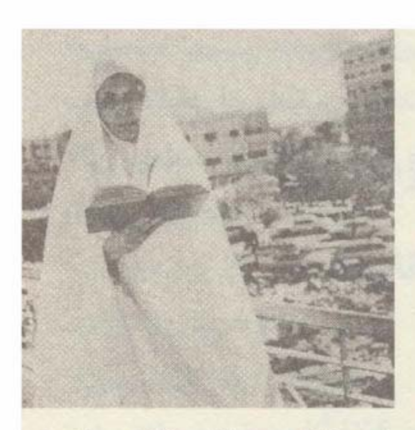
وقد تمردوا فعلاً. لم يعد رجال دين كثيرون يؤمنون أن المؤسسة الدينية يجب أن تتدخل في شؤون الدولة بشكل مباشر. وعلى مدى قرون عدة، كان رجال الدين يمارسون سلطتهم من خلال الضغط على الدولة، ويُظهرون أنفسهم على أنهم مؤيدون للمساكين والمحتاجين. مع أن خميني سيطر على السلطة باسم العُرف، لكن تفسيره الأيديولوجي للدين كان حديثاً، وبحسب ما يقوله بعضهم، كان مناهضاً لما هو تقليدي، وقد تأثر بالأيديولوجيات الشمولية الحديثة. في كل أنحاء بلادنا، كان الزعماء الدينيون التقليديون البارزون، الذين يأتون بعد خميني في التسلسل الهرمي، يعلنون عن حزنهم. كان أبرز هؤلاء الزعماء: آية الله شريعتمداري، قد بدأ بانتقاد نظام الحكم بشكل صريح. في تبريز، وبصورة معلنة رسمياً، اشترك مليون إنسان في التظاهرات المؤيدة لآية الله شريعتمداري، الذي دعا إلى فصل الدين عن الدولة، حيث أصر الأخير على أن هذه المسألة هي إحدى النقاط الجوهرية في الإسلام الشيعي.

سُحقت هذه التمردات بعنف. وجُرد آية الله شريعتمداري المَهيب من منزلته، وأُودع السجن. واعتُقل مؤيدوه، وقُتل بعضهم، وتوفي هو أثناء إقامته الجبرية بمنزله. («تذكروا أنه عندما كانت هنالك مشكلة بين خميني والشاه، جلس شريعتمداري هذا نفسه تحت إحدى الأشجار وراح يبكي محتجاً»، كان أبي يذكّرنا بابتسامة ساخرة. «إمامنا الجديد يعرف كيف يُظهر عرفانه بالجميل»). بعث النظام رسالة إلى المؤمنين: كي يعيشوا عليهم أن يكونوا مخلصين للتفسير الوحيد للإيمان، وأن يتقبلوا الدور السياسي الجديد لرجال الدين.

أحس أبي أن هذه الرسالة رسمتْ نهاية الإسلام في بلدنا، وكانت لديه وجهة نظر في هذا الأمر. قال: «ما من قوة أجنبية قادرة على تدمير الإسلام بالطريقة التي قام بها هؤلاء الأشخاص». وفيما بعد تقول إحدى صديقاتي: «كيف يمكنكِ أن تثقي بدين ما، عندما يكون مسؤولاً عن كل شيء، من السياسة إلى مد أنابيب المياه في المباني؟»

كان اهتمام أمي بأنشطتي في الجامعة يتزايد يوماً بعد يوم. الآن، حينما دعتني للانضمام إليها وإلى صديقاتها وأصدقائها لتناول القهوة، كانت تقول لي: «أخبريهم، أخبريهم ماذا يفعلون [هم] في الجامعة للبنات». وكانت تحصي كل المظالم التي تُرتكب بحق النساء: من منعهن من مزاولة وظيفة السلطة القضائية، ومن المشاركة في الألعاب الرياضية، وإلغاء قانون حماية الأسرة (كانت قد نسيت مؤخراً أنها هي نفسها قد صوّتت ضده)، تقليل عمر الزواج بالنسبة للفتيات، وتواصل إدراج المزيد والمزيد من تلك المظالم. وبعدها تلتفت إليّ، وتقول: «أخبريهم». كانت تريد مني أن أصف التظاهرات والاعتصامات التي تنظمها النساء، المعارك على موضوع لبس الحجاب. «وبعدها ماذا قالت صديقتك (هايده) لـ(اللجنة الخاصة بالثورة الثقافية)»، كانت تقول لي ذلك، وتحثني على قول المزيد، وقبل أن أتمكن من قول أي شيء، تلتفت إليّ، وتقول بانتصار: «وهذه المرأة، زميلة آذر، تنهض على قدميها وتقول: (لقد حوّلتم الجامعات، معاقل المعرفة، إلى ردهات تعذيب). بطبيعة الحال، هذه الفتاة، آذر، واثنتان من زميلاتها، ذهبن إلى قاعة الاجتماعات من دون حجاب»، وتضيف قائلةً، بزهو جلي: «هل من المعقول أن تواجه ابنتي المسكينة، التي كرّستُ حياتي من أجل تعليمها، هذا المصير؟»

في صباحات أيام الجمع، كانت أمي تشنّ هجوماً عنيفاً على أي فرد يرفض احتجاجاتي على انتهاكات النظام لحقوق المرأة. كان كثير من الناس يشعرون أن هذا ليس وقت النزاع من أجل قضايا غير مهمة عندما تكون مسألة الاستقلال والكفاح ضد الإمبريالية في حالة خطر. في صباح يوم مميز عصي على النسيان، طرحت شيرين خانوم موضوع «الإسلام الأصيل». لقد قيل إن آية الله خميني كان يمثل الإيمان الحقيقي (الإسلام الأصيل)، بينما كان الشاه ومعارضو خميني يعتنقون نسخة كاذبة منه: «الإسلام الأمريكي». هذا الأمر أغاظ أمي. «من هم هؤلاء الأشخاص الذين يقولون لنا مَنْ هم المسلمون الحقيقيون، أو الإيرانيون الحقيقيون، فيما يتعلق بهذه المسألة؟ خَدَمتْ أسرتي هذا البلد مدة تزيد على ستمئة سنة»، قالت بسخط متعاظم. «لقد ذهبتُ إلى مكة لأنني أؤمن بهذه العقيدة». وقالت وهي تلقي نظرة على شيرين خانوم المسكينة لا يمكننا أن نميزها إلا بوصفها نظرة مُدمِّرة: «مَن الذي جعل هؤلاء الأشخاص ممثلين للإسلام الأصيل؟»



أمي خلال حجها إلى مكة في منتصف سبعينات القرن العشرين.

وفيما بعد، قالت أمي، عندما أصبحت أكثر سخطاً: «هؤلاء الأشخاص ليسوا إيرانيين حقيقيين». كانت تذكّرنا، وهي تقاطع أي شخص يحاول أن يتدخل حتى ولو بكلمة واحدة، أننا كنا طوال مدة تبلغ نحو ألفي سنة زرادشتيين. وبعدها ببضعة أعوام، كان من دأبها أن تشير إلى تهمينه خانوم، مربية أولادي، التي كانت زرادشتية، وتقول:

«صاحبتنا تهمينه خانوم هنا إيرانية أكثر من أي واحد أو واحدة منا. يتعيّن عليكِ أن تحكمي البلد»، تقول لها مازحةً. «لو كنتُ وُلدتُ على دينكِ...» وكانت تترك بقية جملتها لمخيلتنا لنتصور ماذا كانت ستفعل حينذاك.

الفصل الخامس والعشرون

القراءة والمقاومة

بعد إغلاق الجامعات سنة ١٩٨١، كوّنا أنا وبعض زميلاتي في الكلية مجموعة، وكنا نقيم غداءً كل أسبوعين. كنا قد أقمنا علاقات طيبة مع موظفات الجامعة خلال المواجهات، وأصبحنا نلتقي في المطاعم والمقاهي كي نضع خطة استراتيجية لتحركاتنا القادمة. وما إن زال مبرر هذه الاجتماعات، ما إن إما قدمنا استقالاتنا من الجامعة أو طُردنا منها، حتى تطورت إلى منتديات اجتماعية، وامتدت لتشمل أفراد أسرنا. كان بيجان يقضي ليلة واحدة أسبوعياً يلعب فيها القمار (البوكر) مع أصدقائه، أما أنا فكانت لي لقاءات أسبوعية بعد الظهر مع نساء من مجموعتنا، وهي نسخة أعقد، وربما أقل تلقائية من جلسات القهوة التي تقيمها أمي. تكلمنا عن ماضينا، أمهاتنا، أزواجنا، وعشاقنا، مشاكلنا، وفي بعض الأحيان، انهمكنا في القيل والقال الخالص. وفيما بعد، في سنواتي الأخيرة في إيران، انضممتُ إلى مجموعة نسائية أخرى، مشابهة. كنا صريحات جداً في رغبتنا في التحدث عن أنفسنا، وكنا ننتقل بصورة طبيعية من المواضيع الشخصية إلى المواضيع السياسية أو الفكرية. غالباً كان يبدو لنا أنه على الرغم من أننا كنا نمتلك فرصاً أكبر وحريات أكثر مما كن يمتلكنها أمهاتنا، إلا أن مشاكلنا كانت جوهرياً نفسها: الأزواج المؤذون جسدياً، الحب

المُجهَض، الشعور بالذنب بسبب الصراع بين العمل والأسرة، المشاكل والاستياءات الجنسية التي لا حل لها. أمست هذه المجموعات المختلفة أسراً بديلة عن أسرنا، بعضها متقاربة، وبعضها الآخر متباعدة، وبعضها أبعد، بجميع المشاكل والتجاذبات والتناقضات التي كانت تتوارثها تلك الأسر. كانت هنالك ولاءات وخيانات غير متوقعة. وقعنا في حب إحدانا الأخرى، وفيما بعد تلاشى هذا الحب؛ تشاجرنا، سافرنا معاً، وكبر أطفالنا معاً.

في يوم مشمس من مطلع خريف سنة ١٩٧٩، كنت أنا وصديقتي وزميلتي هايده نغادر جامعة طهران عندما تبعنا رجل نحيل ذو قسمات داكنة، وكتلة كثيفة من الشعر الأسود المجعد بقوة، وشاربان كبيران، ودعا هايده للانضمام إلى مجموعته الأدبية. كانت عيناه، حتى وهما وراء نظارتيه، طافحتين بالتسلية، كما لو كان مستغرقاً في حوار سرّي مع جنّي صغير عابث، بينما كانت بقية جسده لا تزال تواصل نشاطها في عالمنا السوي، العادي. هكذا التقيت أول مرة بـ(هوشانغ غولشيري)، أحد أبرز كتّاب إيران. كان قد وُلد في أصفهان، وهو واحد من نخبة من المثقفين والكتّاب ممن كان لهم تأثير بالغ في الأدب الإيراني إبان الستينات والسبعينات. كان غولشيري ومجموعته هم الذين اكتشفوا ابن عمي مجيد، وشجعوه، عندما كان قد بدأ تواً مسيرته الأدبية وجعل ينشر قصائده الشعرية.

لم تنضم هايده إلى مجموعة غولشيري؛ كانت منهمكة جداً في النضال السياسي بحيث لم تستطع أن تكرس موهبتها الهائلة للأدب. لكنني فعلت. كنت في أمسّ الحاجة إلى المناقشات التي لم تكن لتنتهي بالمجادلات الأيديولوجية. لقد أصبحت مشغولة البال بالعلاقة بين الديمقراطية والرواية، وقد أثرت فيَّ تأثيراً محبباً الحقيقة القائلة إن

صعود الرواية في إيران يتزامن مع المطالبات بالديمقراطية والحرية. أحسست أنه لا بد أن هنالك علاقة بين الاحتفاء بالأصوات الفردية في الرواية، وتعددية الأصوات (البوليفونية) في المجتمع الديمقراطي. وبينما كنتُ أهيّئ المحاضرة التي ألقيها على طالباتي الجامعيات، كنتُ في الوقت نفسه أقرأ بنهم، وأسجل ملاحظات عن الأدب الفارسي الحديث. وفي بعض الأحيان، كنت أدفع بيجان إلى الجنون. أغدو مستثارة، وأقبّله بحنان، ومن ثم أواصل بجنون رحلتي فيما يتعلق باكتشافي الأخير («لم تكنْ [الثورة الدستورية] مجرد إرهاص سياسي»، أقول لاهثةً. «أتعرفن أي نزاعات عميقة نشبت بسبب اللغة، بدءاً بمحمد علي جمال زاده، الذي أصرّ على أن نجد لغة ديمقراطية جديدة - ولم يكن هو وحده من ينادي بذلك. انظري إلى ديهخودا وهدايت، اللذين ساعدا في ابتكار هذه اللغة الديمقراطية الجديدة. كان هذا هو الزمن الذي وُلدت فيه الروايات، المسرحيات، والصحافة، لذلك لم يكن استهداف النظام الإسلامي للثقافة شيئاً



بيجان مع الكاتب هوشانغ غولشيري.

اعتباطياً... إنهم يعودون إلى الأصل، ألا ترين ذلك؟») وفي ذلك المساء أخبرته أنني التقيت هوشانغ غولشيري. أجل، غولشيري نفسه الذي ألّف كتاب *Shazdeh Ehtejab* «الأمير».

عندما ذكرت أول مرة كتاب «الأمير» لأبي، كاد يغمض عينيه. قال: «*Buf-e Kur* (*البومة العمياء*) لم تكنْ كافية». كان يود أن يعرف لماذا كنتُ أثير جلبة كبيرة، لا داعي لها، على كتابين صغيرين. «إن بلدنا بأسره يتدهور باستمرار، وابنتي فرحة بهذين الكنزين، بهاتين (الروايتين)، كما لو أنهما ستحلان جميع المشاكل التي تواجهنا». فقلت له: «إنكَ لا تلوم إلا نفسك».

كان أبي محقاً: يبدو أن بلدنا آخذ في التدهور بلا انقطاع. لم تكنْ تلوح في الأفق نهاية ما للحرب، ولا لأعمال النظام الهوجاء. كانت تتزايد أعداد الأقارب والأصدقاء الذين يختفون، ويفرون من البلد، أو أولئك الذين يودعون السجون. وحتى أنا لم تعد لديّ أوهام كثيرة حول وضعي الخاص. ولم يمر وقت طويل على ذلك، حتى طُردنا أنا وهايده من الجامعة، مع زميلات أخريات، ودفنتُ حلمي بالتدريس في الجامعة. كان جواز سفري قد صودر، ولم يكن باستطاعتي مغادرة الوطن. كانت تهجم عليّ نوبات قلق متلاحقة.

كان أبي يحكي لي القصص بدءاً من اللحظة التي كان باستطاعتي فيها أن أتواصل معه كإنسانة. عندما علّمني أن أسعى إلى فهم بلدي، تاريخه وثقافته، من خلال قراءتي لحكايات الفردوسي، أعطاني الأدب ليس كتسلية، بل كطريقة لفهم العالم وتفسيره - وباختصار، كطريقة من طرائق الوجود في هذا العالم. وهو ذا العالم وقد أصبح غايةً في الإرباك، غاية في العدائية، فإلى أي بقعة أخرى أيمّم وجهي؟ من

وجهة نظر أبي، كان الفردوسي المفتاح الذي يفتح لنا أبواب الماضي. وكانت «*الشاهنامه*» هي الدليل الوحيد على تلك الإمبراطورية الفارسية العظيمة التي لازمت أحلامنا وكوابيسنا. ماذا يوجد في رواية صادق هدايت «*البومة العمياء*» (كُتبت سنة ١٩٣٦)، وفي رواية هوشانغ غولشيري «*الأمير*» (كُتبت سنة ١٩٦٩) بحيث يمكن أن يحل لنا بعض الألغاز المتعلقة بإيران التي عشنا فيها؟ هاتان الروايتان غير ممتعتين على الإطلاق («في أيامنا هذه: يبدو أن الأعمال العقيمة والحديثة متلازمتان»، هكذا اقترح أبي)، ومعقدتان جداً بالنسبة لذائقته. «إذا كان بوسعكِ أن تسمّي (*الحرب والسلام*)، أو (*حكاية مدينتين*) رواية»، قال برحابة صدر، «عندئذ لا يمكنكِ أن تسمي هذين الكتابين روايتين أيضاً، وكل واحدة منهما خالية من الحبكة، وشخصياتها الروائية مبهمة...»

منعت الجمهورية الإسلامية كلتا الروايتين، بسبب مشاهدهما الجنسية الصريحة، وبسبب وجهة نظرة كاتبيها الانتقادية للدين التقليدي. في بداية القرن العشرين كان الكفاح من أجل الحداثة قد رافقه بطرائق شتى النفور من الدين، وفي بعض الأحيان هنالك، كما في رواية هدايت، افتتان بإيران ما قبل الإسلام. كانت العواطف المناوئة للإسلام لدى هدايت متطرفة وقاسية أحياناً مثلما كانت وجهات نظره المتعلقة بإيران الموغلة في القدم رومانسية وطافحة بالحنين المَرضي (النوستالجيا).

لقد قرأت «*البومة العمياء*» في عمر مبكر، ربما حين كنت في الخامسة عشرة، في الوقت نفسه تقريباً الذي كنتُ أقتبس فيه من رواية «*الغثيان*» لجان بول سارتر، ومن رواية «*الغريب*» لألبير كامو. ومثل أقراني الشبيبة ممن ينتسبون إلى أسرة أبي، شعرت بانجذاب نحو

هذين النصين اللذين يهيمن عليهما الاستلاب والحصر النفسي. كانت «*البومة العمياء*» هي من نوع الكتب التي كان الآباء يمنعون أولادهم من قراءتها. كان هدايت نفسه قد انتحر في باريس سنة ١٩٥١، ووجد أشخاص كثيرون علاقةً بين الكِتاب وحادثة الانتحار. وكانوا يقولون إن الكِتاب يحث الشبيبة على الانتحار، أو على تدخين الأفيون، وما إلى ذلك من الأشياء الفظيعة. وهذا كله حوّل الكتاب، فضلاً عن مؤلفه، إلى موضوع ينال الإعجاب. كانت «*البومة العمياء*» معروفة جداً بكونها شبيهة بـ(التعبيرية الأوربية). وناقش النقاد تأثير نوفاليس، نرفال، وكافكا الأثير لدى هدايت. لكنني حين قرأتها مجدداً، لم يصدمني تشاؤمها ذائع الصيت، أو صلاتها بالفكر الغربي الحديث، بل صلاتها بالنصوص الكلاسيكية. وكان لدي الشعور نفسه فيما يتعلق برواية «*الأمير*». كان ثمة خيط يربط هذين العملين الحديثين جداً: كانا يبدوان أشبه بنسخ مطابقة كابوسية لحكايات العشاق سيئي الطالع الكلاسيكية، على غرار «*ويس ورامين*» و«*ليلى والمجنون*»، كابوسية لأنها كانت تجمع وتعيد بناء الصور المشوهة لتجربة الماضي الشاقة. بينما عند غورغاني، والفردوسي، والشعراء الكلاسيكيين الآخرين، كنا نتعامل مع عالم دنيوي، يحتفي بصراحة بمسرات الحياة والطبيعة البشرية، أما في الشعر الصوفي الذي جاء لاحقاً فقد حل العالم السماوي محل العالم الدنيوي. لكن في «*البومة العمياء*» و «*الأمير*»، الأرض والسماء حل فيهما الخراب، انهار العالم الروحي، الواقع خالٍ من السعادة ومليء بالوعيد. كان الفكر الغربي الحديث والأدب الفارسي الكلاسيكي قد أثرا تأثيراً عميقاً في هدايت وغولشيري، وكان الكاتبان فريدين في قدرتهما على مزج ودمج الاثنين معاً.

كانت الحبكة في كلتا الروايتين القصيرتين تتركز على العلاقة أو

انعدام العلاقة بين الشخصيات الروائية الذكورية - وهي شخصيات ضعيفة البنية، محبطة، اضطرت للرحيل عن بلدها لأسباب شتى - وبين امرأتين، إحداهما تمثل المرأة النموذجية، التي يتعذر الحصول عليها (تُسمى «الأثيرية» في «*البومة العمياء*»)، والأخرى ترمز إلى المرأة الدنيوية الإيروتيكية (تُسمى «المومس»). في كلتا القصتين هذه العلاقة ورغبة البطل الذكر المحبطة في امتلاك المرأتين تؤديان إلى دمار المرأتين ودماره هو نفسه. هنالك إحساس بالعجز واليأس في كلا الكتابين، إحساس بأنهما أضاعا الماضي في حين أن الحاضر غير مفهوم، ولهذا فهو خطير وعدائي، وهذه هي صرخة بعيدة جاءت من الفردوسي، في ولائه المؤثر للماضي.

في كتلب غولشيري، كما في «*البومة العمياء*» ليس هناك خطوط تواصل بين الراوي الذكر والشخصيات الروائية النسوية: الحوارات كلها تحطمت، وتحولت إلى خوف، استياء، وذلك النوع من الغلظة الذي لا يقدر عليه إلا الضعفاء جداً. ماذا جرى لنساء «*الشاهنامه*» أو «*ويس ورامين*» صاحبات الأثداء المكتنزة كالرمان، والشفاه الشبيهة بالياقوت الأحمر، اللواتي يؤكدن وجودهن من خلال إعلانهن عن أسمائهن، وتسميتهن الجريئة لموضع رغباتهن؟ لا يمكنني إلا أن أكتشف بعض الشبه بين المعذِّبين العقيمين والقتلى المعذَّبين لكلتا الروايتين القصيرتين وأولئك المنتمين للجان الأمن الأهلية الذين كانوا يجلدون الفتيات القاصرات لأنهن كشفن جزءاً من شعرهن. ألم يكونوا يتلهفون لِكمّ أصوات النسوة القويات ومتقلبات المزاج كي يخفوا عقمهم؟

كان يبدو لي، في أوقاتي الفاصلة الأكثر صفاءً، أن سيكولوجية لحظتنا السياسية الخاصة يمكن تفسيرها من خلال هذا الضوء المزعج

لهذه القصص. إلى أين نذهب إذا غادرنا هذا المكان؟ كان ثمة حاجة لأن يقال شيء ما. وكانت هذه مسألة ملحّة، مثلما كانت ملحّة قبل ألف سنة مضت بالنسبة للفردوسي كي يستجيب لفتح بلاد فارس، وبالنسبة لهدايت وجمهرة كاملة من الكتّاب والشعراء الآخرين كي يستجيبوا لـ (الثورة الدستورية)، والتغيرات الراديكالية التي حدثت على إثرها. كنا فعلاً بـ *أمس الحاجة* إلى ثورة ثقافية - ليست تلك الثورة المزيفة التي فرضها علينا النظام، بل ثورة ثقافية حقيقية.

عندما فصلوني من جامعة طهران في مطلع الثمانينات، اقترح غولشيري أن أدرس مجموعة صغيرة من الشبيبة بضع محاضرات عن «*البومة العمياء*». وما كاد يمر وقت طويل على ذلك، ومثل صاعقة نزلت من السماء، بعث لي طالب من ذلك الصف نسخة من ملاحظاته، مكتوبة بالحبر الأزرق القاتم، وجاءت في سبع وثلاثين صفحة مكتوبة بخط يده. كتب على الغلاف بزخرفة: «حول «*البومة العمياء*»، رواية الوعي، الدكتورة آذر نفيسي». وأنا أقلّب تلك الصفحات، كان بمستطاعي أن أسترجع الفرح الساذج تقريباً الذي شعرنا به ونحن نقفز من الفردوسي والزرادشتية وأسطورة الرجل الأول والمرأة الأولى اللذين كانا مكبلين معاً كنبتة واحدة بحداثة هدايت، وتأثيرات نيرفال ونوفاليس.

بعد تلك المحاضرات، كتبتُ مقالات عدة حول القصة الخيالية الفارسية، وانضممت إلى غولشيري في مجموعته الأدبية، التي كانت تتألف بشكل رئيس من مريديه. في كل أسبوع كان يُدعى مؤلف وتناقش المجموعة أثره الأدبي. غالباً كان الكتّاب الذين يوجه إليهم الدعوة يتعرضون للإهانة من خلال الطريقة الفظة التي يعاملهم بها،

وكانت هنالك دوماً مباريات حرفية هزيلة بين غولشيري وضيفه، تعطي بعض التبصرات في المنافسات والأحقاد التي كانت قوية جداً فيما بيننا على الرغم من الحقيقة التي مفادها أننا كنا مرغمين على التوحد بوجه تهديدات النظام ومضايقاته المستمرة.

في الوقت عينه، شاركتُ في مجموعة قراءة مختلفة مكونة من الأصدقاء والصديقات، غالبيتهم من المؤسسة الأكاديمية، من بينهم محمد وشهران وفرزانه طاهري (زوجة غولشيري)، وهي مترجمة بارزة، دَرَست الأدب الإنكليزي في جامعة طهران. بعضهم ترك هذه المجموعة ليرحل إلى خارج البلد، وقُبل أعضاء جدد، ولكن، بصورة عجيبة، طوال تلك السنوات المليئة بالتغير المستمر، كانت هذه اللقاءات واحدة من الثوابت في حيواتنا. أن تعيش في أزمنة ثورية، عندما كان كل شيء طيّعاً جداً، عندما كانت الحقائق غير مهمة وكل المسلّمات مشكوك فيها، كنا نتنفس الصعداء من خلال متطلبات الأدب القصصي.

كنا نقرأ الآثار الكلاسيكية - حافظ الشيرازي، سعدي الشيرازي، وأبو القاسم الفردوسي - لكن القضايا الأخرى كانت تقاطع قراءاتنا باستمرار، وكانت لقاءات مجموعتنا التي تدرس تلك الآداب تمتد حتى ساعة متأخرة من الليل. كان غولشيري يصرّ على أن نتبادل قراءة سطور الفقرات، وأبيات القصائد الشعرية التي كان قد حددها. كان هذا الأمر يزعجني: كنت طالبة جامعية صعبة المراس، لا تؤدي واجبها البيتي بصورة صحيحة، وكنا نختلق المزح عندما يفترض بنا أن نقرأ. وفيما بعد أصبحت ممتنة لهذه الطريقة: كانت قراءة القصائد بصوت عال تحضر إليك زمنها اللافت، وصرتُ أثمّن تلك الطريقة التي كانت تغازل بها أو تجادل بها كل كلمة الكلمة الأخرى، وبذلك

تنقل معانيها ومضامينها. وراهناً، حينما أقرأ حافظ الشيرازي أو الفردوسي، أقرأهما غريزياً بصوتٍ عالٍ، كي أستمتع بالموسيقى. لم يكنْ استمتاعي يقتصر على جمال اللغة، أو براعة المفهوم والبنية، التي كنتُ قد لاحظتها من قبل. ما اكتشفته هو عبث تلك النصوص المعترف بها، وخلوّها من الوقار. كتب الناقد الأدبي تيري إيغلتون أن القصة العظيمة ترتطم دوماً بحدود الواقع المعيش. ونحن نقرأ الأعمال الكلاسيكية للأدب الفارسي لمحنا العالم الذكي لأخيلة شعرائنا من خلال الشقوق التي أحدثتها تلك الإبداعات في أسوار الواقع المعيش.

كنتُ أشعر أحياناً كما لو أن حياتي كلها كانت قد أصبحت سلسلة من التنويعات على جلسات القهوة التي يقيمها أبواي. ما دامت جميع نواحي الحياة العامة تقريباً قد أضحت إما ضيقة أو ممنوعة، كانت عوالمنا الشخصية قد تبنّت وظائف المنتديات العامة. أمست منازلنا هي مطاعمنا، حاناتنا، دور السينما خاصتنا، مسارحنا، قاعات الموسيقى العائدة لنا، منتديات عامة متخصصة بالأدب، والفنون، والسياسة. في الواقع، كانت هذه المناطق الحرة تهددها الدولة التي كان بمستطاعها في أي وقت من الليل أو النهار أن تقوم بمداهمة منازلنا، وتصادر المشروبات الكحولية التي بحوزتنا، وأوراق لعب القمار، ومستحضرات التجميل، والكتب و(كاسيتات الفيديو) المحظورة. كان بوسعهم أن يلقوا القبض علينا بتهم سوء الأخلاق. ومع ذلك في تلكم الأيام كان ثمة فرح مكبوت يُكذّب القلق والخوف - أو، وأنا أفكر فيه الآن، كان الاثنان يغذيان ويقويان أحدهما الآخر. وبينما كانت الحرب تمزق البلد، وتحاصره القوانين القمعية، وثمة اعتقالات يومية، وإعدامات، تحت السطح، أسفل الأرض

مباشرة، كانت هناك أنشطة وعروض متمردة للمقاومة أحبطتْ ودمرتْ باستمرار سلطة الدولة. إن أي نشاط عادي ودنيوي من مثل إقامة حفلة مع الرجال والنساء حيث تُقدم المشروبات، وتُعزف الموسيقى، وربما يُعرض فيلم سينمائي - «*ليلة في الأوبرا*» أو «*فاني وألكسندر*» - يجب أن يُنجز بحيطة وحذر، تُسدل الستائر، كي تصبح الحفلة شخصية جداً، كحلوى مسروقة. كنا أشبه بمجتمعات منفية في بلد لم تكنْ لغته وثقافته مفهومة بشكل كامل، نبتكر وطننا الخاص بعيداً الوطن بأسلوب حياته، قواعده السلوكية، وأشيائه الإضافية - وبطبيعة الحال مع الحنين إلى ما كنا نسمّيها، حتى قيام الثورة الإسلامية، أيام الماضي السيئة.

بشكلٍ من الأشكال، كانت هذه التجمعات تذكّرنا بصورة غامضة بتلك اللقاءات في أواخر القرن الثامن عشر، أو بداية القرن التاسع عشر، اللذين قرأتُ أو سمعتُ عنهما، عندما كانت المسرحيات تُمثل في منازل خاصة، وكان ممنوعاً على النساء أن يظهرن علناً. وعلى غرار الثوريين، كان الناس ينتعشون عبر التجمعات السرية. يكتب عمو سعيد في مذكراته عن الفرح والقلق اللذين أحس بهما عندما صادف أول مرة مجموعة من هذا النوع في منزل (مستورة أفشار)، وهي من أبرز الناشطات في مجال حقوق النساء. يصف كم كان شيئاً خطيراً بالنسبة لرجل، ويومذاك كان شاباً، أن يحضر اجتماعاً للنساء. يذكر أنه في ذلك الزمن كانت أرصفة الشوارع لا تزال معزولة (أي رصيف للرجال ورصيف للنساء)، وكانت النساء مرغمات أن يغطين أنفسهن، إذا ظهرن علناً، بثياب سود. «كنتُ أخطط دوماً في ذهني: كيف يمكنني أن أواجه الخطر والتهديد اللذين يعيقان سبيلنا. هل سأسرق شخصاً ما؟ هل سأعرّض حياة وثروة امرئ ما للخطر؟» كتب في

مذكراته. «لم أكنْ أفعل أي شيء من هذه الأشياء، إلا أن ما كنت أروم القيام به لم يكن أقل من جريمة».

كان عمو سعيد قد أسهم في إنعاش ما كان موجوداً من قبل. في حالتنا، كنا نسعى إلى الحفاظ على ما سُلب منا، وكان يسود إحساس باليأس المتخم فيما يتعلق بذلك. كانت ثورتنا قد سدت الباب عندما تعرضت للحقوق الفردية التي كافح الشعب من أجلها بلا هوادة. كنا قد بلغنا مرحلةً كنا نرغب فيها أن نحافظ على ما كنا نمتلكه، وليس النضال من أجل ما تجرأنا على تصوره.

الفصل السادس والعشرون

أحلام محطَّمة

في نظر أسرة أبي، كانت يتعيّن على الثورة أن تبشّر بعهد جديد، عهدهم. كانوا ينتقدون الشاه بشدة، وكانوا متدينين مخلصين؛ وها قد ذهب الشاه إلى غير رجعة، وكانت الحكومة إسلامية. لكنني في أول زيارة لنا إلى أصفهان، كان بوسعي أن أكتشف الانقسامات والعداوات بين أبناء العمومة والأعمام الذين كانوا طوال عقود من الزمن يعيشون في قرابة حميمة. كانت هنالك كلمات قاسية تبادلها ابن عمي سعيد، الذي كان مؤيداً لمنظمة (مجاهدين) القتالية، مع ابن عمي جعفر وعمي حسين، اللذين ساندا العناصر الأكثر تطرفاً بين رجال الدين الحاكمين الذين برزوا إلى الساحة. ابنة عمو حسين التي كنت قد رأيتها في بيركلي، بولاية كاليفورنيا، قبل بضع سنوات خلت، وهي ترتدي قميصاً ذا كُمَّين قصيرين، وسروال (الجينز)، لبست (الشادور)، وغيّرت اسمها من شادي إلى زهراء، تيمناً بابنة النبي محمد، وتزوجت عضواً ينتمي إلى الميليشيا الثورية. الصدوع التي بدت قابلة للترميم والإصلاح قبل سنوات قليلة أصبحت الآن غير قابلة للتذليل.

لم يتكلم سعيد معي طوال سبع سنوات، منذ أن تبعنا: أنا وأخاه مجيد، وأخي محمد، عندما كنا ذاهبين إلى أحد المطاعم (كان يومئذ في نحو الثالثة عشرة من عمره)، وشجب سلوكنا بشدة لأننا شربنا

وغنينا مع أعضاء الفرقة الموسيقية. رفض أن يكلمنا بعد تلك الحادثة. وبدلاً من ذلك، كتب صفحات مطولة يُدين فيها المثقفين المنحطين، وترك تلك الأوراق حول المنزل كي نراها نحن. في تلك الآونة كان قد سُجن مدة سنتين بسبب أنشطته في (منظمة مجاهدي خلق). وحينما رأيته بعد الثورة الإسلامية، في خريف سنة ١٩٧٩، كان أكثر مودةً. كان قد تزوج من (فريبا)، وهي من أقاربه البعيدين، وكنت أتذكر أنها فتاة ضعيفة البنية، خجولة، ومتحفظة، تلبس قمصاناً طويلة (تُسمى بالفارسية: مانتو - م.)، وسراويل عريضة. سَكنا في ستوديو صغير في طرف حديقة عمي، وكانا منطويين على نفسيهما.

لم يمرّ وقت طويل على كثير من المسلمين، من بينهم سعيد، كي يشعروا أنهم خُدعوا وضُلّلوا. كان من المفترض أن تكون هذه الثورة ثورتهم. نحن العلمانيين المنحطين، هُزمنا، ومع ذلك هو ذا سعيد، لم يكن يشعر بأنه غريب عن جماعته مثلما هو عليه الآن. كانت الثورة الإسلامية قد آذت كثيراً من المؤمنين بطريقة جوهرية أكثر مما آذت الكفار - ليس مجرد القتاليين من أمثال سعيد ومنظمته، بل المسلمين الأتقياء الذين لا يمتلكون برامج (أجندات) سياسية، أناس على غرار أبويه. مُنعت منظمة (مجاهدي خلق) بعد تصادماتها مع النظام الإسلامي، وبلغت هذه المناوشات ذروتها عندما نُظمت مظاهرة دموية تم خلالها اعتقال عدد كبير من مؤيدي المنظمة، وأُعدموا بعد مدة وجيزة. كان أعضاء (مجاهدي خلق) مسلحين، وأخذوا ثأرهم، بشكل من الأشكال، بقصف مقرات (حزب الجمهورية الإسلامية)، ما أدى إلى وفاة أكثر من ثمانين شخصاً، من بينهم موظفون كبار وقادة النظام. بعد ذلك مباشرةً، غادر زعماء (مجاهدي خلق) البلاد، مثلما فعل من قبل عبد الحسن بني صدر، أول رئيس جمهورية بعد الثورة الإسلامية.

بعد مضي سنة على الثورة، كان سعيد وفريبا مختفيين عن الأنظار. رحلا عن أصفهان، وتوجّها إلى طهران. وعلى حين غرّة، أصبحا لاجئين، وراحا يقضيان نهاراتهما ولياليهما في بيوت آمنة مختلفة. كان سعيد يتبوأ منزلة عالية في المنظمة. كان أكثر مرونة من سواه، ومتفهماً أكثر، لكنه صارم جداً فيما يتعلق بمجموعته التي سرعان ما أصبحت عنيفة مثلها مثل النظام نفسه، وكانت مسؤولة عن قصف مواقع عديدة، وعن اغتيالات نفذتها بحق موظفي الحكومة والمتعاونين معهم. ما لم تبدّده المحبة بين أبناء العمومة، بددته الثورة: وجدنا أنفسنا إن لم نكن في جانب واحد، فعلى الأقل ضد العدو نفسه. كان بعض أقارب سعيد المتدينين، بمن فيهم أبناء الأعمام والأعمام الذين سكن معهم، يعدّونه الآن ملحداً، يستحق أقسى العقوبات المخطط لإنزالها بمن هم على شاكلته. وبصورة ساخرة، أصبح الآن الأقارب والأصدقاء الملحدون، المنحطون هم الذين يمشون في المسيرات نفسها مثلهم، ويخشون البنادق ذاتها، ويوفّرون لهم الملاذ الآمن في بيوتهم.

في طهران سكن سعيد وفريبا بضعة شهور في مسكن زوجين، كانا أيضاً من أصدقائنا المقربين. كان هذان الصديقان، مثلنا، علمانيين، وكانا معارضين لأيديولوجية وتكتيكات منظمة (مجاهدي خلق). إنما هكذا كانت الظروف، حيث كان نشاط كل شخص يخضع للاختبار، وهكذا كان بوسعك أن تجد الرحمة والتضامن في أمكنة غير متوقعة، وتكتشف ألفة مفاجئة مع أشخاص غرباء نسبياً، ومع أولئك الذين يعارضون ما تناضل من أجله لكنهم يوفّرون لك الحماية، معرّضين حيواتهم لأقصى المخاطر.

أمضيا ليلتين في منزلنا. وجدت سعيداً أكثر تحملاً للنقد، وربما

أيضاً أكثر سوداوية مما كان عليه، إذا أسعفتني الذاكرة. وطوال حياته كان يتجنب ما كان يحسبه لباس الطبقة الراقية، أما الآن، وبسبب الحاجة إلى التنكر، كان يظهر دوماً وهو يرتدي البزات، كي يميز نفسه عن كادر (مجاهدي خلق)، الذين كانوا يلبسون قمصاناً طويلة فوق سراويلهم. أتذكّر بزة بنية فاتحة كانت تبرز اللون العسلي لعينيه، الذي لم تستطع حتى نظارتاه السميكتان أن تخفيه. وإلى جانبه كانت تجلس فريبا، متكلفة الاحتشام وحسنة الطلعة مثل طالبة تخرجت تواً في مدرستها الثانوية، لا تزال سمجة، ومع ذلك وجدت أسلوبها الخاص في اللبس، بتنورتها الخضراء الفاتحة ذات الطيات، وقميصها الأبيض طويل الكمَّين، ووشاحها البراق، وتظهر بعض خصلات شعرها. كانت قد صبغت شفتيها بأحمر شفاه وردي فاتح، وتعض شفتيها أحياناً، كما لو أنها تمسح اللون من دون أن تبدو أنها راغبة في فعل ذلك.

أمي التي نادراً ما كانت تنفعل مع أي فرد من أفراد أسرة أبي، أصبحت فجأةً ترثي لحالهم كثيراً. أتذكرها وهي تحضر قهوتها التركية إلى الطابق العلوي - أربعة فناجين لي ولسعيد، فريبا، وبيجان. كانا يمازحانها، وبعد أن شربا قهوتهما، قلبا فنجانيهما كي تقرأ لهما طالعيهما. «ستكون هنالك رحلة طويلة إلى بلاد بعيدة»، بدأت أمي كلامها. «انظر، اقترب مني، اقترب. لا تخف، أنا مثل أمك. أترى على قمة هذا الإطار هذه الخطوط؟ أترى هذا الكائن؟ إنه جمل. ستسافر». قالت مجدداً. «آ، مستقبلك باهر! انظري إلى هذه الناحية، إنها نظيفة. ثمة قلق في هذه الناحية، إنما في الناحية الأخرى، لا شيء. فنجانك ملتصق بالطبق»، قالت لفريبا. «هذا يعني إما الثروة أو الحب. يخامرني إحساس أنه، في حالتك، الحب». ضحك كلاهما

بشيء من القلق، ومدت فريبا يدها بعصبية، وتناولت كعكة محلاة مسطحة من على الطبق.

كانت تلك آخر ليلة أمضيناها معهما. في صباح اليوم التالي، في أعلى سلّم منزلنا الملتوي، تصافحنا جميعاً، على الرغم من منع ملامسة شخص من الجنس الآخر، حتى إذا كان ابن عم. تصافحنا بشكل رسمي ومن دون لياقة. ومن ثم نزلا درجات السلّم، ووقفت هناك أشاهدهما يظهران ويختفيان مع كل انعطافة من انعطافات السلّم، إلى أن سمعت باب بيتنا الأمامي يُصفق، وظهرا إلى العيان مثل طفلين يتيمين في حكاية رهيبة من حكايات الجان، يمشيان قريبين أحدهما من الآخر، يكادان يتماسان، هو بقميصه باللون العاجي، وهي بوشاحها متعدّد الألوان. لم نرهما ثانيةً.

قالت إينياس بطلة فيرجيل: «تملك الأشياء في داخلها دموعاً». دوّنتُ هذه الجملة، حيث كنت أكتب غريزياً بعض الكلمات والفقرات كي لا تفلت من الذاكرة. أمامي شهادة الولادة، بلون قذر مائل إلى البني، مع صورة فوتوغرافية تنظر إليّ. هي ذي فريبا، بوشاحها الداكن (من دون ابتسامة). اسمها الأول واسمها الأخير في شهادة الولادة لا ينتميان إليها: كان اسمها في الحقيقة فريبا مُوروَت، تزوجت من سعيد نفيسي، لكنها سُميت هنا فيرشته باقري، متزوجة من عبد الله سيدبور. كان ثمة تزوير في شهادة الولادة. تاريخ الولادة: ١٩٥٦، تاريخ الزواج: ١٩٧٥، تاريخ الوفاة: خال من الكتابة. كيف وصلت إليَّ شهادة الولادة هذه؟ لم أعد أتذكر. عثرتُ عليها عندما كنتُ أنقب في أكوام اليوميات والملاحظات التي جلبتها معي من طهران. أي دموع تلك التي اختبأت في صفحاتها؟



شهادة ولادة فريبا.

وطوال ما يقرب من سنتين، كان أبواهما يأتيان إلى طهران قادمين من أصفهان شهرياً، ويقصدان (سجن إيفين) كي يستفسرا عن سعيد وفريبا. لو أنهما هربا من البلد، لكانا أخبرا أسرتيهما بذلك، لذلك لم يكن لأبويهما مبرر كي يرتابا في ما ألمح إليهما الموظفون: لقد أُلقي القبض عليهما. أتذكر هذه الزيارات. كان من عادة آبائهم أن يسكنوا في فندق صغير. وفي الوقت المحدد يأخذون سيارة أجرة متجهين إلى السجن المرعب. وهناك ينتظرون ساعات طويلة ليقولوا لهم أخيراً أن ليس ثمة أنباء عن أولادهم. وما لا وجود لمعلومات فثمة، أيضاً، بصيص من الأمل. لكنهما إذا كانا لا يزالان حيّين، فلماذا لم يتصلا هاتفياً بالبيت. كانت تلكم الأيام مليئة بالهمّ والحزن. كان السيل قد بلغ الزبى، وامتدت التصادمات إلى الشوارع. حُظرت منظمة (مجاهدي خلق)، وكان الناس يُعتقلون ويُقتلون يومياً. وقُتل عدد كبير من الناس، من بينهم أفراد من أسرتي وأصدقاؤنا، أو هربوا من البلد.

بعد ثمانية عشر شهراً أخبروهم أن الحرس الثوري قد اكتشف موقع ولديهما في مطلع خريف ١٩٨٢. كانا قد قُتلا خلال مواجهة جرت في الشارع مع الميليشيا الإسلامية. رفضت أم فريبا أن تصدق

ذلك. إنهما بأمان وبصحة جيدة، ظلت تكرر ذلك، لكنها لم تشأ أن تسبب لنا مشكلة، لأن أسلاك الهواتف أُخذت منها فروع أخرى.

كان الحِداد على الأشخاص الذين قتلهم النظام محظوراً رسمياً، إلا أن الأسرة في أصفهان أقامت طقساً سرياً لسعيد وفريبا. رفض اثنان من أعمامي وابن عم واحد أن يقدموا تعازيهم - أحد عمّيَّ الاثنين اتصل هاتفياً ليهنئ أبوي سعيد على موت ابنهما. «إنهما يستحقان أن يموتا بوصفهما ملحدين، وقد نالا الآن جزاءهما العادل، عسى أن يصفح عنهما البارئ في الآخرة، وينقذهما من عذاب جهنم»، هذا ما قاله لهما. وفيما بعد، عندما شُخصت الحالة المرضية للعم أبو تراب المشهور بذاكرته المذهلة كونها: مرض الزهايمر، كانت إحدى حفيداته تقول: إنه قرر أن ينسى بعد موت سعيد وفريبا. حافظ العم أبو تراب على إيمانه بالله على حساب ذاكرته التي هجرته.

بعد مرور أقل من سنتين على اقتحام السجون، كان ابن عمي مجيد هو الآخر قد لاذ بالفرار. اعتُقلت زوجته عزت وأخته نوشين وزوجها حسين. أُعدم حسين. وتأخر إعدام نوشين لأنها كانت حبلى. أتذكر اليوم الذي أحضروا فيه (جيشمه)، طفلة نوشين الرضيعة، إلى منزل أخي. كان عمي وعمتي قد أقبلا من طهران ليأخذانها، وهي طفلة صامتة عمرها سنة واحدة لا غير. وضعت أمها الرسامة عدداً من صغار الحصى الملون في جيوب ابنتها الصغيرة. وبعدها ببضع سنوات مُنحت نوشين العفو، وأُطلق سراحها. قالت لنا إنها حينما استُدعيت صباح ذلك اليوم، لم تكنْ تعرف هل سيطلقون سراحها أم سيعدمونها.

أما عزت، زوجة مجيد، فقد أُعدمت. لم تكنْ قد تجاوزت سن الرابعة والعشرين. يكتب مجيد كيف هام على وجهه في أرجاء المدينة

بعد اعتقالها، المدينة نفسها التي كان يحس هو ورفاقه أنهم قهروها. زوجته الآن في السجن الذي كان مجيد وعزت قد احتلاه بانتصار في شباط (فبراير) ١٩٧٩ . بعد إعدامها، دُفنت في مقبرة خاصة مخصصة للسجناء السياسيين والأقليات، تُدعى (مقبرة الملحدين)، حيث كانت الجثامين تُرمى في قبور غير معلّمة. كان مجيد يزور الموقع مع أبيها، الذي أخبره أن له طريقته الخاصة في تمييز قبرها عن القبور الأخرى: إنه يبعد ثماني خطوات عن بوابة المقبرة، وست عشرة خطوة عن سورها. كانت قد أُعدمت ودُفنت بصورة جماعية مع امرأتين وخمسين رجلاً. وطوال برهة من الزمن احتفظتُ بنسخة من وصيتها في دُرج مكتبي، وبين الحين والآخر، أستلها من الدُّرج وأقرأها. وبعدها فقدتها، وعثرت عليها في مخطوطة مجيد. كتبتْ عزت:

الاسم: عزت طابيان
اسم الأب: سيد جواد
رقم شهادة الولادة: ٣١١٧١

مرحباً،

الحياة جميلة، وجذابة. وشأني شأن الآخرين، أحببتُ الحياة أيضاً. وعلى أية حال، يأتي وقتٌ يتعيّن على المرء أن يقول فيه وداعاً للحياة. بالنسبة لي، وصلتْ هذه اللحظة، وأنا أرحب بها. ليس لدي وصية خاصة؛ أود أن أقول فقط إن جمال الحياة بكل صنوفه لا يُنسى. وإن الأشخاص الذين لا يزالون أحياءً عليهم أن ينالوا أكبر قسط من حيواتهم.

أبي العزيز، أمي العزيزة: مرحباً،

خلال حياتي عانيتما كثيراً كي تربياني. حتى آخر لحظة من حياتي لن أنسى يديّ أبي الخشنتين، ووجه أمي الذي أنهكه العمل. أعرف أنكما بذلتما أقصى ما تستطيعان من أجلي. وعلى الرغم من ذلك، ها قد آن أوان الفراق. هذا شيء لا مفرّ منه. إنني أحبكما بكل ما أملك من عنفوان الحياة، وإنني أقبّلكما من مكانٍ لا أقدر أن أراكما منه. تحياتي الحارة لأخواتي وإخوتي. قبّلوهم نيابة عني. إنني أكن لهما عميق الحب والمودة. وفي غيابي لا تكابدا من أجلي، ولا تقسوَا على نفسيكما. حاولا أن تواصلا حياتكما بالمحبة والوداعة المألوفتين. بلّغا تحياتي لكل من يسأل عني.

زوجي العزيز: مرحبا،

كانت حياتي قصيرة، وكانت لنا حياة أقصر تلك التي قضيناها معاً. كنت أتمنى أن أعيش حياةً أطول معك. لكن ذلك لم يعد ممكناً. إنني أصافحك مع سلامي لجميع مَن أحببتُهم، وأحبُّهم، وسأبقى أحبُّهم.

وداعاً

٧ كانون الثاني (يناير)، ١٩٨٢

عزت طابيان

تذكرني الكتابة عن تلك السنوات بأبي، الذي اعتاد أن يقرأ لي مقاطع من «*الشاهنامه*» المتعلقة باستيلاء جيش العرب على الإمبراطورية الفارسية في القرن السابع الميلادي. ألقى المحارب رستم، ابن هورموزد، كلمة مؤثرة، متنبئاً بنتائج تلك الحرب، التي عُرفت بمعركة (القادسية). من يقول إن حاضرنا لم يكتبه ماضينا؟

يسأل أبي. كان قد وضع خطوطاً تحت بعض الفقرات، إلا أنني لا أتذكرها كلها. أدناه السطور التي لا تزال عالقةً في بالي:

لكن عندما يكون المنبر مساوياً للعرش
ويكون اسما (أبو بكر) و (عمر) معروفين،
ستكون مخاضاتنا الطويلة كما لو أنها عديمة الأهمية،
وسيخبو كل المجد الذي عرفناه ويتهاوى...

* * *

سيكون الرجال لصوصاً مشترَكين ولا حياء لديهم.
سينظرون إلى اللعنات والبركات وكأنها شيء واحد.
سيكون المخفي أسوأ من المعروف،
وسيتمسك الملوك ذوو الأفئدة المتحجرة بالعرش...

* * *

لا مسرات، لا موسيقيين، لا وجودَ لأشياء من هذا القبيل:
إنما ستكون هنالك أكاذيب، وفخاخ، وخيانات،
سيكون الحليب الفاسد طعامنا، والقماش الخشن ثوبنا،
والطمع بالمال سيورثنا المرارة.

* * *

بين الأجيال: سيخدع الناس
بعضهم بعضاً بينما هم يتظاهرون بهدوء
بأنهم مخلصون للدين. سيمر الشتاء والربيع بالبشر
من دون أن يترك علامةً، وقتذاك ما من أحد سيُحضر
الخمر للاحتفال بلحظات كهذه،
وبدلاً من ذلك، سيريقون دماء زملائهم...

توارى مجيد عن الأنظار، ومن ثم فرّ من البلد. وانتهى به المطاف في لوس أنجلس، حيث كان يقيم أخوه الأكبر حميد. لم يكتب الشعر منذ مطلع السبعينات، عندما دخل معترك السياسة، لكنه حاول أن يكتب ثانية بعد ثلاثة أيام من موت عزت، عندما ذهب مع أصدقائه إلى (جبال ألبورز) كي يبدي إجلاله لها. وفي مساء ذلك اليوم، كان جالساً إلى جوار أخيه مهدي، وراحت الدموع تسيل على وجهه، وشرع يكتب تسع قصائد لها: «أردتُ الانتقام من الموت الذي انتزعك مني»، يكتب، «أريدك أن تكوني قريبةً مني. لقد تكلمتِ معي عبر ربات الإلهام. التفتُّ وأخبرتُ مهدي. الآن، فهمت لماذا كان الرجال البدائيون يجرّون تلك الجواميس إلى كهوف [ألتميرا][1]».

(١) كهوف ألتميرا: تقع هذه الكهوف في غرب (سانتاندر) في شمال إسبانيا. تنتمي هذه الكهوف إلى العصر الحجري القديم - م.

الفصل السابع والعشرون

مغادرة أبي

في صيف سنة ١٩٨٢ ترك أبي أمي، هذه المرة إلى الأبد. كانت قد فقدت سيفي، وفقدت عمها وأمها، إنما لم يخطر ببالها أنها ستفقد أبي. إنني أتذكر اليوم عندما دخلت عليهما في المطبخ. كانت أمي تلبس مبذلاً قديماً وردي اللون، وكان أبي يحمل سكيناً قريباً من حنجرته، مهدداً بأنه سينتحر. وفيما بعد استخدمت ذلك ضده، كدليل آخر على جنونه، وعدم قدرته على السيطرة على نفسه. لم تكنْ تعرف كيف قادته، وقادتنا نحن أيضاً، أنا وأخي - فضلاً عن أشخاص آخرين أصحاء عقلياً - إلى حافة اليأس. لا أتذكر لماذا كانا يتجادلان. في الحقيقة هذا لا يهم. التفت كلاهما إليّ بوصفي شاهداً على ما فعله كل منهما بحق الآخر. قال أبي: «هذه هي المرة الأخيرة التي أعاني فيها من معاملة مهينة كهذه». «معاملة مهينة!» صاحت أمي. «رجل في سنك، يتصرف هكذا، ويهددني بالسكين». فرد عليها بسخط: «أنا لا أهددك، إنني أهدد نفسي».

بعد خصامات عديدة، استطاع أن يرتب له غرفة نوم منفصلة (كان ذلك هو الإذلال الأخير، بحسب ما تزعم أمي)، لأنه برر ذلك بالقول إنه لا يستطيع أن ينام ليلاً، وستكون النتيجة أن يزعجها ما دام نومها خفيفاً. وفي كل ليلة، بعد أن تخلد أمي إلى النوم، كان أبي يتكلم

بالهاتف مدداً طويلة مع زيبا خانوم. وفيما بعد انتقدت أمي سلوكه الصبياني هذا. تقول أمي: «يتصرف كالمراهق، يقع في بحر الغرام، ويخرج منه. لا حياء لديه، في عمره هذا، رجل في السبعين». لم يكن قد بلغ سن السبعين، كان في الثانية والستين، إنما هكذا كانت الحال معها - كانت الحقائق بالنسبة لها عقبات طيّعة. ومع ذلك، كانت أمي محقة، لقد تصرف كالمراهق، وكذلك هي. يبدو أن العلاقات المجهَضة كانت تبقينا في حالة من عدم النضج الأبدي؛ ولكي نتطور كنا نحتاج بطريقة أو بأخرى إلى الانتقال إلى المرحلة التالية. كانت أمي قد ظلت مجمدة في الزمن الذي أعقب غياب سيفي، ولم يتخلَّ أبي نهائياً عن الحلم الذي راوده إبان شبابه. لذلك كان يتصرف كما لو أنه رجل في العشرين ونيف، يفكر في الزواج من فتاة أحلامه، وكانت أمي تتصرف كأنها عروس شابة منبوذة.

في اليوم التالي غادر أبي المنزل. كان قد هدد بالمغادرة من قبل، وحتى أنه فعل ذلك مرات قليلة، لكنه لم يمكثْ بعيداً مدةً تزيد على شهرين أو ثلاثة أشهر. ومرات عدة وافق أبي وأمي على الطلاق، إلا أنها كانت تنكث بعهدها دوماً، وكان أبي يعود دوماً. كانت أمي قد وصلت إلى مرحلة تثق فيها بذلك، لأن الحقيقة هي أنها لم تكنْ ترغب في انفصال دائم. ومرّ نحو عقد ونصف منذ أن كتب في يومياته عن خوفه من الذهاب إلى قبره قبل أن يجرب علاقة حقيقية ملؤها الحب. كانت تلك الشجارات تبدو بالنسبة لها أشبه بطقوس ضرورية، أما بالنسبة له فقد كانت قاتلة. وعلى غرار كثير جداً من الأزواج والزوجات، كانت أمي تعتقد أنه سيظل ملازماً لها.

لماذا تركها في تلك اللحظة تحديداً؟ هل كان سيغادر المنزل لو لم تكنْ هناك ثورة؟ يقول في يومياته إنه في كل مرة كان يرغب فيها

بالمغادرة، كان ثمة اعتبار ما يمنعه من ذلك: في البدء كان ابناهما صغيرَي السن. ومن ثم، عندما أصبح شخصية عامة ناجحة آخذة في الصعود، لم يبدُ من الصحيح أن يهجر المرأة التي تقاسمت الظروف الصعبة معه؛ وحينما أُودع السجن لم يكنْ ثمة وقت للطلاق؛ وفيما بعد بدا من الجحود أن يترك شخصاً كابد معه خلال مدة بقائه في السجن. قبل اندلاع الثورة، كان انفصاله عن أمي يعني الانسلاخ عن المجموعة الاجتماعية التي ينتميان إليها معاً. كان هذا الأمر لا يهم بالنسبة لرجل من نوع آخر، غير أن أبي كان يكترث له. كان قد وقع في فخ الصورة التي رسمها لنفسه كرجل صالح. أي رجل صالح هذا الذي يترك زوجته؟ بعد (الثورة الإسلامية)، وانهيار النظام الاجتماعي القديم، بات من السهل عليه أن يتخذ القرار الذي لم يكن قادراً على تنفيذه قبل عقد ونصف من الزمن.

كان قد رسم خطةً لذلك قبل برهة من الزمن. وفوراً بعد عودتنا أنا وبيجان من أمريكا، باع أبي المنزل، وشيد مبنى من ثلاثة طوابق ذي ثلاث شقق منفصلة، واحدة لأخي، وواحدة لي، وواحدة لأمي. كان موقفه كما يلي: طوال سنوات كنت أعتني بها، والآن جاء دوركِ. لم ينتقل أخي إلى شقته. كان هو وزوجته شهران قد استأجرا شقة بينما كانا يسكنان في طهران، ومن ثم غادرا متجهين إلى بريطانيا سنة ١٩٨٦. تقبلتُ مهمتي من دون أن أطرح سؤالاً. لم أكنْ لأجرؤ على أن أقول لا لأبي على الرغم من الحقيقة التي مفادها أن بيجان كان يعارض إقامتنا قريبين جداً من أمي. كان يشعر أن المسافة الأبعد لا تمنعنا من العناية بها. إنما ها نحن أولاء، وكانت الشقق قد شُيدت كي يكون من السهل علينا أن نصل بعضنا إلى بعض. كان المطبخ وحجرة الجلوس الرئيسة ينفتحان على سلم داخلي. ستندلع شجارات

لانهاية لها لو أنني أغلقت هذين البابين، الأمر الذي يعني أنه كان من السهل على أمي أن تصل إلى شقتنا في جميع الأوقات، حتى عندما لا نكون فيها.

طوال ثلاثة عقود من الزمن تعاطفتُ مع أبي، متمنية أن يعيش ذات يوم حياةً سعيدة مع امرأة تقدره. لم أفكر في أمي، وماذا سيحدث لها. والآن بعد أن غادرنا، أخذت أحس بها بصورة لم أحس بها من قبل. ودوماً عندما كنت أغضب منها، وأسخر منها كونها دمرت حيواتنا، كان ينبري شخص عادل راقب مجريات الأمور، بيجان أو شهران، بصورة تنم عن الفهم، قائلاً: «الأشياء ليست بالضبط كما ترينها». يقول بيجان: «أبوك شخص جذاب، وسِئم، لكنه كذلك يمتلك قدرةً سحرية على تبرير سلوكه الشائن».

كانت شهران التي أصبحت عيني الثالثة ترى جانباً من أمي قلما أعرته الاهتمام. قالت لي: «إنكِ لا تقدّرين صدق أمك واستقامتها. كل المقربين منها كانوا إما يهملونها أو يكذبون عليها. بدأ الأمر في بيت أبيها، لكن المأساة أنه سيفي نفسه، الزوج الأول الخالي من العيوب، كذب عليها عندما أخفى عنها مرضه. إنني أحب أباك، إنني بالأحرى أفضّله على أمكِ إذا كنت أنوي أن أقضي وقتي، لكن فؤادي يميل إلى أمك».

وبغتةً باتت أمي وحيدة بكل معنى الكلمة. كانت الثورة قد أخذت مجموعة النبلاء التي كانت تدساندها، وسلبت حرياتها كامرأة، والآن، هي ذي من دون زوجها، الذي كان طوال عقود يقوم بدوره باعتباره أباً، قهرماناً، محاسباً، وصديقاً، أما هي فليس لديها أحد كي يعيلها. كان بوسع زوجها أن يتركها ليبدأ حياةً جديدةً مع امرأة أصغر منها بسنوات كثيرة، لكن بالنسبة لها لم يكن هناك خيار كهذا. لم تكن

قادرة على إشباع رغباتها الشديدة، وتحقيق أحلامها. كانت تقول طوال عقود: «كان يجب أن أكون رجلاً. كنتُ أرغب دوماً أن أكمل تعليمي، أن ألتحق بكلية طب». كان أبي يخمن في كثير من الأحيان أنه لو كان قد شجعها على أن تجد وظيفة لها، فربما ستكون أسعد كثيراً. كانت المدة التي قضتها كعضوة في البرلمان مؤقتة؛ وعندما انتهت هذه المدة أصبحت تشعر بمزيد من المرارة. فقد أصبحت وحيدةً مع زهوها وغضبها وإحساسها بالغبن الناجم عن الانزواء. هل حدث أن دافعنا عنها من قبل؟ هل حدث أن تعاطفنا معها في يوم من الأيام؟

طوال برهة من الزمن بعد مغادرة أبي للمنزل، كانت أمي، التي تجهل الحقيقة، تفضي بهمومها وأحزانها إلى زيبا خانوم. كانت تسب أبي أمامها، وتقول لزيبا خانوم إن العاهرة شاهين عادت إلى حياته. لكنها سرعان ما اكتشفت الحقيقة. طلقت زيبا زوجها وتوقفت عن زيارة أمي. وفيما بعد لامتنا أمي على إخفاء الحقيقة عنها، وأنكرنا، ونحن نشعر بتأنيب الضمير، معرفتنا بأي شيء عن العلاقة الغرامية بين أبي وزيبا خانوم.

حينما غادر أبي المنزل، يبدو أن سكوناً هائلاً هيمن علينا جميعاً، كالسكون الذي يسود بعد انفجار كبير. كانت هناك حفر صمت جديدة تحيط شقتنا من جميع الجهات، وشيئاً فشيئاً رحتُ أطرح أسئلتي الصامتة. بدأت أسال نفسي بعض الأسئلة التي كانت تطرحها أمي. كيف ستكون الحال لو كانت أمي رجلاً؟ وكيف ستكون الحال لو أنها أكملت تعليمها؟ وكيف ستكون الحال لو أنها لم تتزوج؟ وكيف ستكون الحال لو أنها لم تترك الرقص؟

في سنة ١٩٨٢ وُلدت سنام، ابنة محمد وشهران، قبل موعدها بشهرين. لم يكن الأطباء واثقين بأن الطفلة ستعيش، وعندما نقلوا لي الأنباء لم أرغب في الذهاب إلى المستشفى، كما لو أن عدم ذهابي سيمنع عنها الأذى، بشكلٍ من الأشكال. وحينما وصلت إلى المستشفى أخيراً كان أول شخص رأيته هو أخي. أخذني إلى الغرفة التي كانتْ ابنته قد أُبقيتْ فيها تحت جهاز التنفس الاصطناعي. قال لي: «طفلتنا الصغيرة الشجاعة، لقد تمسكت بالحياة. يبدو أنها مصممة على العيش». هكذا جاءت سنام إلى العالم، عاقدة العزم، وكانت مستعجلة، وهذا الاستعجال سيرافقها طوال سني حياتها. كانت طفلة شديدة الصغر، طفلة منمنمة، كانت تقطّع نياط قلبي في كل مرة أنظر إليها، وفي الحقيقة، أحببتها حباً جماً. أصبحنا أنا وهي قريبتين جداً إحدانا من الأخرى. وعندما كانت في عمر سنتين لا غير، كنا نمشي يداً بيد ذهاباً وإياباً في الرواق الطويل الملتوي، مارّتين بغرفة نوم أبويها، بالمكتبة، وحجرة جدتها، متجهتين صوب الحجرة الواقعة في الطرف الأخير من الرواق، وأروي لها القصص التي كانت تنصت إليها بانتباه، تحني رأسها، وتركز نظراتها على الأرض، وهي تمسك يدي بقوة. عندما دخلنا غرفة شهران في المستشفى، كان أبواي قد أمضيا وقتاً طويلاً مع أمها، التي كانت شديدة القلق عليها. كان أبوانا يجعلاننا نعي جيداً مشاعر كل منهما نحو الآخر. وبين الحين والحين،



أبي مع سنام (ابنة محمد) وطفلتي نيغار.

كانت أمي تلقي نظرات غاضبة على أبي، بينما يحاول أبي أن يتجاهل تلك النظرات من خلال النظر إلى جهة أخرى. فكرت في سرّي: «ها نحن أولاء ثانية. أجندتهما الخفية تفاجئنا في كل حادثة».

بعدها بسنتين، في كانون الثاني (يناير) ١٩٨٤، وُلدت ابنتنا نيغار. «عيناها مفتوحتان!»، هذه هي الجملة الأخيرة التي سمعتها من طبيبتي قبل أن يُغمى عليَّ. كانت قد حُملتْ من قفا عنقها كالهرة الصغيرة، واسعة العينين ويقظة، صورة أخذتها معي قبل أن أغيب عن الوعي. في الليلة المنصرمة، مضيت إلى المستشفى. اتصل أبي هاتفياً. كانت أمي في شقتنا، فحملت سماعة الهاتف. «أنت، أيها اللقيط...» صرخت به، وعرفت فوراً أنه لا بد أن يكون هو المتصل. «الاتصال الهاتفي لك، مدام»، قالت لي، وقد تغيرت نبرة صوتها. حملت سماعة الهاتف على طول ذراعها كخرقة قذرة تُغسل بها الصحون. «لا حق لي لأن أتصل بابنتي»، قال أبي. كانت نبرة صوته أكثر مرارة، ومذعنة. لم نتحدث كثيراً. كان من المستحيل أن أفعل ذلك، وأمي لا تنفك عن التطرق إلى آثامه وإلى جحودي.


أنا، نيغار، وبيجان، في منطقة بحر قزوين.

وعندما أصبحت ابنتنا نيغار في شهرها الثالث بالضبط، وحينما كنت قد رضعتها تواً وغيّرت ثيابها وكانت مستلقية على فراشي، تنظر إليّ بمزيج من الأذى والجد، صدمتني فجأةً الفكرة التي مؤداها أنها جاءت إليّ بمثابة هدية. كي أنفتح عليها انفتحت على نفسي - لم يكنْ بمستطاعي أن أكون بتلك الدرجة

من السوء لو أن تلك المخلوقة العجيبة اعتمدت عليّ وأبدت حبها لي.

في الوقت الذي وُلد فيه ابني دارا، في الخامس عشر من أيلول (سبتمبر) ١٩٨٥، كان قصف طهران قد بدأ مجدداً. أمضيتُ الشهور التي سبقت ولادته في ذعر، فقد خفت من أن يلحق أذىً ما بالطفل. كانت ثمة شائعات تفيد بولادة أطفال معوّقين أو مشلولين لأن أمهاتهم كن شديدات القلق عليهم خلال حملهن. لذلك غدوتُ شديدة القلق على قلقي. كنت أبقى يقظة ليلاً خلال ساعات التعتيم، وكنتُ أقرأ على ضوء الشمعة، كتاباً إثر الآخر، أستبدل ريموند شاندلر بهنري جيمس، وصادق هدايت ببهرام صادقي، وأنا أضع إحدى يديّ على بطني، كما لو أن بوسع يدي أن تمنع الطفل من رؤية أو سماع ما يجري في العالم الخارجي. وبغتةً، استحوذ عليّ ذعر لا يُقهر. ماذا لو كان طفلي ميتاً في بطني؟

ذات ليلة، أذكر، شعرت فجأةً أنني أُصبت بنوبة قلبية. لم أكن قادرةً على التنفس، وفي تلك اللحظة لم أفكر في زوجي، الذي كان نائماً إلى جواري، بل فكرت في أمي. أخذت شمعةً ونزلتُ درجات السلم (يكون بابها المؤدي إلى السلم الداخلي مفتوحاً دوماً عندما تكون في شقتها). لم أقرع الباب، بل دخلت فقط، وأيقظتها من النوم. لم تحتجّ، أو تسألني لماذا أيقظتها من النوم في الساعة الثالثة صباحاً. اتصلتْ هاتفياً بجراح قلب من أقاربنا البعيدين، أيقظته من النوم، وشرحتْ له الأعراض التي شعرتُ بها. وعادت إليّ بكوب من الماء وقرص فاليوم في يدها. قالت لي: «ستكونين، الآن، على ما يرام. خذي هذا القرص، إنه لن يؤذي طفلك، وستشعرين بالتحسن». جلست أمي لصقي، وراحت تدلك ظهري. قلت لها: «ماما، ماذا لو كان هذا الطفل قد لحق به الأذى، ماذا لو كان ميتاً أصلاً؟» ضحكت

باستخفاف. «لن يحدث شيء للطفل ما لم يحدث شيء لأمه. لنعتني بك أولاً». جعلتني أنام في فراشها تلك الليلة، بينما نامت هي على حشية خفيفة عند قدم السرير.

وضعت ولادة دارا نهاية للمخاوف التي ساورتني طوال أشهر الحمل. استمرت الحرب ثلاث سنوات أخرى، وخلال السنة الأخيرة، عندما كانت طهران هدفاً للقصف المستمر، وفرّ أناس كُثر من المدينة، بقينا في منزلنا. لم أشعر ثانيةً بالذعر نفسه، أو القلق نفسه، من القنابل، الذي خبرته في السنوات التي سبقت ولادته. وعلى العكس من تكهناتي المَرضية، لم يكنْ دارا معافى فقط، بل كان رقيقاً وهادئاً بصورة رائعة («بالضبط مثل محمد»، قالت أمي، «طفل طلق المحيا، بكل معنى الكلمة»). كان هادئاً جداً إلى درجة أن إصراره المتقد فيما يخص أشياء معيّنة كان يثير إعجابنا. عندما كان في عمر سنتين لا غير، تقريباً في كل مرة يتطلّع فيها إلى كتاب مصوّر كان يريد إما أن يدخل الكتاب أو أن يمسك بأشياء معينة فيه. كان مغرماً بالقمر. لم يكنْ يسمح لي بأن أقلب الصفحة، وكان لا ينفك عن الإشارة إلى القمر، ويناديني قائلاً: «ماه، ماه». في اعتقادي أنهما حقيقةً لم يتغيرا كثيراً عندما كبرا، نيغار بفضولها اللانهائي، ودارا برغبته الهادئة في الإمساك بالقمر.

عندما أفكر في حلم أبي بزواج سعيد، أتذكر عادةً ثيمة متكررة في الأدب القصصي: كيف كانت أحلامنا تتلطخ بالواقع، كيف يمكننا أن نحوّلها إلى هواجس باعثة على اليأس، نضحّي من أجلها بذلك الإحساس الضروري بالكرامة والكمال الذي تقنا إليه عندما كنا نستغرق في حلم ما. ربما كانت حياة أبي الشخصية ستغدو مأساوية

لو أنه لم يهجر أمي، لكنه الآن بعد أن اتخذ هذه الخطوة - وهي خطوة متأخرة جداً، وليست خطوة في الاتجاه الصحيح - أضاع فرصته ومعها أضاع سمعته الطيبة. كلا أبويّ كانا يزعمان أنهما يريدان أن تبقى مشاكلهما سرية، لكن انفجارات أمي العاطفية بحضور أناس غرباء تماماً، واحتجاجات أبي وشكاواه جعلت علاقتهما المتوترة مادةً للقيل والقال والتكهن بين الناس. «يومياً، رجال كثيرون يتركون زوجاتهم»، يقول أبي متشكياً. «إنهم يبقون أصدقاء مدة طويلة بعد ذلك، لكنني لا أقدر أن أحرر نفسي من نزهت؛ سأكون عبداً لها إلى الأبد».

أتذكر اليوم الذي أخبرني فيه بفرح أنه يحتفظ لي بمفاجأة كبرى بينما كنا راكبين في السيارة، متوجهين إلى (فندق الاستقلال) - كان اسمه (طهران هلتون) قبل الثورة. عندما وصلنا إلى الفندق، كانت شاهين جالسة هناك، أنيقة الملبس ومبتهجة. ارتبكتُ قليلاً لأنني كنت أعرف أنه خطّط للزواج من زيبا خانوم. شرح لي أبي قائلاً إن شاهين وزوجها كانا في لندن. ومضى يقول، بنبرة مليئة بالعاطفة والفهم، إن زوجها رجل فظيع بدّد ثروته في المقامرة، ولم يكن يعطيها مبلغاً كافياً للعيش، فقد كان قلقاً من أنها إذا كان لديها مبلغ كافٍ ستتركه حالاً. كانت تقيم في شقة في طهران، في حين يقضي زوجها معظم أوقاته في الخارج.

انقضت نحو اثنتا عشرة سنة منذ أن رأيتها آخر مرة؛ لم يعد يثيرني الحديث القصير عن النزعة المادية والنزعة الروحية. كنتُ أفضّل زيبا خانوم البسيطة التي لا تمتلك مثل هذه الإدعاءات، وكان استئثارها بأبي صريح وأصيل. كانت زيبا خانوم تبدي احتراماً خاصاً له. كانت قد دمرت زواجها هي، وعندما كان هنالك خطر من احتمال أن يلقي

الحرس الثوري القبض على أبي، وفّرت له ملاذاً آمناً، وفي النهاية اقتادوه إلى المحكمة الثورية. سمعتها تتكلم، صوتها لا يزال مليئاً بالعاطفة، عن تلك الساعات التي قضتها تنتظر في السيارة، وعيناها مغرورقتان بدموعها، لتعرف مصيره. فيما يتعلق بشاهين لم أرَ عواطف جياشةً كهذه. «تبدو راضية جداً عن نفسها، بكل ما تعنيه كلمة (رضا) من معنى»، قال بيجان عندما التقى بها أول مرة، ولم يرَ مبرراً لأن تكون كذلك. ذات مرة، عندما كان أبي يوصلني بسيارته إلى البيت، سألني بصورة عرضية: «أيهما تفضلين: شاهين أم زيبا؟» كان سؤالاً مفاجئاً، وكنتُ فزعة نوعاً من أن يطرح عليّ ذلك السؤال. قلت: «لا أدري، إنهما امرأتان مختلفتان». وددت أن أستفسر منه لماذا وجّه إليّ سؤالاً كهذا، ألم يكن ينوي الزواج من زيبا؟ لكنني لم أقلْ شيئاً، ولم أتابع الموضوع. وعندما انقطعت علاقته بزيبا بعد بضعة أسابيع، ذُهلتُ. وسألته فيما بعد عن السبب، فردّ عليّ قائلاً إنها كانت غيورة جداً من حبه لأولاده.

بعد ذلك، كان أبي يأخذنا أنا وأولادي إلى منزل شاهين بينما كان زوجها بعيداً - وكان يبدو أنه بعيد معظم الوقت. كنا نتناول الطعام، ونتفحص الثياب التي كانت صمّمتها. كانت معارض الثياب الخصوصية قد أصبحت موضة حديثة، وبخاصة الملابس المصممة وفق (الموتيفات) الفارسية التقليدية. اشتريت منها بعض القطع، وشعرت بأنني مذنبة نوعاً. في البداية كان أبي قد دفع لها المال كي تفتح معرض الثياب، وبعدها اشترت هي وأمها شقة صغيرة، وسدد أبي تكاليف أثاث غرفة النوم، كهدية لمناسبة الانتقال إلى هذا المسكن. حاول أن يقنعني بأن زوجها الفظيع كان يضطهدها، وكان يبقيها سجينة المنزل، ولم يسمح لها باستخدام مواهبها. كان أبي يبدو

دوماً أنه يحتاج إلى مبرر لعلاقاته مع النساء. فيما يتعلق بأمي: كان المبرر أمها المتوفاة، زوجة أبيها الرهيبة، وزوجها المتوفى؛ فيما يخص زيبا: عدم اهتمام زوجها بها؛ والآن مع شاهين: لدينا زوجها المقامر، وأبوها المتهتك وغير المبالي، وأخوها السكير، وأمها - كأمكِ، ويقول ببسمة استمالة، أنتِ وشاهين متشابهتان - حبها لابنها يفوق كثيراً حبها لهذه البنت المخلصة.

ترتب أمي لائحة طويلة من شكاواها. في البدء زعمت أن طلاقهما غير شرعي: لم توافق عليه. قالت: «له أصدقاء في مناصب عليا، ولديه تعاون وثيق مع الحكومة، وقد جعلهم يزوّرون أوراق طلاق كاذبة». أصرّ أبي على القول إنها وافقت على الطلاق غيابياً. أرسلت إليها المحكمة تبليغات كثيرة، لكنها تجاهلتها كلها، بما فيها التبليغ الأخير، الذي كان يخبرها أنها إن لم تحضر إلى المحكمة سيكون الطلاق ساري المفعول أوتوماتيكياً. يمكنني أن أتصور إحساسها بالإذلال كون زوجها هو الذي استدعاها للمثول أمام المحكمة.

ثمة شيء واحد لم يتخاصم بشأنه أبواي: إنه المال. كانت أمي قد اتهمته بأنه لم يقف إلى جانبها ضد زوجة أبيها بشأن إرث الأخير، وقد جعلته يشعر بالذنب فيما يتعلق بالأمور المالية عندما كان في السجن، لكنها لم تشك في كماله. كانت تثق به فيما يتعلق بمالها، ولم تطلب منه صكوك العقارات والوثائق. كان احتقار أبويَّ الواضح للمال قد جعلنا أنا وأخي غير مهتمين به أيضاً. وكنا نعرف بصورة مبهمة أن أمنا ورثت أرضاً، وبمرور الزمن، بعض الأرض التي تركتها بيعت بثمن جيد. كنا نعرف أن أبانا قد اشترى الفيلاّ العائدة لنا بالقرب من بحر قزوين من ماله الخاص، ولاحقاً ثمة جزيرتان تقاسمهما مع

بعض أصدقائه، وبعض الأكرات[1] من الأرض تقاسمها مع عمي، بعض هذه الممتلكات أُرغم على بيعها كي يسدد الديون التي ترتبت عليه حينما غادر السجن. كان قد كسب مالاً وفيراً من عمله في القطاع الخاص يزيد على ما كان يكسبه من العمل في القطاع الحكومي، وكنا نعرف أنا وأخي أن أبوينا سجلا معظم الأراضي والعقارات التي يملكانها باسمينا، بما فيها الشقة الواسعة في واحد من أفضل المواقع في باريس. كانت أمي تعتقد أن هذه كلها يجب أن تُسجل باسمينا لأنها ملكنا جميعاً في كل الأحوال. أدهشني أن ثمة امرأة هنا لم تكن تعطيني مزهريتها الأثيرة خوفاً من أن أكسرها، غير أنها كانت تأتمننا على كل ثرواتها. بعد الثورة، في اعتقادي، كان أبواي يقومان بذلك من باب الاحتراس أيضاً. لم يكن أبواي قادرين على بيع أي شيء مسجل باسمهما، وبعض العقارات التي كانا يملكانها بالقرب من بحر قزوين صادرها النظام الإسلامي.

ترك أبي أمي في شقة لم تكن مسجلة باسمها، ولم تكفّ عن تذكيرنا بذلك. كما كان يبعث إليها راتباً شهرياً صغيراً. أن تنتظر راتباً شهرياً كهذا، معتمدةً على كرم أبي، كان إذلالاً آخر. ولأول مرة طالبت بصكوك نقل ملكية العقارات. شرح لها أبي قائلاً إنه كان محاسبها طوال سنوات رشده، وكان قد أخذ حصته وأعطاها حصتها. وبعث في رسائل عدة تقارير مفصلة عن الأشياء التي تم شراؤها وما هي المبالغ التي أُنفقتْ، وأصر على القول إنه لم يأخذ شيئاً معه. لكنه في الوقت نفسه طلب منا أن نفوضه ببيع الشقة الواقعة في فرنسا، وكانت لديه صلاحية الوكالة الرسمية على جميع العقارات الأخرى.

---

(١) الأكر: مقياس للمساحة نحو أربعة آلاف متر مربع - م.

لامتني ولامت أخي، وبعد أن غادر أخي إيران، لامتني وحدي، لأننا لم ندافع عنها، ولأننا تآمرنا مع أبي كي يأخذ كل المال الذي بحوزتها. وعلى الرغم من تعاطفي وحقيقة أنني شعرتُ، ولأول مرة، بصدق أنها مبرئة من الإثم فيما يتعلق ببعض المظالم التي لحقت بها، ولم يكن بمستطاعي أن أجبر نفسي على انتزاع صلاحية الوكالة الرسمية من أبي.

كان أبي حريصاً على أن يبقى في اتصال دائم معنا. كان يتصل بنا تقريباً كل يوم، عادةً يتصل هاتفياً من مكتبه. وبصرف النظر عن زياراته الأسبوعية لنا، كان يأتي إلينا غالباً في أوقات ما بعد الظهر، أو في العطل الأسبوعية، عندما نأخذ أطفالنا إلى المتنزه. اشترى لنيغار طائر الكناري حينما كانت في سن الثالثة. زعمت أن [بابايي] (كانا يلقبان أبي بهذا الاسم) في كل زيارة يقوم بها لمنزلنا كان يصفر للكناري، وكان الطائر يبدأ بالسقسقة رداً على الصفير. وفي أحد الأيام وجدت الكناري ميتاً في قفصه، وظلت طوال النهار والليل تبكي. كان يوماً من الأيام التي أعقبت السنة الفارسية الجديدة، واصطحب أبي نيغار إلى الحديقة، حيث دفنا الكناري بالقرب من شجيرة الورد الأثيرة خاصته. وعدها أن يشتري لها طائر كناري جديداً، لكنها أفاقت من النوم في تلك الليلة، وقالت: «لا أريد كناري آخر، ولا أي حيوان أليف آخر، لأنه سيموت».

أتذكر، ذات مرة، في أحد الأيام المبكرة من الربيع، كان الطقس بارداً. ابننا دارا يبكي - وهو شيء نادراً ما يفعله - ويدوس بقدميه بقوة بينما كنت أحاول أن ألبسه سترة خفيفة. كانت نيغار تلبس سترتها الحمراء المحاكة باليد ذات الزهور الصفراء الصغيرة (تبرعٌ من [مامان نيسي] - اللقب الذي يطلقه أولادي على أمي)، وتقف مطيعة،



سنام وإلى يمينها ابني دارا وابنتي نيغار.

مستعدة للذهاب، تنظر إلى دارا، كما لو أنها تقول له: انظر إليّ، هي ذي أنا، لا أثير ضوضاءً، ومستعدة للذهاب. يسأل أبي: «ماذا جرى لهذا الطفل؟ قلما رأيته يبكي». «إنه يريد بذلة [زورو]»، تطوعت نيغار بالإجابة. يبدو أن أحد الأطفال في روضته جاء لابساً بذلةً من ذلك النوع. دارا طفل هادئ الطبع، كان يعطي لُعبه للآخرين برباطة جأش، لكنه بين الحين والآخر يستحوذ عليه ولع بشيء ما - كرة قدم، جزمات حمراء اللون، غليون أبيه، القمر - ومن ثم شيطان صغير يبدو أنه هيمن عليه، خداه الناعمان الريانان ينتفخان باهتياج، وتتوهج عيناه، وكل أعضاء جسمه مشدودة إلى الشيء الذي يريده.

أقول: «إنه طفل مزعج أفسده الدلال». مربيته (تهمينه) التي لا تستطيع تحمّل دموعه، تبكي هي أيضاً. «هي ذي، هي ذي»، تقول تهمينه، وهي تزرر برقّة سترته (هدية أخرى من [مامان نيسي]، زرقاء قاتمة مزخرفة بكلب أحمر محاك على الثدي الأيمن، وجيبان صغيران ملأتهما [تهمينه جوون] بالحلوى). تقول: «سأصنع لك بذلة [زورو]، وبذلة [سوبرمان]. انتظرني بضعة أيام فقط، سوف نشتري القماش معاً».

وسرعان ما يهدأ دارا، ويبدأ بالتحدث مع أبي عن سوبرمان وزورو. يقول: «أريد أن أصبح مثلهما، عندما أكبر». «لماذا زورو؟» يقول أبي غير مصدق ما يسمعه من حفيده. «هنالك أبطال إيرانيون

عظماء كثيرون، لماذا لا تريد أن تكون مثل رستم، أو كاوه؟» يسأله. «هل تعرف من هو كاوه؟ لقد أنقذ إيران من الحكم الرهيب لـ (زهك). عندما وُلدتَ كنت أتمنى أن تُسمى كاوه».

يقول دارا: «لا أحب الأبطال الإيرانيين، إنهم يؤذون أمي. لديهم بنادق، ويريدون أن يقتلونا». يجفل أبي بجلاء. يقول بهدوء: «لم تكن الأمور هكذا دائماً. عندما كانت أمك طفلة، كان بمستطاعها أن تذهب إلى أي مكان، وتفعل كل ما تشاء». «أود، إذاً، أن أكون في ذلك الزمن»، يقول دارا، ونتوقف عن الحوار في هذه النقطة.

كان سلوك دارا قد حفزته حادثة جرت قبل بضعة أسابيع. كانت عطلة قومية، وقررنا أنا وبيجان أن نصحب الأطفال إلى الجبال، بالقرب من قٌرية (داراكه) الواقعة في ضواحي طهران، والتي تبعد نحو عشرين دقيقة عن منزلنا، حيث كان هناك ممر غير شديد الانحدار. كان يوماً ممتعاً، أنشد الأطفال، وقهقه بيجان، وتناولنا الكباب، جلسنا في العراء على الرغم من البرودة البسيطة في الجو. كنا نمثل صورة للأسرة السعيدة.

وأثناء عودتنا من الجبال، كنا أنا ونيغار في المقدمة. كانت ابنتي تحكي لي قصة عن البلايا الطفيفة لديك مختال عندما سمعنا فجأةً صوتاً يصيح قائلاً: «هَيْ، هيجابيتو دوروست كون (هَيْ، اضبطي حجابك!)». التفتُّ جانباً، ورأيتُ شاباً يمشي وراءنا مباشرةً. تجاهلتُه، وأمسكتُ بقوة بيد نيغار، ورحنا نسير أسرع. «هَيْ، ألم تسمعيني؟ قلت لك غطي شعركِ». تطلعتْ إليّ نيغار بخوف. قلتُ لها: «لا تهتمي، سيري فقط». «هَيْ، هَيْ، أنتِ! هل أنت صماء؟» ناداني الشاب. توقفت عن المسير. قلت ببطء: «لستُ صماء. لا تعنيك طريقة ارتدائي للوشاح». لا أعرف ماذا جرى لي. كنتُ أتساءل

أحياناً لماذا كنت أمتنع عن لبس الوشاح بصورة صحيحة، ولماذا كنت لا أسد فمي وأمتثل لما يقولون.

قال الشاب: «لا نريد عاهرات في هذا البلد. ألم تسمعي بقيام الثورة».

وهنا بدأت أصيح. بيجان ودارا راحا يحثان الخطى لكي يلحقا بنا. بيجان رجل هادئ جداً، وكان يحافظ دوماً على برودة أعصابه وكرامته. وقال لي مراراً إنه يتعيّن عليّ أن أتقبل المكان الذي أعيش فيه، ويعبر عن احتجاجاتي بصورة مختلفة. كنا قد تشاجرنا عدّة مرات عندما كنت أتهمه بكونه غير حساس، وكونه لا يتعاطف مع ورطتي كامرأة، ويقول لي بهدوء، مما يجعلني أرغب في أن أصيح بصوت أعلى، إنني غير عاقلة، وذات سلوك صبياني، وكوني لا أرى الجانب الجيد من الأشياء. يقول لي بشيء من اليأس في صوته إنه كان يكره قطّاع الطرق هؤلاء بقدر كراهيتي لهم، ومع ذلك عزيزتي آذي، هذا بلدنا. إنني أحب بلدنا، إنني آخذ الأشياء الجيدة والسيئة معاً، وأحاول أن أغيرها. إلا أن بيجان لم يكن هذه المرة متفلسفاً جداً. التفت إلى الشاب، وصاح به: «كيف تجرؤ على مخاطبتها بهذه اللغة؟»

«لماذا لا تفعل شيئاً لزوجتك؟ من واجبك أن تبقيها تحت سيطرتك». قال الرجل بازدراء. (من المفترض أن يُبقي الرجال زوجاتهم الجامحات تحت سيطرتهم). منذ تلك اللحظة فصاعداً، وقفنا أنا ونيغار ودارا في أحد الجانبين، أشاهد زوجي معسول اللسان وهو يفقد رباطة جأشه.

«دعنا نأخذ هذه المرأة إلى اللجنة»، قال الشاب أخيراً. كان النظام يشجع المواطنين المستقيمين أخلاقياً على تنفيذ واجباتهم الدينية من خلال إبلاغ السلطات الرسمية الملتزمة بقواعد الدين عن الأفعال

غير الأخلاقية. كانت اللجنة الثورية المحلية في نهاية الطريق الضيق، بالقرب من قطعة الأرض المخصصة لوقوف السيارات في قرية (داراكه). وبينما كان الشاب يمشي في المقدمة مختالاً وعدائياً، وأنا وبيجان نمشي ببطء وراءه، كل واحد منا يمسك بيد أحد الطفلين ونحن نقطع تلك المسافة اللانهائية. وفي نقطة ما انفجر طفلانا بالبكاء، في البدء دارا ومن ثم نيغار، يجرجران أقدامهما على مضض بينما كنا نسحبهما على طول تلك المسافة. كنا أنا وبيجان نتجادل، بينما خرج زبائن المقاهي والمطاعم الواقعة على الطريق، الذين كانوا قد اعتادوا على هذه المشاهد، كي يشجعونا، ويحتقروا الرجال الذين داهمونا وصادروا حريتنا.

وأثناء سيرنا في أرجاء القرية، انضم أصحاب المخازن وعابرو السبيل إلى المحتجين: «دعوهم وشأنهم، دعوهم وشأنهم»، كانوا يترنمون، يشجعوننا ويسبّونهم. «انظروا ماذا فعلتم بالدين الإسلامي. إنكم تسمّون أنفسكم مسلمين، وأنتم تعاملون مخلوقات الله بهذه الطريقة!» سار وراء موكبنا ثلاثة أو أربعة صبيان، يطلقون صيحات الاحتقار ببهجة إلى أن وصلنا باب اللجنة. لم يكنْ هناك أحد في الداخل، فتنفسنا الصعداء.

كنا محظوظين: ذهب الجميع إلى المدينة للمشاركة في التظاهرات الكبيرة. قال الشاب: «تقفان هنا، سأعود حالاً». وكما طلب منا، وقفنا بضع دقائق، وبعدها كسرنا الباب، وهرعنا إلى سيارتنا. وطوال الطريق الذي قطعناه بالسيارة عائدين إلى البيت، كان طفلانا جالسين في المقعد الخلفي، بعيون مليئة بالدمع، ورحنا أنا وبيجان نكرر قولنا: كمْ كنا محظوظين عندما استطعنا الإفلات من قبضة السلطة. بينما أمضى آخرون بضعة أيام في السجون، أو جُلدوا

بالسوط، بسبب آثام أصغر. التفتُّ إلى الطفلين، وطلبت من نيغار أن تغني عن «*خروس زاري*»[١]. قلتُ شيئاً سخيفاً لدارا، إلا أنهما كانا هادئين جداً، وليس مثلما عهدناهما من قبل.

في ذلك اليوم عندما اختار دارا زورو وفضّله على رستم وكاوه، أعتقد أنه كان يفكر في يومنا الذي قضيناه في الجبال. قال أبي: «ولد أولادك في هذه الأرض التي ولدتِ فيها، وولد فيها أبوك وأبو أبوك وأولئك الذين ولدوا قبلهم. جميعنا كابدنا المصاعب، في السراء والضراء، لكن هذه لم تجعلنا ندير ظهورنا لهذا الوطن. يستطيع هذا النظام أن يصادر ممتلكاتنا، لكننا لن نسمح له بأن يصادر ثقافتنا وإيماننا».



نيغار ودارا في روضة الأطفال.

أثناء حرب السنوات الثماني، عندما كانت طهران هدفاً للقنابل والهجمات الصاروخية العراقية، كان بيجان يمضي إلى العمل بشكل منتظم قدر المستطاع، حتى عندما سقط صاروخ بالقرب من مكاتبه، وألحق أضراراً جسيمة بالمبنى، وتحطمت النوافذ كلها. في ظل هذه الظروف، كان التمسك بالحالة السوية هو الضرورة الملحّة جداً. من السهل الآن أن نرى أحداثاً متنوعة في علاقة كل

---

(١) وردت بالفارسية في النص الإنكليزي Khroos Zari، وتعني: صياح الديك - م.

واحد منها بالآخر، لكن في هذه المرة كان كل شيء يحدث بهيئة شظايا، من دون الاستمرارية التي تنطوي عليها الوتيرة ضمناً.

بدأت أدرّس ثانية في نحو سنة ١٩٨٧. لم أدرّس منذ أن طردوني من جامعة طهران سنة ١٩٨٢، حيث أمضيت السنوات بين هذين التاريخين في الكتابة، بشكل رئيس عن الأدب القصصي والأدب الفارسي الحديث. لم أعد إلى جامعة طهران (كانت لي فيها ذكريات كثيرة مريرة)، واخترت التدريس في جامعة العلامة الطباطبائي، وهي خليط من ثلاث وعشرين كلية وجامعات صغيرة كانت قد أصبحت مركزية بعد الثورة الإسلامية. هذه الجامعة كانت أكثر ليبرالية من الجامعات الأخرى، وكان رئيس قسم اللغة الإنكليزية أستاذ لغة مدهشاً، محترماً في ميدانه، ومهتماً بالحفاظ على نوع عال من العمل. خلال سنوات الحرب، كانت الدروس غير منتظمة؛ كنت أدرّس يومين في الأسبوع، وأقضي معظم وقتي في البيت إما أكتب أو أحضر للدروس التي ألقيها على طالباتي.

في الشهرين الأخيرين اللذين سبقا معاهدة السلم، صعّد العراق وتائر قصفه للمدن الإيرانية، وبخاصة طهران. وفي بعض الأحيان كانت تسقط ستة صواريخ في وقت واحد على طهران. ماذا فعل أولئك الناس الذين لم يغادروا المدينة؟ حاول بعضهم أن يجعلوا من أقبيتهم ملاجئ، في حين تظاهر آخرون أن لا شيء استثنائياً كان يحدث، وكل شيء كان طبيعياً: التعتيم المتكرر، التجمعات الحاشدة في حجرة واحدة مع الأصدقاء وأفراد الأسرة الذين أقبلوا للزيارة، إنما يتعيّن عليهم الآن أن يقضوا ليلتهم في المنزل، تُعلّق البطانيات على النوافذ، وتُلصق عليها أشرطة لاصقة جراحية لمنع وابل الزجاج

المهشم، وكي لا يسمعوا صوت صفارات الإنذار، التي تجيء دوماً بعد تنفيذ الهجمات الصاروخية.

بطريقة غريبة، كانت الحياة تتخذ مزاجاً بهيجاً تقريباً. كان الجيران والأصدقاء يجتمعون معاً. بين أوقات التعتيم كنا نشاهد الأفلام السينمائية، ونشرب الفودكا المباعة بصورة لاشرعية، والنبيذ المصنوع محلياً، نحاول أن نشعر بأننا آمنون بواسطة الإحساس بالألفة الذي تخلقه الظروف الطارئة. كنت أنام إما في حجرة الأطفال أو في رواق صغير يفصل حجرة نومنا عن حجرتهم. لم يكن للرواق نوافذ، وكان بمستطاعي أن أقرأ على ضوء الشمعة أثناء أوقات التعتيم. كنت أبغي أن أكون معهم هناك مهما حدث - كان ذلك هو همّي الرئيس، احتمال ألا أقاسمهما مصيرهما. تقريباً في كل مرة بعد القصف، سواء كان ذلك في ساعة من ساعات الليل أو النهار، كانت أمي تقرع باب الرواق، وتدخل، قائلةً: «هل أنتم على ما يرام؟ لا تخافوا».

وبعدها توقف القصف في أحد الأيام. وانتهى زمن قضاء الليل في منازل الآخرين، وأعدنا الشموع إلى الأدراج. لن تكون هناك أوقات تعتيم، ولم تكن الصفارات إنذارات غارة جوية بل هي، ببساطة، صفارات سيارات الإسعاف - لكن الخوف لم يفارقنا؛ كان يبدو أن هناك شيئاً خادعاً في إحساسنا الجديد بالأمان. كان السكون الذي جاء به السلم يحمل الصدمة القوية نفسها كالقنبلة. وقّعت إيران معاهدة السلم تعبيراً عن شعورها باليأس، بعد أن عرفت أنه ليس بوسعها أن تكسب الحرب. أعلن آية الله خميني، الذي كان قد وعد قواته المسلحة المخلصة بأنهم سرعان ما يسيرون منتصرين إلى داخل الأراضي العراقية، ويحتلون مدينة كربلاء المقدسة، أن توقيع معاهدة السلام مع العراق أشبه بتجرع كوب السم. كان ذلك ضربة واضحة

لحلمه في تصدير (ماركته) الإسلامية إلى بقية أنحاء العالم. بلغ عدد الجنود القتلى والجرحى والمفقودين نحو مليون شخص إبان الحرب التي استمرت ثماني سنوات. ماذا يعني أن نقول: انتهت الحرب في العشرين من آب (أغسطس) ١٩٨٨، وبعد سنة من ذلك، أي في الثالث من حزيران (يونيو) ١٩٨٩ توفي آية الله خميني، بعد ربع قرن من انتفاضة الخامس من حزيران (يونيو) التي دفعته إلى قلب السياسة الإيرانية؟

ماذا سيحصل الآن؟ تلوّنت النقاشات الدائرة على مائدة الطعام في منزلنا، والحوارات التي جرت خلال جلسات القهوة في بيتنا بأحاديث عن تحولات في بنية النظام. كان هذا هو الوقت الذي نفصح فيه عن خيبة أملنا في ثورةٍ لم تنقذنا مع زعماء فاسدين أخفقوا في جلب الحرية والازدهار للبلد، وحرب طويلة لم نكسبها. كانت معاهدة السلام مع العراق قد حطمت آمال أولئك الذين كانوا يظنون مخلصين أن هذه الحرب ستنتهي بانتصار النظام الإسلامي. إن الذين شعروا بأنهم خُدعوا ليسوا هم العلمانيين، بل الثوريون السابقون، أولئك الذين كانوا يحرسون الشوارع ببنادقهم، وحاولوا أن يطهروا الجامعات من العناصر غير المرغوب فيها، ذهبوا إلى الحرب وعادوا منها مبتوري السيقان، وبلا أمل. على من يقع اللوم؟ لم يعد أحد يلقي اللوم على الإمبرياليين وعملائهم الذين يحدّثون أسلوب الحياة في بلادنا.

ربما يكون ذلك مثيراً للسخرية، إلا أنه كان صحيحاً أيضاً أن خيبة الأمل يمكن أن تزرع الأمل مجدداً. وبدأ بعض الثوريين الشباب يتحولون إلى أفكار جديدة، ويعتنقون وجهات نظر راديكالية، مقتبسين من كارل بوبر وسبينوزا، منتقدين الأفكار الدينية الرجعية، باحثين عن

دعم ومساندة المثقفين العلمانيين. كانوا جزءاً من الحركة التي سُمّيت لاحقاً (حركة الإصلاح الديني). ما كانوا قد تجنبوه في بداية الثورة - العلمانية والأفكار الغربية - هو ما راحوا الآن يتحولون إليه بصورة متزايدة. وما إن بدأوا يشعرون بأنهم كالغرباء في عالمهم الآمن سابقاً، أخذوا يفتشون عن علاقات قرابة جديدة. وارتاب بعض العلمانيين في جمودهم الأيديولوجي، ورحبوا بإجراء حوارات جديدة وتبادل وجهات النظر مع الجهات الأخرى. وكان بعض المثقفين من مريدي المفكر الإسلامي عبد الكريم سروش قد نشروا مقالات كتبها مثقفون علمانيون، من بينها مقالاتي عن الحداثة، والمدرسة الشكلانية، وفلاديمير نابوكوف. كما نشروا أيضاً ترجمات لأعمال كتبها مفكرون غربيون ليبراليون.

في الحقيقة، كان المجتمع الإيراني متقدماً جداً على زعمائه، والذين كانوا مستهدفين من قبل النظام، وبخاصة النساء، بدلاً من أن يتقهقروا، أصبحوا بارزين أكثر في المشهد الاجتماعي والثقافي. وبحماسة بدأتُ أضع لائحة بالأشياء التي يتعيّن علينا أن نشكر الجمهورية الإسلامية عليها: جعلتنا نقدر إحساسنا بالريح والشمس على شعرنا وبشرتنا، وحرية مطالعة فيرجينيا وولف أو فروغ فرخزاد، فرح التنزه في الشوارع بفساتين صيفية زهرية، الاستماع إلى الموسيقى. لا ينبغي لنا ألا نضمن حدوث هذه الأشياء دوماً. لكن القائمة كانت أبعد من ذلك. علينا أن نشكر الجمهورية الإسلامية لأنها جعلتنا نرتاب في ماضينا، ومن هنا ينبغي لنا أن نفهمه أكثر. وحتى أولئك الذين كان يستهدفهم النظام، كالنساء، الأقليات، المثقفين، والكتّاب، كان لديهم شيء ما يجعلهم سعداء وممتنين: معرفتهم بقدراتهم الخاصة التي لم تتفجر بعد: إذا كان شعر امرأة، أو فيلم

سينمائي من إخراج فيلليني أو بيزائي، أو ديوان شعر من تأليف فرخزاد، قادراً على زعزعة استقرار النظام السياسي إلى درجة أنه يجب التخلص منها، ألا يدلل ذلك على مدى قوة هؤلاء المستهدَفين، ومدى ضعف وعدم اطمئنان مضطهديهم؟

بصورةٍ مثيرة للسخرية، كان يلزمنا أن نشكر النظام على خيبة أملنا في شبيبة البلد، والثوريين السابقين، والنظام نفسه. إن الحواجز الأيديولوجية التي كانت تقسّم الناس إلى: (شرق) و (غرب)، دخلاء، ومواطني الداخل، قد تهاوت. كان أبي يعتقد أن التغيير، كما في حالة (الثورة الدستورية)، سيأتي إلى إيران من خلال اتحاد القوى الدينية التقدمية والقوى العلمانية، ولن يكون هنالك تحوّل سياسي من دون مشاركة هاتين القوتين راهناً.

كان عليَّ أن أؤيده. بهذه الطريقة تغلغل إلينا الماضي، وتواطأ مع الحاضر. شيرين عبادي التي كانت أول امرأة عُينت في المحكمة الطوافة (التي تنعقد في فترات مختلفة) في طهران، عندما جرّدتها القوانين الجديدة من منصبها لأنها تمنع النساء من أن يصبحن قاضيات، سوف تصبح مدافعة عن حقوق الإنسان. وثمة امرأة أخرى: ميهرنغيز كار، التي كانت صحفية ومحامية ناجحة، لن تتشاجر في المحاكم فقط، بل تشترك مع محسن سعيد زاده، وهو رجل دين شاب، في كتابة سلسلة من المقالات المثيرة تتعلق بحقوق النساء تؤدي إلى مضايقات لا نهاية لها لكار ولأفراد أسرتها، وإلى تجريد رجل الدين من وظيفته وإيداعه السجن. ثمة مثقف متدين اسمه أكبر غانجي، كان يناضل في السنوات الأولى من الثورة من أجل أسلمة الجامعات، وقمع المنشقين، والاحتفاء بتنفيذ القانون الديني، وجد الآن، بعد مرور عقد من الزمن، صلات روحية أكبر مع امرأة يهودية

من أصل ألماني تُدعى حنا أرنت، ومن أجل عملها يلجأ إلى وصف الجمهورية الإسلامية. وزعم المخرج السينمائي محسن مخملباف، الذي عرض في بداية الثورة أفلامه للسجناء السياسيين، آملاً أن يغير قناعاتهم، في حوار معه أن صانعي الأفلام الأكبر منه سناً الذين كانوا بارزين في عهد الشاه يستحقون الإعدام، يروي لي الآن عن التغير الذي طرأ على موقفه، ويقول: «أغلب الظن، يمنحنا الفن القدرة على أن نعيش مرات عدة. كل فرد يقدر أن يعيش مرة واحدة فقط، ومن وجهة نظر واحدة. أما الفن فبوسعه أن يخلق وجهات نظر أخرى ومختلفة». في كل مرة تطرأ هذه المقولة على بالي أشكر الجمهورية الإسلامية في طهران لأنها: عندما حرمتنا من مسرات الخيال، ومن الحب، ومن الثقافة جعلتنا نتجه إليها كلها. ما من سلطة في العالم، ولا أي قدر من القوة، تقدر أن تعيد هذا الجنّي إلى الزجاجة.

بعد يومين من توقف إطلاق النار، ذهبنا صحبة أبي في رحلة أمدها ثلاثة أيام إلى بحر قزوين. في الزقاق المقابل شاهدنا طوابير من السيارات، في داخلها أهل طهران الذين لجأوا إلى البحر، كانوا في طريق عودتهم إلى منازلهم. وأثناء الرحلة التي استغرقت أربع ساعات ونصف كان أبي يتوقف، كما كان يفعل عندما كنت طفلة، كي يشير إلى أزهار برية فريدة وقع بصره عليها وميزها. كنتُ أجلس في المقعد الخلفي للسيارة مع أولادي.

كانت بالنسبة لنا رحلة مفرحة ومحزنة، مفرحة لأن الحرب انتهت فعلاً الآن، ومحزنة لأنها ذكّرتنا بالأوقات البهيجة التي أمضيناها هناك قبل الثورة. الآن بدا هذا المكان الجميل بصورة استثنائية كما لو أنه سُلب. الطبيعة والثورة كلتاهما أخذت ضريبتها. كان مدّ البحر قد تقدم وأدرك كثيراً من الفيلّات الواقعة على ساحل البحر. كانت أسوار

الحدائق قد تهدّمت، وفي بعض الأحيان لحق الدمار ببعض المنازل. وعلى الشاطئ وجدنا قطعاً مبعثرة من المباني، أحذية وملابس مرمية. كانت المطاعم والمنتجعات المزدهرة مغلقة. أتذكّر واحداً على وجه الخصوص: موتيل غو، وهو الوحيد من نوعه في طهران، منتجع واسع مع باحة رقص على رصيف ممتد في البحر، وألعاب البينغو (الدمبلة، باللهجة العراقية - م.) ليلاً، وحفلات على الشاطئ. كان هذا المنتجع قد أُحيط بجدار غير متقن الصنع وسور، وكان يُستخدم كمركز قيادة للحرس الثوري. الساحة الصغيرة التي كانت مركز المدينة المزدحمة خلال موسم السياحة بصالة السينما خاصتها، وحوانيتها الصغيرة، ومقاهيها، أصبحت تعج الآن بدوريات المحافظة على الأخلاق. وبدلاً من الموسيقى الشعبية، كانت المارشات العسكرية أو التعاويذ الدينية تنبعث من مكبرات الصوت في زوايا الساحة. كان الرجال والنساء بملابسهم الداكنة، الكئيبة، يبدون متعارضين مع البحر الذي وراءهم.

كان أبي قد باع فيلّته المحبوبة الواقعة على بحر قزوين قبيل الثورة. وبسبب إلحاحي قمنا بزيارتها. أوقفنا سيارتنا في الزاوية، وسرنا نحو المنزل. كانت الحديقة الكبيرة قد قُسّمتْ، وسُوّرتْ. كانت أعز ذكرياتي في سن المراهقة هي رحلاتنا إلى بحر قزوين. أحببتُ الخضرة المورقة، القريبة جداً من البحر؛ أحببتُ الهواء، الرطب والمغري، الذي ينقع جسدك، الهدوء، الطريقة التي كانت تبدو فيها الأزهار أكبر حجماً، وأكثر سطوعاً، كما لو أنها مُضاءة من الداخل. لكنني بعد الثورة كرهتُ الذهاب إلى هناك. كانت منطقة بحر قزوين هدفاً لغضب النظام وإهماله. لم أرغب في رؤية الملاذ الأثير لخيالي وقد تحوّل إلى مكان رث.

الفصل الثامن والعشرون

إلهة الأنباء السيئة

ذهبت إلى أوستن بولاية تكساس، وبعدها إلى لوس أنجلس في مطلع سنة ١٩٩٠ لحضور مؤتمرين. وبعد يومين من عودتي، أقبل أبي لتناول الغداء في منزلنا. جاء مبكراً، بدا شارد الذهن، ومستثاراً نسبياً. هرعت نيغار إلى حجرة المعيشة وعادت بالهدايا التي جلبتها لها، وحذا دارا حذوها، وراح يلوّح ببذلة زورو كما لو كانت عَلَماً. قبّلهما أبي، وقال: «الآن، أحتاج إلى التكلم مع أمكما بضع دقائق. لديّ أنباء سعيدة لها». ذهبنا إلى المكتبة. جلستُ على الأريكة، سحب أبي كرسياً، ومال نحوي، وقال لي إنه تزوج شاهين.

صُعقتُ. كنت أعرف أنهما تكلّما بصورة مبهمة عن الزواج، وكنا نراها بين الحين والحين. وحتى أنها زوّدتني ببعض الأفكار المفيدة لديكور منزلي. لكنه لم يذكر خططه الوشيكة. كان ينتظر مغادرتي البلد كي يتزوجها - على الأقل، هكذا رأيت الأمر. قلت له: «لقد أخفيتَ المسألة عني، لا بد أنك عرفت بسفري قبل أن أغادر البلد». قال إنه فعل ذلك من أجلي، إذ كنتُ أخبرته أنني لا أريد أن أكذب على أمي بشأن علاقاته مع النساء الأخريات. ومن ثم قال لي: «ما كنتُ لأتزوج منها، وما كنتُ لأتزوج من أي امرأة، لو أنني عرفت أنكِ لا تحبينها. لقد حسبت أنكما صديقتان». أعتقد أن هذا جعلني

أشك في وفائه. لكن كيف استطعت أن أكون عمياء طوال هذه السنوات كلها، وألا أرى كيف أن اشتراكي في جريمة اختراع القصص الخيالية التي أرويها لأمي ربما كان يؤدي ذات يوم إلى أن يقوم أبي نفسه باختراع القصص كي يسترضيني؟

أعتقد أن أبي كان أسعد مع شاهين مما كان مع أمي، مع أن علاقتهما اتخذت الطراز المألوف: أصبح صديقها، أباها، محاسبها، ووكيلها. كان يقوم بالتبضع، ويساعدها في ما يتعلق بشؤون المنزل. كتب رسائل إلى أخيها المدمن على الكحول، يلومه نيابةً عنها. وعدها أنه قبل وفاته سوف يوفر لها نوع الحياة التي تستحقها، الأمر الذي كان يعني أنه سوف يستخدم صلاحية الوكالة الخاصة التي لديه فيبيع كل ما كنا نمتلكه. وفي نوبة دالة على اليأس لاسترداد أراضينا المصادرة كان يعقد الصفقات مع شخصيات مشبوهة تجنبها طوال سنوات حياته. وكانت شاهين تعامله بشكل من الأشكال بالطريقة التي كانت تعامله بها أمي. لم تشعر بالمودة نحو أفراد أسرته، وكانت تعامل أعمامي وأبناءهم بازدراء. كلما نمضي في نزهة، لمناسبة أعياد نوروز (السنة الفارسية الجديدة)، أو في مناسبة رسمية، كان يقلق من احتمال أن يريق أولادي شيئاً ما. كنا نشعر دوماً بالاضطراب، ونحن نجلس على حافات مقاعدنا، مستعدين للهرب. كانت في آن خبيثة، ومتحمسة بصورة مضحكة إلى العناوين و(الماركات). ذات مرة أخبرتني إحدى صديقاتي أن أنظر إلى بلوزة أهدتني إياها شاهين لمناسبة عيد ميلادي؛ كانت (الماركة) مأخوذة من بلوزة أخرى، وثبتت شاهين (لوغو) المصمم على طرف كُم البلوزة. حاول أبي أن يدافع عنها، وذكّرني كم كنت أحبها، وأصرّ على القول إنه ما كان ليتزوجها من دون موافقتي. في بعض الأحيان كانت عيناه تسكبان العبرات؛ لم يكن

ليصدق أنني لن أصدقه. كنت مؤتمنة أسراره التي يثق بها أيما ثقة، لذلك من الطبيعي أن أشعر بالأذى عندما كان يكذب عليّ.

أخبرتني باري، أفضل صديقاتي، قائلةً: «في السنتين الأخيرتين فقط من حياته كان السيد نفيسي تعيساً. باستثناء ذلك كانت حياته سعيدة معها». كنت أخمن أنها كانت تريد أن تهدئني. في السنتين الأخيرتين ضغطت عليه شاهين كي يبيع إحدى الجزيرتين اللتين كانتا مسجلتين باسمي واسم محمد، واللتين صادرتهما الحكومة بصورة شبه رسمية. كانت قلقة من أن تذهب نقوده، في حالة وفاته، إما إلى الحكومة أو إلينا، وليس إليها. وحتى في ذلك السن، وهو الذي يعاني من مشكلة في القلب، كان أبي يسافر إلى منطقة بحر قزوين غالباً مرتين في الأسبوع، كي يتملق ويرشي الأشخاص الذين استولوا على الجزيرة، اللجان الثورية الإسلامية المحلية ورجال الدين. كنت أقول له مراراً أن يترك تلك الجزيرة. «نحن لا نحتاج إلى المال»، قلت له، «وأنتَ لستَ بحاجة إلى الصداع». لم أجرؤ على أن أقول له إن المرء الذي افتخر بأنه لن ينحني للشاه أو لأي سلطة أخرى، فهو أمر يحط من قدره أن يحاول الآن استرضاء هؤلاء الأشخاص من أجل قطعة من الأرض.

كان أبي يحب شاهين. إني متيقنة من ذلك مثلما أنا واثقة بأي شيء آخر يتعلق به. لعلها كانت تحبه بطريقتها الخاصة. وعلى العكس من أمي، كانت تعترف بإخلاصه الشديد لها. لكنه لم يعثر على السلام الذي كان يبحث عنه. كان يتناول الغداء معنا مرةً في الأسبوع. كان يصل دوماً عصبي المزاج، ومهموماً. كان يريدني أن أحب زوجته، لا أن احترمها فقط بل أن أحبها. («آذي تود أن تتحدث إليكِ»، يقول لها، وهو يتصل بي هاتفياً من منزلهما، ويعطيها سماعة الهاتف.

أسمعه يقول لها: «إنها مشتاقة للحديث معكِ». وكان قلقاً بشأن ماله.

طوال سنوات حياته، وحتى قبل بضعة أيام من وفاته، كان يمضي للعمل كل صباح تقريباً. كان بحوزته مال كافٍ كي يعيش بارتياح، غير أن هذا لم يكن كافياً في نظر شاهين. قال لي: «أخبرتها أنني سأعتني بها. وعدتها بذلك». تخلت عن فكرة تصميم الملابس، وساعدها في فتح مكتب خاص بها بوصفها مصممة ديكور داخلي. أخذني إلى الكاتب العدل ليجدد صلاحيته في الوكالة الرسمية، كي يتمكن من بيع قطعة أخرى من الأرض. لسبب ما كان هو وشاهين يحاولان أن يقنعانا بأنها المُعيلة الحقيقية، وأن مهنة الديكور الداخلي التي تمارسها شاهين قد أصبحت مزدهرة إلى ذلك الحد، وكانت تدرّ مالاً وفيراً.

حاول أن يفك مغالق شاهين مثلما حاول من قبل أن يفهم أمي. في آخر يومياته، المكتوبة قبل وفاته ببضعة شهور، كانت هنالك ملاحظة: «إلى شاني: إذا نظرتِ إلى الواقع مثلما هو عليه سترتكبين أخطاء أقل. إن مشكلتك تكمن في أنك تحسبين أحلامك ورغباتك هي الواقع، وبعدها يخيب أملك». ولعله كتب تلك الملاحظة لنفسه أيضاً.

كان يبدو أن شاهين تشارك أمي في موهبة الخيال الجامح (الفنتازيا)، غير أنها كانت تفتقد حساسيات أمي. كانت تستثمر المحن التي تكابدها للوصول إلى أهدافها الخاصة. لم تكنْ تفتش عن حمايةٍ تلبّي حاجتها الملحّة المبهمة إلى الحب والشكر، بل تفتش عن حماية محددة أكثر ومادية. كان طمعها يكتنفه قليل من الغموض، ولهذا السبب نالت كل ما كانت تريده، بينما لم تفعل أمي ذلك.

قبل برهة من الزمن قال لي أحد أقاربي: «ليس ثمة شيء خاطئ في ما فعله أبوك. لا لأن الرجال الآخرين ليس لديهم علاقات غرامية

بنساء أخريات. في الحقيقة، إنهم يميلون إلى أن يقيموا علاقات غرامية أكثر مما فعله أحمد. لكنهم يبقون هذه العلاقات السرية بعيدة عن أسرهم وأصدقائهم. إنهم يعرفون كيف يكونون كتومين. لم يكن زواج أحمد ذا معنى. الرجال يتزوجون نساءً أصغر سناً من أجل السعادة الجنسية، أو لكي يُعتنى بهم عندما يصبحون في خريف العمر. في ذلك المنزل، كان أحمد يقوم بكل شيء. كان يتبضع، يساعد زوجته في غسل الملابس، يحمل حقيبتها، وباستمرار يجعلها تتمتع بإجازة بمفردها كي تنعم بالراحة». كان هذا الرجل يريد أن يعرف لماذا لا يستطيع أبي أن يتصرف كإنسان سوي. لماذا كان يجب أن تتحول علاقاته الغرامية إلى مسرحيات متسمة بالفوضى؟ في لحظاتي الأكثر رزانة، كنت أطرح هذا السؤال على نفسي أيضاً. هل كان بوسعي أن أحبه أكثر مما يجب؟ لا أعتقد ذلك. لقد أحببته لأن أخطاءه لم تكن عادية، لأنه كان يشعر أنه مذنب ولم يكن يريد أن تكون له علاقات غرامية بل أن يكون عاشقاً. كانت آخر يومياته مليئة بالهموم بشأن «الوعد» الذي قطعه لشاهين، والذي اكتشفنا، بعد مماته، أنه كان قد نفذه وزاد عليه، وحتى على حساب سمعته الطيبة.

في الحياة الشخصية كما في السياسة، إما أن تتقبل القوانين أو تتمرد عليها بصراحة واستناداً إلى مبدأ ما. في كلتا الحالتين لا بد لك أن تدفع الثمن. ولحسن الحظ، ما من شيء مجاني. لكن ما هو الثمن؟ لم يكنْ أبي ينتمي لأي من المعسكرين، لكنه دفع ثمناً مضاعفاً. لم يكن لديه لا مواساة العُرف ولا القناعة التي تأتي من قطع العلاقة بما هو متوقع منك. وخلال يومياته تظهر نزعتان متناقضتان: الرغبة في الانفصال، كي ينطلق في الحياة التي كان يريدها، مقرونة بالخوف مما يمكن أن يحدث له لو أنه فعل ذلك.

كانت أمي تلاحقه بطاقة لا تعرف الكلل، تتصل هاتفياً بموقع عمله، تسأل أصدقاءه ومعارفه عن تحركاته وأنشطته، وتتهمني بعدم حمايتها، وكوني بعثُها إلى «ذلك الرجل وموسه». كانت قد بدأت بالاتصال هاتفياً بصديقتي باري سراً، جزئياً كي تشكو لها، وفوّضتها كي تحصل على مستندات تحويل ملكية العقارات. وما إن عرفت أن أبي تزوج، حتى جعلت حياتنا جحيماً طوال أسابيع عدة. قلت لها إنه ليس بوسعي أن أفعل شيئاً فيما يتعلق بذلك، وتعاطفتُ معها، وعاهدتُها، انطلاقاً من احترامي لها، على ألا أرى زوجته الجديدة في منزلنا. كنتُ أحاول أن أكون صادقة معها. لكن ذلك لم ينجح. كانت قد جرت أشياء كثيرة، وتأسس قدر كبير من عدم الثقة على مر الأعوام. ما كان يدهشني هو: لماذا لم تشرع امرأة مثلها تمتلك إحساساً بالفخر والأخلاق الصارمة في طلب الطلاق منذ زمن طويل جداً. ألأنها كانت تخشى أن يكون الطلاق أكثر إذلالاً من تحمّل زواج سيّئ؟ أم لأنها كانت تحبه حقيقةً على الرغم مما تدّعيه؟

كانت تقول إنها كانت تعرف منذ البداية أن لديه «امرأة أخرى» في ذهنه، أو أنه لم يقطع علاقته بزيبا خانوم. وفي بعض الأحيان كانت تناقض نفسها وتزعم أنها بعد أن جرّدته من كل المال الذي يملكه، كانت زيبا خانوم هي التي تخلت عنه. وفي الأيام الأهدأ كانت تحاول أن تجعل مني جزءاً من شبكة التجسس خاصتها. كانت تريد مني أن أعطيها أرقام هواتف عشيقاته. «ليس لدي»، أقول لها، «إنني أتصل به في مكتبه». سألت بيجان، الأطفال، الأصدقاء؛ وفي النهاية عثرت على أرقامهن، وراحت تتصل بهن ليلاً ونهاراً، تهددهن، وتترك رسائل في بريدهن الصوتي. دعيه وشأنه، هكذا نصحها الجميع. كوني سعيدة مع أولادك

وأحفادك، كوني ممتنة لأنهم معافون ومحبون. «محبون؟» ترد بسرعة وهي تبتسم بتجهّم.

يجمع الناس الأشياء لأسباب مختلفة، لكن عادةً هنالك غرض محدد أو بؤرة محددة - هوس غير سوي بعلب الكبريت، على سبيل المثال، أو بمنفضات السجائر، أو بالأعمال الفنية. إنهم يميلون إلى استهداف أشياء محددة. يبدو أن أمي كانت تدخر أكثر مما تجمع، وما كانت تدخره لا فائدة منه. عندما كنتُ أصغر سناً كانت تستخدم غالباً قطع القماش القديمة خاصتها في صنع ملابس لها أو لي، لكنها شيئاً فشيئاً كانت تفعل ذلك لمجرد أن تحفظها في خزانات الثياب، كانت تطويها بدقة شديدة، ثوباً فوق الآخر.

كانت حجرات الخزن خاصتها هي قلب المنزل، نبضه السري: خزانات مملوءة بقطع القماش، بالملابس، بالهدايا التي اشترتها لأبي، لأخي، لي، خزانتان مليئتان بالأطباق الفضية للمائدة، والخزف الصيني من زواجها الأول. ومن ثم، بعد الثورة الإسلامية ومغادرة أبي للمنزل، شرعت تدخر سلعاً أساسية. كانت تفتخر بأنها حفظت رزاً وسكراً من أزمنة ما قبل الثورة. كانت تخزن احتياطياً الزبد، الذي لم تكن تستخدمه إلا ما ندر. لا بد أن حجرات الخزن تمنحها إحساساً بالأمان، لكنها حتى يوم وفاتها لم تكن تعرف كيف تدخل هذه الأشياء في صميم حياتها: أن تعرض الأطباق الفضية للمائدة، أن نأكل الطعام في صحون الخزف الصيني، أن نلبس معاطف الفرو، وتسمح لنا نحن الأطفال بأن نفقد أو نحطم لُعبنا. في بعض الأحيان، فجأةً ومن دون سبب، كانت تتخلى عن أشياء نفيسة حفظتها سنوات كثيرة، ليس لنا، وقد يبدو هذا شيئاً طبيعياً، بل لأناس يكادون يكونون غرباء. وكانت

قد نمت لديها نزعة كي تحرمني من أي شيء كنت مولعةً به؛ بالأحرى، كانت تسعى جاهدة لاسترجاع ما أعطتني إياه في وقت سابق.

كانت تدخر الناس فضلاً عن الأشياء. في السنوات الخيرة من حياتها لجأت بتوق شديد إلى جمع قصص الجرائم التي ارتكبها النظام الإسلامي. فيما يتعلق بهذه كانت دوماً سخية جداً. في صباحات كثيرة جداً كنا نستيقظ على قرعها الباب، أو نجدها ليلاً عندما نعود إلى المنزل قادمين من إحدى الحفلات، فوق درجات السلم. «هل سمعتما؟» تنبري قائلة، ومن ثم بصورة ثابتة تخبرنا بحكاية كارثة ما. وعلى غِرار (إلهة الانباء السيئة) كانت تقلق مخافة أن ننسى. وحالما كنتُ ألمح اللمعان في عينيها وأسمع الاهتياج المكبوت في صوتها، حتى أعرف أننا سنستمع إلى حكاية عن جريمة قتل أخرى. كانت تذكر أدق التفاصيل في وصفها لجريمة القتل: طقس الرجم بالحجارة، كان الرجال يُدفنون حتى الخصر في الأرض، والنساء يُدفنَّ حتى العنق؛ يجب أن تكون الأحجار لا كبيرةً جداً ولا صغيرةً جداً. هرب أحد الرجال وعُفي عنه لأنك إذا هربت فسوف يُصفح عنك. أخبرتنا بهلع عن المشنوقين في الشوارع حيث كانوا يُعلقون المجرم من رافعة كي يصبح عبرةً لسواه من البشر. تقول لي: تخيلي أن ترى نيغار، أو يرى دارا، هذا المشهد في طريقهما إلى المدرسة. وكانت هنالك قصة الرجل والمرأة اللذين وجدوا رأسيهما مقطوعين في مرآب منزلهما (لسببٍ ما رسخ اسم المرأة في ذهني، كان اسمها: فيروزه صناعي)، وقصة المرأة العجوز التي نُهبت وقُتلت - وهو تلميح إلى وضعها هي، حيث بقيت وحدها عندما غادرنا منزلنا في إجازة استغرقت بضعة أيام، وبقيت وحدها عندما غادرنا الوطن إلى الأبد.

طوال التسعينات، جنباً إلى جنب مع الانفتاح السياسي، كانت هناك مضايقات منظمة مستمرة للمنشقين والمثقفين العلمانيين. واحداً إثر الآخر، كان الكتاب، الشعراء، والمترجمون يُقتلون أثناء ذهابهم إلى عملهم، أو خلال تبضّعهم، أو زياراتهم لأصدقائهم. أنصتت أمي باهتمام إلى حديثنا خلال تناول وجبة الغداء عن الاختفاءين الغامضين لأحمد مير علائي، وهو واحد من أفضل مترجمينا، وأحمد تفضلي، بروفيسور اللغات والثقافة الفارسية الغابرة، وعن حرق مخزن كتب مورغه أمين على يد اللجان الأهلية الإسلامية الذين رفضوا طباعة كتاب للروائية شهرنوش بارسيبور. هل سمعتما؟ كانت تهتف، وهي تقحم نفسها في الصباح الباكر، هل سمعتما، لقد اعتُقل السيد غولشيري؟ كنا نعرف ذلك، لقد أيقظتنا من نومنا في الصباح الباكر كي نسمع أنه في الليلة الماضية تم اعتقال غولشيري وخمسة كتّاب آخرين في منزل القنصل الألماني.

في كل مرة أغادر طهران للمشاركة في مؤتمر كانت أمي تبدأ حملةً بضعة أيام قبل مغادرتي. عادة كان هناك قرع على باب المطبخ، ومن دون أن تنتظر جواباً تدخل المطبخ. تقول لي: «لا تنسي أن تخبريهم. عليكِ أن تخبريهم جميعاً بكل شيء». كانت تريد مني أن أروي كل الجرائم التي ارتكبها النظام. كانت تصغي بتوق شديد إلى الإذاعات الأجنبية، هيئة الإذاعة البريطانية (BBC)، وصوت أمريكا، وتنقل إلينا الأنباء التي تسمعها منها. «البريطانيون يفعلونها ثانيةً، إنهم يعكرون المياه»، تقول أمي. ثم تضيف: «إنهم في تعاون وثيق مع النظام، إنهم لا يقولون الحقيقة». وحتى كان بحوزتها قائمة بأولئك الذين اغتالهم النظام خارج إيران: رئيس الوزراء السابق بختيار، ومرافقه الحميم عبد الرحمن بوروماند، فريدون: أخو فروغ فرخزاد.

كانت تدعوني أحياناً لشرب القهوة وتأمرني بأن أصغي باهتمام إلى ما تقوله صديقة أو امرأة غريبة تماماً عما يجري في بلدنا. في أول مرة قالت لي أخبريهم، قلت لها: «أخبر مَنْ، ماما؟» «أولئك الذين وجهوا إليك الدعوة. أخبري مهناز». كانت مهناز أفخمي الوزيرة السابقة لشؤون المرأة في ظل حكم الشاه. كانت لنا علاقة قرابة بها. أختها الصغرى فرح، التي أصبحت لاحقاً، مثلي، ناشطة في (اتحاد الطلبة الإيرانيين)، كانت صديقة الطفولة. وفي مرة من المرات تظاهرنا أنا وفرح ضد مهناز، أما الآن فالأختان تتقاسمان المصير نفسه: مهناز التي كانت مسؤولة عن البدء بالمشاريع، وتنفيذ القوانين التي تحمي حقوق النساء في السبعينات، أصبحت في طليعة القائمة السوداء التي وضعها النظام الإسلامي. كانت مهناز تعيش في منفاها بالولايات المتحدة الأمريكية، حيث كانت فرح قد هربت إلى هناك، وهي حامل في شهرها الثامن ومعها بنت عمرها ثلاث سنوات، بعد إعدام زوجها فارامارز. في كل مرة أغادر البلد للمشاركة في مؤتمر كانت أمي تطلب مني أن أبلغ تحياتها إلى مهناز، وأخبرها أن الناس يعرفون عملها الجيد، وكيف كانوا يقدرونها. «لقد دأبتِ على السخرية من أناس من مثل مهناز»، تقول أمي بتوبيخ، «إنكِ لا تقدرينها». كنت أرغب في أن أذكّرها بأنها هي نفسها لم تكن تستحسن مهناز في ذلك الوقت. كان هذا الشعور بالإعجاب جديداً نسبياً. «سوف ينصتون إليها»، تقول أمي.

لا أزال قادرة على أن أتخيل أمي في الصباح الباكر، واقفة بالقرب من باب المرآب، مستعدة لتأدية شعائر التوديع، وهي تحمل صينية وضعت عليها نسخة من القرآن الكريم، وطاساً صغيراً من الماء تطفو فيه زهرة وحيدة. قبل أن تنثر الماء ورائي من أجل الحظ السعيد

والسفر الميمون، تأخذ قطعة من الورق شبه مجعدة من جيب مبذلها، وتسلمني إياها. «لقد دوّنتُ لائحة بأسماء الأشخاص الذين يقبعون في زنزانات النظام أو الذين قُتلوا. أعطيها لصديقاتكِ وأصدقائكِ. تأكدي من القيام بذلك»، تقول لي، وهي تكاد تتوسل. «حسناً، ماما». «أتمنى ألا تكون هذه الـ(حسناً) واحدة من تلك الـ(حسنات) التي نطقتِ بها عندما لم تكن لديك نية في تنفيذ ما أطلبه منكِ»، تقول لي، وأنا أدخل إلى جوف السيارة، وأغلق الباب.

في بعض الأحيان، كنت أشعر بالامتنان لأننا عشنا قريبين جداً من أمي. عندما كان دارا ونيغار صغيري السن كان من دأب أمي أن تحكي لهما القصص عندما كانا يذهبان إلى الفراش ليناما قيلولة ما بعد الظهر. كانت تمدّ بطانية كبيرة على البلاط مع ثلاث وسائد وينامون ثلاثتهم عليها في صف واحد، جنباً إلى جنب. كنت أمرّ بحجرتهم ومن الباب المفتوح يمكنني أن أرى نيغار مستلقية على ظهرها، إبهامها في فمها، تركز نظراتها في السقف، ترهف السمع بتلك النظرة التي تنمّ عن شرود الذهن التي يمتلكها الأطفال حينما يغادرون الواقع المعيش متجهين إلى ذلك العالم الآخر. أما دارا فكان يطلب كالعادة أشياءه المفضلة من الكتب المصورة: «ذلك القمر»، يقول، «ذلك القمر هو الذي أريده». وعندما كبرا علّمتهما كيف يلعبان الورق. كانت تدعوهم مساءً للنزول إلى الطابق السفلي ليلعبوا دورة من لعبة (الباسور) أو (الرومي) أو (واحد وعشرون). كانت تقول لهم كيف كان أبوها، وهو المقامر الكبير، يلعب أحياناً معها، ولأنهما وحدهما، كان كل واحد منهما يلعب بشكل مضاعف، أي يلعب دور الشريك الغائب فضلاً عن دوره هو - وهي عملية معقدة لم أفهمها

حقيقة. كانت تتأكد دوماً من أنها ستخسر اللعب وتدفع للطفلين الشوكولاته والنقود. وكنت عادة أعود إلى المنزل بعد زيارتي لصديقاتي أو بعد الاجتماعات فيفاجئني صوت الضحك، وأجد أمي ونيغار ودارا جالسين حول طاولة المطبخ.

كانت تشتري لهما الهدايا، عادةً المجوهرات الصغيرة لنيغار واللُّعب لدارا. لدي في دُرجي سلسلة ذهبية طويلة ذات ميداليات صغيرة: قلب صغير جداً، رمانة، خُف، مفاتيح، وشعارات عديدة للإلهات الزرادشتيات المجنحات التي أصبحت مطلوبة جداً بعد الثورة. كانت تحيك للأطفال جوارب، قفازات، وأوشحة ملونة، وفي الصباح،تأتي إلى منتصف السلّم وتصيح باسميهما، وتقول: «انزلا وأطعما الطيور!» بعد أن غادرنا إيران متجهين للإقامة في الولايات المتحدة سنة ١٩٩٧، في كل مرة أتصل بها هاتفياً، كانت تقول لي: «أخبري دارا بأنني أعتني بالطيور»، وكان صوتها يتقطع ألماً وحسرةً بينما هي تحدثني من تلك المسافة النائية.

كانت تحبهما كليهما، لكن دارا، ابني، هو المفضل لديها. كانت تتهمنا دوماً بأننا نستغل طبيعته الطيبة. كانت تعتقد أنه يشبه أخي محمد، وأن نيغار تشبهني، وبطبيعة الحال ثمة اختلاف واحد وهو أن أولادها شكلهم أحسن. كانت هذه هي اللحظات المبتهجة - الأوقات التي يقضيانها معاً كانت عادةً خالية من الهموم، باستثناء اللحظات التي كانت تسمح فيها لنيران غضبها من أبي بالامتداد إليهما. لا تزال بحوزتي يوميات دارا عندما كانت في الثامنة من عمرها: «اليوم قالت لنا (مامان نيسي) ألا نزورها بعد الآن»، كتبت. «قالت لنا إنها ليست جدتنا، ثمة امرأة اسمها شاهين التركية هي جدتنا الآن. بكيتُ، لكنها قالت: (هذا ما تريده أمكما)».

كانت تأتي غالباً إلى الطابق العلوي عندما لا نكون في المنزل، وتجمع «لُعبها الجيدة» - هدايا قدمتها لهما لمناسبة أعياد ميلادهما ومناسبات أخرى - وتخبئها كي لا يحطموها. لا أزال مندهشة وأنا أكتب في ما يتعلق بهذا الأمر: كم هو غريب وشاذ مفهوم السعادة واللهو في نظرها؛ كان هذا المفهوم يهددها بكل ما تعنيه هذه الكلمة، كما لو أن ذلك سيؤدي بصورة محتومة إلى الخسارة والحزن. ذات مرة أخذتنا تهمينه خانوم، التي كانت تعرف كل شبر من شقة أمي، طالما أنها كانت تساعدها من وقت إلى آخر، أنا ونيغار ودارا إلى الطابق السفلي عندما كانت أمي خارج الشقة. فتحت تهمينه باب خزانة الثياب، ويا سلام، كانت الخزانة كلها مليئة بدببة القش الكبيرة والحيوانات المحنطة، دمى (باربي)، سيارات، ومركبات بعثتها أختا بيجان إلى أولادنا من أمريكا. كان هذا شيئاً غاية في الغرابة إلى درجة أن الأطفال قهقهوا وتوسلنا إليها أن تسمح لنا بأن نستولي من جديد على بعض لُعبهم المفضلة - لم نكن نجرؤ على أن نأخذها كلها، ولا نترك لها شيئاً. «وتلومينا»، قالت نيغار، بينما كنا ننسل عائدين إلى شقتنا في الأعلى، وكانت أيدينا مليئة إلى درجة الفيضان، «على فقداننا لُعبنا!»

في سنواتها الأخيرة كانت أمي تقضي معظم وقتها في قاعة الاستقبال المتاخمة لحجرة نومها. كانت هذه الحجرة تورثني الكآبة على الرغم من كونها مشمسة، وذات نوافذ فرنسية واسعة تنفتح على الشرفة المواجهة للحديقة. كانت الصور الفوتوغرافية تحجب نور الشمس البهيج، تلك الصور التي كانت تتكاثر بصورة مرعبة على سطوح الطاولات، وكل السطوح المتوافرة، وعلى الجدران. لم تكن

مرتبة بحسب الحجم أو الشكل، وتقريباً ما من واحدة منها معلّقة بصورة مستقيمة؛ كانت مائلة بعضها نحو بعض كالغرباء السكارى في إحدى الحانات.



أمي في سنواتها الأخيرة، بين صورها الفوتوغرافية.

في هذه الحجرة كانت تقدم قهوتها الأسطورية لضيوفها، الذين كانت تختارهم بصورة عشوائية كالصور الفوتوغرافية. ناهيك عن حراس من المستشفى المجاور، أقارب سيفي، طالباتي الجامعيات، وجاراتنا، كان هناك غرباء صادفتهم في منزل إحدى صديقاتها، أو، في حالتين أو ثلاث، التقت بهم في سيارة أجرة أو حافلة. هؤلاء الأشخاص المتنوعون يمكننا أن نجدهم جاثمين بحذر على حافات كراسيهم، كما لو أنهم محترسون من الغريب الجالس على الكرسي المتاخم لهم. في بعضِ الأحيان كانت تدفع ثمناً باهضاً عن إطلاقها العنان لأهوائها، مثلما حصل عندما كان هناك شخص مشبوه، يشبه

(كوجاك)[1] وسيم، يُدعى أحمد آغا، صديقها المفضل، طوال برهة من الزمن. خلال أمد طويل من الزمن، كان أحمد آغا يزورها يومياً، من المفترض أنه يبلغها بالأنشطة السرية لمناوئي النظام. كان قد قدّم نفسه إليها بوصفه ناشطاً سياسياً، وكان يغذيها بقصص رائعة عن الأنشطة السرّية في البازار، انتفاضات غامضة في مدارس خاصة برجال الدين، وحوادث قتل مروِّعة ارتكبها رجال الميليشيا والحرس الثوري.

كانت أمي تعيد يومياً قصص أحمد آغا، تعابير وجهها تطفح بالإثارة، بتلك الثقة الفاجعة، بحيث كان يستحيل علينا أن نشك صراحةً في صحة حكاياته. كنا نحاول أن نجد طرائق دبلوماسية لتحذيرها، إلا أنها كانت، كشأنها دوماً، تصمّ أذنيها عن النقد الذي يوجهه إليها الناس الذين كانت تستحسنهم. كان أحمد آغا ينتزع منها المال باسم التبرعات لضحايا النظام والمناضلين من أجل الحرية، وحينما توارى عن الأنظار، مثلما ظهر، فجأةً، ابتلع أطباق المائدة الفضة العائدة لها والتي تضمّ تذكارات نفيسة من أمها وزوجها الأول، وسجادتين عتيقتين. ومثل الآخرين الذين سرقوا منها، كان أحمد آغا يعرف أين تحفظ الأشياء الجيدة، في القبو بالقرب من المرآب. كان من السهل أن يخدعها المرء فيما يخص حاجياتها، وكل ما عليك أن تفعله هو أن تُسمعها كلاماً معسولاً. إن كنت مناوئاً بلا شروط وبصورة نهائية للنظام الإسلامي، تكون في طليعة الأشخاص المفضّلين لديها. وإذا وقفتَ إلى جانبها ضد أبي، عندئذ يمكنكَ أن تأخذ أي شيء

---

(١) ثيو كوجاك: الشخصية الرئيسة في مسلسل تلفزيوني أمريكي عُرض من على قناة CBS للفترة ١٩٧٣-١٩٧٨، وهو ملازم أول يعمل في قسم البوليس السري في نيويورك، مثّل الدور تيلي سفالاس - م.

منها. كانت تشعر أن بوسعها أن تثق بالناس الذين يؤيدونها. ويشرفنا - أنا وأخي - أننا لم نُقبل في هذه التسوية، على الرغم من الثمن الشخصي الذي دفعناه لقاء تحريضنا على العصيان.

بعد وقت طويل من الشجار الذي حصل بين الخالة مينا وأمي، واصلتُ زيارتها. في منتصف الثمانينات كانت الخالة مينا مريضة. إنني أتذكر يوماً محدداً، كانت في مزاج التذكر ولأول مرة قررت أن تخبرني بوجهة نظرها فيما يتعلق بالقصة. «أمك امرأة مضحكة»، قالت، وهي تنهض من كرسيها كي تحضر لي ألبوم صورها الفوتوغرافية. «سوف تتهمك بأسوأ الجرائم، وتقطع كل علاقاتها معك، وبعد بضعة أسابيع من ذلك تتوقع منك أن تتصرفي كما لو أن شيئاً لم يحدث. يدور في ذهني غالباً أنها تنجح في خلق المَشاهد الزاخرة بالضجيج والفظاظة وتحريك العواطف».

«إن المشكلة المتعلقة بنزهت»، استطردت الخالة مينا، «هي أنها تمضي إلى النهاية في كل ما تفعله. إنها عطوفة جداً، وتحب تقديم المساعدة إلى درجة أنك تعرفين أنك لا تستطيعين أن تقدمي لها شيئاً بالمقابل وعلى حين غرّة تصبح متغطرسة وكثيرة المطالب». أخبرتني الخالة مينا أنهما كانتا تتخاصمان في كثير من الأحيان بشأن معاملة أمي لي. «مرات كثيرة جداً عندما رجعتِ إلى بريطانيا أو أمريكا بعد العطل الصيفية، كانت نزهت تصاب بنوبة جنون بسببك إلى درجة أنها كانت تشتمك وتقول إنها تتمنى أن تتحطم الطائرة التي تسافرين فيها.

«لا أعرف أيهما أسوأ»، تقول الخالة مينا، «انتحار أمها أو اكتشافها أن سيفي مصاب بمرض مميت في ليلة زفافها». «انتحار؟» كانت تلك أول مرة أسمع فيها إيحاءً بأن موت جدتي كان نتيجة

الانتحار. من المؤكد أن شخصاً ما ذكر ذلك من قبل. تجاهلتْ سؤالي. «لست متأكدة تماماً من ذلك، كانت هنالك شائعات - مخاض، عدوى، وحتى أن جدتك قتلت جنينها، وحتى أن جدكِ هو الذي قتلها، وكان هنالك أيضاً تخمين ما بأنها كانت تعيسة وأنهت حياتها بالانتحار. كما تعرفين كانت هنالك مشاكل مع ابنة أخت زوجها (فخري)، كانت تشكو من مرض عقلي، كآبة، على ما أعتقد. لا أظن أن نزهت كانت تريد معرفة الحقيقة، وما جرى جرى، ولا سبيل إلى تغييره». صدمتني جداً هذه المعلومة التي ذكرتها لي الخالة مينا بطريق المصادفة. كانت تلك قطعة ضالة من أحجية كنتُ أكافح طويلاً من أجل وضعها في مكانها الصحيح.

«أفكر أحياناً أن تأثير سيفي على أمك كان سيئاً جداً»، قالت الخالة مينا. «لم تبرأ بعد وفاته. لبست السواد أمداً طويلاً» (كتب أبي أنه عندما رآها أول مرة، كانت أمي تلبس السواد، «موجات» من الحزن لا تزال تعبر وجهها). «لم تعثر على حيويتها مجدداً». غياب الحب، كما أسمته إحدى طالباتي، ربما كانت تلك هي علة أمي. يبدو أن عدداً كبيراً من النساء عانين من هذه العلة. الخالة مينا نفسها، تعالوا نفكر فيها، جدتي، وحتى بعض طالباتي الجامعيات الشابات. «لقد حوّلت ذلك الرجل إلى إله؛ ما من رجل يستحق ذلك»، قالت الخالة مينا، بابتسامة عابثة. «أتمنى أن تكوني قد تعلّمتِ شيئاً ما من أمكِ».

لم يكنْ باستطاعتي أن أسأل أمي ما إذا كانت جدتي قد انتحرت، إلا أنني طرحت السؤال على أبي، فردّ عليّ قائلاً: «لا أعرف سبب وفاتها. كانت هنالك شائعات كثيرة جداً. لم يهتمّ أحد بهذه المرأة المسكينة كي نكتشف حقيقة الأمر». وعلى مر الأعوام سألت أقارب

أمي، لكنْ لم يكن ثمة شخص يعرف أي شيء عنها. لذلك فإن الطريقة الوحيدة التي أستطيع التعامل بها مع حقيقة أن لا أحد عرف أو تذكّر شيئاً ما عن حياة جدتي هو تسجيل ما كنا نعرفه بصورة مؤكدة - وحقيقة أن الجميع نسوها. سألني أحد أصدقائي ذات مرة لماذا كنت أعتقد أن الحقيقة مهمة. قال لي: «الحقيقة لا تبعث على الارتياح، من المؤكد لا تبعث على الارتياح بقدر ما يفعله الكذب أو النسيان».

بعد أقل من سنة من تلك الزيارة، فارقت الخالة مينا الحياة. عانت زمناً طويلاً من سرطان المعدة. كانت قد أصبحت شديدة النحول، الأمر الذي جعلها تبدو أكثر جمالاً، وأناقةً. على الرغم من مرضها، كانت تلبس ثياباً أنيقة، وكانت تحكم السيطرة على شقتها الجميلة المؤثثة بـ(الأنتيكات). وعلى العكس من شقة أمي، كانت شقة الخالة مينا تمتاز بالنظام والتناسق. لم تكنْ أمي تعترض على زياراتي للخالة مينا، إلا أنها لم تهتم بها أو تتودد إليها عندما كانت صريعة المرض. كانت الطريقة الوحيدة التي نجعل بها أمي تنسى أحقادها هي أن نخبرها ببلية شخص ما. غير أن الخالة مينا كانت عليلة وتعاني سكرات الموت، ولم تُظهر أمي أي فضول في معرفة المزيد عن صديقتها، ولم تُظهر شيئاً من التعاطف معها. كانت تقول بنبرة حيادية: «لقد سمعت أنها كانت تغش في لعبة (الرومي). دافعت عنها»، وأضافت بصورة واقعية: «لكن هذا هو ما يقولونه عنها، كونها تغش، ولا أحد يرغب في أن يلعب الورق معها».

كان من عادتها أن تتباهى بنفسها كونها تقف «دوماً هناك» لأصدقائها وأقاربها من الجنسين في أوقات الحزن والمحنة، وكانت تزعجني عندما كانت تفتخر بأنها قلما تحضر الأعراس لكنها تحضر المآتم دوماً. ومع ذلك حينما توفيت زوجة أبيها، مع أن الأخيرة كانت

مهتمة بالخالة نفيسة وأمضت معظم وقتها معها، لم تبدِ أمي إلا قليلاً من الحزن الحقيقي عندما رحلت عن عالمنا. في طقوس الحداد كانت تتكلم بصوت مرتفع وحتى كانت تقهقه. وكانت صديقات الخالة نفيسة يستمتعن كثيراً في إسكاتها، قائلات: «نزهت خانوم، من *فضلك*. . .»

كنت أزور الخالة مينا بانتظام عندما كانت راقدة في المستشفى. في الأيام الأخيرة أخذوها إلى (حجرة العناية الفائقة)، وكانت معها ابنتاها للسهر عليها. كانت قلقة، وظلت تتحرك في فراشها، وكنا نقف هناك عاجزات؛ كانت حالتها الصحية خارجة عن إرادتنا. بعد وفاتها، مضيتُ إلى المقبرة مع ليلى، ابنتها الصغرى، وكنت أنظر من وراء النافذة بينما كانوا يغسلون جثمانها ويهيئونها للدفن على وفق شعائر الدفن عند المسلمين. عندما أخبرت أمي بوفاتها، كانت تجلس على الأريكة بمبذلها الأخضر الباهت. لم تقل شيئاً. «كانت ليلى ابنتها فتاة صالحة دوماً»، قالت أخيراً، «إنني أحبها».

بعد برهة قامت أمي من الأريكة، ومشت نحو الباب، قائلةً: «أترغبين في فنجان من القهوة؟»

الفصل التاسع والعشرون

مواجهة العالم

كان أبي يلعب دور الوسيط بين أمي والعالم. عند حدوث مشاكل تتعلق بأنبيب المياه، بالمنزل أو بالحديقة، بالخدم، وبكل شيء آخر، كانت تقاطعه أثناء عمله في المكتب، وفي وسط اجتماع ما، وتتوقع منه أن يجد حلاً للموضوع. إذا كانت أمي تنوي السفر، كان يؤمّن لها أبي جواز السفر وتذاكر الرحلة. وإذا أحست أن أحد الأصدقاء أو المعارف قد أهانها في حفلةٍ ما كانت تستشيط غضباً إن لم «يدافع عنها». في بداية الثورة، عندما أعلن النظام الجديد أن على أعضاء البرلمان السابقين الحضور إلى المحاكم وإعادة الرواتب التي تلقوها سابقاً من حكومة الشاه، مضى أبي وحضر الاجتماعات الأولية نيابة عنها ودفع الديون المترتبة عليها. إن عملية الدفاع عنها وحمايتها، بوصفها امرأة مغرمة بصورة جهنمية بفكرة الاستقلال الذاتي، كانت متروكة أولاً لأبي، ومن ثم لأخي ولي.

بقدر تعلق الأمر بالمسائل المنزلية والعملية، الآن وقد غادر أبي المنزل، اعتمدت أمي علينا، الأمر الذي كان يعني حقيقةً أنها اعتمدت على بيجان. كان أبي قد سوّى النواحي المالية للقضية الحكومية المتعلقة بها لكنهم استدعوها إلى المحكمة مجدداً كي يستجوبوها ثانيةً - بالأحرى كإجراء شكلي. كيف تستطيع أن تفعل هذا من دونه؟

عرضتُ عليها أن أرافقها، كما فعلتْ ذلك عدد من صديقاتها. لكنها رفضت عروضنا بعناد. قالت: «أتمنى ألا يأتي اليوم الذي أعتمد فيه على أي شخص في أي شيء». وعندما ألححتُ عليها، قالت: «من فضلك، لا تزعجي نفسك، إنني قادرة تماماً على العناية بنفسي. هكذا عشتُ طوال سنوات حياتي. ذلك هو قدري»، ختمت كلامها ببرود، وعجرفة.

وكما تبيَّن لاحقاً، كانت على حق، لم تكنْ بحاجة إليّ. عادت منتصرة، وكشفت كيف أنها أخبرتهم بجرأة أنها لا تملك شيئاً تخجل منه. تكلمت بزهو عن سجل نشاطاتها في البرلمان. لم يقدروا أن يجدوا خطأً في سجلها، إذ إنها صوتت ضد قانون الامتيازات الأمريكية في إيران وقانون حماية الأسرة، وكلا القانونين ألغاهما النظام الجديد. قالت: «لقد قلت لهم إذا كان لديهم أي قدر من الاحساس عليهم أن يصنعوا لي تمثالاً من ذهب، لكننا أكثر معرفة من أن نتصور حدوث شيء كهذا! قلت للرجل الذي كان يستجوبني - لم يكن رجل دين، بالمناسبة - إنني كنت مسلمة قبل أن يولد هو، وفي عمر أمه. لذلك قلت له: (وفّر عليك التعب، لا تعظني فيما يتعلق بديني. ولا تعتقد لحظةً أنني أؤمن بهذا الزي الذي فرضتموه علينا، كما لو أن تغطية بدني يجعلني مسلمة أكثر)».

سألتها: «وماذا قال المحقق، ماما؟» «آ، إنه يختلف عن الآخرين، ربما كان في قرارة نفسه ضد النظام. قهقه وقال لي: (إنني أعرف أنكِ مسلمة جيدة، وأعرف أنكِ لا تعنين ما تقولين)، قلت له: (إنني أعني ما أقول حرفياً، وإذا جئت إلى منزلي لتناول فنجان قهوة سأشرح لك كل شيء)». قبل أن تغادر المحكمة قالت للمحقق معها إن أباها كان مقامراً وسكيراً لكنه مسلم أكثر من كثيرين من زعمائنا

الحاليين لأنه طبّق العقيدة الرئيسة للإسلام، الإحسان للآخرين، ولا تريد أن تقول أكثر من ذلك لهم.

في ذلك اليوم كانت فرحة جداً كما لو أنها اكتشفت في نفسها طاقةً كامنةً مخفية. أجل، لم تكن بحاجة إلى وسيط بينها وبين العالم. كانت قد توصلت إلى معرفة ذلك في وقت متأخر جداً نوعاً ما، لأنها في الوقت الذي روت فيه القصة لبيجان كانت قد بدأت تتبّلها بالاتهامات ضد أبي، الذي كانت تلومه لأنه بخبث بلّغ الموظفين الحكوميين عنها، الموظفين الذين صارت تربطه بهم علاقات حميمة جداً. «تخيلي ذلك الرجل الذي يدّعي أنه لم يطأطىء رأسه للشاه يصبح متملِقاً لهؤلاء الأشخاص، كل ذلك لأنه يحتاج إلى توفير العيش الكريم لتلك العاهرة التي يسمّيها زوجته».

عندما سافرتُ أول مرة إلى الولايات المتحدة وأوروبا للمشاركة في مؤتمر عُقد في الأيام القليلة التي سبقت السنة الميلادية ١٩٩٠، كان لدينا بيت وأطفال، وزوجي له مهنة يحبها، وكنت يومذاك ناقدة بارزة في إيران. طوال عقدين تقريباً، من مطلع الثمانينات حتى مغادرتنا في صيف سنة ١٩٩٧، درستُ الأدب الفارسي وكتبتُ عنه. ومنذ طفولتي كنت أرى كيف كان أبي يدخل إلى الأدب القصصي ويخرج منه، ويلجأ إلى القصص المأخوذة من «*الشاهنامه*» والأدب الكلاسيكي ليلقّننا عن إيران، والآن أصبحت هذه طبيعة ثانية لي. كنت أفتش في الأدب القصصي والشعر الحديثين عن مفاتيح تساعدنا في معرفة كيف تحدّينا الواقع وتهرّبنا منه، كيف أفصحنا عن تجاربنا ولجأنا إلى اللغة لا لكي نكشف ذواتنا بل كي نخبئها. كنتُ متيقنةً يومئذ وكذلك الآن أنه من خلال النظر إلى الأدب القصصي الإيراني

المعاصر أستطيع أن أجد مدخلاً إلى فهم حقيقي للأحداث السياسية والاجتماعية.

إلا أنني يومئذ، وبغتةً، شعرتُ أنه لا يكفي أن أكون ناقدة أدبية. كان من الأسهل عليّ، إذا ما توافر لي المناخ السياسي، أن أكتب مقالات ودراسات صحيحة أكاديمياً - وبهذه الطريقة يمكنك أن تكتسب الاحترام بين النخبة المثقفة. لكنني رويداً رويداً أصبحتُ مؤذية في كتاباتي. أتذكر كيف كنت أفرح بشذراتي الصغيرة عن الحقيقة المفهومة، التي كنت ألملمها بحذر شديد وآخذها معي إلى المنزل وأودعها في معتزَلي. غير أن الشكل كان خاطئاً: يبدو أنه كان هناك شيء صناعي، شيء مخترَع في هذه الآراء الملحّة التي روّضوها وجعلوها تلتزم بلغة معتدلة ومتزنة. بدأتُ بالكتابة عن فلاديمير نابوكوف إلى حدٍّ ما بسبب شغف طالباتي الجامعاتي بأعماله الروائية. يبدو أنني كنت أتقاسم معه بعض تلك الهواجس التي كانت تتملّكه: الفكرة المسبقة عن النفي، الإيمان الراسخ بالعالم المتنقل للخيال، والقوة المدمِرة للأدب، الإيمان بأننا نستطيع، من خلال الأدب القصصي، أن نحوّل الألم المبرح إلى شيء يمتاز بالجمال الدائم.

ثمة أشياء كثيرة يعدّها الفكر الشمولي خطيرة يمكننا أن نجدها في روايات نابوكوف: احترام الفرد، الحب الإيروسي، تقدير العلاقة المعقدة بين الضحية والجلاد. كان نابوكوف يفهم أن بوسع المرء أن يسيطر على الواقع عبر الخيال.

طُبع كتابي *Anti- Terra* «*ضد الأرض*» سنة ١٩٩٤، وبعد نشر كتابي ببضعة شهور استقلتُ من وظيفتي. كنتُ أستمتع بالتدريس، لكنني كلما اعتدت أكثر على محاضراتي، كان موظفو الجامعة يصعّبون عليّ مهنة التدريس شيئاً فشيئاً. لسبب وحيد هو أنني ابتكرت برنامجاً

خاصاً للمتحدثين، وكنت أدعو الكتاب، ومخرجي الأفلام، والفنانين المشهورين ليتحدثوا عن تجاربهم الإبداعية وأفكارهم ورؤاهم، ولكي يختلطوا بالطلبة. كان أول المتحدثين المخرج السينمائي ذائع الصيت عباس كيارستمي، الذي كان يلقي أول كلمة علنية له منذ قيام الثورة. كان أحد طلبتي، السيد فرصتي، رئيس منظمة الطلبة الإسلامية، ومعجب شره بالأفلام السينمائية، يعمل نيابة عني لتسهيل عقد تلك السلسلة من اللقاءات. أقبل مئات الأشخاص إلى قاعة الاجتماعات الواسعة كي يسمعوا عباس كيارستمي. وكانت آخر فقرة من برنامج اللقاءات قد أبرزت مخرجاً سينمائياً آخر، كان مشهوراً هو الآخر لكنه مثير للجدل، وهو بهرام بيزايي، الذي كان صريحاً بصورة مفرطة في انتقاده للنظام. في بداية الثورة كتب مسرحية شعبية جداً نالت إطراءً نقدياً عن موت الملك الأخير للإمبراطورية الفارسية يزدجرد، الذي قتله طحان قبيل الغزو العربي لبلاد فارس. بعد لقاء بيزايي، وبينما كنا أنا والسيد فرصتي نهبط درجات السلم، قال لي: «يجب عليك أن تعرفي أن هذه اللقاءات يجب أن تنتهي. بيزايي هو القشة الأخيرة التي ستقصم ظهر البعير. تشعر الإدارة أن هذه اللقاءات قد غدت مدمِّرة سياسياً بكل معنى الكلمة».

شرع الطلبة من الجامعات الأخرى يأتون إلى جامعتنا ليستمعوا إلى محاضراتي. سمحتُ لهم أن يشتركوا لأنني أحسست أن هناك فضاءات قليلة جداً في طهران للجدال المفتوح حول الأدب. كيف يتسنى لي أن أرفض شخصاً أقبل ليقضي وقت فراغه ونحن نناقش «توم جونز» أو «*مرتفعات وذرنغ*»؟ لم يكن رئيس القسم يتحلى برحابة صدر كافية، لذلك قرر أن يمنع الدخلاء، ودشن قانوناً جديداً يقضي بأن أي فرد كائناً من يكون يرغب في زيارتي عليه أن يحصل على موافقة بذلك

عبر مكتبه. ويومياً كانت هنالك قوانين جديدة وتقييدات جديدة. كانوا في البداية يتوددون إليّ، وبعدها شرعوا يحددون أنشطتي. أحسستُ أنني كنت أقضي وقتاً في الخصام أطول من الوقت الذي أقضيه في التدريس. قدمتُ طلباً بالاستقالة، لكن طلبي لم يُقبل طوال عامين. لم يكنْ لديهم مشكلة في طردي من الجامعة؛ لكن ماذا أظن نفسي كي أستقيل؟ على الأقل هكذا فسرتُ الأمر. وخلال السنتين التاليتين أعطيتُ دروساً خصوصية لسبع من طالباتي الجامعيات المفضّلات وطالب جامعي واحد لم يكنْ يقبل بأن يُحرم من حقوقه.

فكرنا أنا وزوجي زمناً طويلاً قبل أن نقرر مغادرة إيران. وعلى مدى أشهر كنا نتجادل المرة تلو المرة حول مستقبلنا، ومستقبل أولادنا، وكيف يمكننا أن نخدم وطننا بأفضل صورة ممكنة - كانت سجالات كهذه روتينية بين أصدقائنا، أسرتنا، ومعارفنا. وطوال المدة التي قضيناها في أمريكا، كان بيجان يذكرني، أننا حلمنا بالعودة إلى وطننا. كنت أرغب أن يكون لأولادنا الخيارات نفسها التي أردناها لأنفسنا، أن يروا العالم ويتخذوا قراراتهم الخاصة. وكذلك كنت أريد أن أصبح كاتبة ومُدرّسة، أن أكون شيئاً يبدو أساسياً بالنسبة لحياتي. لم تكن مهنة بيجان ذات صلة مباشرة بالنظام. كان مساهماً في شركة معمارية مع مجموعة من زملائه كان يحترمهم ويحبهم كثيراً جداً، وكانت الشركة مكلفة بتنفيذ مشاريع مثيرة جعلته يشعر بأنه مطلوب ومقدّر. فضلاً عن ذلك، ذكّرته بأن الأمر مختلف معه لأنه رجل. حاول أن يخفف من قيمة ذلك الأمر بأن يخبرني كيف أننا تجاهلنا قوانين النظام، مستشهداً بتجربته الخاصة.

هذا لا يعني أن بيجان لم يؤيدني. منذ عودتي إلى طهران، شعرتُ بأنني مُبعدة نوعاً ما، لم أشعر أبداً أنني في وطني تماماً، إلى

حدٍّ ما بسبب جنسي ووظيفتي. أما هو، من ناحيته، فقد شعر بأنه في وطنه تماماً، وبالبؤرة نفسها التي كان يضعها في كل مشروع، كان قد شرع في تحقيق حلمه في الوطن الأبدي - وهو حلم ظل يلازمه منذ أن غادر طهران في سن السابعة عشرة. بعد ثماني عشرة سنة من عودتنا، خلق وطناً، يكاد يكون جزيرة، مأهولةً بأسرته، أصدقائه، وزملائه. كانت مغادرة هذا الوطن شيئاً موجعاً بالنسبة له.

ذات ليلة، بعد منتصف الليل، أوقفت الميليشيا الثورية بيجان، بينما كان يقود سيارته عائداً من حفلة ما. اتهموه بالسُّكْر، وكان فعلاً كذلك، لكنه أنكر الأمر. أخذوه إلى مركز قيادة اللجنة الثورية، حيث أمضى ليلته في زنزانة مع المدمنين ومع مجموعة أخرى من الشبان الذين اعتُقلوا بسبب اشتراكهم في حفلات الأنس والسمر، وبسبب آثام أخرى من هذا القبيل. وفي الصباح أخذوه إلى رئيس اللجنة مع مجموعة من زملائه في الزنزانة. كان أولئك الذين تُمسِك بهم اللجنة يؤخذون عادةً إلى المحكمة في باص صغير، لكن الضابط المسؤول أبلغ بيجان بحذر أنه يستطيع الذهاب بواسطة باص أو يأخذ سيارة أجرة، وفي هذه الحالة يجب عليه أن يدفع أجرة سائق التاكسي، لكنه يقدر أيضاً أن يذهب إلى منزله - وهو تلميح مبطن أن بوسع الضابط أن يخلي سبيل بيجان مع رشوة مناسبة. في سيارة الأجرة ذكّره الضابط بأنه مطلوب منه أن يأخذ عيّنة من دمه لغرض الفحص المختبري، وهل يريد أن يتصل بشخص ما، أحد أفراد أسرته أو أحد أصدقائه، كي يأتي ويأخذه فيما بعد؟ فهم بيجان التلميح. أخذ الضابط الرشوة، وأخذوا عيّنة من دم سائق يعمل في مكتب بيجان، وأُخلي سبيل بيجان. بطبيعة الحال، ليس جميع الناس محظوظين. لدينا أصدقاء كانوا مرغمين على تنظيف دورات المياه في السجون، أو كانوا يُضربون ضرباً مبرحاً

ويُغرّمون. وكنا نعرف حادثتين منفصلتين حاول فيها الشبان الهرب من المداهمات المسلحة على حفلاتهم وقُتلوا خلال سقوطهم من النوافذ أو من سلالم الطوارئ.

عندما اشتكيت من اشتراكنا في الجريمة وإذعاننا الصامت في هذه الأمور كلها، كان بيجان يشير إلى أن كثيراً من الإيرانيين لم يستسلموا لإملاءات النظام. كان الناس يوافقون ظاهرياً على القوانين التي يصدرها النظام ويمضون في تجاوزهم لها، بمن فيهم الموظفون الحكوميون. كان تحدياً لا تستطيع الحكومة أن تفعل شيئاً حياله. كان ثمة عبث في أفعال العصيان هذه، وكنت أقدّر هذا النوع من العبث مع شيء من الريبة: كان يزعجني هذا النوع من التمرد لأنه كان يدل ضمناً على اتفاق بين النظام والشعب. كان يبدو لي شيئاً خطيراً أن يستسلم المرء لذلك النوع من الاشتراك في الجريمة. من المهم ليس التمرد على القوانين فقط، بل الاعتراف بأن من حق المرء أن يفعل ذلك، وأن يفعل ذلك صراحةً. قلت له: «إن أمنا لم تسمح لنا بأن نقوم بأشياء كثيرة، إلا أننا قمنا بها على أية حال؛ أحسسنا أننا محقّون في الكذب عليها ولم نحسّ بالذنب حيال ذلك» (مع أننا أحسسنا به) «لأنها كانت مستبدة. هل تعتقد أن الكذب شيء حسن؟ إنه مرض ينخر مجتمعنا، الطريقة التي يصبح فيها الضحايا شركاء في الأفعال الإجرامية المرتكَبة بحقهم. ومهما كان نوع تلك التبريرات التي ندلي بها، فأنا وأنت كاذبان ومخادعان ما دمنا نلعب لعبتهم، والأنكى من ذلك، أننا نشعر أن ذلك شيء حسن».

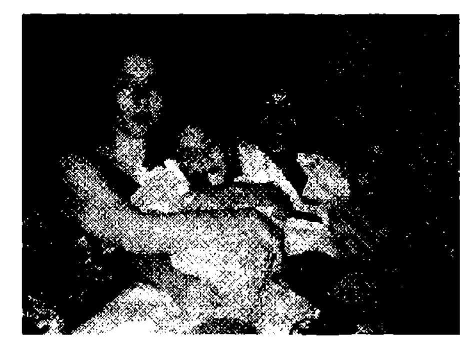
إن عادة التظاهر بالإذعان للنظام خلقت نوعاً من الانحلال الأخلاقي، كسلاً روحياً في داخل كل واحد منا. يمكنك أن ترى ذلك في معارفنا الذكور الذين يقولون بتعبير ساخر: «لماذا تخلقون مثل هذه

الضجة على قطعة من القماش؟» إنهم لا يفهمون أنه قبل كل شيء الحجاب لم يكن قطعة من القماش؛ إنه ينطوي على أهمية روحية بالنسبة للرجال والنساء على السواء، كما أنه لم يكنْ ذلك هو ما أحسستُ به فيما يتعلق بقطعة القماش التي نحن بصددها، مع أنه لا بد لي أن أكون حرة كي أعبّر عن أحاسيسي. كان هذا يتعلق بحرية الاختيار. لا من حق نظام معيّن، ولا من حق أي شخصية من شخصيات النظام أن يقولوا للمرأة كيف تقيم أو لا تقيم صلة بالله.

كتبت شهرنوش بارسيبور كيف أنها عندما كانت نزيلة في السجن تلقّت تعليمات من آمر السجن بأداء الصلاة. قالت له إنها ستصلي من دون حجاب لأنها كانت تعتقد أن الله ليس له جنوسة محددة، وإذا كان لا بد أن تكون له جنوسة فستكون أنثى، ولذلك لا حاجة لأن تحجب نفسها عن ربها. لم تكن بارسيبور منتمية إلى جهة سياسية معينة، ومع ذلك حبسوها في السجن، وخضعتْ لعقوبات فظيعة لأنها رفضت الانصياع للنظام. أعتقد أنها حتماً كانت تؤمن، مع جون لوك، أن السلطات كلها خطأ. أما الآن فقد كان الأشخاص العلمانيون، المتنورون يوبخوننا لأننا جعلنا من أنفسنا نساء مزعجات بسبب رفضنا ارتداء الحجاب الإلزامي. وكانوا غاية في السرور في استثمارهم قوانين الأرض كي يتزوجوا زوجات ثواني أصغر سناً أو يطلقون زوجاتهم من دون موافقتهن. إن المسألة المتعلقة بنظام كهذا هي أنه كان يقدم إغراءات كثيرة جداً كي لا تتخذ قرارك الأفضل.

في نهاية الأمر كانت لي ولبيجان وجهة نظر معيّنة. لكن القرار بمغادرة إيران أو البقاء فيها كان شخصياً جداً، وفي كلتا الحالتين هنالك ثمن يجب أن يُدفع. كنت محظوظة لأن مهنتي متنقلة. يمكنني أن أدرّس وأكتب بصرف النظر عن الموقع الذي أقيم فيه. كان إثمي

الوحيد هو ما يتعلق بأبويّ. لم أرغب أن أتركهما. عدد غفير من جيلهما تُركوا وحدهم، وما من أحد يرعاهم. كان أبي قد تزوج من امرأة ثانية، لكن ماذا عن أمي؟



أنا ونيغار، أبي، ودارا، في مطلع تسعينات القرن العشرين.

ناقشت احتمال مغادرتنا مع أبي مرات كثيرة. قال إنه ربما يكون من مصلحتنا أن نرحل، على الأقل بضع سنوات. قلت له إنني سأشتاق إليه. قال لي: «لقد تركتُ والدي عندما كنتُ في سن الثامنة عشرة، هكذا هي حال الدنيا. عليكِ أن تفكري في نفسكِ». أخبرني أنه منذ مدّة قصيرة كان هو نفسه يفكر في احتمال مغادرة إيران.

ذات صباح، عندما أصبح من المؤكد تقريباً أننا سنرحل، مضيت إلى شقة أمي. كانت في المطبخ. مشيتُ في أرجاء الغرفة، ورحتُ أنظر إلى الصور الفوتوغرافية: نيغار تلبس فستاناً أحمر تقف بالقرب من شجرة؛ دارا خدّاه ما يزالان منتفخين وبدينين كخدَّي الطفل الوليد، ويلوح على وجهه تعبير خليع؛ أنا ومحمد في صورة بالأبيض والأسود عندما كنت في نحو السابعة وهو في الثانية. أقبلت أمي ومعها فنجانان من القهوة وقطع البسكويت. بدأت أخبرها عن رحلتي الأخيرة إلى الولايات المتحدة. قلت لها إنني حصلتُ على منحة جامعية لمدة سنتين من كلية الدراسات العالمية المتقدمة بجامعة جون هوبكنز. ران سكون. وبعدها قالت: «حسن، هذه أنباء سارة». ذكّرتني بالزمن الذي أخذتني فيه إلى بريطانيا. قالت: «لماذا لا ينل أولادك الفرصة نفسها؟

هذا لا يعني أن تغادري إلى الأبد». قلت لها: «لا أريد أن تكوني وحدك، لم لا تأتين معنا؟» ابتسمت بهزء، وقالت: «هذا وطني. وعلى كل حال، أنا لا أستطيع المغادرة. ذلك الجنتلمان، أبوك، متأكد من ذلك».

كانت مسألة رحيلها عن البلد قد عُرضت على بساط البحث من قبل. كان محمد وشهران قد غادرا البلاد قبل عقد من الزمن تقريباً، وكانا قد توسلا إليها كي تأتي لزيارتهما في بريطانيا. ومهما كان العذر الذي تستخدمه كانت أمي تتذكر دوماً فتذكر مسؤوليات أبي، قائلةً لنا ما داما لم ينفصلا انفصالاً حقيقياً لم يكن باستطاعتها أن تغادر البلد من دون موافقة منه موثقة من الكاتب العدل. قالت لي: «لن أطلب منه أي شيء حتى لو كنت على شفير الموت. إنه شيء تراجيدي أن أخضع، أنا التي صوّتُّ ضد قانون حماية الأسرة بسبب هذا القيد بعينه بشأن الزوجات اللواتي يحتجن إلى موافقة أزواجهن، إلى هذا الإذلال». تكلّمتْ بتلك القناعة إلى درجة أننا صدقناها. لكننا اكتشفنا لاحقاً أن الطلاق كان مسجلاً على شهادة الولادة خاصتها: كانت في الواقع حرة، وباستطاعتها السفر إلى خارج إيران.

في مرات أخرى كانت تقول: «على كل حال، لقد عاهدتُ نفسي على ألا أطلب شيئاً من هذا النظام، لذلك لن أتوسل الآن للحصول على جواز سفر، حتى لو كان يترتب على ذلك عدم رؤيتي لأولادي وأحفادي ثانيةً». «لكن ماما»، أقول لها، وأنا أحاول أن أكون منطقية معها، «الحصول على جواز السفر حق من حقوقك. لا يجدر بك أن تتوسلي، إنكِ بالأحرى تطلبين حقاً قانونياً وطبيعياً من حقوقك». كانت سجالات كهذه تنتهي إما برفض إيجابي أو بتلميح مبهم كونها تمتلك أموراً يتعيّن عليها أن تقوم بها، وربما ستغادر البلد عندما تُنجز

هذه الأمور. هذه المرة كنتُ يائسة. فكرت أننا إذا كان باستطاعتنا أن نقنعها بالمجيء إلينا وزيارتنا أو زيارة أخي سيكون ذلك شيئاً جيداً لنا جميعاً. وفي خاتمة المطاف وافقت على إعادة النظر في وضعها، بعد «أن تفرغ من الاهتمام بمسائل مهمة أولاً». «هذا بلدي»، قالت لنا بجد - جعلتنا نعتقد أن تعهدات سياسية حساسة جداً كانت تمنعها من مغادرة إيران. قالت: «بمعنى من المعاني، هذا البلد مهم بالنسبة لي كأولادي. لديّ واجباتي الوطنية».

كانت أمي طوال فترة من الزمن سعيدة بمغادرتنا البلد. تحدثت عن هذا الموضوع إلى الآخرين. وكانت تلتفت إليّ لتسألني: «من أي جامعة حصلت على القبول؟» «جامعة جون هوبكنز، ماما». أسمعها تقول في الهاتف: «أجل، إنها هي. كلا، ليس المستشفى، بل جامعة، جامعة جيدة جداً؛ لديها منحة جامعية». عندما تضع سماعة الهاتف، تلتفت إليّ. «ماذا كانت تلك المنحة الجامعية؟» قالت بصورة ملغَزة، «ستعودين حالاً، ربما في غضون سنتين. انتبهي إلى كلمتي، كان أحمد آغا هنا أمس وأخبرني أن الناس في البازار يكرهون النظام. أجل، ستعودين. سيتغير النظام في سنتين». (كما لو أن رجال الدين سوف يحزمون حقائبهم ذات يوم، ويقولون: [طيب، نحن مغادرون الآن. ربما سنراكم فيما بعد، وربما لا.]) «يمكنكِ أن ترجعي في غضون سنتين، أليس كذلك؟» «نعم، ماما»، أقول بيأس.

ذات مرة انفجرتُ باكيةً. قالت لي: «لماذا تبكين؟ آذي المسكينة، إنكِ تتنقلين دوماً من مكانٍ إلى آخر، لم تستمتعي بحياتك، ولم يكن لك وطن حقيقي». قالت لي إنه يجدر بي أن أروي للعالم عما يجري في إيران. «أدّي واجبك الوطني. سأبعث لك المعلومات عما يدور هنا»، قالت بطريقة تنمّ عن ثقتها بي. «بطبيعة الحال، لا

يمكننا أن نتحدث في الهاتف بصورة صريحة. لكننا سنخترع لغة معيّنة. إذا قلت لك: [آغا مريض]، ستعرفين أنني أتكلّم عن النظام».

بينما كان يمر الوقت، وبدأنا نحزم حقائبنا ونتهيأ للسفر، أصبحتُ قلقةً أكثر، وأقل بهجةً. ومن دون سبب كفّت عن التكلم معي، أو لعلها كانت تشكو من أنها ستُهجر مرةً أخرى، امرأة تعيش وحيدة تماماً في هذه الشقة الواسعة. ذكّرتُها أن عمة محمد (أم زوجته) تسكن في الطابق العلوي من شقة محمد، وأننا من دون أن نأخذ أمنا بالحسبان أجّرنا شقتنا لأحد زملاء بيجان. «ماذا سأفعل عندما ترحلون وأكون تحت رحمة هذا الجنتلمان، أبوك؟» «ماما، باري محاميتي وصديقتي، ولن تحتاجي إلى شيء». فتقول عندئذ: «هل ستجلبين لي سندات التسجيل العقاري الخاصة بهذه الأراضي قبل مغادرتكِ؟ هل يمكنني أن أطلب منكِ أن تفعلي هذا الشيء البسيط؟» «بالطبع»، أقول لها، وأنا أعرف تمام المعرفة أنني لا أمتلك الجرأة على أن أطلب من أبي أن يزوّدني بسندات التسجيل العقاري. قالت لي: «حسن، ما أتذكره هو تلك السنين الخوالي عندما كنتِ يافعة جداً» - يتقطع صوتها حزناً وكمداً - «وكنا نقيم في ذلك المنزل الواسع الرطب في لانكستر، كم كنتِ خائفة يومئذ. كنتُ أقضي ساعات طويلة كي أجد لك الكلمات في القاموس. الآن...» وتوقفت عن الكلام.

بينما كان يدنو وقت رحيلنا، أصبحتُ شديدة الاهتياج في محاولاتي لقضاء الوقت معها. وكنتُ أقضي ساعات طوالاً، وأنا جالسة في غرفة الاستقبال، أحاول أن أنتزع القصص منها. كنت أمشي في أرجاء الغرفة، وأسألها عن الصور الفوتوغرافية. «ماما، من هذه؟» «آ، انظري، هي ذي أنتِ والخالة مينا». «هل لديك أي صورة لسيفي

بعد زواجكما؟» كانت أجوبتها لامبالية، وعندما كنتُ أسألها عن جدتي أو سيفي كانت تكرر القصص نفسها التي كانت ترويها لي دوماً، حرفياً تقريباً.

ذات صباح أحضرتْ حقيبة سفر صغيرة من غرفة المخزن. كانت الحقيبة ممتلئة بالصور الفوتوغرافية القديمة، ونثرناها على البلاط. كان بمستطاعي أن أسمع نيغار ودارا يقهقهان في الشرفة الكائنة في الخارج. كانت النافذة الفرنسية مفتوحة، وكانا يمارسان لعبة كلامية عديمة المعنى. بين الحين والآخر، كان أحدهما يقول شيئاً ما منافياً للعقل بشكل جلي، وينفجران ضاحكين. لم تكن أمي تجلس إلى جانبي. بينما كنت أفتش في محتويات حقيبة السفر، كانت تدخل الغرفة وتخرج منها، وفي بعض الأحيان تدلي بتعليق ما عن إحدى الصور الفوتوغرافية. وضعتُ بعض الصور الفوتوغرافية جانباً. كنت أعرف أنه ليس بمستطاعي أن أحتفظ بتلك اللحظة: ولداي في الشرفة الواقعة في الخارج، وأنا وأمي في حالة مودة وصلح، شعور بالارتياح والألفة لم أحسّ به طوال عقود كثيرة من الزمن. «نيغار، دارا»، كانت تناديهما حال دخولها، وهي تحمل صينية بين يديها، «قهوتكما وشكولاتتكما جاهزتان». كنت سأقول لها: «ماما، لا تعطيهما القهوة، إنهما صغيرا السن». إلا أنني كنت أعرف أنها لن تقول سوى: «أنتِ من بين الناس جميعاً لا تحتاجين لأن تقولي لي ما يفيد الأطفال أو ما يضرهم!»

كنتُ قد أصبحت مهووسةً بماضيها. كنت أريد أن أعرفها، وأن أحس ما هو الشيء الذي جعلها بعيدة جداً عنا، وهي ذي الآن قريبة جداً وحساسة جداً. كان يصعب التواصل معها، والتكلم معها. لم يكن بوسعي أن أجد الكلمات المناسبة للحديث معها. لم أكن قادرةً على القول: «ماما، إنني أفهم لماذا تشعرين بهذه الطريقة، وأننا ممتنة

لك لأنك رافقتني في لانكستر ولأشياء أخرى، لكنني أحب أبي أيضاً». لم أكن قادرة على أن أقول لها إنني كنت أود أولاً وقبل كل شيء أن تحبني. كنت أود أن تلمسني، ليس بدافع الشفقة بل لأنها تريد أن تفعل ذلك. «ماذا تريدين، ماما؟» كنت أود أن أسألها. إلا أنه كانت هناك أشياء كثيرة جداً تركناها ولم نتكلم عنها.

كانت الأشهر الأخيرة التي أمضيناها قبل مغادرتنا طهران تمتاز بالحنين المرضي (النوستالجيا)، كما لو أن الحاضر قد تلاشى في الماضي. أتذكر صباح أحد الأيام على وجه الخصوص، كانت قد دعتني للنزول إلى الأسفل وشرب فنجان القهوة معها. عندما وصلتُ إلى شقتها وجدتُها في المطبخ وطلبتْ مني أن أستريح في غرفة الاستقبال ريثما تنتهي من إعداد القهوة. وبينما كنت أنتظرها، تطلعتُ من حولي ولاحظتُ تغييرات معيّنة طرأت على الغرفة لم أعرها كثيراً من الاهتمام. كانت تريد دوماً غرفة أصغر للتسلية الطارئة. في بادئ الأمر كانت قد نقلت كل شيء إلى حجرة نومها، وحوّلت الحجرة المتاخمة لها التي كانت حجرة نوم أبي إلى حجرة الاستقبال الخاصة بها. وبعدها نقلت سريرها إلى حجرة الاستقبال الجديدة، وحوّلته إلى أريكة نهاراً وسرير ليلاً. لكنها الآن، من الناحية العملية، صارت تعيش جميع ساعات نهارها وليلها في تلك الحجرة. كانت الصور الفوتوغرافية المعلقة على الجدران قد خضعت هي الأخرى لتغيير. بقدر ما تسعفني الذاكرة، كان بحوزتها صور لنا نحن الأربعة - إحداها لأبي ومعه مفتاح وسلسلة البلدية - جميعاً على أحد الجدران. كانت هنالك صور أخرى لنا، (بورتريه) نموذجي للأسرة، يظهر فيها أخي وهو لا يزال في سنوات مراهقته. حاول المصور الفوتوغرافي أن

يحسّن أشكالنا، وفتّح لون عينيَّ بحيث بدتا خضراوين. لكنني الآن لاحظت أن أمي رفعت جميع الصور التي ظهر فيها أبي.

كانت الحجرة مليئة بصور أولادها وأحفادها. ومن بين اللقطات الفوتوغرافية الملونة لنيغار، دارا، وسنام، انتبهت إلى صورة بالأبيض والأسود. كانت صورة لعروسة يافعة، وقورة وجدية، وعريسها ذي الشعر الخفيف، وباسم الثغر. كانت صورة لأمي وسيفي. كان هنالك كتابان على الطاولة المجاورة لسريرها، كلاهما من مكتبتي. كانا بين الكتب المفضلة لديّ إبان عهد الصبا. كان أحدهما كتاباً أُغرمتُ به عندما كنت في نحو الحادية عشرة. كانت قد أهدتني إياه ليلى لمناسبة عيد ميلادي، وقد اعتدت أن أتباهى بأنني قرأته اثنتي عشرة مرة. كان يُطلق عليه «ديزريه» *Desirée*. كان مدوّناً بهيئة يوميات، وكان نسخة رومانسية من حياة بيرناردين يوجينيه ديزريه كلاري، ابنة تاجر ثري ينحدر من مارسيليا، كانت صديقةً لنابليون، وقد خطبها نابليون بشكل قانوني عندما كان لا يزال فقيراً، وخانها فيما بعد ليتزوج جوزفين. وانتهى بها المطاف أن تزوجت بأحد جنرالات نابليون، وأصبحت بعدها ملكة السويد. كان الكتاب مزيناً بالصور المستقاة من الفيلم السينمائي الذي مثّل فيه كل من جين سيمون، مارلون براندو، وميرلي أوبيرون؛ وليس من المستغرَب أنني بقيت إلى الأبد أطابق بينهم وبين نظرائهم التاريخيين. كانت الجملة الأولى من هذا الكتاب تقول: «أعتقد أن النساء اللواتي يمتلكن أثداء نافرة جذابات أكثر، ولذلك أنوي غداً أن أحشو حمالة الصدر خاصتي بالمناديل». كانت أمي قد اختارت هذا الكتاب وكتاباً آخر من كتبي المفضلة في عهد الصبا، وهو «*كوخ العم توم*»، وقد قرأت الكتابين بوصفهما قصتين حقيقيتين. بدأت أقول لها - كما هو واضح - إن هذين الكتابين روايتان، غير

أنها كانت مصممة على الاعتقاد خلاف ذلك ورفضتْ هذا الاعتقاد.
حدثتها عن هارييت بيتشر ستو والنساء اللاتي مثلها ونضالهن من أجل حقوق النساء وضد العبودية، وكيف أحسستُ أن هذا النضال الذي خاضته هؤلاء النسوة كان قريباً جداً من النضال الذي نخوضه نحن الإيرانيات. كما أخبرتها أيضاً كيف أنني في أول زيارة لي لباريس حاولت جاهدةً أن أجد الجسر الذي كانت ديزريه تعتزم الانتحار منه بعد أن اكتشفت أن نابليون سيتزوج جوزفين، وعلى هذا الجسر تحديداً وجدها زوجها المستقبلي وهي تكاد تضع نهاية لحياتها.

قلتُ لها إنني أخطط لتدوين كتاب وأهديه إليها. سألتني: «ماذا ستسمّيه؟» أجبتها: «*نساء وقحات*». «وتعتقدين أنني سأحب كتاباً يحمل عنواناً كهذا؟» «كلا، ماما، ما أعنيه هو أنني أتذكر أنكِ والخالة مينا قد أخبرتمانا كيف أن الناس اعتادوا أن يقولوا إن تعليم النساء القراءة والكتابة سيجعلهن دنيويات، ويشجعهن على كتابة الرسائل الغرامية للرجال، وأن يصبحن وقحات. أود أن أؤلف كتاباً حول هذا الموضوع، كيف أن بعض الناس يخافون من النساء المتعلّمات».
رويت لها قصة كتبتها شهرنوش بارسيبور، تقع أحداثها في السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر. ذات يوم، بينما كان والد البطلة، وهو أديب، أو شاعر - عالِم، يتنزه في أحد الشوارع، غارقاً في أفكاره، وغافلاً عما يجري في العالم المحيط به، اصطدم به رجل غريب يمتطي حصاناً، لعله بريطاني الجنسية. غضب الغريب المتغطرس من عدم انتباه الأديب، وضربه بالسوط على وجهه. تحولت هذه الحادثة إلى فضيحة كبرى. وقد شاءت الأمور أن يقوم الغريب بالذهاب إلى منزل العالِم ويعتذر منه. هذه المجابهة هي على الأرجح حدث هامشي في حياة الرجل الإنكليزي، لكنها غيّرت حياة العالِم تغييراً جذرياً.

وتجلى هذا التغيير في بادئ الأمر عبر تفاصيل صغيرة. في ذلك الزمن قليل جداً من المنازل الفارسية توجد فيها كراسي وقطع أثاث؛ وحتى الأغنياء كانوا يجلسون على البلاط المكسو بالسجاد، ويتكئون على وسائد ضخمة. ولكي يستقبل العالِمُ الغريبَ بصورة لائقة، تعيّن عليه أن يستعير أثاثاً غربي الطراز. هذه أول إشارة تدلل على الغزو الأجنبي. كما تجاوز الرجل الإنكليزي على قانون آخر. في معظم المنازل الفارسية كان لا يزال من عادة الناس أن يخلعوا أحذيتهم حينما يدخلون المنزل. يدخل الغريب، بسبب جهله بالعادة المتبعة أو إغفاله لها، وهو ينتعل جزمته. وهكذا يتحول فعل الاعتذار إلى إيماءة تنم عن تعاليه. النتيجة الأهم لذلك اللقاء هو أن العالِم اكتشف بصورة مرعبة أن الأرض كروية. ففي الماضي كان يعرف بصورة مبهمة بكروية الأرض لكنه آثر أن يتجاهل ذلك. وطوال أيام جعل يفكر ماذا يعني اكتشافه بالنسبة له. وبعد أن أدرك غريزياً الصلة بين حضور الأجنبي، كروية الأرض، والتغيرات والإرهاصات المستقبلية، يعلن في الختام: «نعم، الأرض كروية؛ سوف تبدأ النساء بالتفكير، وحالما يبدأن بالتفكير، سوف يصبحن وقحات».

قلت لأمي: «ذلك ما عنيتُه عندما تحدثتُ عن النساء الوقحات، نساء من أمثالك، عمة همدام، ومدرّستكِ عزرا خانوم، كيف كافحن كي يتعلّمن. سأكتب عن هذا الموضوع، وعن الروائيات والقاصات في أدبنا الفارسي».

لم أقل لها إنني كذلك أود الكتابة عن النساء العنيدات من أمثال رودبه، ويس، وفروغ فرخزاد، ومثل عَلَم تاج، نسوة أصررن على المغامرة، وعلى. . . كيف يمكنني أن أصوغ ذلك؟ نساء لا يخشين من أن يكن شهوانيات. وددتُ أن أسألها ما إذا يوجد ثمة تناقض بين

أن تكون المرأة متعلمة، طبيبة على سبيل المثال، وفي الوقت نفسه تحب أن ترقص.

كانت تتبع سلسلة أفكارها الخاصة. قالت لي: «كنتُ أتمنى دوماً أن تكوني متعلمة، ونافعة لبلدك. على الأقل لقد حققتُ ذلك. إن الأب الذي يؤدب طفلاً يكون مكروها دوماً. إنهم يودّون أن يقضوا الوقت مع الأب المتساهل». كان يجدر بي أن أقول: «نعم، لقد منحتني ذلك، لقد منحتِنا التعليم، والآن وقد بلغتُ هذه المنزلة فإني مدينة لكِ. كنت تريدين أن تحققي أحلامكِ من خلالي». كان ينبغي لي أن أعترف بذلك. إلا أنه تأخر كثيراً نوعاً ما.

كنت أتمنى أن أتوقع أن علاقتنا ستكون هكذا من ذلك اليوم فصاعداً. إنما في اليوم التالي، أو اليوم الذي يليه، استأنفنا علاقتنا الطبيعية. كانت تفتح الباب المؤدي إلى مطبخي، وتبدأ بكيل الإهانات لي، بينما كان ضيوفي في غرفة المعيشة يحاولون متابعة حوارهم كما لو أنهم لم يكونوا قادرين على سماعها. بعد أن قبضت عليّ وأنا أكلّم أبي في الهاتف، كانت تطلب، للمرة المئة، سندات الأراضي التي كانت تمتلكها هي وأبي معاً، وكنتُ ألوذ بالصمت. وبعدها راحت تذكّرني بأنها لم تتوقع مني الكثير، على أية حال، لأنني خُلقتُ من تلك الجينات الفاسدة.

في أحد الأيام، قبل مغادرتنا إيران بأسبوع، جاءت إلى شقتنا في الصباح الباكر. قالت إن هنالك شيئاً تريد أن تريني إياه. بدت مضطربة ومنزعجة وناولتني ملفاً كبيراً وسميكاً. «إنكِ لم تفكري قط أن تريني هذه الأشياء»، قالت لي. كانت قد احتفظت بمقالاتي كلها، بكل مقالة من مقالاتي تقريباً. وكانت بحوزتها أيضاً نسخة طبق الأصل من المقدمة التي كتبتُها للترجمة الفارسية لرواية ريتشارد رايت «جوع

أمريكي» *American Hunger*. كانت قد نظمت الرسائل والقصائد التي كتبها طلابي وطالباتي. «الأشياء التي كنتِ قد رميتِها»، قالت لي. إن الصور المستنسخة لمقالاتي التي نشرتُها في إيران، والتي أمتلكها الآن، مأخوذة من ذلك الملف الذي سلمتني إياه وقتئذ. قالت: «لم أفهم شيئاً من كتابك الذي ألّفتِه عن هذا الروسي[1]. لا أفهم لماذا تعيّن عليك أن تكتبي عنه. لكنني مسرورة كونك تفعلين ما تريدينه. هذه آخر مساهماتي. ليس بحوزتي المزيد من المال، شكراً لذلك الجنتلمان وخليلته، إلا أنني مسرورة لأنني تركت لولديَّ شيئاً لا يقدر أحد أن يأخذه منهم».

في الصباح الأخير، عندما أقبلت إلى المرآب بمبذلها الأخضر الباهت، حائل اللون، المألوف لتودعنا، بدت غاضبة، وقلما ردت على تحياتنا. وحينما حاولتُ أن أقبّلها قبلة الوداع أشاحت وجهها. طبقتْ جميع شعائر التوديع كي تضمن للمسافر رحلة آمنة، وقد أحضرت كعادتها في مناسبات كهذه طاساً صغيراً من الماء وزهرة صغيرة فيه وكتاب القرآن الكريم. سفحت الماء وراءنا، في أعقابنا عندما غادرنا المنزل، متمنية لنا حظاً سعيداً. إلا أن ما أتذكره بجلاء كبير من ذلك التوديع هو ذلك التعبير بالمرارة والجرح البليغ.

بينما كانت السيارة تأخذنا بعيداً، تخيلتُ أمي ثانيةً، وهي طريقة تعلمتُها عندما كنت في مقتبل العمر - انظر إلى المشهد، أغمض عينيك، وتخيّله مجدداً، وبعدها افتح عينيك وانظر من جديد. أشحت وجهي، ونظرت إليها ثانية، بمبذلها الأخضر الباهت، وقد أخفتها

---

(١) تقصد الكاتب الروسي - الأمريكي فلاديمير نابوكوف، صاحب رواية (لوليتا) ذائعة الصيت - م.

الظلال في المرآب المعتم، وقد ذُهلت لأنها بدت كبيرة السن، تلك البقع الظاهرة على وجهها، الشعر الأشيب الذي لا يزال جميلاً، عظام وجنتيها البارزة، والعينان الخاليتان من البريق... كان يصعقنا هرم أبوينا بالطريقة نفسها التي يصعقنا بها نمو أولادنا واشتداد سواعدهم، ولكن من دون فرح؛ لم يكنْ هناك إلا الحزن، والحزن وحده. وفجأة فكرت كم كانت حساسة ووحيدة. ومن ثم زحفتْ إليَّ فكرة ما، ورسختْ في ذهني. فكرت أنني سأخسرها قريباً، لكن الخسارة تستلزم الملكية. منحتني هي وأبي شيئاً كي أخسره. أشفقت عليها - لم أشفق كثيراً جداً على أبي، الذي كان قد حقق حلمه بطريقة مروَّضة. إلا أنني أشفقتُ عليها، لأنها لا تملك شيئاً لتخسره، كانت قد فقدت أمها في وقت مبكر، وبمغادرة أبي فقدت ما بقي من منزلها. هذه الفكرة ظلت قابعة في ذهني خمس سنوات، إلى أن وصلت فجأةً إلى منزلنا بعد وفاتها.

كنا قد غادرنا في وقتٍ أبكر من الضروري. كان أبي ينتظرنا في المطار ليرانا قبل سفرنا، ويساعدنا في حمل أمتعتنا. كان يعرف أن الناس أثناء الشعائر يقدمون العون في حالة حدوث شيء ما، وكنت قلقة دوماً من حدوث شيء ما. إنما لم يحدثْ شيء: لم يضايقنا أحد. كنتُ أفكر باستمرار أنني طوال سنوات حياتي كنت قلقة بشأن وفاة أبي، والآن ربما هذه هي المرة الأخيرة التي أراه فيها.

كان أبي قد أعطاني القصص، وطني المتنقل. أما أمي فوضعها معقد أكثر، شائك أكثر. لقد أتيتُ إلى كتبي ومهنتي وحتى إلى أسرتي بسببها وعلى الرغم منها معاً. من المثير للسخرية أنني في خاتمة المطاف أصبحت ما كانت أمي تريدني أن أكون عليه، أو ما كانت تريد أن تكون هي عليه: امرأة قانعة بأسرتها وعملها. أصبحت ابنتي نيغار

ما تمنت أمي أن تكون عليه: التحقت بكلية طب وهي تدرس الآن لتصبح طبيبة. قالت لي نيغار: «ماما، سأكون أول فتاة في أسرتنا تصبح طبيبة. كانت (ماما نيسي) تحب ذلك».

يحتاج المرء للاعتراف بفضل الذين أوصلوه إلى ما هو عليه، يتعيّن عليه أن يراهم ويحبهم كما هم عليه، كي يحضروا بكل كيانهم في كيانه هو. كيف يمكننا أن نعترف بفضلها؟ كانت آثام وفضائل أبي ملموسة ومحددة. يمكننا أن نحبه، و (نُجن عليه)، ونقرّ بفضله. أما معها فالوضع مختلف. كان الوضع كما لو أنها كانت تنظر في المرآة ولا ترى إلا الفراغ. لقد حولتنا إلى مرايا، (تستقتل) كي ترى صورة لا تقدر أن تراها. غالباً أجدني أنظر في المرآة وأرى وجه أمي. لم أفكر يوماً أنني أشبهها، وعندما كان الناس يقولون لي ذلك، أنكر ذلك بحماسة. كنتُ أقول لهم إنني أشبه والدي. مع ذلك، على مر الأعوام، سمعت هذه الملاحظة كثيراً جداً، من ابنتي في الحقيقة، كانت صديقاتها يقلن لها إنها تشبهني. ليس لأنني أشبه أمي في لون عينيَّ أو ميلانهما؛ الأمر أعمق من ذلك. كان هنالك التعبير، الملامح الشبحية، كما لو أن طيفاً مرَّ على وجهي. هي ذي أمي في المرآة، لا عطوفة ولا سخية، بل باردة وقاسية القلب.

عندما غادرتُ إيران أخذتُ معي قطعة متهرئة من قماش أخضر ذات نقوش مزخرفة لمظفر الدين شاه، ملك القاجار. كانت قطعة القماش تلك تعود إلى أم أمي، وهي سليلة هذا الشاه، وهي تتمزق بمجرد لمسها. فضلاً عن قطع القماش القديمة كانت قد أعطتني هذا القماش الأخضر المتهرئ كي تذكّرني بجدتي التي لم أرها أبداً. كما قمتُ بغارة على حقيبة السفر القديمة في غرفة المخزن، وبطمع أخذت

جميع الصور الفوتوغرافية التي أستطعت أن أحصل عليها. وعندما استقرّ بنا الحال، أنا وأسرتي، في الولايات المتحدة، أصبح من عادتي أن أخرجها وألقي عليها نظرات فاحصة برهة طويلة من الزمن. حفظتُ عن ظهر قلب كل إيماءة، نوع الحذاء الذي كانت تنتعله أمي، شكل أقراطها، الطريقة التي تميل فيها إلى الوراء في بعض الصور الفوتوغرافية.

قبل بضع سنوات أخبرنا زميل بيجان الذي كان يؤجر شقتنا في طهران خلال زيارته إلى ولاية كولومبيا بالولايات المتحدة كيف كانت أمي تدعوه هو وأسرته لاحتساء القهوة معها. قال لنا: «كان ذلك شيئاً مسلياً. كانت نزهت خانوم تروي لنا باستمرار قصصاً عن زوجها الأول وأسرتها، كيف كان أبوها عطوفاً، ويفضلها على أولاده الآخرين. إن الشيء الأكثر غرابة هو أنها كانت تقول لنا باستمرار: (لا تصدقوا أحداً يقول لكم إن زوجة أبي كانت تعاملني معاملة سيئة. كانت زوجة أبي تحبني كابنتها، كانت تعاملني بصورة جيدة جداً)».

كانت تكلم صوتاً في داخل رأسها. الآن وقد هجرها أبي، كانت أمي بحاجة إلى أن تعزز ميثولوجيتها القديمة. كانت تحتاج إلى أن تعرف أنها مطلوبة إن لم يكنْ من قبل الأحياء فعلى الأقل من قبل الأموات. كنت أود أن أعرف ما الذي جعل أمي تمتنع عن الرقص بعد تلك الرقصة الأولى مع سيفي. لديّ جوابي عن هذا السؤال: إنها لم تصرف تلك الرقصة الأولى من ذهنها، مثلما لم تصرف سيفي من ذهنها. ماذا اعتادت الخالة مينا أن تقول: «اصرفي ذلك من ذهنك، نزهت، اصرفيه». إن الخطوة الأولى في الرقص هي أن تصرف كل شيء من ذهنكَ، وهذا ما لم تفعله أمي.

كان يلزمني أن أصرف كل شيء من بالي أيضاً، أن أصرفها من بالي، وأكفّ عن مقاومتها في كل منعطف. وبتهوّر هممتُ بأن أخبر زميل بيجان، مثلما فعلتُ في مناسبات مشابهة من قبل: «كلا، لم يكن الأمر مثلما أخبرتكَ، كانت تتخيل الأمور مجدداً». لكنني لم أقل شيئاً. بدأتُ أفكر أنه، ربما، في هذه المرحلة الطريقة الوحيدة التي تستطيع فيها البقاء على قيد الحياة هي السفر إلى ذلك الماضي الذي كانت مغرمةً به، أما في هذا الزمن فتحتاج إلى أن تعيد تنظيم العالم وتشكيله وفق مشيئتها. لندعها تعشْ في هذا العالم حيث كان أبوها عطوفاً معها، حيث كانت زوجة أبيها تعاملها كأم، حيث كانت أختها صديقة لها، وحيث كان زوجها يراقصها إلى الأبد. يدوران ويدوران حول الغرفة، في منزل لم يعد موجوداً على أرض الواقع.

الفصل الثلاثون

الرقصة الأخيرة

عندما توفيت أمي في الثاني من كانون الثاني (يناير) ٢٠٠٣، كنتُ أكتب تشكراتي الخاصة بكتابي الأخير. كنت قد أهديته لأبويَّ ولأسرتي، وبطريقة تقليدية اعترفتُ بصورة تنمّ عن إحساسي بالواجب بتشجيع أمي وحماستها للجهود التي بذلتُها. شعرت الآن أن عليَّ أن أغيّر كل شيء. كيف يمكنني أن أعبر عن شكري لأمي؟ إذا وجهوا لي سؤالاً، ماذا يمكنني أن أقول بصدق عنها؟

طوال بضعة شهور قبل رحيلها كنتُ أتفجع عليها كما لو أنها تُوفيتْ. وذات يوم اتصلت بي صديقتي باري من طهران لتخبرني أن أمي أُدخلت المستشفى. بدت نبرة صوت باري في الهاتف غير مبالية بصورة متعمَّدة. قالت لي: «كل شيء على ما يرام. السيدة نفيسي هي بسجيّتها القديمة نفسها، تدعو الممرضات لتناول القهوة التركية والشكولاته معها. هل تصدقين ذلك. وجب علينا أن نحضر أداة إعداد القهوة والأكواب إلى المستشفى، وبعكسه كانت تهددنا بعدم المكوث في الردهة».

لم تواسني كلمات باري. وحالما وضعتُ سماعة الهاتف فكرتُ: «إنها تحتظر». وعلى مدى بضعة أيام كنتُ أتجول في المنزل باكيةً، وأنظر إلى الصور الفوتوغرافية التي جلبتُها معي عندما غادرنا طهران.

أصبح أفراد أسرتي مرعوبين. كانوا يمشون على أطراف أصابعهم من حولي، ولا يأبهون بالساعات التي أقضيها وحدي جالسةً في سريري، أتكئ على الوسائد، الصور الفوتوغرافية مبعثرة من حولي بينما كنتُ أتفحص، والعدسة المكبرة في يدي، صور أمي القديمة بالأبيض والأسود.

هكذا يأتي الماضي إلينا؛ لا يأتي بصورة رقيقة وناعمة، بل يأتي كالسكين، ودوماً بصورة غير متوقعة. ويأتي بهيئة شذرات. تحاول أن تلملم القطع الصغيرة، لكنك لا تستطيع أن تفهمه فعلاً إلا إذا تقبلتَ طبيعته كونه لا يُمكن أن يُستعاد، وأنه متشظ.

في ذلك اليوم تفجعتُ على موت أمي، على الرغم من أنها لم تمتْ بعد، ويومياً كنت أتصل هاتفياً أو يتصلون بي هاتفياً من طهران حيث كنت أسمع تقريراً عن حالتها الصحية خلال مكوثها في المستشفى. أخذوا لها الأشعة السينية، وبعدها نقلوها إلى منزلها. كانت ثمة امرأة ترافقها ليل نهار. نُقلتْ في أيامها الأخيرة إلى منزل تهمينه، مربية أولادنا السابقة، والتي أصبحت الآن صديقتنا الحميمة. تحدثتُ مع الناس بكل شرائحهم، حاول جميعهم أن يطمئنوني. عرضتُ عليهم اقتراحات مستحيلة بشأن إعادتها إلى المنزل، وإصدار جواز سفر لها، وإحضارها إلى ولاية كولومبيا .D. C. عندما كنت أكلّمها في الهاتف كانت تتعرف إليّ تارةً، وطوراً لا تعرف من هذه التي تتكلم معها.

كان شعورها بالحقد والمرارة قد زال تقريباً حالما غادرنا طهران. وفي الهاتف جادتْ عليَّ بعاطفة لم تستطع أن تُظهرها لي عندما كنتُ في الوطن. كانت تقول: «مع أنني أعيش وحيدةً، وأشتاق إلى ولديَّ

وأحفادي بصورة مروِّعة، أنا سعيدة لأن لا أحدَ منكم هنا. إنني أشعر بالفخر لأنني علّمتُ ولداً وبنتاً متفانيين وذوا مبادئ». وكانت تقول أحياناً: «سمعتكِ في ليلة سابقة» - أجرت معي إذاعة «*صوت أمريكا*» *Voice of America* أو «*هيئة الإذاعة البريطانية*» (BBC) حواراً. خفضت صوتها إلى نبرة تآمرية، وهي تقول: «ما تقولينه يجد أذناً صاغية. أتفهمينني؟» «أجل، ماما». «قولي الحقيقة دوماً. لقد علّمتُ ولديَّ ألا يكذبا، ألا يكذبا مطلقاً».

ومضت تقول: «سأخبرك حالاً بأنباء أخرى. ذلك الشخص، أتتذكرينه؟» «نعم، أتذكره بالطبع». كنتُ متيقنة لو أن شخصاً كان يتنصت علينا لعرف أيضاً أن «ذلك الشخص» هو النظام. «أنت تعرفين عمن أتكلم، صحيح؟» «أجل، ماما». «حسن، إنه سقيم جداً، سقيم جداً جداً». «صحيح؟» «نعم، صديقاتي يقلن أن لا أملَ من شفائه».

«كيف هي حال دارا؟» كانت تقول بتغير مفاجئ في نبرة صوتها. «قولي له إنني أطعم طيوره. الآن وقد أصبح وحيداً هناك لا تؤذي الولد المسكين». وفي نهاية كل اتصال هاتفي كانت تقول لي: «ماذا تودين أن أرسل لكِ؟ الجوز؟ هل تحتاجين إلى شيء ما؟» كان يُحضر لي أحياناً زائر أو زائرة من طهران الجوز أو الكرز المجفف، وبعض الميداليات الذهبية لأولادي.

هذه المرة عندما كلمتُها وهي في المستشفى بدت مختلفة. كانت تشكو قليلاً، لكنها نسيت أن تسألني ماذا أريد منها أن تبعث لي من حاجيات أو أغذية. قلت لها: «ماما، أصغي إلى نصائح الطبيبات». قالت لي: «قولي لدارا إنني أطعم الطيور. لا تؤذي دارا، ذلك الغلام المسكين، الوحيد تماماً، لا أحدَ منكم يقدّره. أنا وحيدة، نعم، إلا أنني فخورة لأنني أمتلك مثل هذه البنت وهذا الولد، متعلّمَين،

وبمبادئ سامية. إنني فخورة لأنكِ لم تستسلمي». قلتُ لها: «أرجوكِ، أرسلي لي الكرز المجفف». وقالت لي: «والجوز؟» «نعم، نعم، الجوز، إنني أحب الجوز».

في آخر اتصال هاتفي معها كانت صحتها أضعف، لكن صوتها كان مرتفعاً نوعاً ما. بدت غايةً في السعادة لأنها كانت تسمعني. قالت ِلي: «آذي، هل هذه أنتِ؟» أجبت: «نعم، ماما، هذه أنا. ماما، نحن مشتاقون إليك. إنني مدينةٌ لكِ كثيراً». فردّت عليَّ قائلةً: «ماذا؟» «إنني مدينةٌ لكِ كثيراً جداً. أتيتِ معي إلى لانكستر، وكنت تقضين الليالي سهرانة». لكنها غيّرت مجرى الحديث، ولم تعد تصغي. خاطبتني قائلةً: «ماذا تريدين مني أن أبعث لكِ؟ ألا تزالين تمتلكين الجوز؟» «نعم، ماما، نعم، أرجوكِ ماما...» هل كان بوسعي أن أقول لها: أرجوك ماما، لا تموتي؟ لكن صوتها انقطع - لم تعد تحتاج إلى ذلك الشكر. حينما اعتدتُ أن أتصل بها هاتفياً، كانت تتكلم كثيراً جداً، وكنت لا أريدها أن تتكلم كثيراً جداً، والآن أريدها أن تتكلم، لكنها لم تفعل. لا بد أنها كانت وحيدة جداً والآن لم تعد بحاجة إلينا.

كانت الثلج ينهمر عندما وصلت إلينا أنباء موتها. كنتُ وحيدةً أنتظر صديقتي كي تأخذني في سيارتها إلى مكان عملي عندما رنَّ جرس الهاتف. بعد أن أنهيتُ المكالمة الهاتفية لم أفعل شيئاً. لقد تخيلتُ موتها طوال شهور كثيرة جداً، لكنني الآن لم أستطع البقاء في هذه الحالة. ماذا قالت ديزيريه تلك، شخصية صباي القصصية الأثيرة؟ ما من عزاء عندما يقولون لك إن الموت يتربص بنا عند كل منعطف. فكرت أن أبي سيموت هو الآخر.

لماذا لا نهتم كثيراً بأولئك الذين نحبهم؟ لماذا لا نسألهم أكثر عن

جميع التفاصيل الصغيرة، عن طفولتهم، عن أحاسيسهم، عن الأحلام التي راودتهم، وما إذا كانوا متعبين أم أنهم لا يريدون أن يتكلّموا، لِم لا نصرّ على معرفة المزيد عنهم؟ لِم لا نحتفظ بجميع الصور الفوتوغرافية، ونسجل الملاحظات، لم لا نسأل الآخرين عما يعرفون، أولئك الذين جاءوا إلى العالم قبلنا، أولئك الذين يعرفون أشياء لا نعرفها نحن؟

تملّكني خوف غير معقول من التحدث إلى الآخرين عن موت أمي. وحتى لم أشأ أن أتصل هاتفياً بأخي المقيم في لندن، أو أخبر زوجي وولديَّ. هنالك أشياء كنت أحتاج إلى معرفتها قبل أن أكون مستعدةً لتصديق نبأ موتها.

يومئذ كان هنالك الساكنون غير المرئيين في ذلك العالم النظير الذي خلقته من ماضيها، وجعلتنا نوعاً ما نشعر أننا مسؤولون عن خسارتها له. كان شيئاً محتوماً أن تظهر تلك الأشباح التي صُدتْ طوال عقود؛ تلك الأشباح ستطالب هي أيضاً بقصتها المنفصلة مثلما كنتُ أطالب بقصتي. والآن في كل مرة أحاول فيها أن أكتب تشكراتي لهذا الكتاب، وأبدأها بـ«وأمي نزهت»، كانت تلك الأطياف الشبحية تخرج من الظلال، كما لو أنها تتحداني: «ماذا بشأن أمكِ نزهت؟ هيا، قدمي لنا الحقيقة مرة واحدة لا غير».

هل ماتتْ أمي بالطريقة نفسها التي عاشت بها، غارقةً في أوهامها؟ تلك الأوهام التي كانت مدمِّرة في حياتها، جاءت لنجدتها في نهاية المطاف. أخبرتني باري أنهم، قبيل وفاتها، قالوا لها إن النظام قد زال وإنني سرعان ما أعود مع أسرتنا. سألتْ أمي عن أشخاص معينين في النظام الحاكم. كانت تريد أن تعرف ماذا جرى لرافسنجاني، الرئيس السابق، والقائد الأعلى آية الله خميني. أخبروها

أنهما كليهما ينتظران المحاكمة. قالوا لها إن كل شيء سينتهي نهايةً حسنةً، كل شيء حدث كما تنبأتِ. وأنا أسمع ذلك كله اعتقدتُ أنها على الأقل حتى النهاية رفضتْ أن تتقبل ما لم تكنْ تريده، وظلت إلى الأبد تقاوم «غير المرغوب فيهم».

في الأسابيع التي أعقبتْ موت أمي كنتُ أذهب إلى غرفة نومنا وأبعثر صورها الفوتوغرافية من حولي على الفراش، أدقق النظر فيها بواسطة العدسة المكبرة، وهو فعل يقلق أسرتي مع أنه كان يهدئني بصورة غريبة. ذات ليلة تبعتني نيغار وكذلك دارا. أتذكر ومضات القلق في عيونهما التي كانت تناقض النبرة المبتهجة لصوتيهما بينما كانا يحاولان أن يقنعاني بالنزول إلى الطابق السفلي ومشاهدة مسلسل «سينفيلد» *Seinfeld* التلفازي معهم، كعادتنا في كل يوم. ولأنهما لم يقدرا أن يقنعاني، جلسا على حافة السرير، وشرعا يلتقطان الصور الفوتوغرافية، ويعلّقان عليها، ويهتفان كم بدتْ (مامان نيسي) يافعةً، وكم كانت مختلفة. قال لنا دارا إنه كان يشتاق إلى إطعام الطيور معها، على الرغم من أنه حقيقةً كان رأيها، وأنه فعل ذلك كي يسايرها. قال دارا: «فضلاً عن إطعام الطيور كانت (مامان نيسي) تطعمني أنا أيضاً، تعطيني الشكولاته والحلوى». «لأنك المفضل لديها»، قالت نيغار. «أما أنا فكنتُ المفضلة لدى (بابايي)؛ اعتاد أن يسميني (آذي الصغيرة)، ويروي لي قصصاً من (*الشاهنامه*)،ويزرع الأزهار معي في الحديقة. كانت (مامان نيسي) تحكي لنا القصص أيضاً. كان عدد كبير منها قصص الجان، لكن القصة التي أحبها أكثر هي قصة لقائها الأول بسيفي». سألتني نيغار ما إذا كنت أتذكر كيف كانت أمي تكرر تلك القصة، وهي تحكي لنا عن ثيابها الجميلة ورقصها مع سيفي. «ندور وندور حول الغرفة»، قالت نيغار، وهي

تحرّك يديها. لقد تذكرتُ ذلك، بالطبع. ومرةً أخرى حاولتُ أن أسترجع نبرة صوت أمي، تلك النبرة التي بدت كأنها آتية من مكان بعيد جداً، بينما كانت تعيد قصة ذلك اليوم السحري، الذي جمّده الزمن الآن شأنه شأن قصص الجان التي كانت تحب أن ترويها لولديَّ:

«التقيتُ به في حفل زفاف عمي. لم أكنْ قد تجاوزت التاسعة عشرة، وقد بدوت جميلة جداً. كان هنالك احتفالان، واحد في وقت الضحى، عندما كنت ألبس فستان الكريب الصيني، والثاني مساءً، عندما كنت ألبس فستاناً مصنوعاً من ساتان الدوقة. كان سيفي شاباً وسيماً، ابن رئيس الوزراء ومثلي سليل ملوك القاجار. بقي ينظر إليّ، لكنه لم يجرؤ على الاقتراب مني عندما كان أبي حاضراً. لم يفعلها رجل سواه، عدا عمي، الذي رقصت معه أول مرة. ما إن غادر أبي المكان حتى طلب سيفي مني أن أراقصه، المرة تلو المرة، أربع مرات، إلى أن بدأ عمي يلقي علينا نظرات غاضبة. في اليوم التالي أقبل هو وأفراد أسرته إلى منزلنا ليطلب يدي...»

الفصل الحادي والثلاثون

لآلئ الحب

عندما غادرنا طهران، حاولتُ أن أحتفظ بصورة أبي في المطار بينما كان واقفاً هناك، يراقبنا ونحن ننتظر في الطابور كي ندخل إلى صالة المسافرين. فكرت أنني لن أراه ثانية. اشتقت إليه بصورة مروِّعة عندما كنا في أمريكا، نسكن في (بوتوماك) بولاية (ميريلاند)، لكنه كان يتصل بنا هاتفياً، ويترك لنا رسائل في البريد الصوتي الخاص بنا، وكان بوسعي أن أسمع لا في كلماته الحقيقية بل في نبرة صوته أنه يعاني جرحاً بليغاً. كان يقول: «أود فقط أن أسمع صوتكِ»، أو يقول: «إنه عيد ميلاد نيغار»، أو: «إنني أستمع إليكِ دوماً من إذاعة (*صوت أمريكا*) أو الـ(*BBC*) لكنني لا أستطيع أن أسمعك في الهاتف». عندما نُشر «*أن تقرأ لوليتا في طهران*» لم أرسل له في البداية نسخةً من الكتاب. «سمعتُ عن كتابك هذا»، سمعتُه يقول في إحدى رسائله الصوتية. «يسألني بعض الناس عن الكتاب ولا أعرف ماذا أقول لهم. يبدو أن أباك هو آخر مَن يعلم». حطمتْ فؤادي كلماته تلك، حطمني صوته، لكنني مع ذلك لم أستطع أن أرد عليه بصورة مناسبة.

كنت أتصل به بين الحين والاخر - كان يتصل بي هاتفياً في كثير من الأحيان من مكتبه، واتصل به على هاتف مكتبه. كنا نتكلم وقتاً طويلاً، وبينما كنتُ أنصتُ إلى صوته كان يزداد شوقي إليه، وأعده

بالكتابة إليه. أخبرتُه أنني بعثتُ له المقالات التي كُتبتْ عن «*أن تقرأ لوليتا في طهران*». كان يرسل لي أحياناً (فاكس)، يطلب مني أن أكون رحيمةً مع زوجته، قائلاً إنه حقيقةً يكنّ لها الحب، وإنه كان يعتقد دوماً أنني أحبها أيضاً، وأننا كنا صديقتين. كنتُ أتصل به عادة بعد تلك الـ (فاكسات). أسأله بقلق: «أأنت سعيد حقاً؟»



أبي مع سينا (ابن محمد)، في سنة ٢٠٠٢.

رأيته آخر مرة في صيف ٢٠٠٣ بلندن، عندما التأم شمل أسرتنا. كان محمد وشهران قد انفصلا، وتزوج محمد من امرأة رائعة أخرى تحمل اسم (جورجي). بقينا جميعاً أصدقاء، ولا تزال شهران تقيم في لندن. في صيف تلك السنة بدا أبي ضعيف الصحة. وحتى يومئذ كان لا يزال نشيطاً جداً، ويقظاً، وجذاباً، إلا أنه بدا حساساً. عندما التقينا، انفجر كل واحد منا باكياً، وطوال الأيام الستة التالية كلما تحدثنا في موضوع ما أو سواه كان ينفجر باكياً. كنت أود أن أتأكد من أنه كان سعيداً، على الرغم من حقيقة أنه كان يطمئنني في كل مرة نتبادل فيها الحديث. بدا مهموماً جداً. قال إنه يجب عليه أن يبيع الأرض. كان قد عاهد شاهين على أن يؤمّن لها مستقبلها. قال إنه متيقن من أن ولديه رائعان، وحالتهما المالية راسخة، وأن لهما أُسراً ودودة، لكنها، أي شاهين، ليس لها أحد. بغضّ النظر عن أمها التي غيّبها الموت مؤخراً لم يعاملها أحد المعاملة التي كانت تستحقها، وحتى أمها كانت تحب ابنها أكثر منها،

ابنها الذي لم يهتم بها أو يرعاها. لو لم تكن هذه الكلمات مألوفةً بالنسبة لي، لو لم يكرر على مسمعيَّ كلمات مشابهة طوال السنوات التي أمضاها مع أمي، لكنتُ ربما صدّقته. وقال كذلك إنه ينوي مغادرة إيران، كي يقضي سنوات حياته الأخيرة معنا. كلانا، أنا وأخي، شجعناه فيما يتعلق بهذه المسألة. عندما غادرَنا عائداً إلى طهران، قال محمد إنه سيبدأ بإجراءات إحضاره، وفيما بعد زوجته، إلى بريطانيا.

كنا في (فنزبوري بارك)، أخي يلعب مع ابنه، وأنا وأبي نتمشى حول البحيرة. قال لي: «لستُ زير نساء. المرتان الوحيدتان التي كنتُ فيهما غير وفيّ لأمك هي عندما كانت لي علاقات مع زيبا وشاهين. كانت أمكِ امرأة طيبة القلب، لذلك كان من العسير جداً أن أهجرها. جربتُ، جربتُ كل شيء، إلا أنها كانت ميؤوساً منها بالنسبة لي، فكل ما هو مهم بالنسبة لها جرى قبل أن نلتقي».

في خريف ٢٠٠٤، استعد أخي وجورجي لقضاء عطلة عيد الميلاد معنا. كانوا يريدون أن نذهب جميعاً إلى نيو أورليانز. وفجأةً، في تشرين الثاني (نوفمبر) اتصل بي محمد هاتفياً ليخبرني أنه وجب عليهما أن يلغيا ذلك لأن أبي مريض، فقد أُصيب بنوبة قلبية. كان محمد ينوي الذهاب فوراً إلى طهران. وعلى العكس من مرض أمي، أخذتُ الأمور ببرود في البداية هذه المرة. طوال سنوات حياتي كنت أخاف من فقدانه. شعرت أن قلقي يحميني، كما لو أن رغبتي في أن يبقى حياً إلى الأبد سوف تغلّفه بالسحر، وتنقذه من الموت الأكيد. حتى يوم ذهابه إلى المستشفى كان يذهب إلى عمله يومياً في الصباح الباكر، وكان يسافر أحياناً إلى بحر قزوين مرتين أسبوعياً، ليبيع

الأراضي التي كانت زوجته متحمسةً جداً لبيعها. تخاصم مع اللجان الثورية وأقنعهم بالحجة والمنطق، وفعل الشيء ذاته مع اللجان المحلية التي استولت على أرضه بعد قيام الثورة، ومع رجال الدين المحليين، ومع أي فرد كان بمستطاعه أن يدفع له الرشوة أو يجنده إلى جانبه. كانت آخر يومياته مليئة بالملاحظات عن القلق الذي ساوره على الأرض. كانت هناك إشارة إلى محمد، وجورجي، وأمها وهم يزورون طهران، ومدخل طافح بالأمل مكتوب بخط يد مرتعش عن محمد وعني ونحن نريد منه أن يغادر إيران ويقيم مع محمد في لندن. كتب أنه كان يعدّ ذلك أهم أمنية في حياته. وكما في يومياته التي كتبها في السجن، كتب أبي عن إيران والإيرانيين، وإلى أي وجهة كانت تتجه بلادنا.

اتصلتُ به هاتفياً عندما كان راقداً في المستشفى. خاطبته قائلةً: «مرحباً، بابا». رد عليّ قائلاً: «هل هذا أنتَ محمد؟» «لا، هذه أنا، آذي». أجابني قائلاً: «آ، آذي. كنت أقرأ تواً كتابك. لقد قرأت مئة وخمسين صفحة منه». (كتب في الزاوية العليا من إحدى صفحات يومياته: «*ضد الأرض*» *Anti- Terra* و«*أن تقرأ لوليتا في طهران*» *Reading Lolita in Tehran*: كتابا آذر). قال إنه يشعر بالتحسن. سيعود حالاً إلى المنزل. ونعم، حالما يوافق الطبيب، سيغادر طهران متجهاً إلى لندن.

بعد خروج أبي من المستشفى ببضعة أيام رجع أخي إلى لندن كي يستعد لوصوله. كان منزلهم يحتوي على درجات كثيرة. باعوا ذلك المنزل، واشتروا آخر على وجه السرعة وبخسارة مالية كي يكون مناسباً لأبي. اتصل بي محمد هاتفياً ليخبرني أن أبي سيكون معهم بحلول شهر كانون الثاني (يناير)، ويلزمني أن أعدّ العدة للذهاب إلى

لندن. كانت لدي أعمال كثيرة تنتظرني، وأتذكر أنني قلت مع نفسي مراراً إنني أتمنى لو أن ذلك جرى في وقت آخر، ربما بعد شهرين، فكيف يمكنني أن أذهب إلى لندن في زحمة هذا العمل كله؟ تكلمتُ مع أبي بالهاتف، وقال إنه يشعر بالتحسن. قال لي: «سأراكِ قريباً». بعد يومين اتصل بي محمد ثانية. قال الطبيب لأبي إنه أصبح معافى بما يكفي بحيث يستطيع أن يسافر إلى لندن، وبعدها بيوم واحد توفي أبي.

كانت الأيام واللحظات الأخيرة من حياة أمي قد نقلتها لي على مراحل وبدقة شديدة صديقاتي الموثوق بهن. لكنني لم أسمع من أحد كيف قضى أبي ساعاته الأخيرة. طوال مدة مرضه كان يعتني به خالي وابن خالي وكلاهما طبيبان. وقد أرسلا إليّ التقارير الطبية والتشخيص. عاد أبي ليمارس عمله حتى بعد مغادرته المستشفى. قال خالي إن الإجهاد وسفراته المتكررة إلى منطقة بحر قزوين قد زادت الطين بلّة، فساءت حالته الصحية، إلا أنه على الأقل لم يعانِ زمناً طويلاً. لم يشأ أن يُصب بمرض معيّن يسبب المتاعب للآخرين. كان دوماً هكذا. لعله فارق الحياة لأنه لم يشأ أن يعرقل برامج ابنته.

بعد خروج أبي من المستشفى مكث في غرفة احتياطية لأنه لم يشأ أن يزعج زوجته في منتصف الليل. في الليلة التي توفي فيها، شعر بأنه متوعك الصحة في منتصف الليل تقريباً، إنما مر بعض الوقت قبل أن تكتشف زوجته ذلك. وفي الساعة السادسة صباحاً أعلنوا أنه صار في عداد الأموات.

أراجع تلك الساعات، تلك الأيام، وأحاول أن أتخيل كيف كان يحس خلالها. هل كان خائفاً، كما أوحى بذلك في جملة كتبها في آخر يومية عندما شكى من زلات الذاكرة، ومن ضغوط شاهين فيما

يتعلق بالأرض التي يمتلكها في الشمال، ومن خوفه من الموت؟ هل كان حقيقةً يعيش في سلام كما أعلن مرات كثيرة جداً، وفي القصيدة التي ألّفها كي تُكتب على بلاطة ضريحه؟

لقد قيل لي مراراً إنها لم تكنْ غلطتي ألا أكون حاضرةً عندما توفي أبواي. لكن هذه الأقوال كلها لم تمنحني العزاء. ولا أشعر أنني أفضل حالاً لأن السياسة حقيقة هي التي منعتني من رؤية أبويَّ، ولا أشعر بالسلوى لأن بنات أخريات تعيّن عليهن أن يعانين أكثر مني، كأولاد مديرة مدرستي القديمة الذين كانوا بعيدين عندما وضعوا أمهم في كيس وشنقوها أو قتلتها زمرة الرمي بالرصاص. إنني ألعن الأنظمة الشمولية لأنها تعلّق مواطنيها من نياط أفئدتهم. علمتني الثورة ألا أجد العزاء في مآسي الناس الآخرين، وألا أشعر بالامتنان لأن أناساً كثيرين جداً كانوا يتعذبون أكثر مني. الوجع والخسارة، كالحب والفرح، فريدان وشخصيان؛ لا يمكن تخفيفهما من خلال المقارنة بالآخرين.

وفي نهاية المطاف، ذهبتُ إلى لندن. في منزلهما اللندني الجديد، منحني محمد وجورجي غرفة أبي. كانت الغرفة الوحيدة في المنزل التي جُهزت بأثاث كامل: كانت لا تزال هناك صناديق في غرفة المعيشة. كانت غرفة صغيرة في الطابق الأول، ذات خزانة للأطباق وأدوات الطهو، مزهرية، ونافذة تطل على حديقة صغيرة. كان السرير يشغل معظم مساحة الغرفة. عندما ودعتُ أخي في المطار، قال محمد: «حسن، ها نحن أولاء. الآن، أصبحنا أنا وأنتِ الأكبر سناً».

بعد وفاة أبي عاد محمد إلى طهران ليحضر مأتم أبي والطقوس الأخرى. اتصل بي ليقول لي إن الأمر متروك لنا كي نحتفظ بعلاقة ودّية وحميمة بشاهين خانوم. وعلى أية حال، كان أبي مغرماً بها،

وكان يتوقع منا أن نبدي لها كل الاحترام والتقدير. اتصلت بها كي أقدم لها مواساتي، ودار بيننا حوار طويل، أخبرتني خلاله أن أبي في لحظاته الأخيرة أمسك بيدها، وراح يقول لها كم كان مغرماً بها، ويشكرها على كل ما قامت به من أجله. كما طلبتُ منها أن تعطي محمداً نسخاً من القصائد التي كتبها أبي (لم نحصل على بعضها، بخاصة تلك التي أهداها إلى أمي)، وكذلك بعض رسومه - كانت هذه قد أُعيدت إلى أبي بعد وفاة أمي، وضمّت بورتريهاته لأمي، ولمحمد، ولي. وعدتني أن تفعل. بعد بضعة أيام اتصلتْ بي شاهين خانوم، كانت نبرة صوتها عطوفة بصورة استثنائية ومواسية. كانت تريد نسخة من شهادة الولادة خاصتي كي تحصل على الراتب التقاعدي لأبي. ومن جديد طلبتُ منها نسخة من قصائد أبي وبعض الرسوم التي أنجزها. كما طلبتُ منها بعض التذكارات الشخصية. وحالما تلّقتْ نسخةً من شهادة الولادة خاصتي بعثتْ لي بعض الحاجيات التي كان يستخدمها: كؤوس، ربطتا عنق، وحزام. رفضتْ أن تعطينا نسخاً من قصائده ورسومه. كانت الحقارة الكامنة في هذه الإيماءة قد قطعتْ حبال علاقاتنا الضعيفة بها.

في أول مشادة كلامية حقيقية مع أمي منذ عقود كثيرة خلت، عندما كنت في سن الرابعة، أدركتُ غريزياً وبشيء من اليأس أنني حتى لا أملك القوة على نقل سريري إلى البقعة المفضلة لدي من غرفتي، علّمني أبي أن أستعيد رباطة جأشي عبر السفر إلى العالم الآخر الذي لا يقدر أحد أن يأخذه مني. بعد الثورة الإسلامية بدأتُ أدرك هشاشة وجودنا الدنيوي، والسهولة التي يُمكنهم بها أن ينتزعوا منك: كل ما تقدر أن تسميه وطناً، كل ما يمنحكَ كياناً وهويةً، وإحساسك بالذات والانتماء. تعلمتُ أن ما وهبني إياه أبي من خلال

قصصه هو الطريقة التي أصنع بها وطناً لي، وطناً لا يعتمد على الجغرافية أو القومية أو أي شيء يقدر الآخرون أن ينتزعوه مني. هذه القصص لا تستطيع أن تحميني من الألم الذي أحسستُ به لدى فقدان أبويَّ؛ لم تمنحني العزاء، ولم تضع نهايةً لعذاباتي. بعد وفاتهما فقط توصلتُ إلى معرفة أن كلاً منهما بطريقته الخاصة وهبني وطناً متنقلاً يصون الذكرى، وهو بمنزلة مقاومة ثابتة ضد استبداد الإنسان والزمن.

التشكرات

أهدي هذا الكتاب إلى ذكرى أبويَّ نزهت نفيسي وأحمد نفيسي - مع الحب والتقدير. كما أود أن أشكر أخي محمد، وهو رجل يراعي مشاعر الآخرين، ودقيق جداً، وسخي، ومن المؤكد أنه مسؤول عن محتوى هذا الكتاب؛ أشكر زوجي، أعز أصدقائي، الناقد: بيجان نادري، وابنتي نيغار نادري، وابني دارا نادري، على حبهما، صبرهما، ودعمهما، على القصص التي تقاسمناها معاً، والتي جعلتنا قادرين على تذليل الصِعاب، وتحقيق المستحيل؛ وبريس نفيسي نادري على الساعات الكثيرة جداً من الصحبة الرائعة.

كما أود أن أشكر ابنة أخي المحبوبة سنام بانو نفيسي التي تقاسمتُ معها قصصاً كثيرة جداً؛ سينا نفيسي كاتب القصة الجديد في أسرتنا؛ وصديقتي الطيبة وحماتي جورجيانا بيري - كروك (أتذكر دوماً الحجرة ذات الأزهار). وشهران طبري، التي قرأتْ مخطوطة كتابي هذا بعنايتها وحماستها المعهودتين. إنني ممتنة لتبصراتها واقتراحاتها، وكشأني دوماً، ممتنة لصداقتها وحبها.

هنالك أفراد آخرون من أسرتنا كان لدعمهم الفضل في جعل تأليف هذا الكتاب أسهل: أصدقائي وصديقاتي وأقاربي وقريباتي ماني و ك. آغازاده، تارانه شسمزاد، وإحياءً لذكرى صديقنا المحبوب

محمد شمسزاد، لكرمه، ووداعته، وفضوله. ابن عمي حميد نفيسي، الذي قرأ مسوّدة مبكرة من مخطوطة كتابي هذا، على وقته وتبصراته المدهشة. وصديقنا الطيب «فريار».

كما أود أن أشكر السيدات والسادة أدناه على ودّهم، ودعمهم، وسحر صحبتهم والحوار معهم: جوان ليدوم أكرمان، لادان بوروماند وابن عمي عبدي نفيسي (لأنهما جعلاني أشعر أنني في باريس، بغض النظر عن المكان الذي أقيم فيه)، فرح إبراهيمي، عمي وعمتي رضا وأشرف نفيسي، ابنَي عمي نادر وكوروش نفيسي، سمانثا بور، ألبرتو مانغويل، «باري»، صوفي بينيني، بييترومارج، جاكي ليدن، هايده دراغي، ستيفن باركلي، والأشخاص الرائعين في (وكالة ستيفن باركلي)، بمن فيهم العضو الأحدث: ميلو.

جزيل الشكر للأصدقاء والصديقات، الزملاء والزميلات، والمؤسسات التي قدمت لي يد العون فيما يتعلق بالبحث عن المادة الخلفية للكتاب: المؤسسة الخاصة بالدراسات الإيرانية، وصديقتي الطيبة مهناز أفخمي، على دعمها، وتسهيل حصولي على الملفات، والبحث في مكتبة المؤسسة. كان صديقي وزميلي هرموز حكمت، رئيس تحرير *«إيران نامه»* كريماً جداً مع وقته ومراجعه، زوّدني بالكتب، وبمعلومات ثمينة، وأسدى لي العون فيما يتعلق بالجانب التاريخي. وأنا ممتنة أيضاً لصديقتي آذر أشرف، وهي مساعدة المختارات الخاصة في مكتبة جامعة برينستون، على تزويدي بالوثائق والمصادر.

لم تكن معصومة فرهاد، أمينة المتحف في (غالريهات فرير وساكلر) في الـ سمبثسونين، كما هو معروف عنها، كريمة فقط في صداقتها، وتبصراتها، ودعمها، بل سهلت عليَّ الاطلاع على الصور

الأرشيفية لطهران القديمة وحقبة القاجار. كما أنني ممتنة لها ولصديقتي الطيبة رؤيا بوروماند، لأنها ذكرتني مرةً أخرى أن الشكل والمحتوى لا ينفصلان. أود أن أشكر رؤيا و(مؤسسة بوروماند لتعزيز الديمقراطية في إيران) على تزويدي بالمعلومات المتعلقة بالتراجيديا التي وقعت في دار سينما (ريكس) في عبادان.

وبسخاء زودتني هالة اسفندياري بمعلومات واتصالات فيما يتعلق بسيفي وشباب أمي. فاني اسفندياري هي «السيدة النمساوية المحبوبة» في قصتي.

مجيد نفيسي، على الاقتباسات من مقالته الشخصية (الحب والثورة)، المنشورة في الثالث من كانون الثاني (يناير) ٢٠٠٨، على الموقع الالكتروني http://www.iranian.com/main/2008/love-and-revolution، ونسخة من نص وصية زوجته الراحلة عزت طابيان، المترجم من كتابه المدوّن بالفارسية «*رافتام غولات بيجينام*» *raftam gola bechinam* (استوكهولم، السويد: باران ببلشرز، سنة ٢٠٠٠).

كاتبة سيرة الدكتورة فوروخرو بارساي: منصورة بيرينيا، على المعلومات المتعلقة بالدكتورة بارساي وصورتها.

ترجمات القصائد من «*الشاهنامه*» لأبي القاسم الفردوسي، مستقاة من ديك ديفس، الذي ترجم بعض أفضل أعمال الأدب الفارسي الكلاسيكي، وهو بلا ريب مفسر ومترجم قل نظيره. ترجمات قصائد فروغ فرخزاد مستقاة من سيرة حياتها التي كتبها مايكل هيلمان تحت عنوان: «*امرأة وحيدة*». مذكرات سعيد نفيسي مأخوذة من «بيه رفايات - ي سعيد نفيسي: خاترات - ي سياسي، أدبي، جفاني» *Bih Rivayat-i Said Nafisi: Khatirat-i Siasi, Adabi, Javani*. إنني

ممتنة لكتاب باقر معين: «خميني: *حياة آية الله*» على المعلومات المفيدة فيما يتعلق بالثورة الإسلامية.

وأود أيضاً أن أشكر مكتبة ماسون في جامعة جون هوبكنز، ومكتبة جيلمان في جامعة جورج واشنطن، مكتبة الـ DC العامة (ويست إيند برانج)، السياسة والشعر، و (كُتب بريجستريت).

كانت وكيلتي سارة جلفانت صديقة نادرة، ومستشارة حكيمة منذ حوارنا الأول حول هنري جيمس. لقد استفدتُ كثيراً جداً من الالتزامات الصارمة التي أبدتها سارة والزملاء الآخرون في (وكالة ويلي) المتعلقة بذلك العنصر المراوغ إنما الضروري في كتاب ما - نوعه.

أود أن أعبّر عن شكري وتقديري مرةً أخرى لـ جون هوبكنز - SAIS، على تهيئة المكان والزمان للاشتغال على هذا الكتاب فضلاً عن اشتغالي على مشاريعي الأخرى في SAIS. جزيل الشكر بشكل خاص لعميدة الكلية جيسيكا إينهورن، ولـ توم كيني، المدير السابق لـ (معهد السياسة الخارجية)، وكذلك للمدير الحالي تيد بيكر. منحة من (مؤسسة سميث ريتشاردسون) سهّلت عليَّ تحمّل تأليف هذا الكتاب خلال دراستي (في كلية الدراسات الدولية المتقدمة [SAIS]) بجامعة جونز هوبكنز. إنني ممتنة لكرمهم.

بدأت ليلى أوستن العمل معي بوصفها مساعدتي، إنما خلال السنوات المنصرمة الثلاث تطورت علاقتنا إلى صداقة قوية وتعاون قيّم. عملت كل ما بوسعها كي توفر لي المكان لتأليف كتابي وتحميني ليس من التطفلات الخارجية فحسب بل من التطفلات التي من صنعي. قدمت لي العون في مراحل مختلفة فيما يتعلق بالبحث وخلفية هذا الكتاب فضلاً عن الملحق والجدول الزمني، وقد أنجزت هذه

المهمات بنفس الإحساس بالفضول الفكري والكمال الشخصي اللذين تنجز بهما كل مهمة تُسند إليها.

وفي دار النشر (راندوم هاوس)، دعمت كيت مدينا Kate Medina هذا الكتاب، واستقبلته في السراء والضراء بمزيد من الكياسة، والعناية، والصبر. إنني ممتنة جداً لمعرفة أن كتابي بين أيدي أمينة كهذه. جزيل الشكر لـ ميليسنت بينيت على دعمها طوال ساعات الليل والنهار، وعلى صبرها مع مؤلفة ترفض تسليم مخطوطة كتابها في كل مرحلة من مراحل التأليف. فنحن قلما نقدّر عمل وإخلاص أشخاص كثيرين جداً بعيدين عن الأنظار ويسهّلون طباعة ونشر كتاب صغير. أود أن أتوجه بشكر خاص إلى ناشرتي جينا سينتريللو، والطاقم الرائع في (راندوم هاوس): توم بيري، سالي مارفن، لندن كنغ، بينجامين دريير، فنسنت لا سكالا، كارول شنايدر، سانيو ديلون، أفيده باشراد، كلير تسني، جويل ديو، راشيل بيرنستين، إليزابيث بولسن، ديبي أروف، آنا بوير، جيني ميدلووسكي، لورا غولدن، ديبورا فولي، ريتشارد إيلمان، بربارة باخمان، ماريا برايكل، فرانكي جونز، راشيل أومانسكي، كيت نوريس، أليسون مريل، جيليان شيافي، جنيفر سميث، وكارول بوتكني.

كانت جوي دي مينل، خلال السنوات العسيرة، محررةً مثاليةً وصديقةً طيبةً. لا أستطيع أن أصف تقديري لدعمها، وإحساسها بالالتزام، وتبصراتها العميقة واقتراحاتها التي لا تُقدر بثمن. ودوماً أزامن واحتفل بولادة هذا الكتاب مع ولادة ابنة جوي: سيسلي لويز ريد العجيبة.

من بين الذكريات العزيزة الباقية في ذهني المتعلقة بتأليف هذا الكتاب هي تلك الأوقات التي أمضيتُها بوصفي (كاتبة مقيمة) في

(الأكاديمية الأمريكية) في روما في ربيع وصيف سنة ٢٠٠٥، وفي (نقابة يادو) في حزيران (يونيو) ٢٠٠٧. لهاتين المؤسستين الكبيرتين ولأطايفهما الحارسة أود أن أعبّر عن تقديري واحترامي.

وفي الختام أقول: إن جزءاً كبيراً من هذا الكتاب دُوِّن في أمكنة مختلفة حول مكان إقامتي الرئيس: واشنطن، ولاية كولومبيا، أود أن أعترف بفضل الأمكنة التي ترددتُ عليها كثيراً: مجموعة فيليبس والغاليري القومي للفن ومقهيهما، مقهى سوهو، الـ ستارباكس الواقعة على الـ ووتر فرونت، بارنيس و نوبل في جورجتاون، و بوردرز في الثامن عشر وL.

لائحة بالكتب التي أقترح قراءتها

أدناه مجموعة من الكتب الأدبية المذكورة في الكتاب، أو أنها وثيقة الصلة بكتابي، وهي متوفرة في المكتبات ومخازن بيع الكتب، ومترجمة إلى اللغة الإنكليزية.

Poetry

Simin Behbahani, *A Cup of Sin: Selected Poems* (translated by Farzaneh Milani and Kaveh Safa)

Forough Farrokhzad, *Sin: Selected Poems of Forough Farrokhzad* (translated by Sholeh Wolpe) and *Bride of Acacias: Selected Poems of Forough Farrokhzad* (Modern Persian literature series)

Fakhredin Gorgani, *Vis and Ramin* (translated by Dick Davis)

Abolqasem Ferdowsi, *Shanameh: The Persian Book of Kings* (translated by Dick Davis)

Hafez

Majid Nafisi, *Muddy Shoes*

Rubayiat of Omer Khayyam (translated by Edward) Fitzgerald

Rumi

Saadi (translated by Ralph Waldo Emerson)

Sohrab Sepehri , *The Lover Is Always Alone* (translated by Karim Emami)

Ahmed Shamlu, *The Love Poems of Shamlu (*translated by Firoozeh Papin Matin and Arthur Lane)

Fiction

Simin Daneshvar, *Suvashun* (translated by M. Ghanounparvar)

Houshang Golshiri , *The Prince (*translated by James Buchan)

Sadeq Hedayat: *The Blind Owl*

Manuchehr Irani (Golshiri's pen name), *King of the Benighted* (translated by Abbas Milani)

Shahrnoosh Parsipur, *Women Without Men* (translated by Kamran Talattof and Jocelyn Sharlet)

Iraj Pezeshkzad, *My Uncle Napoleon (*translated by Dick Davis); *Strange Times,My dear*, the PEN Anthology of Contemporary Iranian Literature (edited by Nahid Mozaffari and Ahmad Karimi Hakkak)

Goli Taraghi, *A mansion in the Sky (*translated by Faridoun Farrokh)

Obeyd-e Zakani, *Ethics of the Aristocrats and other Satirical Works*

Nonfiction

Abbas Amanat (ed.), *Crowning Anguish: Diary of Taj al Saltana*

Paul Auster, *The Invention of Solitude*

Najmieh Batmangalij, *From Persia to Napa: Wine at the Persian Table*

Edmund Gosse, *Father and Son*

Michael Hillman, *A lonely Woman: Forough Farrokhzad And her Poetry*

Nigel Nicholson, *Portrait of a Marriage*

Orhan Pamuk, *Istanbul*

Lorna Sage, *Bad Blood*

Leon Wieseltier, *Kaddish*

لحظات فاصلة من تاريخ إيران
خلال القرن العشرين

أدناه لحظات مختارة من تاريخ إيران خلال القرن العشرين وردت في سياق هذا الكتاب.

١٩٠٥-١٩١١: ملك القاجار مظفر الدين شاه يوقع (الحقوق الدستورية) - وهي الأولى من نوعها في الشرق الأوسط - استجابةً للاحتجاجات الواسعة ضد النظام الملكي الاستبدادي. قاد تلك الاحتجاجات أعضاء ساخطون من رجال الدين، تجار البازار، النخبة الإيرانية المثقفة، بمن فيهم النساء. ونتج عن ذلك تشريع دستور يحدد كثيراً سلطة الشاه، ويدعو إلى تأسيس برلمان، ويجعل الشاه خاضعاً رسمياً لسلطة القانون. في سنة ١٩٠٩، شُنق الشيخ فضل الله نوري، وهو رجل دين محافظ، كان قد رفض هذه الإصلاحات، لأنه وقف ضد الدستور الذي قلّص صلاحيات السلطة الدينية. وفيما بعد عدّه آية الله خميني والمحافظون المتدينون: شهيداً.

١٩٢١: في جو ساده عدم الاستقرار السياسي الداخلي، والتدهور الاقتصادي، والتدخل الأجنبي في شؤون إيران الداخلية، قاد رضا خان الكولونيل في لواء القوزاق الفارسي المتدرب في روسيا انقلاباً ناجحاً ضد

سلالة القاجار الحاكمة. أصبح رضا خان قائد الجيش ووزيراً للحربية تحت سلطة رئيس وزراء جديد هو: سيد ضياء الدين طباطبائي.

١٩٢٥: تُوج رضا خان بوصفه: رضا شاه بهلوي، مؤسس السلالة البهلوية الحاكمة. خلال السنوات الست عشرة من حكمه الاستبدادي، ركز رضا شاه بهلوي في المقام الأول على إنشاء حكومة مركزية قوية، وعزز الكمال والاستقلال الإقليمي لإيران، واستحدث تشريعات إدارية، وقانونية، وتعليمية ضرورية لدخول إيران إلى العالم الحديث. عُدَّ رضا شاه بهلوي: غربيّ الثقافة، واتخذ اجراءات صارمة ضد رجال الدين، وضد كل النواحي «الرجعية» في المجتمع الإيراني.

١٩٣٥: في ظل حكم رضا شاه، تم تغيير اسم البلد رسمياً من (بلاد فارس) إلى (إيران). وفي مسعى لتحديث إيران سريعاً، أصدرت الحكومة سنة ١٩٣٦ مرسوماً يقضي بمنع ارتداء الحجاب علانيةً، وهو واحد من الإجراءات العديدة التي اتخذتها الحكومة للحد من إملاءات السلطة الدينية. أُلغي هذا القانون لاحقاً في سنة ١٩٤١بسبب الضغوط الجماهيرية. وفي هذه السنة أيضاً تأسست أول جامعة على النمط الغربي، وهي: جامعة طهران.

١٩٤١: المصالح البريطانية والروسية، التي كانت تتنازع تاريخياً داخل إيران، تضافرت قواتها خلال الحرب العالمية الثانية، واحتلت البلد كي تصون منابع النفط الإيرانية من خطر التأثير الألماني. لم يكنْ رضا شاه يثق بالروس والبريطانيين لذلك وطد علاقته بالألمان، ولكنه أُرغم على التنحي عن الحكم لصالح ابنه محمد رضا بهلوي. ونُفي إلى جوهانسبرغ (في جنوب أفريقيا)، حيث توفي هناك سنة ١٩٤٤.

١٩٤٣: إيران تعلن الحرب على ألمانيا، الأمر الذي أهّلها لعضوية (الأمم المتحدة). اجتمع الرئيس الأمريكي فرانكلين د. روزفلت، ورئيس

الوزراء البريطاني ونستون تشرتشل، والسكرتير العام الروسي جوزف ستالين في طهران في تشرين الثاني (نوفمبر)، ليطمئنوا الشاه أنهم تعهدوا بالحفاظ على استقلال إيران.

١٩٤٥-١٩٤٦: مع أن (إعلان طهران الثلاثي) الصادر سنة ١٩٤٣ ينص على أن تضمن (قوات الحلفاء) الاستقلال الإقليمي لإيران في نهاية الحرب العالمية، رفض الروس سنة ١٩٤٥ سحب قواتهم من الحدود الشمالية للبلد، وبدلاً من ذلك حرّضوا على المقاومة مما أدى إلى نشوء حركتين انفصاليتين في المناطق الشمالية من أذربيجان وكردستان. في سنة ١٩٤٦ أُطيح بهاتين الحكومتين المواليتين للاتحاد السوفياتي والمتمتعتين بالحكم الذاتي نتيجة للضغوط التي مارستها الأمم المتحدة، ومجلس الأمن، والولايات المتحدة الأمريكية. وفي مطلع سنة ١٩٤٥ خدم سهم سلطان (والد سيفي) كرئيس وزراء، مدةً وجيزة.

١٩٥١-١٩٥٣: يصبح محمد مصدق رئيساً للوزراء، ويؤمم بنجاح الشركات النفطية، على الرغم من الاحتجاجات البريطانية. يتنازع مصدق مع الشاه، وفي سنة ١٩٥٢ ينحي الشاه مصدق من السلطة، ومن ثم يعيده إلى منصبه السابق بسبب شعبيته الواسعة؛ ومصدق يجبر الشاه أيضاً على أن يقضي مدة نفي وجيزة في روما سنة ١٩٥٣. وفي خريف ١٩٥٣ يُنحى مصدق عن الحكم على إثر انقلاب ساندته وكالة المخابرات المركزية (CIA)، ويعود الشاه إلى السلطة.

١٩٦١: يصبح أب الكاتبة محافظاً لطهران.

١٩٦٢: كجزء من حزمة الإصلاحات الاجتماعية والاقتصادية الأوسع، وتحت عنوان «الثورة البيضاء» التي تبناها، يعلن الشاه قائمة تتضمن برنامج إصلاحات شعبية تضمن للنساء حق التصويت، وتسمح لغير المسلمين الخدمة في البرلمان.

١٩٦٣ : يُعين حسن علي منصور رئيساً للوزراء. تكون أم الكاتبة واحدة من ست نساء تم انتخابهن في البرلمان، نتيجة لإصلاحات (الثورة البيضاء) التي تسمح للنساء بأن يدخلن بفاعلية إلى ميادين الحياة السياسية والإدارية لأول مرة في تاريخ إيران. تصبح الدكتورة بارساي مديرة مدرسة الكاتبة عضوة في (البرلمان)، وفيما بعد تُعين وزيرة للتربية. وكجزء من المقاومة الدينية المتنامية لـ(الثورة البيضاء)، يحرض آية الله خميني على الاحتجاجات ضد الطبيعة العلمانية لإصلاحات الحكومة. يُسجن خميني بعد نشوب الاحتجاجات، التي أصبحت تُعرف بـ: انتفاضة الخامس من حزيران (يونيو). يُسجن أبو الكاتبة في شهر كانون الأول (ديسمبر) من السنة ذاتها.

١٩٦٤ : قانون الامتيازات الأجنبية يقضي بمنح الجنود الأمريكيين حصانة دبلوماسية داخل الأراضي الإيرانية. يسبب هذا القانون غضباً قومياً، وفيما بعد تتنامى المشاعر المناوئة للحكومة. يُنفى آية الله خميني المسجون إلى تركيا. وفي النهاية يتخذ من العراق، البلد المجاور لإيران، مكاناً لإقامته.

١٩٦٥ : يتعرض رئيس الوزراء حسن علي منصور لعملية إغتيال، وهو في طريقه إلى البرلمان.

١٩٦٧ : يُمرر قانون حماية الأسرة، الذي يمنح حريةً أوسع للنساء، ويكفل لهن مزيداً من التحكم القانوني بأولادهن. محاكمة والد الكاتبة تمتد من أيلول (سبتمبر) حتى تشرين الثاني (نوفمبر) من هذه السنة. يُبرأ من التهم التي لُفقت ضده.

تُعين الدكتورة فروخرو بارساي وزيرةً للتربية. تقضي الدكتور بارساي مسيرتها الوظيفية بالدفاع عن المساواة بين الجنسين في إيران. وبعد نيلها شهادة في الطب، درّست علم الأحياء (البيولوجي) في (مدرسة جان دارك للبنات) في طهران. في سنة ١٩٦٣ تُنتخب الدكتورة بارساي في البرلمان،

وتبدأ بالمطالبة بحق النساء في التصويت، وتشجع التشريع الذي عدّل القوانين المتعلقة بالنساء والأُسر. في سنة ١٩٦٥، تُعين بمنصب وكيل وزير التربية، وفي سنة ١٩٦٨ تصبح أول امرأة تشغل منصباً وزارياً بوصفها وزيرة للتربية. أعدمت الجمهورية الإسلامية فروخرو بارساي سنة ١٩٨٠.

١٩٧١: يُضيف النظام الملكي الإيراني الاحتفالات الباذخة لمناسبة مرور ٢٥٠٠ سنة على تأسيس الإمبراطورية الفارسية على يد قورش العظيم. جرت الاحتفالات الباذخة في برسيبوليس، وخُطط لها مدة عشر سنوات، وكلفت مبلغاً قدره ١٢٠ مليون دولار، لفتت انتباه العالم، وحضرها ملوك عالميون، وشخصيات مرموقة. تعرّضت هذه الاحتفالات إلى انتقاد واسع من قبل الأوساط المحلية والأجنبية.

١٩٧٥: ابتكار نظام الحزب الواحد الذي حمل اسم: حزب راستاخيز (البعث)، وقد أعلن الشاه عن تأسيسه رسمياً. وعلى أية حال، لقيت هذه المحاولة لتوحيد البلاد تحت مظهر حكومة تحظى بمشاركة أكثر استجابةً شعبيةً ضعيفةً. ونتيجة لذلك، أصبحت إيران متحررة أكثر من الناحية الاجتماعية، لكنها في الوقت نفسه أصبحتْ مغلقةً أكثر من الناحية السياسية، وأدى هذا إلى استلاب الطبقة الوسطى.

١٩٧٦: يغيّر الشاه التقويم الشمسي الإيراني من التقويم الإسلامي المستند إلى هجرة النبي محمد من مكة إلى المدينة إلى تقويم آخر استند إلى تأسيس الإمبراطورية الفارسية في سنة ٥٥٨ قبل الميلاد. هذه المحاولة في التأكيد على الماضي الذي سبق العهد الإسلامي جعلت رجال الدين يغضبون على النظام الملكي. تصبح مهناز أفخمي وزيرة شؤون المرأة. يرجع نشاط مهناز أفخمي في ميدان الدفاع عن حقوق المرأة إلى تزعّمها (منظمة النساء الإيرانيات WOI)، سنةَ ١٩٧٠. خلال توليها منصب رئيسة الـ WOI، عملت على تعديل قانون حماية الأسرة. في سنة ١٩٧٦ عُينتْ وزيرة لشؤون

المرأة، وهو منصب شغلته حتى نشوب الثورة الإسلامية سنة ١٩٧٨. وخلال هذه الحقبة الزمنية تحققتْ مكاسب عديدة للنساء والأُسر، ومنها: حق النساء في الحصول على أجر مساوٍ للأجر الذي يتقاضاه الرجال عن العمل نفسه، تحصل الأمهات ذوات الأطفال الصغار على أجر كامل عن العمل نصف ساعات النهار وتوفير مراكز للعناية بالأطفال في مواقع العمل. في سنة ١٩٧٨ طُلب منها أن تشرف على لجنة تراقب التقدم نحو المشاركة الكاملة للنساء انسجاماً مع (المشروع القومي للعمل).

١٩٧٧: الرئيس الأمريكي جيمي كارتر يؤسس مكتب حقوق الإنسان في (قسم الدولة State Department (المكتب الفيدرالي التنفيذي للولايات المتحدة الأمريكية [وهو بمنزلة: وزارة الخارجية - م])، مؤشراً انطلاق موجة احتجاجات طالب فيها المتظاهرون الحكومة الإيرانية بتوفير حقوق الإنسان. ونتيجة لهذا الضغط الجماهيري أُطلق سراح عدد من السجناء السياسيين. يقوم الشاه بزيارة رسمية لأمريكا، وتُواجه زيارته هذه بالاحتجاجات والتظاهرات، وتكون الكاتبة من بين المحتجين.

١٩٧٨: تخلق المعارضة المحلية واسعة النطاق للشاه فوضى عارمة تعمّ البلاد بأسرها، وتؤشر بداية مرحلة الثورة الإسلامية. في آب (أغسطس) يضرم أتباع خميني النار في سينما ريكس بعبادان، ويتسبب هذا الحريق بقتل ٤٣٠ شخصاً. يُلقى اللوم بصورة خاطئة على البوليس السري للشاه (جهاز السافاك SAVAK)، على اعتبار أنه هو المسؤول عن الحريق. المسؤولية التي تقع خطأ على جهاز السافاك كونه هو المسؤول عن الحادثة المروِّعة تُشعل مزيداً من مشاعر الغضب ضد النظام الملكي، وتمهد الطريق لانتفاضة رجال الدين التي ساندها غالبية المثقفين العلمانيين. وفي السنة ذاتها يطرد العراق خميني، فينتقل إلى باريس، وهناك يستمر في لفت الانتباه عالمياً بسبب رسالته الثورية ضد النظام الملكي الحاكم.

١٩٧٩: استجابةً للاحتجاجات المتفاقمة، يغادر الشاه إيران في كانون

الثاني (يناير)، ويعيّن شاهبور بختيار رئيساً للوزراء. على أية حال، في نهاية المطاف يخفق بختيار في إحكام السيطرة على الوضع. يصل خميني إلى طهران في شباط (فبراير)، وتبدأ الثورة الإسلامية جدياً، وتغيّر نظام الحكم في البلد بعد ٢٥٠٠ سنة من النظام الملكي إلى جمهورية إسلامية تحت زعامة آية الله خميني. يُعاد تطبيق قوانين الشريعة الإسلامية، ويُلغى العمل بقانون حماية الأسرة، وتمنع جميع التأثيرات الغربية على البلد. تتأسس الجمهورية الإسلامية في الأول من نيسان (أبريل). يتوارى بختيار عن الأنظار في نيسان (أبريل)، وفي النهاية يتعرض لعملية اغتيال في باريس سنة ١٩٩١. يسيطر الثوريون على (سجن إيفين). يُخرق قانون حماية الامتيازات الأجنبية الذي يكفل الحصانة الدبلوماسية، ويُلقى القبض على دبلوماسيي الولايات المتحدة ويؤخذون كرهائن في تشرين الثاني (نوفمبر). تشعل هذه الواقعة شرارة الغضب العالمي، ولا يُطلق سراح الرهائن إلا في سنة ١٩٨١.

١٩٨٠-١٩٨٨: في أيلول (سبتمبر) تغزو القوات العراقية التي يتزعمها الرئيس صدام حسين جزءاً من غرب إيران في محاولة لإحكام السيطرة على محافظة خوزستان الغنية بالنفط، وتأكيد السيطرة العراقية على كلتا ضفتي قناة شط العرب المائية، الواقعة على الحدود بين البلدين. بعد احتلال قصير الأمد لمدينة خورمشهر (المحمرة)، تُجبر القوات العراقية على الرجوع إلى الحدود بحلول سنة ١٩٨٢، وبعدها تنهمك كلتا الأمتين في الهجمات الجوية والصاروخية المتقطعة على مدن إحداهما الأخرى، وعلى المنشآت العسكرية والنفطية. في سنة ١٩٨٨، بعد ثماني سنوات من الحرب، يوافق العراق على الشروط الإيرانية في وضع حد للحرب: انسحاب القوات العراقية من الأراضي الإيرانية المحتلة، تقسيم السيادة على قناة شط العرب المائية، وتبادل الأسرى.

١٩٨٩: يُتوفى آية ألله خميني بعد سنة من نهاية الحرب الإيرانية - العراقية.

تعريفات

الأخمينيون: هذه الكلمة تشير إلى سلالة فارسية حكمت من سنة ٥٥٠ إلى سنة ٣٣٠ قبل الميلاد، وكانت أولى الإمبراطوريات الفارسية التي سيطرت على أجزاء مهمة من (إيران الأعظم). يُعد العهد الأخميني الذي بدأه قورش العظيم عهداً هادئاً نسبياً في تاريخ الشرق الأوسط، بسبب انصهار ثقافات مختلفة كثيرة تتباعد أطرافها لتشمل ثلاث قارات، وانصهار معتقدات وممارسات دينية متنوعة. كما عُرف الأخمينيون في ظل حكم قورش وداريوس العظيمين بتخطيطهم المتقدم ومهاراتهم التنظيمية، في النواحي الإدارية والعسكرية على السواء، ناهيك عن رؤيتهم العالمية ذات النزعة الإنسانية. امتدت إمبراطوريتهم إلى بلاد اليونان الآسيوية والساحل الفينيقي وفلسطين ومصر. تشهد على حضارتهم آثار برسيبوليس وسوسه.

أديب: كلمة فارسية تعني رجل الآداب، شاعر - عالِم، مُتعلّم. (الكلمة عربية في الأصل - م.)

أمه (عمة): أخت الأب، باللغة الفارسية.

أمو (عمو): العم، باللغة الفارسية.

بهائي: تابع بهاء الله، والعقيدة البهائية: ديانة نشأت في بلاد فارس خلال القرن التاسع عشر، تؤكد على الوحدة الروحية للبشرية جمعاء. تتميز

برأيها أنه عبر التاريخ كله كانت ديانات العالم الرئيسة منهمكة في الحوار المستمر، في حين يؤمن البهائيون أن جميع رُسل السماء الذين حملوا المعتقدات الدينية مترابطون بعضهم مع بعض، ويؤكدون جوهرياً على التطور الجمعي للجنس البشري. كانت هذه الطائفة، وهي فرع من شيعة المسلمين، بؤرة الاضطهاد في الجمهورية الإسلامية، ويرجع السبب الرئيس إلى ادعائهم أن «المهدي المنتظر» يتجسد في شخص بهاء الله. ويُعدُّ هذا هرطقة من وجهة نظر الطائفة الشيعية التقليدية.

بهمن: الشهر الحادي عشر في السنة بحسب التقويم الشمسي الفارسي.

البازاريون: (نسبة إلى البازار: سوق شرقي): فرقة اجتماعية إيرانية تتألف من التجار، والحرفيين المنهمكين في التجارة التقليدية المتصلة بالبازار. كانت هذه الفرقة مرتبطة تاريخياً برجال الدين، بشكل رئيس عبر التزواج بين الأُسر. كان البازاريون المشاركين الرئيسيين في الثورة الإسلامية سنة ١٩٧٩.

الشادور: زي خارجي أو عباءة مفتوحة تلبسها بعض النسوة الإيرانيات في الأمكنة العامة. وهي قطعة قماش بطول قامة المرأة، شبه دائرية، مفتوحة من الأمام. يوضع الشادور على الرأس، وتمسكه المرأة من الأمام بيديها.

أصفهان: عاصمة محافظة أصفهان، وهي ثالث أكبر مدينة إيرانية، تقع ٣٤٠ كم تقريباً جنوب طهران. كانت أصفهان العاصمة التاريخية لإيران طوال مئتي سنة، وتشتهر بعمارتها الإسلامية الجميلة، تكثر فيها الجسور المغطاة، القصور، المساجد، والمنارات. اختارتها منظمة الـ(يونيسكو UNESCO) بوصفها: موقعاً للتراث العالمي.

سجن إيفين: سجن في إيران، اشتهر بسمعته السيئة بسبب ردهة

السجناء السياسيين فيه. زُج في سجن إيفين سجناء سياسيون مشهورون قبل الثورة الإسلامية وبعدها.

هاجي (حجي) آغا: تسمية للرجل (آغا) الذي حج إلى مكة (هجي [حجي]).

همذان: المدينة الرئيسة لمحافظة همذان الإيرانية، شُيدت بين سنتي ٣٠٠٠ و ١١٠٠ قبل الميلاد؛ يُعتقد أنها واحدة من أقدم المدن في إيران والعالم على السواء.

إيراني جفان (نادي إيران الشباب): مجموعة من الناشطين السياسيين تتألف بشكل رئيس من الكتّاب والمثقفين، تأسس سنة ١٩٢١، وكانت رسالته تحويل إيران إلى بلد ديمقراطي. وكانت (*أينده* [المستقبل]) أول وسيلة رسمية لنقل أفكارهم، وهي جريدة ضمّت بيان المجموعة، الذي عبّر عن الحاجة الملحّة إلى «الوحدة القومية» لإيران، التي تستند بشكل رئيس إلى اللغة القومية.

جان: تعبير يدل على التحبب، يعقب اسم الشخص، يعني «عزيزي» أو «عزيزتي». اللفظة العامية من النعت نفسه هي: جوون.

الجيموكراسي (ديمقراطية جيمي): مصطلح يشير إلى مدة حكم الرئيس جيمي كارتر، والتغييرات التي أحدثها في السياسة الخارجية للولايات المتحدة الأمريكية، التي أثرت بصورة مؤكدة في نظرة إيران إلى حقوق الإنسان في داخل البلد وخارجه.

كربلاء: مدينة عراقية، تقع نحو مئة كم إلى الجنوب الغربي من بغداد، يعدّها المسلمون الشيعة واحدةً من أقدس المدن في الإسلام بعد مكة المكرمة، والمدينة المنورة، والقدس، والنجف. وكربلاء هي الموقع الذي دارت فيه المعركة التي استشهد فيها الإمام الحسين، الإمام الثالث

لدى المسلمين الشيعة. يمثل شهر محرّم الذكرى السنوية لهذا اليوم التراجيدي.

خان: لقب يساوي لقب «سيد».

خاندانيها: مطبوع أسبوعي يتضمن تحليلاً سياسياً انتقادياً، تأسس في سنة ١٩٤٠ على يد علي أصغر أميراني. تتكون معظم محتوياته من خلاصات ومنتخبات من المقالات الأجنبية والفارسية إضافةً إلى تعليقات أميراني نفسه، ولذلك لقي هذا المطبوع تجاوباً كبيراً من مثقّفين كثيرين في إيران.

خانوم: لقب يضاهي لقب «سيدة».

مكاتب: غرف صغيرة، رثة، كانت بمثابة مدارس ابتدائية إسلامية، حيث كان الأولاد يُلقنون تلاوة القرآن الكريم، والقراءة، والكتابة، والنحو. عادة ما يكون معلموهم غير مؤهلين تماماً، أو يكونون من رجال الدين ذوي المراتب الدنيا.

ملا: لقب إسلامي يُطلق على رجال الدين المسلمين المحليين أو زعماء المساجد في إيران. ويُمكن أن يكون أيضاً لقباً ازدرائياً يُطلق على رجل الدين المسلم الذي لم ينل تعليماً كافياً، أو ليس له مكانة لائقة في هيكلية رجال الدين.

نوروز: العطلة التقليدية للسنة الجديدة الإيرانية / الفارسية، وتشير إلى اليوم الأول من الربيع، وبداية التقويم الفارسي. يرجع الاحتفال بهذه المناسبة إلى ما قبل مجيء الإسلام، ويبدأ في يوم الاعتدال الربيعي الفلكي، ويصادف عادةً في الحادي والعشرين من آذار (مارس) أو قبله / بعده.

أوميد إيران: مجلة إيرانية ذائعة الصيت في ستينات القرن الماضي.

البهلويون: تشير هذه الكلمة إلى سلالة البهلويين التي حكمت (الأمة

الإمبراطورية في إيران)، بدءاً من تتويج رضا شاه بهلوي في سنة ١٩٢٥ إلى الإطاحة بعرش ابنه محمد رضا بهلوي باندلاع الثورة الإسلامية سنة ١٩٧٩. أجرى رضا بهلوي تغييرات واسعة النطاق في إيران عبر الحداثة والإصلاحات ومركزية الحكومة. واصل محمد رضا شاه سياسات الإصلاح هذه وفي الوقت نفسه بنى جيشاً قوياً، وحافظ على علاقات قوية مع الدول الغربية خلال سنوات الحرب الباردة. يؤشر زوال عهد السلالة البهلوية الحاكمة نهاية التقليد الغابر للنظام الملكي الإيراني. وللمزيد من المعلومات، راجع «لحظات فاصلة من تاريخ إيران خلال القرن العشرين».

باسور: لعبة إيرانية من ألعاب الورق لأربعة لاعبين.

القاجار: تشير هذه الكلمة إلى سلالة القاجار، التي حكمت من سنة ١٧٩٤ إلى سنة ١٩٢٥. ومن أهم الأحداث المهمة التي جرت خلال هذه الحقبة الزمنية هو (الثورة الدستورية)، التي وفرت - في حدود معينة - حريات الصحافة، التعبير عن الرأي، وتأسيس الجمعيات والاتحادات، والتأمين على الحياة والممتلكات، وبذلك وضعت نهاية للعهد القروسطي في بلاد فارس. بعد احتلال بلاد فارس خلال الحرب العالمية الأولى، انقشع حكم السلطان أحمد شاه بوصول شاه جديد هو رضا بهلوي في سنة ١٩٢٥، وأُعلن رسمياً عن انتهاء حكم سلالة القاجار.

سجن القصر: يقع هذا السجن في طهران، ويُعد من أقدم السجون السياسية في إيران، وهو الأول الذي حصل فيه السجناء على ميزاتهم القانونية.

رمضان: طقس ديني يخضع له المسلمون، يقع خلال الشهر التاسع من التقويم الإسلامي القمري، ويُعتقد أنه خلال هذا الشهر تكشف القرآن للملاك جبريل فأعطاه للنبي محمد. خلال شهر رمضان، يمتنع المسلمون المشاركون فيه عن تناول الطعام والشراب من الفجر حتى غروب الشمس،

وهي ممارسة يُقصد منها تعليمهم الصبر والتحمل والتضحية والتواضع. وهو أيضاً وقت يُكثر فيه أداء الصلاة وتبجيل الله كي يغفر لهم (أي المسلمين) ما تقدم لهم من ذنوب، ويرشدهم إلى الطريق القويم في المستقبل.

حزب راستاخيز (البعث): أسس هذا الحزب محمد رضا بهلوي في الثاني من آذار (مارس) ١٩٧٥ باعتباره الحزب السياسي الوحيد وتعيّن على جميع الإيرانيين الانتماء إليه. وكانت هذه محاولة لاسترضاء السكان عبر شكل محدود من المشاركة السياسية. لم يدم نظام الحزب الواحد هذا إلا زمناً قصيراً، حيث انتهى بحلول سنة ١٩٧٨ عندما وجدت الثورة الإسلامية قاعدة جماهيرية لها، واليوم يوجد حزب (راستاخيز) في المنفى باعتباره حزباً ملكياً إيرانياً معارضاً للجمهورية الإسلامية.

الصفويون: سلالة حكمت بلاد فارس منذ مطلع القرن الخامس عشر حتى سنة ١٧٢٢. واعتنق الصفويون خلال هذه الحقبة الزمنية الإسلام الشيعي وجعلوه الدين الرسمي لإمبراطوريتهم، وكانت هذه واحدة من محاولاتهم العديدة في توحيد التنوعات الموجودة في إيران.

سيفيد رود: أحد الجداول الرئيسة من نهر (تاجان)، يمر عبر (غرمسار)، في إيران. كما يشير الاسم إلى منطقة تقع على النهر عينه.

سيبيد سيه: مطبوع إيراني واسع الانتشار خلال منتصف الستينات من القرن العشرين.

الشيخيون: طائفة إسلامية توجد في إيران، يمتد تاريخها من سنة ١٨٢٦ إلى مطلع القرن التاسع عشر، تزعمها الشيخ أحمد العسل. أدخلت الشيخية طرقاً معينة إلى الفكر الشيعي، متحدية بذلك طبيعة السلطة الدينية وفكرة اختفاء الإمام الأخير لدى الشيعة (المهدي المنتظر)، باعتبارها المعتقد الرئيس لدى الشيعة.

الشيعة: ثاني أكبر طائفة دينية في الإسلام، وتختلف عن الطائفة السنية في رفضها تولي الخلفاء الثلاثة السلطة بعد وفاة النبي محمد. يعتقد الشيعة أن أسرة النبي وأسلافه (الذين يُسمون: الأئمة) هم الخلفاء الحقيقيون. أدت هذه التفرقة إلى اختلافات روحية من مثل تبجيل الأئمة كونهم معصومين من الخطأ، وروايات أخرى تتعلق بحياة النبي والتقاليد. الفرع الأكبر من الشيعة هم (الاثنا عشريون) الذين يسيطرون على إيران، ويُنسب إليهم كذلك مفهوم (الغيبة)، الذي يشير إلى اختفاء الشخصية المخلِّصة (المهدي المنتظر)، وهو الإمام الذي يُقال إنه سيعود يوم القيامة كي يملأ الأرض عدلاً وقسطاً.

السنّة: أكبر طائفة دينية في الإسلام. ويعتقد هؤلاء أن الخلفاء الأربعة للمجتمع الإسلامي هم التابعون الصحيحون للنبي محمد، وهم يؤمنون بذلك لأن الله لم يحدد أي زعماء لاحقين للمجتمع الإسلامي، ولذلك فإن إجراء انتخابات أمر ضروري. واستناداً إلى ذلك، يقر المسلمون السنّة أربعة مذاهب رئيسة: المذهب المالكي، المذهب الشافعي، المذهب الحنفي، والمذهب الحنبلي.

حزب تودة: الحزب الشيوعي الإيراني، وكان ذا علاقة وطيدة بالحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي (سابقاً)، تأسس سنة ١٩٤١.

تومان: العملة الإيرانية حتى سنة ١٩٣٢. حلت عملة الريال محل التومان في سنة ١٩٣٢ (بمعدل واحد تومان = عشرة ريالات)، إلا أن الكثير من الإيرانيين ما زالوا يستخدمون تعبير «*تومان*» في تعاملاتهم التجارية اليومية.

زينده روود: أحد الأنهار المهمة جداً للنجد الأوسط في إيران، يقع في أصفهان.

الزورخانة: الجمباز (الجمناستك) الإيراني التقليدي، ذو صلة تاريخية بتدريب «البهلوانيين» (وهم أناس محبون للخير، ويمتازون بالقوة الجسدية والمعنوية). ترافق جلسات التدريب الشعائرية الطبول والتصفيق الإيقاعي المأخوذة من «*الشاهنامه*» التي ألّفها أبو القاسم الفردوسي. هذه الملحمة تعيد وصف القصص الأسطورية للملوك والمحاربين في بلاد فارس إبان العصور الغابرة. ووفق التقاليد السائدة تُمنع النساء من المشاركة في المسابقات الرياضية، وكذلك ممارسة (الزورخانة).

الزرادشتية: الدين التأسيسي للفرس، تستند الزرادشتية إلى فلسفة وتعاليم النبي زرادشت، الذي رأى الكون باعتباره ساحة الصراع العالمي بين الحقيقة والأكاذيب. كانت فلسفته الدينية تعتمد على الفكرة القائلة إن هدف البشرية، شأنها شأن سائر المخلوقات الأخرى، هو الإبقاء على الـ«آشا» (وهي مزيج من الخلق، والوجود، والإرادة الحرة). بالنسبة للجنس البشري، يحدث هذا من خلال المشاركة الفاعلة في الحياة، والتدريب على الأفكار، والكلمات، والأفعال الجيدة. كانت الزرادشتية في وقتٍ من الأوقات العقيدة السائدة لدى السواد الأعظم من الإيرانيين حتى الفتح العربي ومجيء الإسلام، ومنذ ذلك الحين قل عدد الزرادشتيين إلى ما لا يزيد على مئتي ألف شخص في العالم أجمع.

الموافقات الأصولية

أتوجه بالشكر الجزيل للجهات أدناه على موافقتهم إعادة نشر مادة منشورة سابقاً:

مطبعة بيلكناب التابعة لمطبعة جامعة هارفرد: عبارة مقتبسة في مستهل الجزء الثاني من كتابي هذا: «الشذرة النثرية الثانية والعشرون» [المتابعة الحادية والتسعون]، من كتاب: *رسائل إميلي ديكنسن*، تحرير: توماس هـ. جونسون، الصفحة ٩١٥؛ كامبردج، ماسوشوسيتس، مطبعة بيلكناب التابعة لمطبعة جامعة هارفرد، حقوق النشر: ١٩٥٨، ١٩٨٦، حصل عليها رئيس وأعضاء إدارة جامعة هارفرد؛ ١٩١٤، ١٩٢٤، ١٩٣٢، ١٩٤٢، حصلت عليها مارثا ديكنسن بيانجي؛ ١٩٥٢ حصل عليها ألفريد ليتي همبسون؛ ١٩٦٠ حصلت عليها ماري ل. همبسون. أُعيد نشرها بموافقة من الناشرين.

مطبعة بيلكناب التابعة لمطبعة جامعة هارفرد وأمناء كلية أمهيرست: العبارة المقتبسة في مستهل الجزء الثالث هي من كتاب: *قصائد إميلي ديكنسن*، تحرير توماس هـ. جونسون، كامبردج، ماساشوسيتس: مطبعة بيلكناب التابعة لمطبعة جامعة هارفرد، حقوق النشر: ١٩٥١، ١٩٥٥، ١٩٧٩، ١٩٨٣، حصل عليها رئيس وأعضاء

إدارة جامعة هارفرد. أُعيد نشرها بموافقة من الناشرين وأمناء كلية أمهيرست.

دار فارر، وشتراوس وجيرو، LLC: اقتباس من «جزء من كلام»، من كتاب جزء من *الكلام*، تأليف جوزيف برودسكي، حق الترجمة ١٩٨٠، حصلت عليها دار فارر، وشتراوس وجيرو، LLC، أُعيد نشره بموافقة من دار فارر، وشتراوس وجيرو، LLC.

ناشرو ميج Mage Publisher: اقتباسات من فروغ فرخزاد في الصفحتين ١٦٨ - ١٦٩ والصفحتين ١٨١- ١٨٢ من كتابي هذا، هي من كتاب: *امرأة وحيدة: فروغ فرخزاد وأشعارها*، تأليف مايكل س. هيلمان [نُشر في سلسلة إبداعات عالمية، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، تشرين الأول (أكتوبر) ٢٠٠٧ - م.] التعاون الأصلي في النشر بين ناشرو ميج ومطبعة القارات الثلاث، ١٩٨٧. أُعيد نشرها بعد الحصول على الموافقة.

مجيد نفيسي: اقتباسات من مقالة بعنوان «الحب والثورة»، بقلم مجيد نفيسي (/www.iranian.com {http://www.Iranian.com},03/01/2008)، وصية عزت طابيان، وقصيدة «كنز مُعلَّم» من كتاب بعنوان *أحذية ملطخة بالوحل*، تأليف مجيد نفيسي (لوس أنجلس: كتب ما بعد الباروك، ١٩٩٩). أُعيد نشرها بعد الحصول على الموافقة.

شركة *دار نشر ميهريران المحدودة*: صورة الدكتورة بارساي في الصفحة ٦٨ هي من الكتاب المعنون *الوزيرة: فروخرو بارساي، ابنة الحرية: سيرة ذاتية ومذكرات*، تأليف منصورة بيرينيا (نورث بوتوماك، MD: شركة دار نشر ميهريران المحدودة) شركة دار نشر ميهريران

المحدودة هي المالك الوحيد لهذه الصورة. استُخدمت هذه الصورة بعد الحصول على الموافقة.

دار نشر *فايكنج بينجوين (فرع من مجموعة بينجوين [الولايات المتحدة الأمريكية]*: اقتباسات من كتاب *الشاهنامة: الكتاب الفارسي للملوك*، تأليف أبي القاسم الفردوسي، المقدمة بقلم آذر نفيسي، ترجمة ديك ديفس، حقوق النشر: ١٩٧٧، ٢٠٠٠، ٢٠٠٤، حصلت عليه ناشرو ميج Mage. استُخدمت بعد الحصول على موافقة من فايكنغ، بينجوين، وهي فرع من مجموعة بينجوين [الولايات المتحدة الأمريكية].

جريدة ذي *واشنطن بوست*: مقالة بعنوان «رائحة مكيدة بحق شخص بريء»، بقلم ألفريد فريندلي، من جريدة ذي *واشنطن بوست*، السادس من تموز (يوليو)، ١٩٦٦، حق النشر حصلت عليه جريدة ذي *واشنطن بوست*. أُعيد نشرها بعد الحصول على الموافقة.

هذا الكتاب

معظم الرجال يخدعون زوجاتهم كي يكون لهم عشيقات. أما والدي فكان يخدع أمي كي ينعم بحياة أسرية سعيدة. شعرتُ بالأسف عليه، وبمعنىً من المعاني آليتُ على نفسي أن أملأ الفضاءات الخالية في حياته. جمعتُ قصائده الشعرية، أصغيتُ إلى بلاياه، وساعدته كي يختار الهدايا المناسبة، في بادئ الأمر لأمي ومن ثم للنساء اللواتي وقع في غرامهن. وفيما بعد ادعى أن غالبية علاقاته مع تينك النسوة لم تكن جنسية، وأن ما كان يتوق إليه هو الإحساس بالدفء والاستحسان الذي يهبنه إياه. الاستحسان!! علمني والداي كيف يمكن أن تكون تلك الرغبة مميتة.

ISBN 978-9933350031



